المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 19

أحمد أبو زيد

التناسب البياني في القرآن

دراسة في النظم المعنوي والصوتي



التناسب البياني في القرآن

دراسة في النظم المعنوي والصوتي

الكتـــاب : **التناسب البياني في القرآن.**

المؤلـــف : أحمد أبو زيد.

منشورات : كلية الآداب بالرباط.

الغـلاف : إعداد عمر أفا.

الخطـوط : محمد المعلمين.

الحقـوق : محفوظة لكلية الآداب بالرباط بمقتضى ظهير 1970/07/49.

التصفيف : أنسيف الزنايدي ـ الرباط ـ الهاتف : 27.70.66.

الطبـع : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدارالبيضاء.

رقم التصنيف الدولي : 3077 ـ 1113.

رقم الإيداع القانوني : 1992/891.

أحمد أبو زيد

التناسب البياني في القرآن

دراسة في النظم المعنوي والصوتي

1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب أطروحة جامعية نوقشت بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط (جامعة محمد الخامس) بتاريخ 3 دجنبر 1990، ونال بها المؤلف دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها بميزة حسن جدا.

ووفاء بالواجب أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف الدكتور أمجد الطرابلسي حفظه الله، وإلى السيد قيدوم كلية الآداب، الأستاذ عبد الواحد بنداود ـ أكرمه الله بكل خير ـ الذي تفضل بالموافقة على إدراج هذا الكتاب ضمن مطبوعات الكلية وأشكر كذلك كل الإخوة الكرام الذين بذلوا جهودا صادقة في إعداده للطبع.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مقدمة

الحمد لله. نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين.

أما بعد فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء. وكيف لا وهو مفصل على علم الله : «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدىً ورحمة لقوم يومنون.» «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير».

وقد عكف العلماء على هذا القرآن منذ نزوله، تلاوة وتدبرا وتفسيرا. بحثا عن أسراره ومعانيه ودلائل إعجازه وبذلوا في ذلك جهودا متضافرة. وصرف الحظ الأوفر من تلك الجهود إلى تفسيره واستنباط أحكامه. أما بلاغته وإعجازه فلم يحظ إلا بحظ قليل من العناية. مع أن هذا العلم لا يقل أهمية عن العلوم الأخرى، لأن الله تعالى جعل القرآن الكريم وإعجازه دليلا على نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وحتى ذلك الحظ القليل من العناية التي وجهت لدراسة إعجاز القرآن تأثر تأثرا سيئا بالخصومات والخلافات الكلامية.

والناظر في تاريخ إعجاز القرآن يلحظ أن البحث فيه سار في اتجاهين اثنين :

ـ الاتجاه الأول ينتصر للألفاظ، ويعنى بصياغتها وحسن اختيارها. اعتقادا منه أن بلاغة القرآن تكمن في هذا الجانب، ونصرة لمذهبه، ويمثل هذا الاتجاه علماء المعتزلة.

ـ والاتجاه الثاني : ينتصر للمعاني، ويعنى بمعاني التراكيب وخصائصها وبأحوال الإسناد التي تختلف تبعا لمقتضيات الأحوال ويرى أن ترتيب المعاني في النطق ما هو إلا صورة لترتيب المعاني في النفس، ويمثل هذا الاتجاه علماء الأشاعرة.

نشأ البحث في إعجاز القرآن وترعرع في جو الخلاف والخصومة العنيفة حول قضية اللفظ والمعنى. فغلبت عليه النظرة الجزئية أو التجزيئية. فالفريق الأول يرفع من قيمة الألفاظ ويقلل من قيمة المعاني، والفريق الثاني يفعل عكس ذلك. كانت هذه النظرة التجزيئية سببا في إغفال جانب هام من بلاغة القرآن الكريم هو وحدة البناء الذي يجعل السورة من القرآن بنية محكمة متناسبة المعاني والمباني والمطالع والمقاطع.

والإشارات النادرة التي تصادف الباحث في بعض مصادر علوم القرآن والتفسير. من أمثال كلمة فخر الدين الرازي رحمه الله، وهي أن «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط». وكلمة ابن العربي رحمه الله وهي : «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم».

هذه الإشارات التي تنبه على جانب هام من بلاغة القرآن لم يلتفت إليها العلماء والدارسون بالقدر اللازم من العناية.

أجل، عني بعض المفسرين بالمناسبات المعنوية بين الآيات. لكن النظرة الجزئية التي سيطرت على بحوث الاعجاز سيطرت على هؤلاء أيضا، فاقتصروا على طلب المناسبات المعنوية بين كل آية وما قبلها وما بعدها وغفلوا عن التماس الخيوط اللطيفة التي تربط بين أجزاء السورة كلها، وتجعل منها وحدة ملتحمة البناء.

وقد ظهر لي، بعد مواصلة البحث في جهود علماء الإعجاز القرآني زمنا يقارب العشرين سنة أن هناك حاجة إلى دراسة تحاول، قدر المستطاع، بيان هذا الوجه الهام من بلاغة النظم القرآني.

وهذه الدراسة هي محاولة متواضعة لمتابعة ما أشار إليه العلماء من ارتباط آيات القرآن واتساق معانيه وانتظام مبانيه وتعميق البحث في ذلك لإبراز ما بالإمكان من تلك الخصائص البيانية.

وآثرت أن يكون عنوانها : «التناسب البياني في القرآن : دراسة في النظم المعنوي والصوتي».

وذلك أولا : لأن مصطلح التناسب مصطلح بلاغي يحمل الدلالة على حسن العلاقة القائمة بين الأجزاء والعناصر التي يتألف منها المقطع من الكلام، أو السورة من القرآن.

وثانيا : لأن الدراسة تتناول أوجه التناسب المعنوي واللفظي والصوتي في البيان القرآني بطريقة تجمع بين النظرية والتطبيق.

والمنطلق الذي ارتكزت عليه هو أن القرآن كلام الله الذي بيده ملكوت كل شيء، وكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. آياته وسوره ومعانيه ومبانيه منظومة على وجه متناسب متآلف.

ومفتاح هذه الدراسة هو قوله تعالى «الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء».

فقوله تعالى: «كتابا متشابها مثاني» يشير إلى وجه هام من أوجه بلاغة النظم القرآني. فالتشابه هو ذكر الشيء مع نظيره. والمثاني ـ على أصح أقوال العلماء ـ هو ذكر الشيء ومقابله. فالقرآن مثاني من وجه ومتشابه من وجه آخر.

وقد أفادني هذا المفتاح في دراسة أوجه التناسب المعنوي في البيان القرآني فأوضحت كيف تنتظم فيه المعاني المتوافقة المتشابهة. وكيف تنتظم المعاني المتقابلة. كما بينت كيف تراعي وحدة السورة وروحها وجوها الخاص في ايراد المعاني وانتقاء المباني. وكيف تأتي الكلمة المفردة بمعناها ومبناها متمكنة في موقعها لا يسد فيه غيرها مسدها.

ثم إن وصف القرآن بكونه «أحسن الحديث»، يشير إلى أن بلاغته لا تنحصر في تناسب معانيه، بل تشمل كذلك المباني والألفاظ وترتيب الأصوات فهو حديث يروق الأسماع ويبعث اللذة في النفوس وعلة ذلك تكمن في تناسب ألفاظه ومبانيه ومقاطعه وأصواته.

إن التناسب في البيان القرآني موضوع دقيق وجليل في آن واحد. دقيق لأنه يبحث ويتناول وجها لطيفا من أوجه بلاغة القرآن، وجليل لأنه متشعب يستلزم معرفة واسعة باللغة العربية وخصائصها المعجمية والصرفية والصوتية والتركيبية، وهذه معرفة تقتضي جمع علوم اللغة كلها وفقهها.

كما يستلزم معرفة واسعة بالقرآن وعلومه وبلاغته وخصائص أسلوبه، ويستلزم بالإضافة إلى كل ذلك قدرة كبيرة على التدبر والتذوق والتحليل.

لكن أهم الصعوبات هي تلك التي تكمن في طبيعة هذه الدراسة، فهي ليست دراسة منحصرة في علم واحد من علوم القرآن، ولا في جانب واحد من بلاغته بل هي دراسة تركيبية تقوم على التقاط ثمرات علوم كثيرة وتسخيرها في تدبر خصائص البيان القرآني، فهي لذلك دراسة تجمع بين التأصيل والتطبيق.

وقد يسر الله لي تجاوز هذه الصعوبات المنهجية حينما آهتديت إلى تصنيف أوجه التناسب في البيان القرآني في ثلاثة أوجه كبرى هي : التناسب المعنوي، والتناسب اللفظي والتناسب الصوتي الإيقاعي.

ثم ظهر لي بعد هذا التصور العام أن هذه الدراسة في حاجة إلى تمهيد يوضح قيمة مبدأ التناسب في البيان عموما وفي البيان القرآني بوجه خاص، ويعرض جهد الباحثين والدارسين السابقين في موضوع التناسب في القرآن الكريم.

وبهذا التأمت مباحث هذه الدراسة في تمهيد وقسمين كبيرين.

أما التمهيد فقد أشرت إلى مضمونه.

وأما القسمان الكبيران فأولهما يتعلق بالبحث في أهم أوجه التناسب المعنوي.

وأما ثانيهما فيتعلق بالبحث في مظاهر التناسب اللفظي والصوتي والإيقاعي في البيان القرآني.

أوضحت في القسم الأول كيف تنتظم المعاني المتوافقة والمعاني المتقابلة. ثم أوضحت كيف تراعي وحدة النسق المعنوي باختيار ما يناسبه من الألفاظ المفردة والتراكيب أو الأساليب القرآنية.

واشتمل القسم الثاني على أهم مظاهر التناسب اللفظي والصوتي والإيقاعي في البيان القرآني. ونظرا لارتباط هذا اللون من التناسب بالخصائص الصوتية والتركيبية للغة العربية، فقد مهدت للحديث عنه بإيضاح حظ اللغة العربية من الجمال الصوتي والإيقاعي. ثم قدمت دراسة مفصلة لأساليب المشاكلة والمجانسة والمجاورة والإتباع باعتبار أنها أهم مظاهر التناسب اللفظي في القرآن. ثم أوضحت كيف تتناسب الأصوات والمقاطع الصوتية في نظم الآيات القرآنية. ثم ختمت بإيضاح ما في تقسيم الآيات ومراعاة تشابه الفواصل من مظاهر التناسب.

هذا محتوى الدراسة بإيجاز، وقد حاولت أن أزاوج فيها بين المنهج السردي النظري والمنهج التحليلي الاستقرائي.

أما المنهج الأول فقد اعتمدته في بيان قيمة كل وجه من أوجه التناسب القرآني وعرض آراء العلماء فيه ومناقشتها. وأما المنهج الثاني فقد اعتمدته في دراسة أوجه التناسب القرآني وفي تحليل الأمثلة والنماذج التي عرضتها.

وقد واجهتني صعوبة كبيرة في إنجاز الدراسة الاستقرائية لأوجه التناسب في القرآن الكريم، وترجع هذه الصعوبة إلى كثرة الأمثلة الجزئية في كل وجه من أوجه التناسب القرآني. ولما رأيت أن تقديم جميع تلك الأمثلة يزيد في طول الدراسة وتضخمها آثرت أن أقدم نتائج

العملية الاستقرائية بإجمال في مستهل كل فصل. وأن أعرض بعد ذلك جملة من تلك الأمثلة. ثم أختم الفصل بتقديم الاستنتاجات التي تستخلص من دراسة ذلك الوجه من التناسب القرآني.

هذا ولا أدعي أنني وفيت هذا الوجه من بلاغة البيان القرآني حقه من الدرس والتحليل، لأن ما خص الله تعالى به كتابه المبين من الكمال في حسن البيان يجعل كل من يحاول دراسة وجه من بلاغته يخرج من محاولته بالإحساس بالتقصير والعجز عن الإحاطة بأسرار ذلك الوجه. «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء».

وإذا كنت قد قصرت في الوفاء بما يليق بالكمال والجلال الذي يختص به كلام الله فعذري أنني أخلصت النية. وبذلت ما أمكن مثلي من الجهد. وما كان من حسنة فمن الله، وما كان من سيئة فمن نفسي.

وإذا كان من تمام الواجب شكر ذوي الفضل، فإنني أتقدم بأخلص الشكر لأستاذي الجليل الدكتور أمجد الطرابلسي على ما بذله من جهود مخلصة وتضحيات صادقة في سبيل تقويم هذا البحث، وما قدم لي من توجيهات كان لها الفضل في تسديد خطواتي على طريق البحث العلمي الشاق. فالله تبارك وتعالى أسأل أن يجازيه عني وعن العلم جزاء العلماء العاملين. وأن يحفظه ويرعاه إنه تعالى ولي الصالحين.

تمهيد

أولا ـ التناسب قانون كوني

في مستهل حديثنا عن التناسب وقيمته الجمالية والبيانية يحسن بنا أن نلم إلماما موجزا بقيمته في الوجود وفي نظام الكون.

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى دلائل قدرة الله وحكمته وعظمته في خلق الكون، وفي تدبير حياة الكائنات، وإحكام نظام الكون وسيره وحركاته.

قال تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ. ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً، مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ. وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ (سورة الملك : 1 ـ 5).

وقال : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ. عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ. خَلَقَ ٱلإِنسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ. ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ﴾ (سورة الرحمان : 1 ـ 7).

وقال : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ. وَٱلأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ، وَمَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (سورة الحجر : 16 ـ 22).

وقال : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ. وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ. وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ.

﴿لاَ ٱلشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَنْ تُدرِكَ ٱلْقَمَرَ ولاَ اللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارَ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة يس : 37 — 40).

وفي القرآن آيات أخرى تشير إلى ذلك النظام البديع، والحساب الدقيق في كل ما خلق الله.

وأدرك الحكماء منذ القديم جوانب من أسرار التناسب في نظام العالم، وبينوا أن عناصره ما كان لها أن تأتلف وتمتزج لولا تناسبها. قالوا : «الأركان أربعة : النار، والهواء، والماء، والأرض..»

وقالوا : «واعلم أن هذه الأركان متفاوتات القوى، متضادات الطبائع، مختلفات الصور، متباينات الأماكن، متعاديات متنافرات، لا تجتمع إلا بتأليف المؤلف لها، والتأليف متى لا يكون على النسبة لم يمْتزج ولم يتحد ... وبالجملة إن كل مصنوع من أشياء متضادة الطبائع، ومتعادية القوى مختلفة الأشكال، فإن أحكمها وأتقنها ما كان تركيب أجزائه، وتأليف أعضائه على النسبة الأفضل»[1].

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له. ووصل في إدراك التناسب بين أبعاد النجوم والكواكب، وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض، إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد، لأن التناسب يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها. فوجودها في تلك المواضع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها. ثم يتحقق هذا الذي فرضوه.

ووصل في إدراك التناسب في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أي اختلال في أي نسبة من نسبها يؤدي بهذه الحياة كلها، أو لا يسمح أصلا بقيامها. فحجم الأرض وكتلتها، وبعدها عن الشمس، ودرجة حرارتها، وميل الأرض على محورها، بهذا القدر .. وسرعتها في دورتها حول نفسها، وحول الشمس، وبعد القمر عن الأرض، وحجمه وكتلته، وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض.. إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديرا. لو وقع الاختلال في أي منها لتبدل كل شيء، ولكانت هي النهاية.

ووصل العلم في إدراك قيمة التناسب بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة، وتنسق بين الأحياء، والظروف المحيطة بها، وبين بعضها وبعض إلى الحد الذي يكفي لإعطاء فكرة واضحة عن قيمة هذا المبدأ في الوجود.

---

(1) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ط. دار صادر، بيروت، 1957، ج1، 252—255.

ثانيا ـ التناسب عند الأدباء والبلاغيين وعلماء الإعجاز

التناسب أساس من أسس جمال التعبير اللغوي، وإذا وقع موقعه اللازم، ولم يكن غاية مقصودة، بل جاء عفوا، ولم يكن له تأثير سلبي على المعاني، زاد من جمال التعبير وبلاغته.

وعرف فن القول في البيان العربي، آحتفالا كبيرا بمبدأ التناسب، فكان الازدواج، وتعادل الفقرات، وتناسب الألفاظ، والسجع، وغير ذلك من صور التوازن ظاهرة بارزة فيه نظما ونثرا.

وظهر الوعي بقيمة هذا المبدأ، وأثره في بلاغة الكلام لدى الأدباء والبلاغيين وعلماء الإعجاز، وسنحاول أن نعرض في هذا الفصل من آراء كل فريق من هؤلاء ما يكفي لإبراز قيمة التناسب في فن القول.

1 ـ عند الأدباء

كان الأدباء ونقاد الشعر يدركون ما للتناسب المعنوي واللفظي من قيمة كبيرة في سلامة الشعر من الخلل، وفي زيادة حظه من الجمال، لذلك عابوا على بعض الشعراء ما ظهر في بعض أشعارهم من الإخلال بهذا المبدإ، والجمع بين أشياء غير متناسبة. من ذلك، مثلا، ما أنكره نصيب[2] على الكميت[3] حين جمع بين الدل والشنب في قوله :

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِٱلْعَلْيَاءِ رَافِعَةٌ   وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبُ

إذ قال له : أين الدل من الشنب ؟! إنما يكون الدل مع الغنج ونحوه، والشنب مع اللعس، أو ما جرى مجراه من أوصاف الثغر والفم»[4].

ومن ذلك ما عيب على طرفة، لأنه لم يوضع فيه الشيء مع لفقه، وهو قوله :

وَلَسْتُ بِحَلاَّلِ ٱلتِّلاَعِ مَخَافَةً   وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ ٱلْقَوْمُ أَرْفِدِ

قيل : إن المصراع الثاني غير مشاكل للمصراع الأول، وإن كان المعنى صحيحا، لأنه أراد : ولست بحلال التلاع مخافة السؤال، ولكن أنزل الأمكنة المرتفعة لينتابوني فأرفدهم، وهذا وجه الكلام، فلم يعبر عنه تعبيرا صحيحا ولكنه خلطه وحذف منه كثيرا فصار كالمتنافر[5].

---

(2) هو نصيب بن رباح، مولى عبد العزيز بن مروان : شاعر فحل. كان عبدا أسود من سكان البادية، أنشد أبياتا بين يدي عبد العزيز بن مروان فاشتراه وأعتقه. توفي 108 هـ. الأعلام : 335/8.

(3) هو الكميت بن زيد الأسدي، شاعر الهاشميين في العصر الأموي. أشهر شعره «الهاشميات». توفي سنة 126 هـ. الأعلام : 92/6 ـ 93.

(4) سر الفصاحة، الأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982، ص : 201.

(5) الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، ط. 2، 1971، ص : 149.

ومن ذلك أنهم عابوا على الأعشى قوله :

وَإِنَّ آمْرَأً أَسْرَى إِلَيْكِ وَدُونَهُ   سُهُوبٌ وَمَوْمَاةٌ وَبَيْدَاءُ سَمْلَقُ
لَمَحْقُوقَةٌ أَنْ تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ   وَأَنْ تَعْلَمِي أَنَّ آلْمُعَانَ مُوَفَّقُ

لأن قوله : «وأن تعلمي أن المعان موفق» غير مشاكل لما قبله.

كما عابوا على السموأل قوله :

فَنَحْنُ كَمَاءِ آلْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا   كَهَامٌ وَلاَ فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ

فقالوا : «ليس قوله : «ما في نصابنا كهام» من قوله : «فنحن كماء المزن» في شيء، إذ ليس بين ماء المزن والنصاب والكهوم مقاربة. ولو قال : ونحن ليوث الحرب، أو أولوا الصرامة والنجدة، ما في نصابنا كهام لكان الكلام متساويا، أو نحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل كف لكان جيدا»[6].

وعابوا قول آبن هرمة :

وَإِنِّي وَتَرْكِي نَدَى آلْأَكْرَمِينَ   وَقَدْحِي بِكَفِّي زَنْداً شَحَاحاً
كَتَارِكَةٍ بَيْضَهَا فِي آلْعَرَاءِ   وَمُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحاً

لأن المثل الذي ضربه في البيت الثاني غير مناسب لمعنى البيت الأول.

وقالوا مثل هذا في قول الفرزدق :

وَإِنَّكَ إِذْ تَهْجُو تَمِيماً وَتَرْتَشِي   سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سُحُوقَ آلْعَمَائِمِ
كَمُهْرِيقِ مَاءٍ بِآلْفَلاَةِ وَغَرَّهُ   سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِيَاحُ آلسَّمَائِمِ

وقالوا : كان ينبغي أن يكون البيت الثاني من قول آبن هرمة مع البيت الأول من قول الفرزدق. وأن يكون البيت الثاني من قول الفرزدق مع البيت الأول من قول ابن هرمة[7].

قال حازم القرطاجني : فإن معنى بيت الفرزدق الثاني مناسب لمعنى بيت ابن هرمة الأول، ومعنى بيت ابن هرمة الثاني مناسب لمعنى بيت الفرزدق الأول[8].

ومن هذا الباب ما روي أن أبا الطيب أنشد سيف الدولة قصيدته التي أولها : «عَلَى قَدْرِ أَهْلِ آلْعَزْمِ تَأْتِي آلْعَزَائِمُ» فلما انتهى إلى قوله :

---

(6) الصناعتين، ص : 149.
(7) نفسه، ص : 151.
(8) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط. 3، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص : 158.

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ   كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً   وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

قال له سيف الدولة : فقد نقدنا عليك يا أبا الطيب ما نقدناه على امرىء القيس في قوله :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ   وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ   لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقال له المتنبي : «يا أيها الأمير، إن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك، وإذا صح النقد على امرىء القيس صح علي. وإنما أراد امرؤ القيس أن يقرن ركوب اللذة بركوب اللذة في بيت، وأن يجمع بين الشجاعة والكرم في بيت، فاستحسن سيف الدولة ما قاله ووصله.

والنقد الذي أشار إليه سيف الدولة في بيتي المتنبي، وبيتي امرىء القيس هو أن صدر البيت الأول من قول امرىء القيس يقتضي ظاهر الكلام أن يوصل بعجز البيت الثاني، ويوصل صدر البيت الثاني بعجز الأول. وقل مثل ذلك في بيتي المتنبي[9].

وقيل إن الذي انتقد المتنبي في هذين البيتين هو رجل بغدادي كان يعرف بالمنتخب. فالتبس الأمر بين يدي سيف الدولة، وسلموا له، وخجل المتنبي ووجم، وأدخل رأسه تحت ثوبه وأخذ يفكر في الجواب حتى عثر عليه، فأخرج رأسه من تحت الثوب، وقال للمنتقد : الله أصدق منك حين يقول : ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى. وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[10]. فأتى بالجوع مع العري، وأتى بالظمأ مع الضحو. فقال سيف الدولة : الله أكبر، هذه والله الحجة البالغة، صدق الله، وهو أصدق القائلين[11].

وكان الذوق الأدبي في عصور ازدهار البيان العربي يميل إلى إيثار الكلام المتناسب الذي تتناسب ألفاظه وتتعادل فقراته، وقد أشار ابن سنان الخفاجي إلى غلبة هذا الذوق، وجعل التناسب من أسس فصاحة الكلام، جاء ذلك في ثنايا حديثه عن السجع. قال : «ومن الكتاب المحدثين من كان يستعمل السجع كثيرا، ولا يكاد يخل به .. ومنهم من كان يكرهه ويتجنبه». وعرض قائمة بأسماء هؤلاء ثم قال : «لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في اليسير من المواضع...»

---

(9) منهاج البلغاء، ص : 159—160.
(10) سورة طه : 118—119
(11) المنزع البديع في أساليب البديع، أبو محمد السجلماسي، تحقيق علال الغازي، ط. 1، مكتبة المعارف، الرباط، 1980، ص : 522—523.

وانطلاقا من هذا الذوق السائد، انتقد ابن سنان بعض الكتاب لإخلالهم بالتناسب بين ألفاظهم. أورد قطعة من رسالة لأحدهم يقول فيها : «وقد عرفت القدر فيما تراخى من كتبك، وأبطأ من برك، ورجعت فيما آتفق من حال الجفاء في هذه الوهلة إلى ما عرفت صحته من العهد، وخلوصه من الود، فلم أجد لسوء الظن مساغا، ولا لظاهر الإعراض قبولا، لأنك الأخ المبلوة أخباره، المتكافئة في الجميل أفعاله، غير أن النفس تستوحش لما تنكر، من حيث عرفت، وتذم من حيث حمدت، ويتضاعف عليها الأسف للجفاء إذا وقع من معدن البر، والارتياب إذا كان رديفا للثقة، وأرجو أن أكون مِنْ تَلَوُّنِ الزمان فيك على أمن، ومن وفائه بعد مودتك على أقوى أمل»[12]. عقب ابن سنان على هذه القطعة بقوله : «فإن في هذا الكلام تركا للمناسبة بين الألفاظ، لأن «قبولا» ليس على وزن «مساغ» و«تستوحش» ليس بإزائها كلمة، لأنه كان ينبغي أن يقال : تستوحش لما تستنكر .. أو غير «تستنكر» من الألفاظ التي تكون مناسبة لتستوحش. وكذلك «البر» لا يناسب «الثقة» في الصيغة، و«أمن» ليس على وزن «أمل». وهذا ليس بعيب فاحش وإنما هو ترك للأفضل والأولى من اعتماد المناسبة[13].

وأورد قطعة أخرى لأحد الكتاب، واستحسنها لما فيها من تناسب بين الألفاظ، قال : «وكتب بعضهم : إذا كنتَ لا تؤتى من نقص كرم، وكنتُ لا أوتى من ضعف سبب، فكيف أخاف منك خيبة أمل، أو عدولا عن اغتفارِ زلل، أو فتورا عن لم شعث وإصلاح خلل». وأوضح أن الكاتب ناسب فيها بين «نقص»، و«ضعف»، و«كرم»، و«سبب»، و«عدول» و«فتور» بالصيغ[14].

وأورد فقرات من كلام النبي ﷺ الذي التزم فيه المناسبة بين الألفاظ كقوله : «خَيْرُ ٱلْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَة، ومُهْرَةٌ مَأْمُورَة»[15]. فقال ﷺ : مأمورة، لأجل المناسبة، والمستعمل مُؤْمَرَةٌ أي كثيرة النتاج.

وكقوله من دعاء كان ﷺ يعوذ به الحسن والحسين : «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»[16]، ولم يقل ملمة، لأجل المناسبة.

وكذلك قوله ﷺ في بعض الحديث : «ترجعن مأزورات غير مأجورات»، لأن مأزورات من الوزر، والمستعمل موزورات، فجاء به هكذا لأجل المناسبة[17].

---

(12) سر الفصاحة، ص : 175—176.
(13) نفسه، ص : 175—176.
(14) نفسه، ص : 170.
(15) أخرجه الإمام أحمد. والسكة : الطريق المصطفة من النخل.
(16) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ومسلم في كتاب الذكر.
(17) بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، ط. 2، دار نهضة مصر، ص : 150. والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ص : 89.

وكان الشعراء يشعرون بأثر التناسب بين الألفاظ في زيادة محاسن الشعر فعمدوا إلى ترصيع أشعارهم به ما واتتهم القدرة.

حكى أبو الفتح ابن جني أنه قرأ على أبي الطيب المتنبي قوله :

وَقَدْ صَارَتْ ٱلْأَجْفَانُ قَرْحاً مِنَ ٱلْبُكَا   وصَارَ بَهَاراً فِي ٱلْخُدُودِ ٱلشَّقَائِقُ

فقلتُ : قرحى. فقال : إنما قلت، قرحا، لأن قلت بهارا[18]

والمتنبي يتحدث في هذا البيت عن الفراق وما يحدثه من أثر، وما يخلفه من حرق في النفس، فهذا الفراق حرق جفونه من البكاء، وأحال ما في الخدود من حمرة تشبه حمرة الشقائق إلى صفرة فيها تشبه صفرة البهار، وقد وصف الأجفان بأنها صارت «قرحا». و«قريح» تجمع على «قرحى»، مثل جريح وجرحى، وصريع وصرعى. غير أن الشاعر عدل عن صيغة الجمع القياسية عن وعي كامل، ورد على آبن جني بأنه فعل ذلك مراعاة للتناسب بين «قرحا» و«بهارا».

ومن هذا القبيل قول القلاح بن حباب :

هَنَّـاكَ أَخْبِيَـةٍ وَلَاَّجُ أَبْوِبَـــةٍ   يَخْلِطُ بِٱلْجِدِّ مِنْهُ ٱلْبِرَّ وَٱللِّينَا

فجمع كلمة «باب» على أبوبة حفاظا على التناسب بينها وبين «أخبية».

ومن مراعاة التناسب بين الألفاظ قول أبي تمام :

مَهَا ٱلْوَحْشِ إِلاَّ أَنَّ هَاتِيكَ أَوَانِسُ   قَنَا ٱلْخَطِّ إِلاَّ أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

فناسب بين «مها» و«قنا»، و«الوحش» و«الخط» و«أوانس» و«ذوابل».

ومنه قول البحتري :

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً   وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَباً

فناسب بين «أقدم» و«أحجم»، و«مطعما» و«مهربا»، و«عنك» و«فيك». وأمثلة هذا أكثر من أن تحصى.

وجاء في وصية أبي تمام للبحتري : «وإياك أن تشين شعرك بالعبارة الزرية والألفاظ الوحشية، وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام»[19].

يتضح من هذا العرض السريع أن الأدباء كانوا على وعي تام بقيمة التناسب بوجهيه : اللفظي والمعنوي، في التعبير الأدبي، ولهذا كان الذوق الأدبي في عصور آزدهار البيان العربي يميل

---

(18) سر الفصاحة، ص : 170.

(19) تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق حفني محمد شرف، ط. القاهرة 1963، 441/2.

إلى إيثار الكلام الذي يراعي في تأليفه التناسب بين الألفاظ، ويفضله على الذي لا يراعى فيه، وإن كان فصيحا.

وفطن الشعراء أيضا إلى قيمته وتأثيره في زيادة حظ الشعر من الجودة، فحرصوا على تزيين أشعارهم بزينته، ولو أدى بهم طلبه إلى ارتكاب ما يخالف القياس اللغوي.

وجعل النقاد التناسب بين المعاني مقياسا من مقاييس النقد، فحكموا برداءة كل شعر جمع فيه صاحبه بين المعاني المتباعدة أو الأشياء غير المتناسبة.

2 ـ عند علماء البيان

عرف البيانيون بدورهم قيمة مبدأ التناسب في حسن البيان، فجعلوه من شروط فصاحة الكلام، وقواعد بلاغته، غير أن تصورهم لمفهومه وحقيقته وحدوده مختلف.

فمال فريق منهم إلى جعله مبدأ بيانيا كبيرا، يشمل العديد من أساليب البيان، والكثير من فنون الصياغة اللفظية، ونظم المعاني. ومال فريق آخر إلى تضييق مفهومه وحصر حقيقته في نوع واحد من أنواع البديع يتعلق بتناسب مقاطع الكلام المزدوج، وسنعرض في هذه الفقرة آراء كل من الفريقين في قيمة التناسب باعتباره من شروط الفصاحة وقواعد البيان. ولكن يحسن بنا قبل ذلك، أن نقدم لمحة عن مكانة فكرة التناسب بين القواعد والنصائح التي وضعها أوائل البيانيين.

تصادفنا فكرة التناسب عند استعراض آراء رواد علم البيان كبشر بن المعتمر والجاحظ وقدامة بن جعفر، غير أن هؤلاء لم يستعملوا مصطلح «التناسب»، لكنهم استعملوا مصطلحات أخرى مقاربة له، كالموازنة، والمشاكلة والتلاؤم والتوافق، والتشابه، والائتلاف..

عرض بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة بعض النصائح العامة في صناعة البيان، من ضمنها نصائح تتعلق بوجوب مراعاة التناسب بين المعاني وأقدار المستمعين، ومن ذلك قوله : «ينبغي للمتكلم أن يعرف مقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين»[20].

ونصح أيضا بوجوب مراعاة التناسب بين المعاني والألفاظ فقال : «ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف»[21].

وتحدث الجاحظ عن قيمة التناسب في البيان وبين ما له من تأثير في جودة الكلام، تحت مصطلحات متعددة، لكنها متقاربة فيما بينها كالمشاكلة والمماثلة والتشابه والموافقة...

---

(20) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط. 4، بيروت 1948، 1/136ـ139.

(21) نفسه، 1/136ـ139.

أوضح قيمة «المشاكلة» بين الألفاظ والمعاني فقال : «ومتى شاكل ــ أبقاك ــ ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقا ولذلك القدر لفقا، وخرج من سماجة الإستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع»[22].

وتحدث عن تناسب الألفاظ وتأثير المحافظة عليه في زيادة حظ الشعر من الجودة، وتأثير الإخلال به في سقوط قيمته. قال : «إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة»[23].

وفيما يتعلق بتناسب المعاني أورد الجاحظ قول بعض الشعراء لصاحبه : «أنا أشعر منك، قال : ولم ؟ قال : لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وآبن عمه». وعقب الجاحظ على ذلك بقوله : «وجعل البيت أخا البيت إذا أشبهه، وكان حقه أن يوضع إلى جنبه»[24].

وأورد قول النبي ﷺ : «نعمت العمة لكم النخلة». وأوضح أنه عليه السلام سمى النخلة «عمة» حين كان بينها وبين الناس تشابه وتشاكل ونسب من وجوه»[25].

وتحدث أبو هلال العسكري عن بعض أوجه التناسب وقيمتها البيانية فقال : «وتخير الألفاظ وإبدال بعض من بعض يوجب التئام الكلام وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته ... وإن آتفق له أن يكون موقعه من الإيجاز والإطناب أليق بموقعه، وأحق بالمقام والحال كان جامعا للحسن، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره كان قد جمع نهاية الحسن».

ثم وجه إلى طلاب البيان نصيحة بالمحافظة على تناسب أجزاء الكلام، فقال : «وينبغي أن تجعل كلامه مشتبها أوله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام»[26].

وتحدث عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك فقال : «وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا .. وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها .. وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها»[27].

---

(22) البيان والتبيين، 2/7—8.

(23) نفسه، 1/66—67.

(24) نفسه، 1/228.

(25) نفسه، 1/230.

(26) الصناعتين، ص : 147—148.

(27) نفسه، ص : 167.

وتحدث عن وجه آخر من التناسب في باب السجع والازدواج، فأشار إلى أن منثور الكلام لا يحسن ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، وقال : «ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات.. وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام»(28).

وتحدث عن أوجه أخرى من التناسب اللفظي والمعنوي، وشرح قيمتها البيانية في ثنايا أبواب البديع، وسيأتي تفصيل ذلك في باب لاحق.

ونبه قدامة بن جعفر إلى بعض أوجه التناسب ضمن حديثه عن نعوت الوزن، ونعوت المعاني. ذكر من نعوت الوزن «الترصيع»، وساق أمثلة كثيرة ثم قال : «وإنما يذهبون في هذا الباب إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضا، فإنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله ﷺ وقد كان يتوخى فيه مثل ذلك»(29).

وكان يؤثر مصطلح «الائتلاف»، فذكر ضمن أنواع نعوت الشعر : ائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف اللفظ والوزن، وائتلاف المعنى والوزن، وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت. وجعل كل ذلك من محاسن الشعر(30).

كانت هذه فكرة وجيزة عن تصور رواد علم البيان لمبدأ التناسب، ووعيهم بقيمته البيانية. ونعود بعدها إلى ما كنا أشرنا إليه في بداية هذه الفقرة، وهو أن علماء البيان اختلفوا، فيما بعد، في تصور مفهوم التناسب، وأن بعضهم جعل منه مبدأ بيانيا كبيرا، وبعضهم الآخر حصر مفهومه في مجال محدود.

ـ أصحاب الرأي الأول :

يأتي في مقدمة أصحاب هذا الرأي ابن سنان الخفاجي فقد جعل التناسب بوجهيه اللفظي والمعنوي من شروط فصاحة الكلام وأسرارها.

تناول هذا الشرط بتوسع وأكد قيمته في فصاحة الكلام، وقال في مقدمة الحديث عنه : «ومن شروط الفصاحة المناسبة بين اللفظين وهي على ضربين : مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة، ومناسبة بينهما من طريق المعنى. وأما المناسبة بينهما من طريق الصيغة فلها تأثير في الفصاحة»(31).

---

(28) الصناعتين، ص : 266—267.
(29) نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، 1963، ص : 50.
(30) نفسه، ص : 171، 189، 190.
(31) سر الفصاحة، ص : 167—205.

وجعل من المناسبة بين الألفاظ في الصيغ السجع والازدواج، والترصيع، وتوازن اللفظين، وحمل اللفظ على اللفظ في الترتيب، والتناسب في المقدار، والمجانس، وهو المسمى بالجناس.

وجعل من التناسب بين الألفاظ من طريق المعنى : أن يكون معنى أحد اللفظين مقاربا للآخر، وأن يكون معنى أحدهما مضادا للآخر أو قريبا من المضاد.

وإدراج هذه الأساليب تحت مصطلح التناسب دليل على أن ابن سنان يجعل منه مبدأ بيانا كبيرا، يضم بين ثناياه كثيرا من أساليب التعبير، ويشمل صياغة الألفاظ وتأليف المعاني.

وفيما يتعلق بالتناسب بين المعاني، جعل من مقاييس صحة المعاني المقابلة، وصحة النسق والنظم بحسن التخلص من معنى إلى معنى، وشرح صحة النسق والنظم بقوله : «هو أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه»[32].

ومن أصحاب هذا الرأي، وأعمقهم نظرا في إدراك قيمة التناسب البيانية والجمالية حازم القرطاجني. إنه كان يعده عنصرا بارزا من عناصر الجمال في المرئيات والمسموعات. وفي موسيقى الشعر، ويجمل ما ذكره أن التناسب في الصياغة اللفظية يقع على أنحاء منها : ائتلاف حروف الكلمة بعضها مع بعض، وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها، واستعمال الكلمات المؤتلفة في مقدار الاستعمال، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها، مثل أن تكون إحداها مشتقة من الأخرى، وأن تتماثل أوزان الكلم، وأن تتوازن مقاطعها، وأن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها.

وتحدث حازم عن التناسب بين المعاني، وأشار إلى أن أوجهه كثيرة يعز حصرها، وبين قيمته الجمالية، لاسيما حين ينضاف إليها جمال التناسب في العبارة، فقال : «إن المعاني منها ما يتطالب بحسب الإسناد خاصة، ومنها ما يتطالب بحسب الإسناد، وبحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض في أنفسها، بكونها أمثالا أو أشباها أو أضداد، أو متقاربات من الأمثال والأضداد...»[33].

وقال : «واعلم أن النسب الفائقة إذا وقعت بين المعاني المتطابقة بأنفسها على الصورة المختارة التي تقدم ذكرها في الكلام على ما تناظر من الكلم، من حيث إن المعاني متناظرة، كان ذلك من أحسن ما يقع في الشعر، فإن للنفوس في تقارب المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادات، وما جرى مجراها تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأن تناظر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد.

---

(32) سر الفصاحة، ص : 268.

(33) منهاج البلغاء، ص : 44.

وكذلك أيضا مثول الحسن إزاء القبيح، والقبيح إزاء الحسن، مما يزيد غبطة بالواحد وتخليا عن الآخر، لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا»[34].

تلك نبذة من أفكار حازم عن التناسب وتصوره وقيمته البيانية والجمالية، فإذا جمعنا ما ذكره عن أوجه التناسب في العبارة اللفظية، وما ذكر عن أوجه التناسب المعنوي، والتناسب الإيقاعي في أوزان الشعر اتضح بصورة جلية أنه من أعمق البيانيين فهما لقيمة هذا المبدأ الجمالي، وأكثرهم توسيعا لمفهومه وتعميما لمعناه.

ومن الذين يمكن إلحاقهم بهذا الرأي أبو محمد السجلماسي، فقد نهج نهجا تركيبيا في دراسة أساليب البديع، وحاول أن يجنس تلك الأساليب في أجناس عالية، كل جنس يشمل كثيرا من الأساليب. وجمع كثيرا من أوجه التناسب اللفظي والمعنوي تحت جنس واحد سماه «التكرير»، وهو الجنس العاشر والأخير، حسب تجنيسه، والتكرير — كما يرى — نوعان : تكرير لفظي وسماه المشاكلة، وتكرير معنوي وسماه المناسبة.

أما المشاكلة فتشمل بدورها الأساليب الآتية : «الاتحاد». ويتفرع إلى : التجنيس بأقسامه الكثيرة. و«المقاربة»، وتتفرع إلى : التصريف والمعادلة، وتشمل المعادلة : الترصيع والموازنة.

وأما المناسبة فهي — كما يرى — أربعة أنواع : إيراد الملائم، وإيراد النقيض، والانجرار والتناسب [35]، وأشار في ختام كلامه إلى أن ترك المناسبة عيب : «فإن تنكب عن المناسبة رأسا وسلك نهجا غيرها، فضَرَّسَ في النهج فذلك هو العيب» [36].

ـ أنصار الرأي الثاني :

أنصار هذا الرأي هم عامة البديعيين وجمهور المتأخرين من البلاغيين، وهؤلاء لا ينكرون قيمة التناسب البيانية، ولكنهم نهجوا في دراسة البديع وأساليبه نهجا تفريعيا. كان همهم هو الإكثار من أبواب البديع وأساليبه، فتنافسوا في التقسيم والتفريع، وجعلوا كل فرع، ولو كان لا يتعلق إلا بجزئية صغيرة، قسما قائما بنفسه له عنوانه ومصطلحه الخاص.

وفي غمرة تلك التقسيمات تفرقت أطراف مبدأ التناسب اللفظي والمعنوي والصوتي، وتناثرت في أبواب متفرقة لا تربط بينها رابطة ولا نسب.

---

(34) منهاج البلغاء، ص : 45.

(35) المنزع البديع، ص : 476—518.

(36) نفسه، ص : 519.

ولسنا بحاجة إلى تقديم عرض مفصل للأبواب والمصطلحات الكثيرة التي تفرقت فيها أوجه التناسب.

وحسبنا هنا أن نقدم من تعريفات أصحاب هذا الاتجاه ما يكفي لتوضيح المفهوم الضيق الذي انتهى إليه مصطلح التناسب على أيديهم.

عقد ابن الأصبع بابا «للمناسبة» أشار في مستهله إلى أنها على ضربين : مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ.

وعرف المناسبة المعنوية بقوله : «هي أن يبتدىء المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ» (37). ومثل بقوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ، وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (38). وأوضح المناسبة المعنوية بين معنى مطلع الآية (لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ) وبين خاتمتها (وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ). فذكر أن الصفة الأولى تناسب قوله تعالى : «لا تدركه الأبصار»، لأن نفي إدراك الأبصار للشيء يناسب اللطف. وأن الصفة الثانية تناسب قوله تعالى : «هو يدرك الأبصار».

وعرف المناسبة اللفظية بقوله : «هي عبارة عن الإتيان بألفاظ متزنات مقفاة وغير مقفاة، فالمقفاة مع الاتزان مناسبة تامة، والمتزنة من غير التقفية مناسبة ناقصة». وأورد أمثلة من الآيات القرآنية المتزنة الأواخر، ثم قال : «ومن هذا القسم من المناسبة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يرقي به الحسن والحسين : «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة». ولم يقل ــ عليه السلام ــ ملمة، وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية» (39).

وجعل ابن قيم الجوزية مصطلح التناسب عنوانا لقسم من أقسام المبحث البياني الخاص بالمعاني، قال : «التناسب، ويسمى التشابه، وهو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر. والقرآن العظيم كله تناسب، لا تنافر فيه، ولا تباين» (40).

ثم نقل ما ذكر ابن الأصبع من تقسيم المناسبة إلى : معنوية ولفظية : ولم يزد على ما ذكره إلا بعض الأمثلة من كلام النبي ﷺ (41).

---

(37) بديع القرآن، ص : 145.

(38) سورة الأنعام : 103.

(39) بديع القرآن، ص : 149ــ150.

(40) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص : 87.

(41) نفسه، ص : 88ــ89.

وذكر الخطيب القزويني من أنواع البديع نوعا سماه : «مراعاة النظير». قال : «ويسمى التناسب والائتلاف والتوفيق». وعرف هذا النوع بقوله : «هو أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد، كقوله تعالى : ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [42].

وقال : «ومن مراعاة النظير ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى، كقوله تعالى :﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ، وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (فإن اللطيف يناسب ما لا يُدركه بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك شيئا» [43].

يتضح من هذه التعريفات والأمثلة أن التناسب الذي رأيناه عند أصحاب الرأي الأول، مبدأ بيانيا كبيرا، يشمل الكثير من فنون صياغة العبارة اللفظية ونظم المعاني، قد صار، عند أنصار الرأي الثاني، عنوانا لنوع صغير من أنواع البديع. يختزل التناسب المعنوي في المناسبة بين مطلع الكلام ومقطعه، ويختزل التناسب اللفظي في الإتيان بكلمات متزنات في أواخر الآيات أو الجمل.

ويلاحظ أن المتأخرين من هؤلاء البلاغيين أحسوا بالاضطراب الحاصل في استعمال المصطلحات، لذلك رأيناهم يحرصون على ذكر أكثر من مصطلح لنوع واحد من أنواع البديع، ظهر هذا الإحساس جليا عند ابن القيم الذي ذكر «التناسب»، ثم قال : ويسمى التشابه، كما ظهر بصورة أوضح عند الخطيب القزويني الذي ذكر «مراعاة النظير»، ثم قال : «ويسمى التناسب، والائتلاف، والتوفيق».

3 ـ عند علماء الإعجاز

أجمع علماء الإعجاز، على أن «التناسب» من أوجه إعجاز القرآن، غير أن منهم من اهتم بالتناسب اللفظي، ومنهم من اهتم بالتناسب المعنوي، وذلك راجع إلى اختلاف مذاهبهم الفكرية.

ومن الذين صرفوا الاهتمام إلى التناسب اللفظي والصوتي في النظم القرآني أبو الحسن الرماني[44]، الذي عقد في رسالة «النكت في إعجاز القرآن» ثلاثة أبواب، تتصل كلها بهذا الوجه من التناسب، وهي : «باب التلاؤم»، و«باب الفواصل»، و«باب التجانس».

(42) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص : 335.

(43) نفسه، ص : 356ـ357.

(44) هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي. ولد ببغداد أو بسامراء، اشتغل بطلب العلم، واحترف الوراقة، برع في علوم القرآن والتفسير، و«النحو» و«الكلام». توفي سنة 386 هـ. معجم الأدباء : 280/5، وطبقات النحويين للزبيدي : 55.

أما التلاؤم فهو ــ كما يقول ــ : تعديل الحروف في التأليف. و«القرآن كله في الطبقة العليا من التلاؤم، وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة له من بعض، كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون من الشعر والمكسور. واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق. والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف. فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما»(45).

«والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس، لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة»(46).

«والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع. فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام، كما تظهر له طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينها»(47).

وأما الفواصل فيقول فيها : «إنها حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني».

من علماء الإعجاز الذين تحدثوا عن قيمة التناسب في البيان القرآني أبو بكر الباقلاني(48)، وقد جعله من الخصائص التي خرج بها النظم القرآني عن المعهود من كلام البشر. قال : «ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة على هذا الطول.. وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة»(49). وأشار الباقلاني إلى رأيه في «التلاؤم» و«الفواصل» إشارة عابرة في ثنايا العرض الذي قدمه لرسالة الرماني : «النكت في إعجاز القرآن»، وأوضح أنهما مما يصح أن يتعلق به الإعجاز.

ومن العلماء الذين صرفوا الاهتمام إلى التناسب المعنوي في دراسة إعجاز القرآن عبد القاهر الجرجاني وآراؤه في ذلك مبثوثة في كتبه، وحسبنا هنا أن نورد ما ذكره في مناقشة من يرى في

---

(45) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق وتعليق، محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط. دار المعارف بمصر (د. ت)، ص : 88.

(46) نفسه وفي نفس المكان.

(47) نفسه، ص : 89.

(48) هو أبو بكر : محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني، ولد بالبصرة، وتلقى العلم عن أعلامها، ثم رحل إلى بغداد، واتخذ دار الإقامة. من أعلام الأشاعرة في عصره، من أشهر كتبه : «إعجاز القرآن»، و«الإنتصار لنقل القرآن»، والتمهيد. توفي سنة 403 هـ.

(49) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ط. 3، دار المعارف بمصر 1954، ص : 36.

التلاؤم وجها من أوجه إعجاز القرآن، يقول : «وإن تعسف صاحب تلاؤم الحروف، وذهب إلى أنه الأصل في إعجاز القرآن، كان الرد أن يقال له : يلزمك أن تجوز أن يكون هاهنا نظم للألفاظ وترتيب، لا على نسق المعاني، ثم يكون مع ذلك معجزا، فإن قال : لا أجعل تلاؤم الحروف معجزا حتى يكون اللفظ مع ذلك دالا، وذلك أنه إنما تصعب مراعاة التعادل بين الحروف، إذا احتيج مع ذلك إلى مراعاة المعنى، قيل له : إنك تدعي أن ترتيب المعاني سيهل، وأن تفاضل الناس في ذلك إلى حد، وأن الفضيلة تزداد وتقوى، إذا توخي في حروف الألفاظ التعادل..

وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك، وإزاء ناظرك..

وإذا بطل أن يكون ترتيب الألفاظ مطلوبا بحال، ولم يكن المطلوب أبدا إلا ترتيب المعاني، وكان معول هذا المخالف على ذلك، فقد آضمحل كلامه، وبان أنه ليس لمن حام في حديث المزية والإعجاز حول اللفظ، ورام أن يجعله السبب في هذه الفضيلة إلا التسكع في الحيرة والخروج عن فاسدة من القول إلى مثله»[50].

وقال : «فقد آتضح اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»[51].

إن ما اقتبسناه من كلام عبد القاهر الجرجاني هنا يكفي في الدلالة على أنه لا يجعل للتناسب اللفظي والصوتي أي قيمة في إعجاز القرآن، ورده على صاحب التلاؤم، وهو الرماني على ما نرجح، هو جزء من خصومته مع أنصار اللفظ وهم المعتزلة.

وينبغي أن نشير إلى أن عبد القاهر الجرجاني، ينطلق في التقليل من قيمة التناسب اللفظي، وفي الرفع من قيمة التناسب المعنوي من أصول مذهبه في العقيدة، وهو المذهب الأشعري.

وخلاصة القول إن علماء الإعجاز، وقبلهم الأدباء وعلماء البيان، مجمعون كلهم على أن التناسب من أهم عناصر الجمال، وأبرز شروط الفصاحة في التعبير اللغوي وفي إعجاز القرآن.

---

(50) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، 1984، ص : 60ـ61.

(51) نفسه، ص : 50.

ثالثا ـ جهود السابقين في دراسة التناسب القرآني

I ـ التناسب في الدراسات القرآنية القديمة

تناول الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون وأوائل علماء الدراسات القرآنية بعض أوجه التناسب في القرآن الكريم، إما في نظرات مختصرة، أو في أجوبة مقتضبة عن الأسئلة التي طرحت في عهدهم حول أوجه المناسبة بين بعض الآيات، وإما في ردود ردوا بها على الطاعنين الذين حاولوا الطعن في النظم القرآني بما زعموه إخلالا بالتناسب.

ولما جاءت مرحلة التأليف في علوم القرآن جمع العلماء ما انتهى إليهم من تلك النظرات والأجوبة، وأضافوا إليها ما استخرجوه من مناسبات الآيات، ونظموا ذلك في علم من علوم القرآن، سموه «علم المناسبة»، وهو علم يبحث في الارتباط المعنوي بين الآيات، وتوسع بعض العلماء فزاد عليه مناسبات السور.

1 ـ تناسب الآيات في عهد الصحابة والتابعين :

وقد ظهرت بذور البحث في التناسب المعنوي بين الآيات والمعاني القرآنية منذ عصر الصحابة والتابعين. ومن الآيات التي استشكل الصحابة وجه التناسب فيها قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَامَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ (سورة النساء : 3). إذ أشكل عليهم وجه المناسبة بين ما تضمنته جملة الشرط من الخوف من ظلم اليتامى وما تضمنته جملة الجواب من الأمر بنكاح ما طاب من النساء.

فقالت أم المومنين عائشة رضي الله عنها : «نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال ولياتهم فيريدون أن يبخسوهن في المهر، لمكان ولايتهم عليهم، فقيل لهم : أقسطوا في مهورهن، فمن خاف ألا يقسط فليتزوج ما طاب له من الأجنبيات اللواتي يكايسن في حقوقهن».

وقال عكرمة [52] : نزلت في قريش، وذلك أن الرجل منهم كان يتزوج العشرة وأكثر، وأقل. فإذا ضاق ماله، مال على مال يتيمه فتزوج منه، فقيل لهم : إن خفتم عجز أموالكم حتى تجوروا في اليتامى، فاقتصروا.

---

(52) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس. تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. توفي سنة 105هـ.

وقال ابن عباس وغيره : إن العرب كانت تتحرج في أموال اليتامى ولا تتحرج في العدل بين النساء، كانوا يتزوجون العشر وأكثر، فنزلت الآية في ذلك، أي كما تخافون ألا تُقسطوا في اليتامى فكذلك فتحرجوا في النساء، وانكحوا على هذا الحد الذي يبعد الجور عنه (53).

ومن تلك الآيات قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى﴾ الآية التي وقعت بين آيات المتوفى عنها زوجها وبين آيات المطلقات، قال تعالى : ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَلاَ تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ. فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً، فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ...﴾ الآيات (سورة البقرة : 237_239).

أورد أبو حيان الغرناطي أقوالا كثيرة في ورود آية المحافظة على الصلوات بين الآيات المتعلقة بأحكام النساء، دون أن ينسبها، ثم خلص إلى بيان المناسبة. فقال : «والذي يظهر في المناسبة أنه تعالى لما ذكر جملة كثيرة من أحوال الأزواج والزوجات وأحكامهم في النكاح، والوطء، والإيلاء، والطلاق، والرجعة، والإرضاع، والنفقة، والعدد، والخطبة، والصداق، وغير ذلك... كانت تكاليف عظيمة، تشغل من كُلفها أعظم شغل، بحيث لا يكاد يسع معها شيء من الأعمال، وكانت مدعاة إلى التكاسل عن الاشتغال بالعبادة، إلا لمن وفقه الله تعالى، أمر تعالى بالمحافظة على الصلوات التي هي الوسيلة بين الله وبين عبده، وإذا كان قد أمر بالمحافظة على حقوق الآدميين فلأن يؤمر بأداء حقوق الله أولى حق... فكأنه قيل : لا يشغلكم التعلق بالنساء وأحوالهن عن أداء ما فرض الله عليكم، فمع تلك الأشغال العظيمة، لابد من المحافظة على الصلاة، حتى في حالة الخوف، فلابد من أدائها رجالا، وركبانا، وإن كانت حالة الخوف أشد من حالة الاشتغال بالنساء. فإذا كانت هذه الحالة الشاقة جدا لابد معها من الصلاة، فأحرى ما هو دونها من الأشغال المتعلقة بالنساء.

وقيل مناسبة الأمر بالمحافظة على الصلوات عقيب الأوامر السابقة أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فيكون ذلك عونا على امتثالها، وصونا لهم عن مخالفتها.

وقيل وَجْهُ ارتباطها بما قبلها وبما بعدها، أنه لما أمر تعالى بالمحافظة على حقوق الخلق بقوله : «ولا تنسوا الفضل بينكم» ناسب أن تأمر بالمحافظة على حقوق الحق، ثم لما كانت حقوق

---

(53) عن المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، 14/4.

الآدميين منها ما يتعلق بالحياة وقد ذكره، ومنها ما يتعلق بالممات ذكره بعده في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً...﴾ الآية[54].

وقال ابن قيم الجوزية : «وأما آية الصلوات والمحافظة عليها، فقد سئل عنها بعض جلة أهل العلم رضي الله عنهم قال : «لما أمر الله تبارك وتعالى بالمحافظة على حقوق الخلق ذكر لهم حقوقه، وهو الصلاة ليجمع لهم في التعليم بين مراعاة حقوق الخلق والحق ليحصل لهم الكمال. ثم لما كانت حقوق الآدميين منها ما هو متعلق بالحياة، وقد ذكر ذلك قبلها ناسب أن يذكر الحقوق المتعلقة بالممات بعدها» [55].

وروي أن بعض الصحابة بادر إلى ختم آية حين سمع أولها. أخرج ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت، قال : «أملى على رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ (سورة المومنين : 12—14)، قال معاذ بن جبل، «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله، قال بها ختمت [56].

وحكي أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ : ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِمَا جَاءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ (غفور رحيم)﴾ ولم يكن يقرأ القرآن : فقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه. فلما قيل له إن القراءة : ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 209) قال : بخ بخ، عز فحكم [57].

تلك جملة من الأمثلة التي توضح أن الصحابة والتابعين كانوا قد التفتوا إلى التناسب بين الآيات، وأوضحوا من ذلك ما استشكله الناس في ذلك العهد. وكان لهم من عملهم وذوقهم البياني عون على إدراك ما يربط الآيات بعضها ببعض، وإن بدا للنظرة الأولى أنها متباينة، وعنهم نقل المفسرون.

ولما بدأت حملة أعداء الإسلام على القرآن، كان من جملة ما سددوا إليه سهام الطعن من البيان القرآني والتناسب بين معانيه وآياته. قال ابن قتيبة : «وقد طعن قوم من الملحدين في آيات من القرآن الكريم بدعوى أنها غير متناسبة»[58].

---

(54) البحر المحيط : 239/2.
(55) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص : 176.
(56) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت 1973، 101/2.
(57) نفسه : 101/2.
(58) تأويل مشكل القرآن، أبو محمد مسلم بن قتيبة، شرح ونشر أحمد صقر، ط. 2، المكتبة العلمية 1981، ص : 72—73.

ومن الآيات التي طُعن فيها آية اليتامى التي ذكرنا آنفا أن الصحابة والتابعين التفتوا إليها واجتهدوا في بيان وجه مناسبتها بما اتصلت به. قال الطاعنون : «أين قوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَامَىٰ فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ..﴾ فرد عليهم ابن قتيبة بقوله : «فهل شيء أشبه بشيء، وأليق به من أحد الكلامين بالآخر. والمعنى أن الله تعالى قصر الرجال على أربع نسوة، وحرم عليهم أن ينكحوا أكثر منهن، لأنه لو أباح لهم أن ينكحوا من الحرائر ما أباح من ملك اليمين لم يستطيعوا العدل عليهن بالتسوية بينهن. فقال لنا : فكما تخافون ألا تعدلوا بين اليتامى إذا كفلتموهم، فخافوا أيضا ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن فانكحوا اثنين وثلاثا وأربعا، ولا تتجاوزا ذلك فتعجزوا عن العدل.

ثم قال : فإن خفتم أيضا ألا تعدلوا بين الثلاث والأربع فانكحوا واحدة، أو اقتصروا على ما ملكت أيمانكم من الأماء ذلك أدنى ألا تعدلوا.

قال ابن عباس : قصر الرجال على أربع من أجل اليتامى، يعني : لما كان النساء مكفولات بمنزلة اليتامى، وكان العدل في اليتامى شديدا على كافلهم، قصر الرجال على ما بين الواحدة إلى الأربع من النساء، ولم يطلق لهم ما فوق ذلك لئلا يميلوا»[59].

ومن ذلك أن الطاعنين قالوا : أين قوله تعالى : ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلاَئِدَ﴾ من قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ، وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة المائدة : 97).

فرد عليهم ابن قتيبة ردا قويا قال فيه : «وتأويل هذا أن أهل الجاهلية كانوا يتغاورون، ويسفكون الدماء بغير حقها، ويأخذون الأموال بغير حلها، ويخيفون السبل، ويطلب الرجل منهم الثأر فيقتل غير قاتله، ويصيب غير الجاني عليه، ولا يبالي من كان بعد أن يراه كفئا لوليه، ويسميه الثأر المنيم. وربما قتل أحدهم حميمه بحميمه، وربما أسرف في القتل فقتل بالواحد ثلاثة وأربعة وأكثر.

فجعل الله الكعبة البيت الحرام، وما حولها من الحرم، والشهر الحرام، والهدي والقلائد قواما للناس، أي أمنا لهم، فكان الرجل إذا خاف على نفسه لجأ إلى الحرم فأمن. يقول الله عز وجل : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت : 67).

وإذا دخل الشهر الحرام تقسمتهم الرحل، وتوزعتهم النجع، وانبسطوا في متاجرهم، وأمنوا على أموالهم وأنفسهم.

---

(59) تأويل مشكل القرآن، ص : 73ــ74.

وإذا أهدى الرجل منهم هديا، أو قلد بعيره من لِحاء شجر الحرم، أمن كيف تصرف، وحيث سلك، ولو ترك الناس على جاهليتهم وتغاورهم في كل موضع، وكل شهر، لفسدت الأرض، وفني الناس، وتقطعت السبل، وبطلت المتاجر، ففعل الله ذلك لعلمه بما فيه من صلاح شؤونهم، وليعلموا أنه ــ كما علم ما فيه من الخير لهم ــ يعلم أيضا ما في السموات وما في الأرض من مصالح العباد ومرافقهم، وأنه بكل شيء عليم»[60].

وقال الطاعنون أيضا : أين قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ من قوله بعده : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سورة لقمان : 31).

فقال ابن قتيبة : «لم يرد الله تعالى في هذا الموضع معنى الصبر والشكر خاصة، وإنما أراد : إن في ذلك لآيات لكل مومن والصبر والشكر أفضل ما في المؤمن من خلال الخير، فذكره الله عز وجل في هذا الموضع بأفضل صفاته، وقال في موضع آخر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي موضع : ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، و﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهكذا كما تقول : إن في ذلك لآية لكل موحد مصل، ولكل فاضل تقي، وإنما تريد المسلمين»[61].

وزعم الطاعنون أن مما يعرض في القرآن من سوء التأليف ومن نسق الكلام على ما ينبو عنه، ولا يليق به قوله سبحانه : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ عقيب قوله : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً، لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة الأنفال : 4ــ5)، وقالوا : و(كما) في تشبيه شيء بشيء، ولم يتقدم من أول الكلام ما يشبه به ما تأخر منه...

فقال حمد بن محمد الخطابي مبطلا زعم أولئك الطاعنين : «إن في الآية وجوها كلها محتملة، أيها اعتمدت وعلقت عليه الكاف (يعني من «كما») حملها، وصح الكلام عليه. قال بعضهم : إن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم، على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير، وهم كارهون. وذلك أنهم في يوم بدر اختلفوا في الأنفال، وحاجوا النبي صلى الله عليه وسلم، وجادلوه، وكره كثير منهم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفل، فأنزل الله تعالى الآية، وأنفذ أمره فيها، وأمرهم أن يتقوا الله، وأن يطيعوه، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء فيما بعدُ، إن كانوا مومنين. ثم قال : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يريد أن كراهتهم لما فعلته في الغنائم،

---

(60) تأويل مشكل القرآن، ص : 74.

(61) نفسه، ص : 74ــ75.

ككراهتهم في الخروج معك، وقد حمدوا عاقبته، فليصبروا في هذا وليسلموا، ويحمدوا عاقبته كذلك.

وقيل معناه : ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ ، ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾، كقوله تعالى : ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ (سورة الذاريات : 23).

وقيل : إن «كما» صفة لفعل مضمر، وأن تأويله : أفعل في الغنائم كما فعلت في الخروج إلى بدر، وإن كره القوم ذلك. كقوله سبحانه : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ (سورة البقرة : 151). معناه : كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم من أنفسكم كذلك أتم نعمتي عليكم».

فإن قيل : أو ليس، وإن توجه الكلام وصحّ على الوجه الذي ذكرتموه في معنى قوله سبحانه : ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ فقد دخله من الانتشار بتفرق أجزائه، وتباعد ما بين فصوله بما أخرجه من حسن النظام الذي وصفتموه به. قيل : لا، وذلك لأنه لم يدخل بينه وبين أول ما يتصل به شيء. إنما قال : ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾، ثم وصف هذا الإيمان وحقيقته، إذ كان هذا القسم يقع على أمر ذي شعب وأجزاء، يلزم أدناه من ذلك ما يلزم أقصاه، فلو لم يستوفه بالصفة الجامعة له، لم يَبِنْ معه المراد، ثم عطف بالكلام على أول الفصل فقال : ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾. فشبه كراهتهم ما جرى من أمر الأنفال وقسمها بالكراهة في مخرجه من بيته، وكل ما لا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو كنفس الكلام»[62].

ومن الآيات التي أشكلت مناسبتها لما قبلها قوله تعالى في سورة القيامة : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به...﴾ الآيات (سورة القيامة : 11) فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جدا. فإن السورة كلها في أحوال القيامة. حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شيء، وحتى ذهب بعض العلماء — فيما حكاه الفخر الرازي — إلى أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل في قوله تعالى : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾. قال : يُعرض عليه كتابه، فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفا، فأسرع في القراءة، فيقال له : لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا أن نجمع عملك، وأن نقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته. وهذا يخالف ما ثبت في الصحيح أنها نزلت في تحريك النبي صلى الله عليه وسلم لسانه حالة نزول الوحي عليه.

---

(62) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 45–46.

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات : «منها أن تلك الآيات التي تضمنت النهي عن تحريك اللسان وردت في سياقها لعارض من حال، فدعت الحاجة إلى ذكرها، ولم يجز تركها ولا تأخيرها عن وقتها، كقولك للرجل، وأنت تحدثه بحديث فينشغل عنك ويقبل على شيء آخر : أقبل علي، واسمع ما أقول، وافهم عني، ونحو هذا من الكلام، ثم تصل حديثك، ولا تكون بذلك خارجا عن الكلام الأول، قاطعا له، وإنما تكون به مستوصلا للكلام مستعيدا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميا، لا يقرأ ولا يكتب، وكان إذا نزل عليه الوحي وسمع القرآن حرك لسانه يستذكر به، فقيل له : تفهم ما يوحى إليك، ولا تتلقفه بلسانك، فإنا نجمعه لك، ونحفظه عليك»[63]. ويسند هذا التأويل ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ قال : كان يحرك به لسانه مخافة أن ينفلت منه.

ومنها أنه ــ تعالى ــ لما ذكر القيامة، وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة، فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه، وهو الإصغاء إلى الوحي، وتفهم ما يرد عليه منه. والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك، فأمر ألا يبادر إلى التحفظ، لأن تحفيظه مضمون على ربه، وليصغ إلى ما يَرِدُ عليه إلى أن ينقضي، فيتبع ما اشتمل عليه، ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبدأ بذكره، وما هو من جنسه. فقال تعالى : «كَلَّا» وهي كلمة ردع، كأنه قال : بل أنتم يا بني آدم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة[64].

في هذه الآيات التي ذكرناها ما يعين على أخذ فكرة موجزة عن البذور الأولى لنشأة البحث في تناسب الآيات، وأوجه الارتباط المعنوي بينها.

ويبدو أن حملات الطعن التي تعرض لها القرآن الكريم، في القرون الأولى من نزوله، كانت من الدوافع التي حفزت همم العلماء إلى البحث في سلامة النظم القرآني من كل نقص، لإثبات إعجازه ولدفع كل ما يوجه إليه من طعن.

وكانت حصيلة ما أثر عن الصحابة والتابعين في مناسبات الآيات، وما استنبطه العلماء بعد ذلك، أساسا صالحا لنشأة «علم المناسبة».

ويتناول هذا العلم تناسب الآيات، فيما بينها، وتناسب مطالعها لخواتمها، كما يتناول التناسب بين فواتح السور وموضوعاتها وخواتمها.

---

(63) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 110ــ111.

(64) الإتقان في علوم القرآن : 2/110ــ111.

2 ـ ظهور علم المناسبة :

ظهر علم المناسبة في أوائل القرن الرابع الهجري، وكان أول من عمل على نشره ببغداد أبو بكر النيسابوري المتوفى سنة 324 هـ وكان غزير العلم في الشريعة والآداب، وكان يقول على الكرسي، إذا قرئت عليه الآية : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد، لعدم علمهم بالمناسبة[65].

غير أن هذا العلم على جلالة قدره، وعظيم فوائده، لم ينل إلا الحظ القليل من عناية العلماء، فلم يظهر التأليف فيه إلا في أواخر القرن الثامن للهجرة، حين ألف ابن الزبير الغرناطي[66] المتوفى سنة 807 هـ كتابه «البرهان في ترتيب سور القرآن».

وألف بعده برهان الدين البقاعي[67] كتابه : «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»[68]. ثم ألف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ ثلاثة كتب في هذا الموضوع :

الأول سماه : «أسرار التنزيل»، وذكر في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» إنه يسمى «قطف الأزهار في كشف الأسرار»[69].

الثاني : هو «تناسق الدرر في تناسب السور» وهو كتيب صغير لخصه من الكتاب الأول[70].

الثالث : هو «مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع» وهو يتناول بحث التناسب بين فواتح السور القرآنية وخواتمها[71].

هذا كل ما في المكتبة القرآنية القديمة من المصنفات في هذا العلم.

---

(65) الإتقان في علوم القرآن : 108/2.

(66) سيأتي ترجمته.

(67) هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، مؤرخ أديب، أصله من البقاع في سورية، توفي بدمشق سنة 885هـ له كتب في التاريخ والنحو والتفسير. وكتابه المذكور مطبوع. الأعلام : 50/1.

(68) طبع بحيدر آباد بالهند.

(69) ذكره السيوطي في كتاب الإتقان : 108/2.

(70) طبع مؤخرا بتحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(71) ذكره السيوطي في كتاب الإتقان : 111/2.

3 ـ إهمال علم المناسبة :

وقد شكا غير واحد من المعنيين بالدراسات القرآنية من إهمال هذا العلم مع ما فيه من الفوائد.

قال القاضي أبو بكر بن العربي : «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله..»[72].

وقال بدر الدين الزركشي [73] : «وقد قل اعتناء المفسرين بهذا العلم لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[74].

وقال ابن الزبير الغرناطي : «ولم أر في هذا الضرب شيئا لمن تقدم وغبر، وإنما ندر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع متفرقات ..»[75].

هذه النصوص توضح قلة حظ هذا النوع من علوم القرآن، من عناية العلماء، ومن الغريب أن علماء الإعجاز الذين يهتمون ببلاغة القرآن لم يولوا هذا الباب من بلاغة القرآن ما يستحق من العناية، مع أن شطرا كبيرا من بلاغة الكلام إنما يظهر في التحام أجزائه وتناسب معانيه، وفي سلامته من التفكك والاختلاف.

ثم إن محاولة الطاعنين إتيان القرآن من هذا الباب، كانت وحدها سببا كافيا، ليدفع العلماء إلى التعمق في هذا العلم، والتأليف فيه منذ وقت مبكر.

---

(72) الإتقان في علوم القرآن : 108/2.

(73) هو محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، مصري، علم من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين، له مؤلفات كثيرة. توفي بمصر سنة 794هـ.

(74) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت 1972، 36/1.

(75) البرهان في ترتيب سور القرآن، لأبي جعفر الغرناطي، ص : 2، نسخة مرقونة، محققة من قبل السيد شعباني محمد، وتقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا من دار الحديث الحسنية، ولم يطبع.

4 ـ إنكار التناسب :

والأغرب من هذا أن من العلماء من ذهب إلى أن التناسب بين الآيات ليس عاما في جميع القرآن، واشترط في ذلك أن يكون الكلام في أمر متحد أوله بآخره، نقل هذا الرأي عن عز الدين بن عبد السلام. وذُكر أنه قال : «المناسبة علم حسن، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه. فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»[76].

ونقل عن أبي العلاء محمد بن غانم[77] أنه أنكر وجود «حسن التخلص» في القرآن، بعلة ما فيه من التكلف، وقال : «إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم»[78].

ورد العلماء على أصحاب هذا الرأي، وفندوا ما يتعلقون به من الحجج، فقالوا : «قد وهم من قال : لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة. وفصلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة. ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر. والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة، ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور، يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[79].

تلك نبذة سريعة عن جهود العلماء في دراسة علم المناسبة والتصنيف فيه، وهي جهود متواضعة، إذا قيست بالجهود المبذولة في غيره من علوم القرآن.

وكان يجب ــ في اعتقادنا ــ أن يكون هذا العلم جزءا من مباحث إعجاز القرآن، ودعامة من دعائم التفسير، لأن إظهار الإعجاز في البيان القرآني، لا يتم بدراسة الصور البيانية والأساليب البديعية الجزئية، ولا بدراسة أحوال التراكيب في حدود الجمل وحدها، وإنما يظهر بدراسة ذلك كله في سياق وحدة السور وارتباط الآيات، وتناسب معانيها.

---

(76) الإتقان في علوم القرآن : 108/2.

(77) ذكره ابن الأثير في اللباب : 166/3 : كان من فضلاء عصره، وشعره مشهور، وهو من شعراء نظام الملك.

(78) الإتقان في علوم القرآن : 108/2.

(79) البرهان في علوم القرآن : 37/1.

ثم إن علم المناسبة، على ما ذكر في فوائده، لا يبحث إلا وجها واحدا من أوجه التناسب القرآني، هو التناسب المعنوي. أما الأوجه الأخرى فلا نجد منها إلا شذرات متفرقة في علم توجيه متشابهات القرآن، وعلم توجيه القراءات، وعلم الفواصل.

5 ـ علم توجيه متشابهات القرآن :

أما علم توجيه متشابهات القرآن، فهو علم يبحث «في توجيه ما تكرر من الآيات لفظا، أو اختلف بتقديم أو تأخير، أو بعض زيادة في التعبير، وظن الغافل عن التدبر، والمخلد إلى الراحة عن التفكر، أن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها، مما خالفت فيه نظيرتها، ليس لسبب تقتضيه، وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه، ومقتضيات من لوازم جليل التركيب من ذلك المعجز العلي من النظام، فلا يليق بكل من تلك المواضع إلا الوارد فيه»[80].

ولهذا العلم صلة وثيقة بالتناسب في النظم القرآني، لأنه يبحث في تركيب الآيات وألفاظها، ويبين وجه مناسبة كل تركيب للساق الذي وردت فيه الآية.

قال جلال الدين السيوطي : «وهذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات»[81].

ونوه برهان الدين البقاعي بقيمة «علم المناسبة» وأشار إلى بعض فوائده، فذكر منها أنه يعين على معرفة «أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة، أعيدت فيها قصة، فلمعنى ادعي في تلك السورة، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتقديم والتأخير، والإيجاز والتطويل، مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى»[82].

وجهات التقاء هذين النوعين كثيرة، وأكثر ما يتجلى في القصة الواحدة التي تتكرر في القرآن بأساليب متنوعة، فعلم المناسبة ينظر فيها، لإظهار المناسبة بينها وبين موضوع السورة، وعلم المتشابهات ينظر فيها، ويبحث عن توجيه ما وقع في أسلوبها في كل موضع من اختلاف، بالنظر إلى سياقها من السورة.

كان حظ هذا العلم من عناية العلماء أكثر من حظ علم المناسبة، ألف فيه الخطيب الإسكافي[83] كتابه «درة التنزيل وغرة التأويل».

---

(80) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعليل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق سعد الفلاح، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، 1983، 145/1.

(81) الإتقان في علوم القرآن : 115/2.

(82) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، حيدر آباد 1969، 13/1.

(83) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الرازي، عالم بالأدب، كان معاصرا للصاحب بن عباد وحبب إليه العلم، وكان إسكافيا. ولذلك عرف بالخطيب الاسكافي، توفي 42هـ. وكتابه المذكور مطبوع.

وألف بعده تاج القراء الكرماني[84] كتابه «البرهان في توجيه متشابه القرآن»، وألف فيه بعدهما أبو جعفر بن الزبير الغرناطي[85] كتابه القيم «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل».

واهتم به الفيروزبادي[86] في الجزء الأول من كتابه «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز».

ولبدر الدين بن جماعة[87] كتاب لطيف سماه «كشف المعاني عن متشابه المثاني».

وذكر جلال الدين السيوطي أن في كتابه المسمى «قطف الأزهار في كشف الأسرار»، الجم الغفير من هذا العلم.

6 ـ علم توجيه القراءات :

هناك فرع ثالث من علوم القرآن، له صلة قريبة بموضوع التناسب، هو الفرع الذي يبحث في توجيه القراءات والاحتجاج لها. وفي ثنايا ذلك يلم ببعض أوجه التناسب الصوتي واللفظي في الكلمة والنظم القرآنيين، وفي طرق الأداء والقراءة، ويبين ما يراعيه كل قارىء في اختياره من المعاني، أو من أوجه تحسين الأداء وتجويد القراءة، أو من أوجه التناسب في النظم.

ألف في هذا العلم نخبة من العلماء، جلهم من كبار اللغويين على رأسهم أبو علي الفارسي المتوفى سنة 370 هـ على قول ألف كتاب «الحجة في علل القراءات السبع»[88].

وألف بعده تلميذه ابن جني[89] كتابه «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها». وفي هذا الوقت نفسه، أو قريبا منه، ألف ابن خالويه[90] كتابه «الحجة في

---

(84) هو أبو القاسم محمود بن حمزة الكرماني : عالم بالقراءة، يعرف بتاج القراء، توفي 505هـ. (الأعلام : 44/8)

(85) هو أحمد بن ابراهيم بن الزبير الغرناطي. من أعيان المذهب المالكي، انتهت إليه الرئاسة في الأندلس في الصناعة العربية. راسخ القدم في القراءات، توفي 708هـ.

(86) هو مجد الدين محمد بن يعقوب صاحب القاموس المحيط في اللغة، توفي سنة 817هـ.

(87) هو بدر الدين محمد بن ابراهيم بن جماعة. ولد بحماة، ورحل إلى مصر، وولي قضاء القضاة عدة مرات، توفي سنة 733هـ. البداية والنهاية : 63/14.

(88) طبع منه حتى الآن جزءان بتحقيق كل من علي النجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي وعبد الحليم النجار.
وأبو علي هو : الحسن بن أحمد الفارسي، أحد الأئمة في علم العربية، تجول في كثير من البلاد، وأقام مدة عند سيف الدولة وعلمه النحو، ووضع له كتاب الإيضاح في قواعد العربية.
الأعلام : 193/2 ـ 194.

(89) هو عثمان بن جني، من أئمة اللغة والنحو، ولد بالموصل وتوفي ببغداد. من كتبه في اللغة : الخصائص، وسر صناعة الإعراب. توفي 392هـ. وفيات الأعيان : 313/1.

(90) هو الحسين بن أحمد بن خالويه، لغوي من كبار النحاة، أصله من همدان، استوطن حلب وعظمت بها شهرته. فأحله بنو حمدان منزلة رفيعة، وعهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده، توفي سنة 370هـ.

القراءات السبع». وفي نسبة هذا الكتاب إلى ابن خالويه شك قوي. وفي حدود المائة الرابعة للهجرة ألف عبد الرحمان بن زنجلة[91] كتابه «حجة القراءات». ثم بعد ذلك بقليل ألف مكي بن أبي طالب القيسي المغربي[92] كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها».

تلك أهم مصادر توجيه القراءات وعللها والاحتجاج لها، ويلاحظ أن التأليف في هذا الفن ازدهر في الوقت الذي ازدهرت فيه علوم اللغة.

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى العلاقة المتينة التي تصل بين العلمين، ذلك أن توجيه القراءات هو في جوهره بحث لغوي خالص، بل هو من أدق بحوث اللغة. ولذلك لم يتصدر للبحث فيه إلا شيوخ علم اللغة، كأبي علي الفارسي وأبي الفتح بن جني.

ولعلنا لا نحتاج إلى توضيح ما بين توجيه القراءات وموضوع التناسب من صلة، ولكن نقول إجمالا إن توجيه القراءة يتناول مذاهب القراء في الإدغام، والإمالة، والتفخيم، والترقيق، والإتباع، والتخفيف والتثقيل، ومراعاة نسق الكلام، وائتلاف النظم، وفي تضاعيف هذه الأبواب يظهر ما يراعيه القراء من أوجه التناسب الصوتي واللفظي، بل إن منهم من يخالف أصول قراءاته حفاظا على التناسب.

7 ـ علم الفواصل ورؤوس الآي :

يتناول هذا العلم فواصل القرآن الكريم ورؤوس الآيات، لضبط عددها في كل سورة وفي القرآن كله، ولمعرفة حروفه ورموزها. وهذا الجانب علمي بحث يعتمد في معظمه على النقل، لأنه توقيفي.

ويتناول الفواصل من وجه آخر، لمعرفة أثرها في بلاغة الكلام، وجمال العبارة، والفرق بينها وبين السجع، وهذا الجانب هو الجانب البلاغي الجمالي من هذا العلم، وهو الذي يهمنا في هذه الدراسة، لأنه جزء من التناسب الإيقاعي في نظم القرآن الكريم. وسيأتي بحثه في قسم لاحق.

لم يكن هذا العلم، وخصوصا هذا الوجه الثاني، موضع اهتمام كبير في الدراسات القرآنية القديمة، لذلك كان التأليف فيه نادرا.

---

(91) من علماء القرن الرابع الهجري، أغفلت مصادر التراجم ذكره يعرف بأبي زرعة، واسمه عبد الرحمان بن زنجلة المقرىء، كان قاضيا على مذهب الامام مالك (انظر مقدمة كتابه المذكور).

(92) هو مكي بن أبي طالب حموش الأندلسي القيسي. مقرىء، عالم بالتفسير والعربية. من أهل القيروان. له كتب كثيرة في القراءات والتفسير والتجويد، توفي سنة 437هـ. (الأعلام : 214/8)

ومن الكتب التي أُلفت فيه كتاب «بغية الواصل إلى معرفة الفواصل»[93]، ذكره السيوطي ضمن مراجعه في كتاب «الإتقان». ولم ينقل عنه شيئا[94].

وكتاب «إحكام الرأي في أحكام الآي»[95] لم يصل هو أيضا، وإنما وصلت نقول عنه أكملها ما جاء في كتاب «الإتقان» للسيوطي.

ويبدو من تلك النقول أن الكتاب اهتم على وجه الخصوص بالتناسب في الفواصل. ونقل عنه أنه قال : «اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأُصول»[96]. وقد تتبع ما وقع من تلك المخالفات في فواصل القرآن الكريم[97].

وصلة هذا العلم بموضوع التناسب واضحة، ويمكن إجمالها في وجهين :

ـــ تناسب ألفاظ الفواصل وحروفها، وهذه دعامة كبيرة في التناسب الإيقاعي القرآني.

ـــ تناسب معاني الفواصل أو خواتم الآيات مع الآية، وهذا الوجه يشترك فيه التناسب المعنوي والإيقاعي معا.

تلك نبذة عن جهود الدارسين القدماء التي تتصل من قريب أو بعيد بموضوع التناسب القرآني. ويبدو من خلال هذه النبذة أن تلك الجهود تفرقت في فروع كثيرة من أنواع علوم القرآن. أهمها : علم المناسبة، وعلم توجيه متشابهات القرآن، وعلم توجيه القراءات، وعلم الفواصل، وكل فرع من هذه الفروع يهتم بوجه من أوجه التناسب، فالأول يهتم بالتناسب المعنوي بين الآيات، والثاني يهتم بالتناسب اللفظي، وتناسب سياق الآيات، والثالث يعنى بالتناسب الصوتي في طرق الأداء والقراءة، والتناسب في نسق النظم. والرابع يعني بالتناسب بين الفواصل.

هكذا نرى كيف تفرقت أطراف هذا الموضوع، وبقيت متناثرة في ثنايا هذه العلوم، ولم يكتب لها حتى الآن، أن تجمع، وتنظم في دراسة علمية، تبين قيمة هذا المبدأ الجمالي الكبير في النظم القرآني.

---

(93) ألفه سليمان بن عبد القوي الصرصري الطوفي، وهو فقيه حنبلي، ولد بالعراق، ورحل إلى دمشق، وتوفي بفلسطين سنة 716هـ. الاعلام : 3 : 189.

(94) الإتقان : 8/1.

(95) ألفه شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الزمردي المعروف بابن الصائغ، مصري، درس بالجامع الطولوني وغيره، وتوفي سنة 776، له مؤلفات عدة. (الأعلام : 66/7).

(96) الإتقان في علوم القرآن : 99/2.

(97) سيأتي بيانها في الباب السادس من هذه الدراسة.

II ـ التناسب في الدراسات القرآنية الحديثة

لم يكن حظ موضوع التناسب في الدراسات القرآنية الحديثة بأفضل من حظه في الدراسات القرآنية القديمة. فقد بقي هذا البحث مهملا، لم يلتفت إليه الباحثون، ولم تعره دور النشر شيئا من اهتماماتها. فكتاب برهان الدين البقاعي «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، الذي لم يكن له في بابه نظير بقي منسيا بين المخطوطات زمنا طويلا، فلم تر طبعته الأولى النور إلا في عام 1969م، بعد أن طبع بحيدر آباد، ولم ينشر كتاب جلال الدين السيوطي «تناسق الدرر في تناسب السور» في طبعة محققة إلا سنة 1987م.

أما كتاب ابن الزبير المسمى «بالبرهان في تناسب سور القرآن»، فإنه ـــ على ما بذل من جهد في جمعه وتحقيقه ـــ لم يكتب له أن يطبع إلى اليوم.

ولم تحظ مكتبة الدراسات القرآنية الحديثة، فيما يختص بموضوع التناسب، إلا بكتيب صغير ألفه أحد علماء المغرب المحدثين، هو عبد الله محمد الصديق الغماري الطنجي، وسماه : «جواهر البيان في تناسب سور القرآن»[98]. وقد أشار في مقدمته إلى أن كتابه هذا هو ثالث في بابه، بعد كتابي ابن الزبير والسيوطي المذكورين.

على أن بعض الدارسين المحدثين تناولوا بعض أوجه التناسب في النظم القرآني في ثنايا دراساتهم المتعلقة بإعجاز القرآن، أو ببعض خصائصه الأسلوبية، أو ببلاغته أو بعلومه عامة. كمصطفى صادق الرافعي، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد بدوي، وسيد قطب، وصبحي الصالح وغيرهم.

وسنحاول أن نقدم في هذا الفصل عرضا موجزا لجهود هؤلاء، وسنهتم بتوضيح ما أضافوه من جديد في دراسة هذا الموضوع، وإبراز الوجه أو الوجوه التي حظيت منهم بالحظ الأوفر من العناية.

1 ـ جهود الرافعي

خص الرافعي الجزء الثاني من كتابه «تاريخ آداب العرب» لموضوع القرآن وإعجازه. ونهج في دراسة الإعجاز القرآني نهجا جديدا، عني فيه بإبراز القيمة الجمالية لتركيب الأصوات وتلاؤمها وتناسب الألفاظ وحسن ائتلافها.

---

(98) ذكر المؤلف في خاتمته أنه فرغ من تأليفه سنة 1385هـ.

وقد انطلق في ذلك من إيمانه بأن الشطر الأكبر من جمال اللغة العربية يكمن في حسن ائتلاف أصواتها، وتلاؤم حروفها، وانتظام كلماتها، ففي ذلك سر الفصاحة التي كان العرب جميعا يخشعون لها، وهو سر يرجع — كما يقول الرافعي — «إلى مناسبة التركيب في أحرف الكلمة الواحدة، ثم ملاءمتها للكلمة التي بإزائها، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه، حتى يكون كالنغم الذي يصب في الآذان صبا، فيجري أضعفه في النسق مجرى أقواه، لأن جملته مفرغة على تناسب واحد»[99].

ومن ثم كانت عناية الرافعي بأوجه التناسب الصوتي واللفظي في لغة القرآن ونظمه أكثر من اهتمامه بالتناسب المعنوي بين الآيات.

وسر إعجاز القرآن موجود في النظم — كما يرى — «وجهات النظم ثلاث : في الحروف، والكلمات، والجمل...

«والقرآن إنما اطرد له الإعجاز من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحروف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة..

«ومن جهة أنه استوفى أحسن ما يتأتى في اللغة العربية من مناسبة التركيب، فأتلفت في نظمه المواد اللغوية بطريقة تجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتشابه»[100].

أ ـ تناسب الأصوات :

وأوضح الرافعي بطريقة تطبيقية كيف تتناسب الأصوات والحروف والحركات في النظم القرآني، وكيف يؤدي كل عنصر من هذه العناصر وظيفته الخاصة في لحن موسيقي متناسب النغمات، فقدم تحليلا صوتيا إيقاعيا لتركيب الأصوات وتناسبها في بعض الآيات منها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (سورة القمر : 36) فقال : «إن الضمة ثقيلة لتواليها على النون والذال معا من (النذر)، فضلا عن جسأة هذا الحرف، ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام... ولكنه جاء في القرآن على العكس من ذلك... فتأمل هذا التركيب، وانعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف، وأجراسها، وأجر حركاتها في حسن السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال «لقد» وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء، إلى واو «تماروا» مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات، إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها، كما تكون الأحماض في الأطعمة.

(99) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط. 2، دار الكتاب، بيروت 1974، 63/2.
(100) إعجاز القرآن، ص : 237.

«ثم ردد نظرك في الراء من «تماروا»، فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء «النُّذُرِ»، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه، انتهى إليها من مثلها، فلا تجْفُ عليه ولا تغلظ، ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون «أَنْذَرَهُمْ»، وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر».. وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة»[101].

يتضح من هذا التحليل أن النهج الذي نهجه الرافعي في دراسة إعجاز القرآن يرتكز على أساس أن العناصر الصوتية والمواد اللغوية مؤلفة بصورة محكمة، يراعي فيها من النسب والمقادير ما يجعل منها لحنا لغويا متناسبا.

ولذلك ذهب إلى أن نظم القرآن إنما امتنع أن يكون في مقدور الخلق، لأنه : «تفصيل للحروف على النحو الذي يأخذ فيه تركيب الحياة من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض، لا يغني منها شيء عن شيء في أصل التركيب وحكمته، ولا يرد غيرها موردها ولا يأتلف ائتلافها»[102].

والروعة التي داخلت نفوس العرب من سماع القرآن، منبعها «أنهم رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به»[103].

يبدو من هذا العرض الموجز أن اهتمام الرافعي انصرف إلى جانب التناسب الصوتي واللفظي في القرآن الكريم، وإلى النظم الموسيقي في لغته، وكان يومن بأن حروف القرآن مرتبة باعتبار من أصواتها ومخارجها، وتناسبها في الجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير، ولذلك اجتهد في تحليل التركيب الصوتي، مستعينا بذوقه الفني، وشاعريته المرهفة، على إبراز مواطن الجمال الموسيقي في ذلك التركيب.

ب ـ جمال تناسب الفواصل :

ألتفت الرافعي إلى فواصل القرآن الكريم، فأكد قيمتها في جمال النظم الموسيقي، ثم أشار إلى أنها «متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت، والوجه الذي يساق عليه... وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن»[104].

---

(101) إعجاز القرآن، ص : 227ـ228.

(102) نفسه، ص : 238.

(103) نفسه، ص : 214.

(104) نفسه، ص : 216.

وقال : «وهذه طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه...

«وانفرد القرآن بهذا الوجه للعجز، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها، أو أبدل بغيره، أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللا بينا في نسق الوزن، وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ولرأيت لذلك هجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع إجزاؤه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا، وخرج بعضها عرضا»(105).

ج ـ تناسب الألفاظ :

تحدث الرافعي عن تناسب الألفاظ في النظم القرآني ضمن فصل بعنوان : «الجمل وكلماتها»، فأوضح أن «ألفاظ هذا الكتاب الكريم، كيفما أدرتها وتأملتها، لاتصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والانسجام العذب... لا يمنعها اختلاف حروفها وتباين معانيها، وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرا واحدا في الطبع والصقل... تختلف ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة... فأنت ما دمت في القرآن لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب، وموضع التأليف، وألوان التصوير وأغراض الكلام»(106).

«إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، لا يتفاوت ذلك ولا يختل»(107).

ويرى الرافعي أن القرآن امتاز في نظم ألفاظه بميزة خاصة هي «روح التركيب». ويعني بذلك أن العناصر اللفظية امتزجت فيه على نسب خاصة، فتآلفت وتآخت بصورة لا مثيل لها في كلام آخر.

بهذه الميزة انفرد نظم القرآن، وخرج مما يطيقه الناس، «ولولاها لم يكن بحيث هو، كأنما وضع جملة واحدة، ليس بين أجزائه تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم، فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب»(108).

---

(105) إعجاز القرآن، ص : 217.
(106) نفسه، ص : 240—241.
(107) نفسه، ص : 242.
(108) نفسه، ص : 247.

ويرى أن العجب ليس في تخير ألفاظ القرآن، وإنما العجب أن تستجيب ألفاظ القرآن على هذا الوجه المعجز. «وأي معنى أعجب من أن تتجاذبك معاني الوضع في ألفاظ القرآن، فترى اللفظ قارا في موضعه، لأنه الأليق في النظم، ثم لأنه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية، مما يتقدمه أو يترادف عليه، حتى خرج بذلك كله في تركيب، قصر معارضته أن تنتهي إليه بعينه، ولا مثل له إلا ما يتردد منه على لسان قارئه»[109].

تلك نبذة من كلام الرافعي الذي أوضح به بعض أوجه التناسب الصوتي واللفظي وقيمتها في إعجاز النظم الموسيقي الذي امتاز به القرآن.

ويعد الرافعي أول من عني من المحدثين بقيمة الأصوات اللغوية، وجمال نظمها، وبقيمة الألفاظ وحسن تأليفها في النظم القرآني، ولعله كان قد أحس، وهو شاعر قوي الإحساس، بقيمة الصوت واللفظ في جمال العبارة، وأحس بأن بحوث الإعجاز والبلاغة القديمة، لم تتعمق في دراسة هذا الجانب من الإعجاز القرآني.

لذلك اتجه في دراسته اتجاها جديدا، فلم يشغل نفسه بأساليب البيان والبديع، ولا بالمعاني وخصائص التراكيب، مما كانت بحوث الإعجاز القديمة تعنى به.

د ـ تناسب المعاني :

لم ينل هذا الوجه من التناسب القرآني إلا حظا قليلا جدا من عناية الرافعي، لذلك لم يعقد له في كتابه فصلا خاصا، واكتفى بالإشارة إليه على هامش حديثه عن تناسب الألفاظ، وعد تناسب المعاني من أعجب ما اتفق في القرآن من وجوه الإعجاز، ذلك أن معاني القرآن تجري في مناسبة الوضع وإحكام النظم مجرى ألفاظه في التناسب. يقول : «وبالجملة، فإن هذا الإعجاز في معاني القرآن أمر لا ريب فيه، وهو أبلغ في معناه الإلهي، إذا انتبهت إلى أن السورة لم تنزل على هذا الترتيب، فكان الأحرى ألا تلتئم، وأن لا يناسب بعضها بعضا، وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب، ولكنه روح من أمر الله تفرق معجزا فلما اجتمع اجتمع له إعجاز آخر»[110].

وأشار إلى هذا الوجه إشارة أخرى عابرة في معرض كلام له أجمل فيه المنهج التحليلي الذي يراه صالحا لإظهار إعجاز القرآن، فقال : «واعلم أنه ليس من شيء يحقق إعجاز القرآن من هذه الجهة إلا تأمله، وإطالة النظر في كل معنى من معانيه، وفي طبيعة هذا المعنى، ووجه تأديته إلى

(109) إعجاز القرآن، ص : 247.

(110) نفسه، ص : 244.

النفس، وما عسى أن تعارضه النفس به، أو تدافعه وتلتوي عليه من قبله، ثم طبقات هذا المعنى بعينه، وتقديرها على طبقات الإفهام، واعتبارها بما هو أبلغ في نفسه، وأعم في وضعه، ثم وجه ارتباط ذلك بما قبله، واندماجه فيما بعده، ومساوقته لإشباهه ونظائره، حيث اتفق منها في الكلام شيء، ثم تدبر الألفاظ على حروفها وحركاتها، وأصواتها ولحونها، ومناسبة بعضها لبعض في ذلك، والتغلغل في الوجوه التي من أجلها اختير كل لفظ في موضعه، أو عدل إليه عن غيره، من حيث موافقته لمعنى الجملة ونظمها، ومن حيث دلالته في نفسه، وملاءمتها لغيره...»[111].

والخلاصة أن الرافعي قد اجتهد في إبراز بعض أوجه التناسب في النظم القرآني، وكان التناسب الصوتي واللفظي أكثر الوجوه استئثارا باهتمامه.

2 ـ جهود سيد قطب :

يعد سيد قطب من أكثر الدارسين المحدثين توسعا في دراسة أوجه التناسب في النظم القرآني، وأعمقهم نظرا. وقد تناول هذا الموضوع ضمن حديثه عن «التصوير الفني في القرآن».

وبدأ حديثه في هذا الموضوع بتقديم عرض موجز لما سبق الدارسون قبله إلى الكشف عنه من ألوان التناسب القرآني. ومن تلك الألوان :

1 ــ ذلك التنسيق في تأليف العبارة بتخير الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص، يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، وقد أكثروا من القول في هذا اللون :

2 ــ ومنها ذلك الإيقاع الموسيقي الناشىء من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص...

3 ــ ومنها تلك النكت البلاغية التي تنبه إليها الكثيرون : كالتعقيبات المتفقة مع السياق، كأن تجيء الفاصلة : «وهو على كل شيء قدير» بعد كلام يثبت القدرة. «وإن الله عليم بذات الصدور»، بعد كلام في واد العلم المستور... وكأن يعبر بلفظ «الرب» في مواضع التربية والتعليم، مثل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (سورة العلق : 1)، بينما يعبر بلفظ «الله» في مواضع التأليه والتعظيم، مثل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ (سورة لقمان : 34).

4 ــ ومنها ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.

5 ــ ولعل أرقى نوع من التناسب تنبهوا إليه ــ كما يرى سيد قطب ــ وهو هذا التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص والخطوات النفسية التي تصاحبها[112].

(111) إعجاز القرآن، ص : 259

(112) أنظر مثلا تفسير الفاتحة عند الزمخشري في الكشاف : 64/1.

بعد هذا العرض انتقل الباحث إلى دراسة ألوان من التناسب التي تتجلى بوجه خاص من خلال أساليب التصوير الفني في القرآن، ومضى في هذه الدراسة يرتقي بالتدريج من المستويات الأدنى إلى مستويات أرقى من التناسب :

«أ ــ هناك المواضع التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها، فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنفال : 22)، تطلق عادة على الحيوان، وإن كانت تشمل الإنسان، لأنه يدب على الأرض، ولكن شمولها هذا للإنسان، ليس هو الذي يتبادر إلى الذهن، لأن للعادة حكمها في الاستعمال. فاختيار كلمة «الدواب» هنا، ثم تجسيم الحالة التي تمنعهم من الانتفاع بالهدى بوصفهم «الصم البكم» كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية التي يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يومنون[113].

ب ــ وقد يستقل لفظ واحد ــ لا عبارة كاملة ــ برسم صورة شاخصة، لا لمجرد المساعدة على إكمال معالم الصورة ــ وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير ــ تسمع الأذن كلمة «اثاقلتم» في قوله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة التوبة : 38)، فيتصور الخيال ذلك الجسم المثاقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل، ولو أنك قلت : تثاقلتم لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقل برسمها». وأمثلة هذا اللون كثيرة في القرآن[114].

ج ــ وهناك تلك المقابلات الدقيقة بين الصورة التي ترسمها التعبيرات. من ذلك هاتان الصورتان للبث والجمع في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (سورة الشورى : 29). فصورة بث الدواب وجمعها تلتقيان في سطر، بينما الخيال نفسه يكاد يستغرق مدى أطول في تصورهما... وهذه المقابلة تكاد تطرد في صور النعيم والعذاب[115].»

ولما انتهى الباحث من عرض هذه الألوان من التناسب في أساليب التصوير القرآني، انتقل إلى ألوان أخرى أبعد وأرقى من الأولى، منها :

1 ــ التناسب الإيقاعي :

وأشار إلى أن في القرآن إيقاعا موسيقيا متعدد الأنواع، يتناسق مع الجو، ويؤدي وظيفة أساسية في البيان، وتحدث عن نظام الفواصل وتنوعه في السور المختلفة، وفي السورة الواحدة، تبعا

---

(113) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط. 5، 1979، ص : 75.

(114) نفسه، ص : 76.

(115) نفسه، ص : 80.

لتنوع المواقف والأغراض، وستأتي الأمثلة التي حللها في القسم الخاص بالتناسب الإيقاعي من هذه الدراسة[116].

ب ـ التناسب في تركيب الصور الفنية :

يرى سيد قطب أن القرآن يراعي ــ حين يرسم صورا، أو يعرض مشاهد ــ أدق مظاهر التناسق الفني في تركيب الصور، وتوزيع أجزائها، واختيار ألوانها. ومن السور القصيرة التي يظهر فيها هذا اللون من التناسب سورة «الفلق». فالجو الذي أريد إشاعته فيها هو جو التعويذة بما فيه من خفاء وغموض وإبهام.

و«الفلق» ــ فيما ذهب إليه الباحث ــ هو الفجر، لأنه أنسب في الاستعاذة به من ظلام لِما جاء بعده في السورة. «يعوذ، إذن، برب الفجر «ومن شر ما خلق» هكذا بالتنكير، وبـ«ـما» الموصولة الشاملة المبهمة، وفي هذا التنكير والشمول يتحقق الغموض والظلام المعنوي في العموم، «ومن شر غاسق إذا وقب»، يعنى من الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء، «ومن شر النفاثات في العقد»، وجو النفث في العقد من الساحرات والكواهن، كله رهبة وخفاء وظلام، بل هن لا ينفثن غالبا إلا في الظلام، «ومن شر حاسد إذا حسد»، والحسد انفعال باطني مطمور في ظلام النفس...

فالجو كله ظلام ورهبة وخفاء وغموض، هو يستعيذ من هذا الظلام بالله، والله رب كل شيء، فلم خصه هنا برب «الفلق» ؟ خصه به لينسجم مع جو الصورة كلها، ولقد كان من المتبادر إلى الذهن أن يعوذ من الظلام برب النور، ولكن الذهن ليس هو المحكم، إنما المحكم هو حاسة التصوير الدقيق، فالنور يكشف الغموض المرهوب، ولا يتسق مع جو «الغسق» و«النفث في العقد»، ولا مع جو الحسد. و«الفلق» يؤدي معنى النور من الوجهة الذهنية، ثم يتسق مع الجو العام من الوجهة التصويرية، وهي مرحلة قبل سطوع النور، تجمع بين النور والظلمة، ولها جوها الغامض المسحور»[117].

ج ـ التناسب في عرض المشاهد والصور :

بعض المشاهد والصور القرآنية يمر سريعا خاطفا، وبعضها يطول، وكل ذلك يتم تحقيقا لغرض خاص في الصورة أو المشهد، يتسق مع الغرض العام ويتم به التناسق في الإخراج.

---

(116) التصوير الفني في القرآن، ص . 84ــ94.
(117) نفسه، ص : 95.

يريد القرآن أن يصور للناس قِصر الحياة الدنيا التي تلهيهم عن الآخرة فيقول : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ (سورة الكهف : 45). وانتهى شريط الحياة كله في هذه الجمل القصيرة، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة.

د ـ التناسب بين الصورة وبين إطارها :

ومن أمثلة هذا اللون سورة «الضحى».

«والجو في هذه السورة ــ كما يرى سيد قطب ــ هو جو الحنان والرحمة الوديعة، والرضا الشامل، والشجى الشفيق. فلما أراد القرآن إطارا لهذا الحنان اللطيف والرضا الشامل جعله إطارا من الضحى الرائقَ ومن الليل الساجي «والضحى والليل إذا سجى» وهما أصفى آنين من آناء الليل والنهار... الليل الساجي الذي يصفو ويرق، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيق، كجو اليتيم... ويعقبه الضحى الرائق... فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار، ويتم التناسق والاتساق»[118].

تلك خلاصة سريعة لجهود سيد قطب في دراسة التناسب القرآني وقد كان أحسن من تعمق في هذا الباب. وإذا كان لأحد من المحدثين فضل في فتح أبواب جديدة لبلاغة القرآن، والكشف عن أوجه رفيعة من التناسب في هذه البلاغة، فلهذا الرجل الذي ارتاد في دراسته آفاقا جديدة، فكشف النقاب عن أوجه من التناسب في النظم القرآني لم يكشف عنها أحد قبله.

3 ـ جهود محمد عبد الله دراز

تناول مبحث التناسب القرآني بشيء من التفصيل في كتابه «النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن»، لكنه اقتصر فيه على وجه واحد، هو التناسب المعنوي ووحدة السورة.

وقد بدأ بعرض الأسباب التي اجتمعت على القرآن، وكانت جديرة أن تجعل نظم السورة منه مفككا، متباين الأجزاء. وهي أسباب ثلاثة :

أولها : أن القرآن بما امتاز به أسلوبه من اجتناب سبيل الإطالة، والتزام جانب الإيجاز، صار أسرع الكلام تنقلا بين شؤون القول : من وصف إلى قصص، إلى تشريع جدل، إلى ضروب شتى، وهذا مما يجعل الحفاظ على تناسب المعاني أمرا عسيرا.

وثانيها : أن القرآن لم يكن ينزل بهذه المعاني جملة واحدة، بل كان ينزل بها آحادا متفرقة، على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وهذا الانفصال الزماني بينها، والاختلاف الذاتي بين

---

(118) التصوير الفني في القرآن، ص : 103.

دواعيها كان بطبيعته مستتبعا لانفصال الحديث عنها على ضروب من الاستقلال، لايدع بينها منزعا للترابط.

ثالثها : هو تلك الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السورة من تلك النجوم[119].

هذه الأسباب الثلاثة على تظافرها لم تستطع أن تنال من استقامة النظم في السور القرآنية، والدليل على ذلك أننا ــ يقول الباحث ــ : «لو عمدنا إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها ! وتتبعناها مرحلة مرحلة، وتدبرناها كيف بدئت، وكيف ختمت، كيف تقابلت أوضاعها وتعادلت، وكيف تلاقت أركانها وتعانقت... لو تدبرنا ذلك لوجدنا ائتلافا وتناسبا بين المعاني والمباني، ولبدت لنا السورة، وكأنها نزلت في نجم واحد»[120].

ـ قواعد لدراسة التناسب المعنوي :

أوضح هذا الباحث بعض القواعد التي يتوقف عليها درس التناسب المعنوي في كل سورة، ومنها :

1 ــ أن لا يتقدم الناظر في وحدة السورة إلى البحث في الصلات الموضوعية التي تربط بين الآيات، إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها، على وجه يكون معوانا له على السير في تلك التفاصيل على بينة.

2 ــ أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني دائما اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما... بل الحديث في النظم القرآني ذو شجون، ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة... وعلى هذا النهج ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها... وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم.

«وملاك الأمر في ذلك أن ينظر إلى النظام العام الذي بنيت عليه السورة بمجموعها»[121].

وبعد الانتهاء من عرض هذه الأصول المنهجية، قدم هذا الدارس دراسة تطبيقية درس فيها سورة «البقرة»، وأوضح التناسب بين أجزائها ومعانيها. اختار هذه السورة، لأنها أطول سورة في القرآن، وأكثر جمعا للمعاني المختلفة، وأكثرها في التنزيل نجوما، وأبعدها في هذا التنجيم تراخيا. منها ما نزل في أول السنة الثانية من الهجرة، ومنها ما نزل في آخر السنة العاشرة من الهجرة.

---

(119) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت 1984، ص : 144ــ145.
(120) نفسه، ص : 153ــ154.
(121) نفسه، ص : 158ــ163.

ولا يتسع المجال في هذا العرض لتقديم تفصيلات هذه الدراسة التطبيقية. وحسبنا أن نقدم التصميم العام الذي وضعه لموضوعات سورة البقرة، وهو كما يأتي :

1 ـــ المقدمة في التعريف بشأن القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح، لا يتردد فيه ذو قلب سليم.

2 ـــ المقصد الأول : في دعوة الناس كافة إلى الإيمان به.

3 ـــ المقصد الثاني : في دعوة أهل الكتاب خاصة إلى الدخول في الإسلام واتباع الحق الذي جاء به القرآن.

4 ـــ المقصد الثالث : في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا.

5 ـــ المقصد الرابع : ذكر الوازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع، ويعصم عن مخالفتها.

6 ـــ الخاتمة في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة[122].

وختم تحليله هذا بقوله : «لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعات الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه في حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، ومعجزات... فإن ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات»[123].

إن جهود هؤلاء الباحثين الثلاثة، التي عرضناها باختصار، هي أهم ما في مكتبة الدراسات القرآنية الحديثة، مما يتعلق بالتناسب القرآني.

لقد تناول غير هؤلاء الثلاثة هذا الموضوع لكنهم لم يتعمقوا فيه، واكتفوا بعرض ما وقفوا عليه في الدراسات القرآنية القديمة. لذلك لا نرى حاجة إلى الإطالة بعرض ما كتبوه.

4 ـ إنكار التناسب المعنوي

انفرد أحد المفسرين المحدثين بإنكار التناسب المعنوي في القرآن، هو الشوكاني[124] وقد استدل على رأيه بدليلين هما :

1 ـــ أن القرآن نزل على رسول الله ﷺ مفرقا على حسب الحوادث، وأن تلك الحوادث متخالفة، بل قد تكون متناقضة، فتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحينا في عبادة، وحينا في معاملة.

---

(122) النبأ العظيم، ص : 168ـــ171.

(123) نفسه، ص : 211.

(124) هو محمد بن علي الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، نشأ بصنعاء وولي قضاءها، ومات حاكما بها سنة 1250هـ له مؤلفات كثيرة. (الأعلام : 190/7).

2 ــ أن الله أنزل القرآن بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وقد كان الخطيب منهم يقوم المقام الواحد، فيأتي فيه بفنون متخالفة وطرائق متباينة، فضلا عن المقامين، فضلا عن المقامات[125].

ويبدو أن هذا الرأي لم يقنع أحدا من الدارسين المحدثين، لذلك لم يلتفتوا إليه، والحقيقة أن الدليلين اللذين ساقهما الشوكاني على رأيه لا يقنعان أحدا، ولسنا ندري كيف اقتنع بهما هو نفسه بعد ما بذله كبار علماء السلف من جهد في وضع علم المناسبة، وإدماجه ضمن علوم القرآن.

ومن المحدثين من مال إلى التوسط في الرأي، فلم ينكر التناسب بين الآيات إطلاقا. ذهب إلى هذا الرأي صبحي الصالح[126] في كتابه «مباحث في علوم القرآن». فقد اشترط لوجود التناسب المعنوي في القرآن ــ كما رأينا عند العز بن عبد السلام ــ أن تقع الآيات في أمر متحد مرتبط أوله بآخره. يقول : «إن الترتيب التوقيفي للآيات لا يقتضي عقلا بارتباط إحداهما بالأخرى، إذا وقعت كل منهما على أسباب مختلفة، وإنما يغلب في السورة الواحدة أن تكون ذات موضوع واحد بارز كلي، تأتلف عليه جزئياتها كلها».

ومعيار التناسب يرجع «إلى درجة التماثل أو التشابه بين الموضوعات، فإن وقع الكلام في أمور متحدة مرتبطة أوائلها بأواخرها، فهذا تناسب معقول مقبول، وإن وقع على أسباب مختلفة، وأمور متنافرة فما هو من التناسب في شيء»[127].

تلك نبذة مختصرة عن جهود الدارسين المحدثين وآرائهم في دراسة التناسب القرآني، يتضح منها أن من هؤلاء من بذل جهودا قيمة في ارتياد آفاق جديدة من التناسب في النظم القرآني.

غير أن هذه الجهود بقيت إلى الآن متناثرة في أماكن متفرقة وبين فصول دراسات، لم يكن التناسب من غرضها، وإنما وردت الإشارة إليه في ثنايا البحث في إعجاز القرآن عموما، أو في ثنايا دراسة لبعض خصائص الأسلوب القرآني.

ومن هنا يتضح أن موضوع التناسب القرآني بحاجة إلى دراسة خاصة تجمع شتاته، وتبرز قيمته الجمالية والبيانية في بلاغة القرآن.

وهذه الدراسة محاولة صادقة لإبراز أوجه التناسب في النظم القرآني : معانيه ومبانيه، وأصواته وإيقاعه.

---

(125) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، ط. 1، 1350، 72/1ــ73. وانظر كتاب الإمام الشوكاني مفسرا، ص : 214ــ216.

(126) هو أستاذ جامعي من لبنان، معاصر، من أئمة جماعة المسلمين السنيين، اغتيل عام 1986 في بيروت في غمار الحرب الأهلية.

(127) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ط. 12، دار العلم للملايين، بيروت 1981، ص : 152.

القسم الأول

التَّنَاسُبُ المعْنَوِيُّ في النَّظْمِ القُرآني

الباب الأول

تَنَاسُب المَعَاني المتوافقة

الفصـــل الأول

التناسب المعنوي ووحدة السورة

من أبرز مظاهر التناسب المعنوي في القرآن وحدة الموضوع والهدف في كل سورة.

ولفظ «السورة» يحمل في طي دلالاته معنى الإحاطة وتوحيد الأجزاء المتعددة.

فالسورة هي القطعة من القرآن، وقيل سميت بهذا الإسم تشبيها لها بسور البناء، أي القطعة منه، وقيل أخذت من سور المدينة، لإحاطتها بآياتها واجتماعها، كاجتماع البيوت بالسور ومنه السوار، لإحاطته بالساعد[1].

وقال الجعبري[2] : «الحكمة في تقطيع القرآن سورا، أن تكون كل سورة، بل كل آية، فنا مستقلا وقرآنا معتبرا، وفي تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله تعالى»[3].

وذكر الزمخشري فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سورا، وأوضح أن من فوائد ذلك أن التفصيل يسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم[4].

وتسمية السورة بهذا الإسم توفيقية. قال الجاحظ : «سمى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمى جملته قرآنا، كما سموا ديوانا، وبعضه سورة، كقصيدة، وبعضه آية، كالبيت، وآخرها فاصلة، كقافية»[5].

---

(1) البرهان في علوم القرآن 263/1—264.

(2) هو العلامة ابراهيم بن عمر بن ابراهيم الجعبري صاحب شرح الشاطبية المسمى كنز المعاني، وكتاب عقود الجمان، وروضة الطرائف في رسم المصاحف وغيرها... توفي سنة 732هـ.

(3) البرهان في علوم القرآن : 264/1.

(4) نفسه : 265/1.

(5) الإتقان في علوم القرآن : 50/1.

وتناسب المعاني والآيات داخل حدود السورة، واستمرار التناسب والارتباط المتين بين أجزائها من دلائل بلاغة القرآن وإعجازه.

I ـ آراء في وحدة السورة

1 ـ رأي الباقلاني :

ذكر الباقلاني جملة من الخصائص التي ينفرد بها النظم القرآني، فجعل منها قوة الارتباط والائتلاف والتناسب، وأشار إلى أن كلام الفصحاء من البشر «يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم...

والقرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف»(6).

قرر الباقلاني هذا الأصل بطريقة مجملة في مفتتح حديثه عن إعجاز القرآن، ثم عاد إليه في ثنايا كتابه بالتفصيل، فعرض جملة من الآيات القرآنية، وأوضح ما فيها من بديع التأليف، ومحكم الارتباط، ثم انتقل إلى بيان تناسب الآيات في إطار وحدة السورة. فاختار سورة النمل، وعرض بعض أجزائها، موضحا ما بينها من ائتلاف واتصال. لفت النظر أولا إلى ما افتتحت به من تأكيد أكد به لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم، وما وصل به هذا التأكيد من ذكر قصة موسى، ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (سورة النمل : 7).

ثم قال : «فانظر إلى ما أجري إليه الكلام من علو أمر هذا النداء، وعظيم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية، وجعلها دليلا يدله عليه، ومعجزة تهديه إليه»(7).

ثم أجمل الباقلاني القول عن وحدة هذه السورة وتناسب أجزائها فقال : «ثم انظر آية آية، وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من بديع النظم وعجيب الرصف، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها من ذواتها ما يجري في

---

(6) إعجاز القرآن، ص : 38.

(7) نفسه، ص : 189.

الحسن مجراها، ويأخذ في معناها... ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، حتى يصور لك الفصل وصلا، ببديع التأليف وبليغ التنزيل»(8).

ثم عمم الحكم بهذه الصفة على القرآن بكامله، في سائر سوره، ودعا إلى إجالة الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وإلى تدبر الخواتم والفواتح، والبوادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول»(9).

ودعا إلى الموازنة بين القرآن وغيره من شعر الشعراء المفلقين الذين يتفاوت كلامهم.

2 ـ رأي فخر الدين الرازي :

يعد الرازي من أكثر المفسرين عناية بتناسب الآيات في تفسير القرآن. وتفسيره «مفاتيح الغيب» حافل بالبحث في لطائف التناسب المعنوي. وقد قال : «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»(10).

وقال في تفسير سورة الفاتحة : «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن، كما هو معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته»(11).

3 ـ رأي مصطفى صادق الرافعي :

تحدث الرافعي عن الترابط القوي بين عناصر النظم القرآني، وسمى هذا الترابط بـ«روح التركيب»، وأشار إلى أن هذه الروح التركيبية هي التي تميز القرآن عن غيره، لأنها لم تعرف قط في كلام عربي، ويمتاز القرآن بهذه الوحدة على الرغم من تعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام، كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال والجدل والتشريع إلى غير ذلك مما يدور عليه...

«ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس، وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازا، كما تعرفه من كلام البلغاء عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها»(12).

---

(8) إعجاز القرآن، ص : 190.

(9) نفسه، ص : 193.

(10) نقلا عن البرهان في علوم القرآن : 36/1.

(11) عن الإتقان في علوم القرآن : 108/2.

(12) إعجاز القرآن، ص : 245.

«...وإنما وقع للبلغاء هذا النقض من جهة التركيب، إذ ليس في كلامهم روح كروح النظم في القرآن، ولا هذه الروح مما تطوعه قوى الخلق»[13].

4 ـ رأي محمد عبد الله دراز :

تحدث عن الطريقة التي نزل بها القرآن، والطريقة التي ألفت بها نجومه، وعن خاصة الإيجاز وسرعة التنقل من معنى إلى معنى ومن أسلوب إلى آخر، وأوضح أن هذه المعاني الثلاثة كانت أسبابا قوية لجعل نظم القرآن مفككا، تتباين معانيه وتتنافر أجزاؤه.

غير أن هذه الأسباب لم تنل من استقامة النظم القرآني وتناسب معانيه شيئا.

وقال : «ولو أنك عمدت إلى السورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن ! فهي جمهرته، وتنقلت بفكرك معها مرحلة مرحلة، كيف بدئت، ختمت، وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت، وكيف تلاقت أركانها وتعانقت، وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها، فلن تجد في نظام معانيها ومبانيها البتة ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى»[14].

«أجل، إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حُشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جُمعت عفوا، فإذا هي لو تدبرت، بنية متماسكة، بُنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد، قد وضع رسمه مرة واحدة»[15].

5 ـ رأي سيد قطب :

يرى أن منبع «السحر» في القرآن يكمن في وحدة نسق السورة. تحدث عن سحر القرآن وتأثيره العجيب في النفوس، وساق أمثلة ممن أسلموا من كفار قريش تأثرا بسماع آيات من القرآن.

كما أورد اعتراف بعض من عاند منهم، كالوليد بن المغيرة، الذي حكى عنه القرآن أنه قال بعد أن فكر وقدر في أمر القرآن : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (سورة المدثر : 24).

ونفى أن يكون هذا السحر في التشريع المحكم، ولا في الإخبار بالغيب، ولا في الحقائق العلمية، مما ذكره غيره لتعليل قوة تأثير القرآن، وقال : «يجب إذن أن نبحث عن منبع هذا

---

(13) إعجاز القرآن، ص. 245.

(14) النبأ العظيم، ص : 142ـ146.

(15) نفسه، ص. 155.

السحر في القرآن قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل العلوم الكونية، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة»[16].

ثم أشار إلى أن هذا السحر كان كامنا في مظهر آخر ينبغي التماسه في تلك السور التي بدأ بها نزول القرآن. واختار من تلك السور التي بدأ بها نزول القرآن. سورة العلق، وهي أول ما نزل. فأوضح أنها تضم خمس عشرة فاصلة قصيرة، ربما تلوح أنها تشبه «سجع الكهان»، أو «حكمة السجاع». ولكن العهد في هذه وتلك أنها جمل متناثرة، لا رابط بينها ولا اتساق. ثم تساءل هل هذا هو الشأن في سورة العلق ؟ فأجاب : لا. فهذا نسق متساوق، يربط فواصله تناسق داخلي دقيق، ثم حلل السورة، وعرض ما تناولته من المعاني، ثم خلص إلى تأكيد وحدتها فقال : «وهذه الفواصل التي تبدو في الظاهر متناثرة هي ــ هكذا من الداخل ــ متناسقة»[17].

II ـ من مظاهر وحدة السورة

لا يتسع المجال في هذا الفصل لعرض سور بكاملها، لأن رصد ما بين الآيات، أو المعاني الجزئية في سورة بكاملها يقتضي تفصيلا لمضمونها، وبيانا لما يربط كل آية بما قبلها وما بعدها. وهذا عمل إلى التفسير العام أقرب منه إلى الدراسة الأسلوبية.

ويمكن إثبات وحدة السورة بعرض بعض مظاهر التناسب التي تجمع بين أجزائها... كالتناسب بين فاتحتها وموضوعها، والتناسب بين مطلعها وخاتمتها، والتناسب بين الحلقات القصصية وبين موضوعات السور التي تعرض فيها.

1 ـ التناسب بين مطلع السورة وموضوعها :

استهلال الكلام بما يشير إلى موضوعه والغرض المقصود منه من أساليب التعبير البليغ، ويسميه علماء البلاغة «براعة الاستهلال» و«حسن الابتداء»، وقالوا : «هو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله...

«والعَلَمُ الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده»[18].

---

(16) التصوير الفني في القرآن، ص : 16.
(17) نفسه، ص : 17.
(18) الإتقان في علوم القرآن : 106/2.

«وقد وجه ذلك بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت عليها الأديان، أربعة : علم الأصول، ومداره على معرفة الله تعالى وصفاته، وإليه الإشارة بـ«رب العالمين الرحمن الرحيم»، ومعرفة النبوات، وإليه الإشارة بـ«الذين أنعمت عليهم»، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة بـ«ملك يوم الدين»...

«وعلم السلوك، وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية، وإليه الإشارة بـ«إياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم».

وعلم القصص، وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية... وإليه الإشارة بقوله : «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال»[19].

ا ــ براعة الاستهلال في سور القرآن :

أولا : من أوضح أمثلة التناسب بين السور وفواتحها سورة النساء، فإنها لما تضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس، وهي نوعان : مخلوقة لله، ومقدرة لهم، كالنسب والصهر. ولما تضمنت أحكام النساء والميراث بالتفصيل، فقد افتتحت بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيراً وَنِسَاءً، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (سورة النساء : 1).

فتأمل هذه المناسبة العجيبة في الافتتاح وبراعة الاستهلال، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما يناسب ما دارت عليه السورة من أحكام نكاح النساء وحرماته، والمواريث المتعلقة بالأرحام، فإن ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدام، ثم خلق حواء منه، «ثم بث منهما رجالا ونساء»[20].

ثانيا : ومن أوضح الأمثلة كذلك سورة المائدة، فإنها افتتحت بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ (سورة المائدة : 1)، لأنها تضمنت بيان الشرائع وما أخذ على الأمة من المواثيق، وبها تم الدين، فهي سورة التكميل، وفيها تحريم الصيد على المُحْرِم، وتحريم الخمر، وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين، وإحلال الطيبات، ولهذا كثر فيها ألفاظ الإكمال والإتمام[21].

ثالثا : ومن الأمثلة على ذلك سورة الأنعام، فقد قال الله في فاتحتها : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ، ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (سورة الأنعام : 1).

---

(19) الإتقان في علوم القرآن : 106/2ــ107.

(20) نفسه : 112/2

(21) نفسه : 112/2.

ومناسبة وصف الله في هذه الفاتحة بأنه خلق الأجرام، وجعل الظلمات والنور، دون غيرها من الأوصاف هي أن السورة تناولت ذكر عبدة الأنوار، الذين جعلوا الخير من النور، والشر من الظلمة، فذكر تعالى أنه خالقُ الأنوار والأجرام التي ينشأ عنها النور والظلمة، وأعاد سبحانه في ثنايا السورة ذكر ما يدل على بطلان مذهب من عبد الكواكب والنيرات في قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً، وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام : 75ـــ79).

فظهر بهذا وجه مناسبة ما افتتحت به السورة من وصف الله تعالى بالانفراد بخلق السموات والأرض والظلمات والنور.

رابعا : ومن ذلك سورة صۤ التي افتتحت بقوله تعالى : ﴿صۤ، وَٱلْقُرْآنِ ذِي ٱلذِّكْرِ﴾ (سورة صۤ : 1).

فقد وصف القرآن في هذه الفاتحة بأنه ذو ذكر، إشارة إلى أن السورة تدور، في جزء كبير منها، على الذكر والتذكير، وقد ورد فيها الأمر بالتذكير في مواضع كثيرة. قال تعالى : ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ (سورة صۤ : 17).

وقال : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ (سورة صۤ : 41).

وقال : ﴿وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (سورة صۤ : 45).

وقال : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ (سورة صۤ : 46).

وقال : ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ (سورة صۤ : 48).

وقال : ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (سورة صۤ : 49).

وقال : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة صۤ : 87).

ومثل هذا ما في سورة مريم، فإنها افتتحت بقوله تعالى : ﴿كۤهيعۤصۤ، ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّاءَ﴾. وفي هذه الفاتحة جاء في لفظ «ذكر» مضافا إلى الرحمة وفيه إشارة إلى أن التذكير من مقاصد السورة، وقد ورد فيها الأمر بالتذكير عدة مرات.

ـــ قال تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة مريم : 41).

ـــ قال تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ (سورة مريم : 51).

ـــ قال تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ (سورة مريم : 54).

ـــ قال تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ (سورة مريم : 56).

تلك جملة من الأمثلة التي تبين أن هناك تناسبا بين السور وبين فواتحها، وقد يكون هذا التناسب واضحا، وقد يكون لطيفا لا يستخرج إلا بالتدبر.

وقد تكون فاتحة سورتين فأكثر متشابهة، ينحصر الاختلاف بينهما في كلمة واحدة، وعند البحث والتدبر يتضح أن هذا الاختلاف المحدود، يرجع إلى وجه من أوجه التناسب بين فاتحة كل سورة وموضوعها.

وأقرب مثال على هذا قوله تعالى في فاتحة سورة لقمان : ﴿أَلَمٓ، تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة لقمان : 1).

وقوله في فاتحة سورة يونس : ﴿أَلَرٰ، تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (سورة يونس : 1).

وقوله في فاتحة سورة يوسف : ﴿أَلَرٰ، تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ (سورة يوسف : 1).

فوصف «الكتاب» في الأوليين بالحكمة، ووصفه في الأخرى بصفة «المبين».

أما وصفه بالحكمة في سورتي لقمان ويونس، فلأنهما تشابهتا في عرض الآيات الدالة على عظيم حكمة الله، وإتقان صنع الأشياء. أما سورة لقمان فقد وردت فيها الإشارة إلى خلق السموات بغير عمد، وورد فيها قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (سورة لقمان : 20). وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (سورة لقمان : 34).

وفي هذه السورة أيضا ذكر ما منح لقمان من الحكمة وما انطوت عليه قصته من الحكمة، وما صدر عنه من حكمة في وصاياه لابنه. ولم تخرج آي هذه السورة عن هذا الموضوع.

وكذلك سورة يونس دارت حول آيات حكمة الله تعالى في تدبير الكون، وحياه الناس. جاء فيها : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (سورة يونس : 3). وفيها : ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ، مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ﴾ (سورة يونس : 5).

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (سورة يونس : 6).

ولم يتخلل هذه السورة ما يخرج عن باب الاعتبار من حكم أو قصص، فهذا وجه المناسبة في وصف الكتاب في مطلعي هاتين السورتين بالحكمة.

أما مناسبة وصفه في فاتحة سورة يوسف بـ«المبين» فلأن هذه السورة لم تتضمن غير قصة يوسف، وبيان ما جرى مع أبيه وإخوته، وامتحانه بإلقائه في الجُبِّ، وبيعه بثمن بخس، وابتلائه بامرأة العزيز وبالسجن، وكل ذلك بيان لقصته، لذلك وصف الكتاب في فاتحتها بـ«المبين».

ب ـ البراعة في الاستهلال بالحروف المقطعة

لم تتفق كلمة العلماء على رأي في المراد بالحروف المقطعة التي وردت في فواتح بعض السور، فذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى.

والذي يعنينا هنا من تلك الحروف، ليس هو تحديد المراد بها، وإنما وجه اختصاص كل سورة بما افتتحت به، ووجه التناسب في ذلك.

لم تكن هذه النقطة موضع اهتمام العلماء والمفسرين، فلم نجد في توضيحها إلا إشارات قليلة، منها ما أشار إليه ابن الزبير الغرناطي عندما قال : «إن هذه السور إنما وضع في كل سورة منها (يعني من تلك الحروف) ما كثر ترداده فيما تركب من كلمها... وقد اطرد هذا في أكثرها فحق لكل سورة ألا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وضع في موضع «قٓ» من سورة «قٓ» حرف «نٓ»، لم يمكن لعدم المناسبة المتأصل رعْيُها في كتاب الله تعالى»[22].

انطلق ابن الزبير من هذا المبدأ، فأخذ يبحث في أوجه المناسبة بين هذه الفواتح وبين سورها. ومن توجيهاته القريبة مما مر في هذا الفصل ما ذكره في فاتحتي كل من سورة لقمان وسورة يونس.

أما الأولى فإنها افتتحت بـ«الم»، لأنها «تضمنت من التنبيه والتحريك للاعتبار، إفصاحا وإيماء للمومن والكافر، ما لم تتضمن سورة يونس على طولها، وإن كانت آياتها كلها ـــ كما تقدم ـــ آي اعتبار، إلا أنها ليست كالوارد من ذلك في سورة لقمان. فمن التنبيه المتضمن تقريع من عبد غير الله سبحانه : ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (سورة لقمان : 11). ولا تجد مثل هذا إلا حيث تراد المبالغة في توبيخ من عبد غير الله.

(22) ملاك التأويل : 176/1ـــ177.

ومن التنبيه الوارد فيها للمومنين ولغيرهم قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة لقمان : 20)، وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ (سورة لقمان : 29)، وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ (سورة لقمان : 31)، فورد هذا التنبيه بهمزة التقرير و«لَمْ» الجازمة... وتكررت في هذه السورة في ثلاث آيات. ولم تقع متكررة في شيء مما أتى بعدها، ولا مما قبلها، مما يماثلها في عدد كلمها، ولا فيما هو على الضعف منها، إلا في سورة «فاطر» وهي أطول منها.

أما سورة يونس فهي مبنية على التعريف بربوبية الله تعالى. وقد ابتدأ ثالثة آياتها بقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (سورة يونس : 3). ثم تكرر فيها اسم «الرب» في بضعة عشر موضعا... ولم يرد من هذا في سورة لقمان إلا في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ (سورة لقمان : 33).

ثم إنه تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها. فلمجموع ما ذكر ورد «الـمّ» في فاتحة سورة لقمان و«الر» في فاتحة سورة يونس[23].

وافتتحت سورة «قّ» بهذا الحرف لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف، وهي كثيرة. ولِسِرٍّ آخر، وهو «أن كل معاني هذه السورة مناسبةٌ لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح»[24].

تلك أمثلة من الإشارات التي وردت في مصادر الدراسات القرآنية القديمة عن أوجه التناسب بين السور وبين الحروف المقطعة التي وردت في فواتحها. وهي إشارات متفرقة لا تكفي للكشف عن أسرار الفواتح في سائر السور.

وظهرت مؤخرا محاولة لوضع منهج عام يصلح لتفسير تلك الفواتح كلها، ولبيان ما بينها وبين سورها من تناسب.

قام بهذه المحاولة الباحث بدري عبد الجليل في كتاب بعنوان : «براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور» [25].

ولا يتسع المجال هنا لتقديم بيان مفصل عن الصلة بين فواتح القصائد وفواتح السور. وحسبنا أن نقدم خلاصة لرأي هذا الباحث في فواتح السور.

---

(23) ملاك التأويل : 609/1ــ612.

(24) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت)، 173/3.

(25) طبع الكتاب مؤخرا. انظر من ص : 177 إلى 250.

يرى أنها ليست ـــ كما كان معتقدا ـــ حروفا مقطعة، وإنما هي أسماء أو أدوات لها معان... ترمز إلى مضامين السور، ومن ثم عدها من براعة الاستهلال.

ويرجع في تفسير معانيها إلى الاستعمال اللغوي. ولتوضيح منهجه، نورد بعض ما ذكره في فاتحة سورة مريم وهي «كَهيعَصَ» : (كاف، ها، يا، عين، صاد) :

كـاف : في «لسان العرب» : بعير كاف : أكلت أسنانه وقصرت من الكبر حتى كادت تذهب.

ومعنى هذا أن أدوات الفعل قائمة وموجودة لكنها قاصرة. وفي «كاف» رمز إلى قصة زكريا، التي جاءت في مطلع هذه السورة، وزكريا شيخ بلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر، وكان يرغب في إنجاب الولد. لكن أداة الإنجاب لديهما قاصرة، ومع ذلك وهبه الله ولدا.

هـا : في اللغة : هاء للأمر : تأهب له وأعد نفسه لمزاولته، وفيها أيضا : كجاء، ومعناه التلبية.

وهي في فواتح السور ترمز إلى معاني التلبية من العبد لله، والاستجابة من الله سبحانه لعباده الخائفين. وترمز في سورة مريم إلى قصة مريم العذراء التي استبد بها الخوف من ألسنة الناس. وإلى استجابة الله لها، وتبديل خوفها أمنا.

يـا : في اللغة : تنبيه وتذكير، وهي في النداء والأمر، وقد تكرر الامر بالتذكير في سورة مريم أربع مرات متوالية، تقدمت الإشارة إليها.

عين : في اللغة : حقيقة الشيء. وعين كل شيء خياره. وفي السورة إشارة إلى خيار الخلق : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ (سورة مريم : 58).

صـاد : من التصدي. ولذلك ـــ يقول الباحث ـــ : «جاء عنوانا لسورة كلها تخاصم وتصديات (يعني سورة صٓ). وترمز في سورة مريم إلى الخصومة القوية، والمعارضة الشديدة للذين قالوا : ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، فقيل لهم : ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾» (سورة مريم : 89ـــ90).

هذا الرأي جدير بالاهتمام، لأنه يرتكز على الدلالات اللغوية والمعجمية للألفاظ الواردة في فواتح السور، ويبين وجه التناسب فيما ورد في فاتحة كل سورة، ولأنه يلتقي مع ما يراه جمهور العلماء، وهو أن العرب الأولين الذين نزل فيهم القرآن وخاطبهم بهذه الفواتح وتحداهم، كانوا يدركون معانيها، ولم ينقل عنهم أنهم طعنوا في القرآن من جهتها.

وعلى أي فإن التناسب بين فواتح السور سواء افتتحت بالحروف المقطعة أم لا حقيقة ثابتة، وهي من أوجه بلاغة القرآن، ومن مظاهر وحدة السور وتناسب معانيها.

2 ـ التناسب بين مطلع السورة وختامها :

من مظاهر وحدة السور، وتناسب أجزائها مناسبة مطلعها لخاتمتها. ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما لوحظ في سورة القصص التي بدئت بقصة موسى ونصرته لرجل من شيعته، وقوله عليه السلام : ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة القصص : 17). وبذكر خروجه من وطنه. وختمت بأمر محمد ﷺ بأن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة القصص : 86)، وبتسليته عن إخراجه من مكة، ووعده بالعودة إليها. وقد تقدم في مطلع السورة أن الله وعد أم موسى برد ابنها إليها بعد إلقائه في اليم. قال تعالى : ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص : 7).

ولحظ الزمخشري أن فاتحة سورة «المؤمنون» مناسبة لخاتمتها. فقد جعل الله فاتحتها : «قد أفلح المؤمنون» وجعل خاتمتها «إنه لا يفلح الكافرون»، فقابل بين المطلع والختام بالايجاب والسلب[26].

وذكر تاج القراء الكرماني في «عجائب القرآن» أن سورة «صٓ» بدئت بالذكر وختمت به. قال تعالى : ﴿صٓ وَٱلْقُرْآنِ ذِي ٱلذِّكْرِ﴾ (سورة صٓ : 1). وقال في ختامها : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة صٓ : 87).

وبدئت سورة القلم بقوله تعالى : ﴿نٓ، وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (سورة القلم : 1).

وختمت بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة القلم : 51ـــ52).

ويراعي في خاتمة السورة أن تكون مناسبة أيضا لموضوعها، أو لأهم ما تناولته من المعاني والأغراض. ومن أوضح ذلك خاتمة سورة البقرة : ﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَٱلْمُومِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ. لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَٱعْفُ عَنَّا، وَٱغْفِرْ لَنَا، وَٱرْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلاَنَا فَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة : 285ـــ286).

(26) الكشاف، عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم الزمخشري، طبعة طهران، (د. ت) : 45/3.

هذا ختام السورة الكبيرة، وإنه ليمثل تلخيصا وافيا لأعظم قطاعات السورة، تلخيصا يتناسب مع موضوعاتها وجوها وأهدافها : لقد بدئت السورة بذكر أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة... والذين يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله.

ووردت في ثناياها إشارات إلى الإيمان بالرسل جميعا. وها هي ذي تختم بقوله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.

وقد اشتملت السورة على الكثير من تكاليف الأمة المسلمة وتشريعاتها، وفي ختامها يجيء قوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

وقد تضمنت السورة بعض قصص بني اسرائيل وما قابلوا به نعم الله من جحود، وما كلفهم من كفارات، وفي ختامها يرد ذلك الدعاء الخاشع على ألسنة المومنين : «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا...﴾[27].

وختمت سورة آل عمران بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (سورة آل عمران : 200).

وهذا ختام يناسب محور السورة الأصيل، وموضوعاتها البارزة، ويتسق معها كل الاتساق. فهو نداء للمومنين بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى. وسياق السورة حافل بذكر الصبر، وبذكر التقوى، وبالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة، ودفع الكيد وعدم الاستسلام لدعاة الهزيمة والبلبلة. وتضمنت تفصيلا عن غزوة أحد، والدروس التي تستخلص منها. ومن ثم ختمت بالدعوة إلى الصبر والمصابرة والمرابطة.

3 ـ التناسب بين الحلقات القصصية وموضوع السورة

من المؤكد أن القصص إنما يرد في سياق السورة ليؤدي وظيفته فيه. وقل أن ترد قصة بكل حلقاتها في سورة واحدة، وإنما يأتي في سياق كل سورة من حلقاتها ما يناسب موضوع السورة ومحورها وأهدافها. وهذا مظهر آخر من مظاهر وحدة السورة وتناسب معانيها.

ومن آثار خضوع القصة في القرآن لوحدة السورة، عدم الالتزام بالترتيب الطبيعي لحلقات القصة، فمرة تعرض حلقة من أول القصة، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض بكاملها. كل ذلك بحسب ما يقتضيه مقصد السورة وموضوعها.

ولا نستطيع أن نقدم هنا دراسة وافية للتناسب في القصص القرآني، وحسبنا أن نقدم صورة منه من خلال عرضنا حلقات قصة ابراهيم عليه السلام في سائر سور القرآن.

---

(27) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، ط. 5، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1967، 1 ص : 498.

وفي بداية العرض يحسن بنا أن نوضح أن هذه القصة تذكر مع قصص الأنبياء في بعض السور، وفي بعضها الآخر لا تذكر معها. فهي لم تذكر مثلا مع قصص الأنبياء في كل من سورة الأعراف، وهود، والشعراء [28]، وذكرت معها في كل من سورة الأنبياء ومريم، والعنكبوت والصافات. لأن هذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم، بل في سورة الأنبياء كان المقصود ذكر الأنبياء، ولهذا سميت سورة الأنبياء، فذكر فيها إكرامه تعالى للأنبياء، كما ذكر قصة داود وسليمان وأيوب. وذكر في ختام العرض : «أن هذه أمتكم أمة واحدة». وبدأ فيها بقصة إبراهيم إذ كان المقصود ذكر إكرامه للأنبياء، قبل محمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم أكرمهم على الله تعالى، وهو خير البرية، وهو أب أكابرهم...

وأما سورة مريم، فذكر الله تعالى فيها إنعامه على الأنبياء المذكورين فيها : ذكر فيها رحمته زكريا، وهبته يحيى، وأنه ورث نبوته، وذكر بدء خلق عيسى وما أعطاه الله من تعليم الكتاب، وأنه تعالى جعله مباركا، وذكر قصة إبراهيم وحسن خطابه لأبيه وأنه تعالى أكرمه باسحاق ويعقوب نبيين. ثم ذكر موسى وأنه تعالى خصه بالتقريب والتكليم...

وأما سورة العنكبوت، فإنه تعالى ذكر فيها امتحانه للمومنين ونصره لهم وحاجتهم إلى الصبر والجهاد وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة من كذب الرسل، وذكر قصة إبراهيم فيها لأنها من النمط الأول.

وكذلك سورة الصافات، قال فيها : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ. فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ (الصافات : 71—73) وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة. إما بكونهم غلبوا وذلوا. وإما بكونهم أهلكوا، ولهذا ذكر فيها قصة إلياس، ولم يذكرها في غيرها. ولم يذكر هلاك قومه، بل قال : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات : 127—128) وإلياس قد روي أن الله رفعه...

والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا، كما ذكر ذلك عن غيرهم بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلها الله عليه بردا وسلاما.

وإبراهيم لم يقم بين قومه، بل هاجر وتركهم والرسل الذين أهلك الله أقوامهم لم يهاجروا، فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك. وكذا حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه.

بعد هذا العرض المجمل الذي حاولنا أن نبين به أن قصة إبراهيم عليه السلام ذكرت حلقات منها في بعض السور مع ما ذكر فيها من قصص الأنبياء الآخرين، بينما لم تذكر معها في سور أخرى، وذلك مراعاة للسياق العام في كل سورة، أو للمعنى الخاص الذي عرض القصص لبيانه أو إثباته.

(28) نعم ذكرت قصة ابراهيم في سورة الشعراء لكن على نسق غير نسق ما بعدها من قصص الانبياء المذكورة فيها.

بعد هذا ناتي إلى عرض حلقات قصة إبراهيم في السور التي وردت فيها لبيان ما بين كل حلقة منها وبين السياق أو السورة التي وردت فيها من أوجه التناسب المعنوي.

وردت حلقات من هذه القصة في عدد من السور : في البقرة، والأنعام، وهود، وابراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والذاريات....

ولا يعرض منها في كل مرة إلا ما يتفق وسياق السورة وموضوعها.

عرضت في سورة البقرة حلقة بنائه البيت هو اسماعيل، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمنا، وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانيه إنما هي للمسلمين الذين يتبعون ملته. جاءت هذه الحلقة في سياق الحديث عن بني إسرائيل وأهل الكتاب عموما. وكان أهل الكتاب يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق، ويعتزون بنسبتهم إليه. ومن ثم يحتكرون القوامة على الدين والهدي.

وتقرر هذه الحلقة حقيقة دين إبراهيم، وهي التوحيد الخالص، لإبراز ما بين دين إبراهيم وبين ما عليه أهل الكتاب من العقائد المشوهة المنحرفة من فرق.

وقد تكرر لفظ الاسلام والمسلمين في ابتهالات إبراهيم الواردة في هذه الحلقة عدة مرات. وذلك للتعريض بأهل الكتاب الذين انحرفوا عن دينه، ومن تلك الابتهالات : ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، وقال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَى لَكُمْ ٱلدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقال : ﴿.. نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة : 128ــ133).

وعُرضت في هذه السورة كذلك حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله تعالى الذي يحيى ويميت، ويأتي بالشمس من المشرق، وتحديه للملك أن يأتي بها من المغرب، فَبُهِتَ الذي كفر.

كما عرضت فيها حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وأمره بذبح أربعة من الطير، وتوزيع أشلائها على الجبال، ثم إحياؤها بين يديه...

جاءت هاتان الحلقتان في معرض الحديث في السورة عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء (سورة البقرة : 258ــ206).

وعرضت في سورة الأنعام حلقةُ بحثه عن ربه، واهتدائه إليه، بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس، وتتبع مشاهد الكون. وكان ذلك في سياق موضوع السورة الذي يدور حول العقيدة، وآيات الله في الكون ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له. (سورة الانعام: 75ــ79).

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره باسحاق وكان ذلك في سياق قصة لوط، ومرور الملائكة المكلفين بتدمير قريته، في طريقهم بإبراهيم. وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين. (سورة هود : 69ـ76).

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت الحرام لمن أسكنه من ذريته بواد غير ذي زرع. وحمد ربه. وطلبه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته (سورة إبراهيم : 36ـ41).

وكان سياق السورة كله يتناول عرض أمة الرسل الذين أرسلوا جميعا برسالة واحدة هي التوحيد. وعرض سياق هذه السورة المكذبين بأمة الرسل صفا واحدا كذلك. وكأنما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود.

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل في ذكر رحمة الله بعبادة المومنين، وتعذيب العصاة المذنبين. (سورة الحجر : 51ـ60).

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوة إبراهيم في رفق لأبيه، وغلظة أبيه عليه، واعتزاله لأبيه وقومه، وهبة إسماعيل واسحاق له. (سورة مريم : 41ـ50) في سياق هذه السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده، وجوها الذي تظلله الرحمة والود واللين.

وعرضت في سورة الانبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه، وزرايته على الأصنام وتحطيمها، وإلقائه في النار التي كانت بردا وسلاما عليه بأمر الله (سورة الانبياء : 51ـ73) وذلك في سياق استعراض أمة الرسل، ورعاية الله لهذه الأمة.

وعرضت في سورة الشعراء حلقة إرسال ابراهيم إلى قومه، وحواره معهم حول العقيدة، وإنكار الآلهة الباطلة (سورة الشعراء : 69ـ89). وذلك في سياق الحديث عن المشركين، وندمهم يوم القيامة على ما كانوا عليه من الشرك. وعن مقومات عقيدة التوحيد، وفساد عقيدة الشرك.

وعرضت في سورة العنكبوت حلقة من هذه القصة وهي حلقة دعوة إبراهيم قومه. وما حاول من هدايتهم، وما بذل لهم من النصح، وما قدم لهم من الحجج : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ (سورة العنكبوت : 16ـ27).

وفي هذه الحلقة يبدو سوء الجزاء وطغيان الضلال. وقد ورد هذا في سياق عرض نماذج من الفتن التي اعترضت دعوة الايمان في تاريخ البشرية الطويل، وصور من رعاية الله الشاملة لرسله وللمؤمنين.

ووردت حلقة جديدة من هذه القصة في سورة الصافات، هي الحلقة التي تحدثت عن رؤيا إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه. وإسلامهما في ذلك لله، وإقبالهما على إنفاذ الذبح. (سورة الصافات : 83ـ113).

وردت هـذه الحلقة في سياق موضـوع هذه السـورة التي تستهدف ــ كسائر السور المكية ــ بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في صوره وأشكاله، وتطهيرها من التعلق بالأبناء ومن محبتهم التي تزاحم محبة الله في قلب المؤمن.

ويبرز الإيمان بالله في أبرز صوره وأرقى مراتبه، في هذه الحلقة من قصة إبراهيم، لا يشوبه مثقال ذرة من الشرك، ولا يزاحمه في قلبه شيء.

ووردت حلقة من هذه القصة في سورة الذاريات التي استهدفت بافتتاحها وسياقها ومعانيها ربط القلب البشري بالسماء، وتعليقه بغيب الله المكنون، وتخليصه من أسر الأسباب الأرضية، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله، والتعلق به وحده.

وتكررت الإشارة إلى هذا المعنى في سياق السورة، إما مباشرة كقوله سبحانه : ﴿وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، وقوله : ﴿فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ...﴾، وقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ (سورة الذاريات : 24ــ57).

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه من أكثف العوائق وأشدها. فقد عني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره، وتعليق القلب بالسماء في شأنه.

وفي هذا السياق يرد من قصة إبراهيم حلقة مناسبة هي الحلقة التي تصف جوده وسخاءه، وهو يَقري ضيوفه القلائل بعجل سمين، ويتلقى هو وامرأته البشرى بغلام عليم على غير توقع ولا انتظار.

وفي هذه الحلقة نموذج لسلوك المومن الذي لا يتعلق في شأن الرزق بالأسباب الأرضية وحدها.

بهذه الحلقة نكون قد أنهينا استعراض حلقات قصة ابراهيم كما وردت في مواضعها من القرآن الكريم.

من هذا العرض الموجز لحلقات قصة ابراهيم عليه السلام يتضح ما بين كل حلقة منها وبين سياقها من السورة التي عرضت فيها من التناسب. وليس هذا أمرا مقصورا على قصة إبراهيم وحدها، بل هو قاعدة تعم سائر القصص القرآني. ويغنينا ما رأيناه في حلقات قصة إبراهيم من اطراد التناسب مع موضوعات السور عن عرض باقي القصص القرآني ومن المفيد أن أنبه هنا إلى أن التناسب في القصص القرآني موضوع واسع في حاجة إلى بحث مستقل.

الفصـــل الثـــاني

التناسب المعنوي فـي آيات العقيدة

I ـ اقتران القضايا بأدلتها :

يجد الباحث المتتبع لأوجه تناسب المعاني القرآنية المتوافقة أن القرآن الكريم أنشأ مناسبات قوية بين أصول العقيدة وبين بعض المعاني، فربط بين الإيمان بالله والإقرار بربوبيته ووحدانيته، واليوم الآخر والبعث والجزء، والرسالة والنبوة من جهة، وبين الآيات الكونية المنصوبة في الآفاق والأنفس من جهة ثانية، وأوجد بينها في التصور الإسلامي روابط متينة.

ومن ثم وجدنا الآيات التي تقرر أصول العقيدة تقترن، بصورة مطردة، بالآيات التي تتحدث عن الكون وما فيه من السموات والأرض، والكواكب والنجوم والبحار، والجن والإنس، والطيور والدواب. وعن بعض الظواهر الطبيعية كالرياح والسحاب والمطر، والرعد والبرق، والأنهار، والجبال، والشمس والقمر، والليل والنهار، وتبين ما في ذلك كله من منافع وحكمة موافقة لحياة الناس على الأرض.

كما ربط القرآن في مجال العقيدة بين الإيمان والعمل الصالح. وقد قمنا باستقراء كامل لهذه الآيات في سائر السور، فاتضح أن الارتباط بين هذه الآيات وبين أصول العقيدة مطرد في القرآن كله.

وقبل أن ندخل في تفصيلات هذا الموضوع، نرى من المستحسن أن نقدم فكرة عن المنهج القرآني في تقرير أصول العقيدة.

دعا القرآن الكريم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والبعث والجزاء وبالوحي والنبوة، وهي كلها حقائق غير محسوسة، ولكنه بين للناس الطريقة التي يجب أن يعتمدوها لمعرفة الأدلة التي تثبت تلك الأصول، وهي طريقة استدلالية تجمع بين النظر العلمي والعقلي. والأدلة التي دعا القرآن إلى النظر فيها والاستدلال بها هي الآيات المنصوبة في الآفاق والأنفس.

وقد أشار ابن رشد إلى طرف من هذا المنهج القرآني في كتابه «مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة»، وذلك في معرض كلامه عن «الطريقة الشرعية للإقرار بوجود الباري سبحانه».

فذكر أن هذه الطريقة تقوم على دليلين :

1 ـــ دليل العناية بالإنسان.

2 ـــ دليل الاختراع.

أما دليل العناية فينبني على أصلين :

أحدهما : أن جميع الموجودات هاهنا موافقة لوجود الإنسان.

ثانيهما : أن هذه الموافقة هي، ضرورة، من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق. فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار، والشمس والقمر لوجود الإنسان. وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة، والمكان الذي هو فيه أيضا، وهوالأرض، وكذلك تظهر موافقة كثير من الحيوان له، والنبات والجماد، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار. وبالجملة الأرض، والماء والنار والهواء.

وكذلك تظهر العناية في أعضاء البدن، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده.

وبالجملة، فمعرفة منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس. ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات.

وأما دليل الاختراع فيدخل فيه وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السموات. وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الإنسان :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات. كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (سورة الحج : 73). فإنا نرى أجساما جمادية، ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعا أن هاهنا موجدا للحياة ومنعما بها، وهو الله تبارك وتعالى. وأما السموات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما هاهنا، ومسخرة لنا، والمُسَخَّر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة.

ثانيهما : أن كل مُخْتَرَعٍ فله مُخْتَرِعٌ.

فيصح من هذين الأصلين أن للموجودات فاعلا مخترعا لها. ولذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع. وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف : 184).

«وكذلك أيضا من تتبع معنى الحكمة في وجود كل موجود ــ أعني معرفة السبب الذي من أجله خُلق، والغاية المقصودة به ــ كان وقوفه على دليل العناية أتم، فهذان الدليلان هما دليلا الشرع.

وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه في الكتاب العزيز منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة، فذلك بيّنٌ لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تُصفّحت وُجدت على ثلاثة أنواع : إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية، وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع، وإما آيات تجمع بين الأمرين في الدلالة جميعا.

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ (سورة النبأ : 6ــ16). ومثل قوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيرا﴾ (سورة الفرقان : 61)، ومثل قوله : ﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (سورة عبس : 24)، ومثل هذا كثير في القرآن.

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ (سورة الطارق : 5ــ6)، ومثل قوله تعالى : ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى ٱلإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (سورة الغاشية : 17)، الآية، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (سورة الحج : 73)، ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول ابراهيم عليه السلام : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (سورة الأنعام : 79) إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

وأما الآيات التي تجمع الدلالتين فهي كثيرة أيضا، بل هي الأكثر مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (سورة البقرة : 22) إلى قوله تعالى : ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن قوله : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع، وقوله : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ تنبيه على دلالة العناية. ومثل هذا قوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (سورة يس : 33).. وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الدلالة»[1].

---

(1) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة، عن كتاب : فلسفة ابن رشد، ص : 65ــ68.

نستفيد من هذا النص الذي نقلناه عن ابن رشد، أن المنهج القرآني في تقرير أصول العقيدة يرتكز على الاستدلال بالآيات المحسوسة المعروضة في الآفاق والأنفس. ولهذا جرى المنهج القرآني على نظم الآيات التي تعنى بتقرير أصول العقيدة مع الآيات التي تضمنت ما سماه ابن رشد بدليلي العناية والاختراع.

ومعنى ذلك أن نظم المعاني في هذه الآيات جميعا يرتكز على وجود تناسب معنوي بينهما، ترتبط فيه ارتباط القضية ببرهانها، أو ارتباط الدعوى بحجتها.

ونضيف إلى ما ذكره ابن رشد أن الآيات القرآنية التي تتضمن التنبيه على الدلائل المعروضة في الكون، والطبيعية، وسائر الموجودات، لا تأتي في سياق الإقرار بوجود الله فحسب، بل تأتي في سياق تقرير أصول أخرى كالتوحيد، والبعث، والجزاء، والوحي والنبوة.

كما تأتي منتظمة في السياق الذي تذكر فيه الأحكام الشرعية والأوامر التكليفية، والوعد والوعيد. وقد نبه بعض علماء السلف على أن عادة القرآن جرت على أنه «إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا، ليكون باعثا على العمل بما سبق ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه، ليعلم عِظَمُ الآمر، والناهي»(2).

والاستقراء الكامل للقرآن يظهر أن هذه الآيات تنتظم وترتبط بأساليب متنوعة، وبطرق مختلفة، وأنها كثيرة تشغل أجزاء كثيرة من القرآن.

وقد حاولنا تصنيفها وترتيبها حسب أسلوب انتظام المعاني فيها، فوجدنا في ذلك صعوبة، مردها إلى التنوع الكبير في الطرق التي تصرف بها القرآن في نظم تلك الآيات. لذلك اكتفينا بتصنيف إجمالي يعتمد على المعنى الأول. وبذلك أمكن تصنيفها إلى ثلاث مجموعات :

— الأولى : تبدأ بأوامر تكليفية أو بأحكام شرعية.
— الثانية : تبدأ بالوعد أو الوعيد أو بهما معا.
— الثالثة : تبدأ بالوحي والنبوة.

ـ المجموعة الأولى :

يجري ترتيب المعاني في هذه المجموعة على أسلوبين، يمكن توضيحهما كما يلي :

1 — [أمر تكليفي + تعريف بالآمر]
2 — [أمر تكليفي + وعد ووعيد + تعريف بالآمر]

(2) الاتقان في علوم القرآن : 109/2.

. الأسلوب الأول :

نماذج هذا الأسلوب كثيرة في القرآن، وحسبنا أن نقدم منها مثالين :

ـ المثال الأول : قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ، فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة : 21ـ22).

المثال الثاني : قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ، وَٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ. ٱللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ. لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ، مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة البقرة : 254ـ255).

ـ يبدأ المثال الأول بنداء الناس وأمرهم بعبادة ربهم الذي خلقهم.

ـ يبدأ المثال الثاني كذلك بنداء الذين آمنوا وأمرهم بالإنفاق قبل يوم الجزاء.

ـ وورد بعد الأمر التكليفي في المثال الأول تعريف موجز بالآمر بذكر دليل الاختراع : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ودليل العناية : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾.

ـ وورد بعد الأمر التكليفي في المثال الثاني تعريف بالآمر بتأكيد بعض صفاته، كالوحدانية والحياة، والقيومية، والملك المطلق، والعلم المطلق، والقدرة المطلقة.

. الأسلوب الثاني :

[أمر + وعد ووعيد + تعريف بالآمر]

ونماذج هذا الأسلوب كثيرة أيضا، نكتفي منها بتقديم مثالين :

المثال الأول : قال الله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ. مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ. لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الروم : 43ـ46).

المثال الثاني : قال الله تعالى : ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَٱعْبُدُونِ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ. وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ. ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ. ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت : 60ـ63).

ــ يبدأ المثال الأول بأمر محمد ﷺ بإقامة وجهه للدين القيم.

ــ ويبدأ المثال الثاني بأمر عباد الله الذين آمنوا بالهجرة من دار الكفر، وبإخلاص العبادة لله وحده.

ــ وأتى بعد الأمر التكليفي في المثال الأول تعريف موجز بالآمر الحكيم، بذكر دليل واحد من أدلة العناية، وذلك بإثارة العقول إلى ما في الرياح من أوجه الحكمة والمنفعة : ﴿مُبَشِّرَاتٍ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ...﴾

ــ وأتى في المثال الثاني كذلك، بعد الأمر التكليفي، تعريف بالآمر الحكيم، بذكر دليل العناية، المتمثل في أنه ــ سبحانه ــ هو الذي يرزق كل دابة، وهو الذي سخر الشمس والقمر، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها.

نتائج :

من هذه الآيات التي عرضناها، ومن الاستقراء الكامل لمثيلاتها في القرآن، نستخلص ما يلي :

1 ــ إن جملة من المعاني القرآنية ترتبط بما أنشأه القرآن من أوجه التناسب بينها في إطار التصور الإسلامي،

2 ــ أن طرق الوصل بين هذه الآيات متنوعة :

فقد يكون الوصل عن طريق جعل الآية الثانية صفة للتي تقدمتها كما في المثال الأول من هذه المجموعة.

وقد يكون بالعطف بالواو، كما في المثالين الأخيرين، وقد يكون بطريق غير لفظية، فتأتي الآية الثانية على وجه الاستئناف، كما في المثال الثاني من الأسلوب الأول. وهذه الطريقة تحتاج إلى إمعان التدبر لمعرفة ما يربط الكلام من أوجه التناسب.

3 ــ إن الآيات التي تتضمن التعريف بالآمر الحكيم ــ سبحانه ــ تختلف من حيث المعاني، ومن حيث طرق التعريف. فقد يكون التعريف بذكر دليلي الاختراع والعناية، وهو الكثير، وقد يكون بتأكيد صفات الآمر الذاتية، وقد يكون هذا الاختلاف، بدوره راجعا إلى أوجه من التناسب.

ـ المجموعة الثانية :

وهي تبدأ بالوعد والوعيد وذكر الجزاء، وهذا المعنى يرتكز في العقيدة الإسلامية على الإيمان بالبعث والحساب.

وقضية البعث بعد الموت كانت موضع إنكار شديد من قبل كفار العرب وغيرهم من الدهريين، ولذلك كانت العناية بتقريرها وإثباتها في القرآن كبيرة. وقد سلك القرآن لهذه الغاية طرقا شتى، أهمها طريقة الاستدلال بدلائل الحكمة الإلهية، والعناية الربانية التي تتجلى في الكون والكائنات.

ومن ثم شغلت هذه القضية وما يتصل بها من الوعد والوعيد، والحساب والجزاء، ومشاهد النعيم والعذاب، وأدلة الحكمة والعناية والقدرة الإلهية أجزاء كبيرة من القرآن.

وهناك سور خصها القرآن من أولها إلى آخرها لهذه القضية وإثباتها. وهناك سور أخرى شغلت الحيز الأكبر منها، هذا إلى جانب الآيات الأخرى المبثوثة في جل سور القرآن.

والذي يهمنا في هذه الدراسة هو الارتباط بين آيات الوعد والوعيد، وآيات الحكمة أو القدرة الإلهية. وسنبيّن هذا بعرض أمثلة ثم بالتعقيب عليها، ثم نقدم في نهاية ذلك نتائج الاستقراء كاملة.

ـ المثال الأول :

وهو سورة النبأ بكاملها، وتبدأ بقوله تعالى : ﴿عَمَّ، يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ. ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ. كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ (سورة النبأ : 1ــ5).

وهذا وعيد وإنذار للذين ينكرون البعث. وبعده مباشرة، وقبل ذكر الجزاء، تُقدم الأدلة على صحة القضية، وذلك بتوجيه أنظار المنكرين إلى مظاهر الحكمة الإلهية، وآثار عنايته في مظاهر الكون وحياة الناس : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً. وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً. وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً. وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً. وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاساً. وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً. وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً. وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ (سورة النبأ : 4ــ14).

ويعود بعد عرض هذه الأدلة إلى تأكيد القضية، وذكر ما يتعلق بها من الحشر والجزاء : ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً. يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً...﴾ الآيات، إلى أن قال :

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً. لِلطَّاغِينَ مَآباً. لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً. لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً. إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً. جَزَاءً وِفَاقاً﴾ إلى أن قال : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً. حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً. وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً. وَكَأْساً دِهَاقاً. لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً. جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً...﴾ إلى آخر السورة.

- المثال الثاني :

وهو سورة الغاشية :

وتبدأ بقوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً. تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ...﴾ إلى أن قال : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾ إلى آخر وصف جزاء أهل النعم.

وهذا وعيد بشدة الساعة التي تنتهي فيها الحياة الدنيا، ووصف لجزاء الأشقياء، وجزاء السعداء من الناس. وبعده قوله تعالى : ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى ٱلأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

. وهذا دليل يثبت صحة القضية المتقدمة، لأن ذكر الجزاء ينطوي على أن هناك بعثا وحسابا بعد الموت. وأن الناس لن يتركوا سدى.

والذي يثبت ذلك أن أفعال الحكيم سبحانه منزهة عن العبث. وآية الحكمة والقدرة الإلهية مبثوثة في كل شيء : وأقرب الأشياء إلى المخاطبين بالقرآن أول نزوله، وربما في كل حين، الإبل، والسماء المرفوعة، والجبال المنصوبة، والأرض المسطحة.

وهناك سور أخرى دارت حول قضية البعث وأدلتها وما يتصل بها من جزاء منها ما هو أطول من السور التي عرضناها، كالواقعة وسورة «قۤ» والقيامة، والإنسان، والمرسلات، والنازعات، والطارق، والقارعة... وعرض ذلك يطول. وحسبنا أن نقدم مثالا ثالثا، نختاره من السورة التي تعددت معانيها.

- المثال الثالث : (من سورة البقرة)

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللاَّعِنُونَ. إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ. إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا، لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ. وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ، ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة : 159—165).

بدأ هذا المثال بوعيد وإنذار للذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى. واستثنى من ذلك الذين تابوا وأصلحوا وبينوا.

ثم وصل بآيات الوعيد آيات في التوحيد والحكمة والعناية الإلهية، تتجلى، لمن أحسن النظر، في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر، وفي إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به، وفي تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

نتائج :

تظهر عملية الاستقراء في هذه المجموعة ما يلي :

1 — أن آيات الوعد والوعيد، التي تتضمن تقرير حقيقة البعث والجزاء، تقترن في القرآن، بصورة مطردة، مع الآيات التي تتضمن دليلي العناية والاختراع والتوحيد، والقدرة والحكمة الإلهية.

2 — أن القرآن الكريم جعل المناسبة بين المعاني في هذه الآيات، بطرفيها، كالمناسبة بين الحكم ودليله، أو بين القضية وحجتها، وبيان ذلك أن البعث والجزاء بعد الموت جزء من الحق الكلي الذي قام عليه الوجود كله، وطرف من حكمة خالق الوجود. ومعرفة أسرار الوجود والموجودات وما تنطوي عليه من الحكم والمنافع يثبت أن الخالق حكيم. وأن أفعاله كلها منزهة عن العبث، وإذا عرف هذا وثبت، تبين أن الإنسان، وهو جزء من هذا الوجود، لا يعقل أن يخرج عن هذا الحكم، فيترك سدى... والبعث والجزاء بالعدل هو الذي يجعل حياته ووجوده قائمين على الحق.

3 — ويظهر الاستقراء أيضا أن القرآن صرّف القول في تقرير هذه الحقيقة على أوجه وأساليب شتى، وذلك لأنها كانت محل إنكار شديد. ولأنها ذات تأثير كبير في تهذيب النفوس وفي الإقبال على الخير، وتجنب الشر.

ـ المجموعة الثالثة :

وتضم الآيات التي تبدأ بتقرير حقيقة الوحي والنبوة، وهي من أصول العقيدة، بل هي أولها، لأن الإيمان بالنبوة والوحي هو الأصل في الإيمان بالحقائق الإيمانية الأخرى.

وقد جرى القرآن في تقرير هذا الأصل على المنهج الذي رأيناه في الأمثلة السابقة. فربط هنا أيضا بين الآيات التي تقرر النبوة والوحي من جهة، وبين الآيات التي تتضمن دلائل الحكمة والعناية، ويفهم من هذا الارتباط أن الرسالة الإلـٰهية لم تكن إلا طرفا من الحكمة الكلية التي قام عليها أمر الله في سائر أفعاله.

والآيات في هذه المجموعة ليست كثيرة كما رأينا في المجموعتين السابقتين، ومع ذلك فسنكتفي هنا أيضا بتقديم مثالين :

المثال الأول : قال الله تعالى :

﴿بسم الله الرحمـٰن الرحيم، آلـر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ ٱلنَّاسَ، وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ ٱلْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ. إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ، يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَالِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ، فَٱعْبُدُوهُ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ. إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً، وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً، إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِٱلْقِسْطِ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ. هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ، مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ، نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يونس : 1ـــ5).

المثال الثاني : قال الله تعالى :

﴿آلمر، تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ، وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ. ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا، ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً، يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ، يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً، وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ، يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الرعد : 1ـــ5).

إن ترتيب الآيات في كل من المثالين واضح، فهي تبدأ مع بداية السورة بالحروف المقطعة (آلر، آلـمر) وتؤكد بعد ذلك نزول القرآن وأن نزوله حق.

وفي المثال الأول إنكار على الذين يرون في الوحي إلى رجل منهم عجبا، ويقولون إن هذا إلا سحر مبين، وبعد هذه المعاني تجيء آيات في إثبات الربوبية لله تعالى، بعرض أدلة الاختراع والقدرة والعناية والحكمة.

وفي المثال الثاني كذلك إثبات أن الوحي ونزول القرآن حق، وإشارة، بعده، إلى أن الناس لا يعلمون، ثم تجيء الآيات التي تضمنت أدلة القدرة والحكمة والعناية، وآيات الحكمة في هذا المثال أكثر.

نتائج :

يستفاد من استقراء آيات هذه المجموعة ما يلي :

1 ــ أن الآيات التي تضمنت إثبات الوحي والنبوة تنتظم مع الآيات التي تضمنت أدلة الربوبية والحكمة الإلهية في سياق واحد، وترتبط معانيها بوجه من التناسب المحكم.

2 ــ أن الرسالة الإلهية إلى البشرية مظهر من حكمته ورعايته لها.

نتائج عامة

نخرج من هذه الدراسة الاستقرائية بالنتائج الآتية :

1 ــ أن الآيات القرآنية التي تتضمن تقرير أصول العقيدة، ترتبط وتنتظم ، بصورة مطردة، مع الآيات التي تتضمن التنبيه على ما في خلق الكون ونظامه، وخلق الإنسان وغيره من الأحياء، من آيات تدل على ما في كل موجود من أوجه الدلالة على وحدانية الخالق وتفرده بالقدرة والملك، وعلى ما في كل شيء من أوجه الدلالة على الحكمة الإلهية المقصودة.

2 ــ أن الارتباط المطرد بين هذه الآيات وتلك قائم على ألوان من التناسب المعنوي النابع من التصور الديني الذي أنشأه القرآن.

3 ــ أن القرآن الكريم لا يسير على أسلوب واحد في نظم هذه المعاني، بل يصرف القول في نظمها على أوجه كثيرة وأساليب متنوعة، لكنها كلها بليغة.

4 ــ أن اختلاف أساليب نظم هذه المعاني بتقديم بعضها في موضع وتأخيره في موضع آخر، وزيادة التفصيل في بعض هنا، والاكتفاء بالإشارة إليه هناك، كل ذلك تابع لأوجه أخرى من التناسب، تتعلق بمقاصد السور، ووحدة الهدف في كل منها.

5 ــ أن تلك الآيات ترتبط فيما بينها بطرق مختلفة، فتارة ترتبط برابط لفظي كالعطف بالواو أو الفاء أو «ثم»، وكالواو التي تكون للحال وتحمل معنى الاستغراب. وتارة ترتبط بأسلوب

من أساليب الاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى التوبيخ. وتارة أخرى تنتظم بدون رابط لفظي، إذ يستغنى عنه بالرابط المعنوي.

6 ــ أن المنهج القرآني في تقرير أصول العقيدة منهج علمي تطبيقي استدلالي، بمعنى أن من أراد أن يعرف الله حق المعرفة فعليه، كما قال ابن رشد : «أن يعرف جواهر الأشياء، ومنافعها وحكمة الله في الموجودات كلها».

7 ــ أن درس العقيدة يجب أن يقوم على هذا المنهج القرآني وأن يستفيد من تقدم البحث والمعرفة في مختلف العلوم الكونية والطبيعية والتجريبية والإنسانية.

II ـ التناسب المعنوي في فروع العقيدة

من فروع العقيدة التي أطرد مجيئها مقترنة مترابطة في القرآن : الإيمان والعمل الصالح، والتوبة والإصلاح.

وقد أظهر الاستقراء أن المعنيين الأولين وقعا في القرآن مقترنين فيما لا يقل عن تسعة ومائة موضع، هذا مع العلم بأن التعبير عن العمل الصالح يأتي في الغالب صريحا، وقد يأتي عن طريق ذكر الأعمال الصالحة بأسمائها.

وقد قمت بتصنيف الآيات التي وقع فيها اقتران هذين الفرعين على أساس أساليب التعبير عن العمل الصالح، وعلى أساس المعاني أو الحقائق التي سيقت الآيات لتقريرها.

1 ـ الإيمان والعمل الصالح :

نبدأ بعرض الآيات التي سيقت لتقرير الصفات التي يثبت بها الأجر والثواب عند الله للمؤمنين. والغالب في هذا السياق هو التعبير عن العمل الصالح بطريقة مجملة، لكنها صريحة.

ونظرا لكثرة الآيات التي تُمَثل هذا الصنف، فإننا سنكتفي بتقديم أمثلة منها، ثم نحيل على الباقي في أماكنها :

1 ــ قال الله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ﴾ (سورة البقرة : 25).

2 ــ وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة : 82).

3 ــ وقال : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ (سورة النساء : 51).

4 — وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (سورة النساء : 122).

5 — وقال : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُومِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ (سورة النساء : 124).

6 — وقال : ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة الأنعام : 48).

7 — وقال : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل : 97).

8 — وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَى﴾ (سورة الكهف : 88).

9 — وقال : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَى﴾ (سورة طه : 82).

10 — وقال : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَ لاَ هَضْماً﴾ (سورة طه : 112).

11 — وقال : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ (سورة الأنبياء : 94).

12 — وقال : ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ (سورة القصص : 67).

13 — وقال : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُومِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة غافر : 40).

وهنا أمثلة أخرى كثيرة نكتفي بالإحالة عليها[3].

ويعبر القرآن أحيانا عن الإيمان والعمل الصالح تعبيرا ضمنيا مجملا، وذلك باستعمال بعض الكلمات الجوامع، كالتقوى والصبر.

(3) سورة البقرة : 62 ؛ سورة النساء : 173 ؛ سورة المائدة : 9 ؛ سورة الأعراف : 42 ؛ سورة يونس : 4 ؛ سورة الرعد : 29 ؛ سورة ابراهيم : 23 ؛ سورة الإسراء : 9 ؛ سورة الكهف : 2، 30، 107، 108 ؛ سورة مريم : 39، 60 ؛ سورة الحج : 14، 23، 56 ؛ سورة النور : 55 ؛ سورة لقمان : 70 ؛ سورة الشعراء : 227 ؛ سورة القصص : 80 ؛ سورة العنكبوت : 7، 9، 58 ؛ سورة الروم : 7، 15 ؛ سورة لقمان : 8 ؛ سورة السجدة : 19 ؛ سورة سبأ : 3، 5، 37 ؛ سورة ص : 24 ؛ سورة فصلت : 8 ؛ سورة الشورى : 22، 23 ؛ سورة الجاثية : 30 ؛ سورة محمد : 2، 12 ؛ سورة الفتح : 29 ؛ سورة التغابن : 9 ؛ سورة الطلاق : 11 ؛ سورة الانشقاق : 25 ؛ سورة البروج : 11 ؛ سورة التين : 6 ؛ سورة البينة : 7 ؛ سورة العصر : 2.

استعمل القرآن لفظ التقوى بمعنى واسع يدخل في ضمنه الإيمان والعمل الصالح، ولذلك نرى هذا اللفظ يحل محل الإيمان في بعض الآيات، وفي بعضها الآخر محل العمل الصالح.

ومما يدل على أن كلمة التقوى تحمل هذا المعنى الواسع في القرآن، ما نراه في بعض الآيات التي وصف فيها المتقون، كقوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الٓمٓ. ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ، فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِن رَبِّهِمْ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة البقرة: 1—3).

وكقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ، وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ، وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ، أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة: 177).

فمن خلال فهمنا لهذه الآيات، يتضح أن كلمة التقوى كلمة جامعة، وأنها تدل، بطريق التضمين، على الإيمان والعمل الصالح، فإن جاءت مقرونة إلى كلمة الإيمان، فهي بمعنى العمل الصالح، وإن جاءت مع العمل الصالح فهي بمعنى الإيمان.

ـ التقوى بمعنى العمل الصالح:

ـــ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: 103).

ـــ وقال: ﴿فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (سورة آل عمران: 179)

ـــ وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (سورة الأعراف: 96).

ـــ وقال: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ (سورة يونس: 63—64).

وقال: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (سورة فصلت: 18).

ـ التقوى بمعنى الإيمان

ـــ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة الأعراف: 35).

ـــ وقال : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (سورة الأنفال : 1).

ـــ وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل : 128).

ـ الصبر بـمعنى الإيمان

ـــ قال تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (سورة هود : 11).

والصبر من أخص صفات المؤمن، ولذلك ورد في القرآن مثلا : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سورة لقمان : 31)، كما ورد فيه في مواضع أخرى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الحجر : 77).

ووردت عبارة «من عمل صالحا» دالة على معناها وعلى معنى الإيمان معا في قوله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (سورة الروم : 44).

والذي يوضح ذلك أن يعتبر التقابل المعنوي في الآية، فقد وقعت عبارة «من عمل صالحا»، فيها، لتقابل عبارة «من كفر». والمقابل للكفر هو الإيمان. فلزم لذلك أن يكون قوله تعالى : ﴿ومن عمل صالحا﴾ دالا على معناه وعلى معنى الإيمان. ومما يؤكد ما نذهب إليه أن صفة الكفر تأتي في القرآن غالبا مقابلة لصفتي الإيمان والعمل الصالح معا. كما نرى في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (سورة فاطر : 7).

ويأتي الإيمان مقترنا بالعمل الصالح في سياق الآيات التي تتضمن التمييز بين المؤمن والكافر. ويعبر فيها عن الكافر بإحدى الصفات اللازمة له.

ـــ قال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (سورة ص : 28).

ـــ وقال : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ﴾ (سورة غافر : 58).

ـــ وقال : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة الجاثية : 21).

ويأتي الإيمان مقترنا بالعمل الصالح في سياق الآيات التي تبين حقيقة الإيمان، وتوضح صفة المؤمنين، لكن التعبير عن العمل الصالح في هذه الآيات يكون بطريقة مفصلة، وذلك بأن

تذكر جملة من الأعمال الصالحة على أنها تمثل حقيقة الإيمان أو صفات المؤمنين وهذه أمثلة لذلك :

ـــ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة الأنفال : 2ـــ5).

ـــ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ (سورة النور : 62).

ـــ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ، أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحجرات : 15).

ـــ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ، ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ. ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة المؤمنون : 1ـــ11).

وواضح أن الأعمال الصالحة التي تذكر لبيان حقيقة الإيمان تختلف من آية إلى أخرى. والعلة في ذلك هي مراعاة سياق الكلام وما يناسب الغرض الذي سيق إليه في كل موضع.

2 ـــ التوبة والإصلاح :

معنيان آخران من جزئيات العقيدة، اطرد ورودهما في القرآن مقترنين، بناء على ما بينهما من تناسب في إطار التصور الإسلامي.

وفيما يلي عرض للآيات :

ـــ قال تعالى : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : 160).

ـــ وقال : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة آل عمران : 89).

ـــ وقال : ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء : 16).

ـــ وقال : ﴿إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ..﴾ (سورة النساء : 146).

ـــ وقال : ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (سورة المائدة : 39).

ـــ وقال : ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام : 54).

ـــ وقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النحل : 119).

ـــ وقال : ﴿إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النور : 5).

ـــ ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً﴾ (سورة الفرقان : 71).

وورد المعنيان مقرونين بالإيمان في بعض الآيات :

ـــ قال تعالى : ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (سورة مريم : 60).

ـــ وقال : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (سورة طه : 82).

ـــ وقال تعالى : ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (سورة الفرقان : 70).

ـــ وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ (سورة القصص : 67).

تلك أمثلة من التناسب المعنوي التي أنشأها القرآن بين فروع العقيدة وجزئياتها. ومنها نستخلص النتائج الآتية :

1 ـــ أن القرآن ربط بين الإيمان والعمل الصالح ربطا محكما.

2 ـــ أن الخلاف الذي وقع بين الفرق الإسلامية حول قضية الإيمان وعلاقته بالعمل لم يكن دينيا خالصا، بل كان سياسيا ودينيا.

3 ـــ أن العمل الصالح جزء أصيل من حقيقة الإيمان.

4 ــ أن الأجر والثواب الذي وعد الله به عباده لا يثبت إلا لمن جمع بين صفتي الإيمان والعمل الصالح.

5 ــ أن التوبة لا تصح ولا تقبل إلا إذا اقترنت بترك الإثم والإقبال على الخير والإصلاح.

الفصل الثالث
التناسب المعنوي في التعقيبات القرآنية

تمثل التعقيبات التي ترد في خواتم الآيات أو في أعقاب القصص القرآني سمة بارزة من سمات الأسلوب القرآني، ووجها فائقا من أوجه بلاغته. وذلك لأنها تجمع بين وظائف معنوية، لكونها تزيد معاني الآيات بيانا وإيضاحا، ووظائف جمالية، لكونها تمهد للتناسب الإيقاعي في رؤوس الآيات وفي فواصلها.

والمراد بالتعقيب على الآيات، ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختامها، تذيل به الآية زيادة في البيان، ومحافظة على وحدة الإيقاع. ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 20).

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعقيب مناسب لما تضمنته الآية من وعيد وإنذار للمنافقين، ومناسب لوحدة الإيقاع في رؤوس الآيات.

ومن الأمثلة قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 29).

قوله سبحانه : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعقيب مناسب لمعنى الآية، لأن الذي خلق ما في الأرض جميعا، وجعله نافعا للناس، موافقا لحياتهم وحاجاتهم الطبيعية، وسوى السماوات السبع، وأحكم خلقها ونظامها يجب أن يكون محيطا بكل شيء علما.

أورد السيوطي في «الإتقان» هذه الآية، وأورد بجانبها قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ، وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران : 29).

وقال : «إن المتبادر إلى الذهن في آية «البقرة» الختم بالقدرة، وفي آية آل عمران الختم بالعلم. والجواب أن آية «البقرة» لما تضمنت الأخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب

حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله، كليا وجزئيا، مجملا ومفصلا، ناسب ختمها بصفة العلم. وآية «آل عمران» لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ناسب ختمها بصفة القدرة»[1].

1 ـ عناية العلماء بهذا الوجه من التناسب

كان هذا الوجه من التناسب المعنوي خاصة بارزة في النظم القرآني، لذلك لفت أنظار العلماء، فاتجهت عنايتهم إلى بحثه، وقد ظهرت هذه العناية عند بعض المفسرين، والمصنفين في بديع القرآن، وفي أسرار الآيات المتشابهة.

وكان الإحساس بالتناسب بين الآية وما تختم به من تعقيب قد ظهر مبكرا. أخرج ابن أبي حاتم من طريق الشعبي[2] عن زيد بن ثابت[3] قال: «أملى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ...﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال معاذ بن جبل[4]: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فضحك رسول الله ﷺ. فقال معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال بها ختمت»[5].

وحكي أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا الكلام كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه. فقيل له إن القراءة: ﴿فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: بخ.. بخ عز فحكم[6].

وحكى النقاش[7] أن كعب الأحبار[8] لما أسلم كان يتعلم القرآن، فأقرأه الذي كان

---

(1) الاتقان في علوم القرآن 101/2.

(2) هو عامر بن شراحيل الحميري، رواية من التابعين، يضرب به المثل لحفظه. اتخذه عبد الملك بن مروان نديمه وسميره ورسوله الى ملك الروم، واستقضاه عمر بن عبد العزيز. من رجال الحديث الثقات. توفي سنة 103هـ (الاعلام: 18/4).

(3) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الانصاري الخزرجي، من أكابر الصحابة. كان كاتب الوحي، هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن 11 سنة، كان رأسا في الفتوى والقضاء، من الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. توفي سنة 45هـ (الاعلام: 3/95ـ96).

(4) هو معاذ بن جبل الانصاري الخزرجي، صحابي جليل، كان أعلم الامة بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي سنة 18هـ. (الاعلام: 166/8).

(5) الاتقان في علوم القرآن: 101/2.

(6) المصدر نفسه. وانظر الكشاف: 353/2.

(7) هو محمد بن الحسن، عالم بالقرآن وتفسيره، أصله من الموصل، توفي سنة 351هـ (الاعلام: 310/6).

(8) هو كعب بن ماتع، تابعي، كان في الجاهلية من علماء اليهود أسلم في زمن أبي بكر، أخذ عنه الصحابة كثيرا من أخبار الأمم الغابرة توفي سنة 32هـ. (الاعلام: 85/6).

يعلمه : ﴿فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال كعب : إني لأستنكر أن يكون هذا. ومر بهما رجل فقال كعب : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقرأ الرجل : ﴿فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال كعب : هكذا ينبغي(9).

وكثير من المفسرين وجهوا قسطا من عنايتهم إلى التناسب المعنوي في تلك التعقيبات التي تختم بها الآيات. وحسبنا أن نعرض أمثلة مما نبه عليه بعض مشاهيرهم في هذا الباب :

قال ابن عطية في نهاية تفسير قوله تعالى : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 225).

قال : «وغفور حليم» صفتان لائقتان بما ذكر من طرح المؤاخذة إذ هو باب رفق وتوسعة(10).

وقال الزمخشري : «غفور حليم» حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم(11).

وقال أبو حيان الأندلسي : «جاءت هاتان الصفتان تدلان على توسعة الله على عباده حيث لم يؤاخذهم باللغو في أيمانهم. وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران والحلم عن من أوعده تعالى بالمؤاخذة، وإطماع في سعة رحمته»(12).

كان أبو حيان الأندلسي من المفسرين الذين أولوا عناية كبيرة للتناسب المعنوي في ما تذيل به الآيات من تعقيب، وقد ظهرت هذه العناية بوضوح في تفسيره. وهذه أمثلة توضح ما ذكرنا :

1 ــ قال في نهاية تفسير قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً، ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 29) «وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم، لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء، والتصرف في العالم العلوي، والسفلي، وغير ذلك من الإماتة والإحياء، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء»(13).

2 ــ وفي ختام تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة: 110) نبه على التناسب في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فقال : «وهذه جملة خبرية ظاهرة التناسب في

---

(9) المحرر الوجيز : 146/2.
(10) نفسه : 189/2.
(11) الكشاف : 363/1.
(12) البحر المحيط : 180/2.
(13) نفسه : 136/1.

ختم ما قبلها بها، تتضمن الوعد والوعيد، وكنى بقوله بصير عن علم المشاهد، أي لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيعه. ومن كان مبصرا لفعلك لم يخف عليه هل هو خير أو شر»[14].

3 ــ ونبه على التناسب في ختام تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنْ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة : 127). وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال، فهو السميع لضراعتهما وتسآلهما التقبلَ، وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما. وتقدمت صفة السمع وإن كان سؤال التقبل متأخرا عن العمل للمجاورة... وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة، ولعمومها إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات[15].

4 ــ في ختام تفسير قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة : 129). وقال : «وهاتان الصفتان مناسبتان لما قبلهما، لأن إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم لا تصدر إلا عمن اتصف بالعزة، وهي الغلبة، أو القوة، أو عدم النظير، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل، فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه... وتقدمت صفة العزيز على الحكيم... لأنها من صفات الذات، والحكيم من صفات الأفعال. ولكون الحكيم فاصلة كالفواصل قبلها[16].

5 ــ وفي ختام تفسير قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا اصْلاَحاً، وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ــ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 228). وختم الآية بهذين الوصفين لأنه لما تضمنت الآية ما معناه الأمر، في قوله : ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، والنهي في قوله : ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ والجواز في قوله : ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾، والوجوب في قوله : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾، ناسب وصفه تعالى بالعزة، وهي القهر والغلبة، وهي تناسب التكليف، وناسب وصفه بالحكمة، وهي إتقان الأشياء، ووضعها على ما ينبغي، وهي تناسب التكليف أيضا»[17].

وقد لفت هذا الوجه من التناسب المعنوي في النظم القرآني نظر فريق آخر من العلماء، عني بالتأليف في أسرار متشابهات القرآن، فنبهوا على أسرار اختلاف التعقيبات وأوجه التناسب

(14) البحر المحيط : 349/1.
(15) نفسه : 388/1.
(16) نفسه : 393/1.
(17) نفسه : 191/1.

بين كل آية وما ذيلت به من تعقيب. وحسبنا أن نعرض أمثلة توضح مدى تفطنهم لهذا التناسب.

1 ــ أورد ابن الزبير الغرناطي قوله تعالى : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 234).

وأورد بجانبه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 240). وتساءل عن وجه تعقيب الآية الأولى بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. والثانية بقوله : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ثم أوضح وجه التناسب في ذلك فقال : «إن تعقيب الآية الأولى بقوله : «والله بما تعملون خبير» مناسب لما قبله من تأمينهن على أنفسهن فيما يلزمهن في مدة العدة المذكورة، من حداد وما يتعلق به، وفيما يفعلن بعده، فإن أضمرْن أو كتمن شيئا لا يجوز، فعلم الله سبحانه محيط بذلك، وهو الخبير به...

ولما وقع في الآية الثانية قوله : ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ وقام فيه احتمال أن يخرجن غير طائعات، فيستعجلن أو يتعدين، ناسبه ذكر قدرته سبحانه عليهن بالمعاقبة بما شاء أو العفو عن مرتكبهن، فهو العزيز الذي لا مغالب له، والذي لا يفوته هارب، ولا يغيب عنه شيء» (18).

2 ــ وأورد قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ (سورة النساء : 48). وأورد قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ (سورة النساء : 116). وتساءل عن وجه اختلاف تعقيب الأولى بقوله : ﴿فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾، وتعقيب الثانية بقوله : ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾، ثم بين وجه التناسب في كل تعقيب، فذكر «أنه لما وقع قبل الآية الأولى ذكر أهل الكتاب، وذكر اعتدائهم وتحريفهم من قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ ثم قال تعالى بعد هذا : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وهذا إفصاح بكذبهم وافترائهم. ثم أتبع ما ذكر بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، ناسب ما تقدم من أوصاف الشرك الافتراء الذي هو أخص صفات من كذب من أهل الكتاب، مع أن المشرك مفتر. فقال عز وجل : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾.

(18) ملاك التأويل : 274/1ــ275.

ولما لم يتقدم مثل ذلك في الآية الأخرى. إنما تقدم قبلها قوله : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى﴾ (سورة النساء : 115). وقبلها ما يخص منافقي أيام نبينا عليه السلام من لدن قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ، وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (سورة النساء : 105). ثم قال : ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ...﴾ الآية (سورة النساء : 107) فلم يقع في هذه الآي ذكر تحريف ولا افتراء، إنما ذكر منافقو أيامه عليه السلام بنفاقهم وما صدر منهم، من غير الكذب والافتراء، فناسب ذلك ما بني عليه من قوله سبحانه : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾، كما ناسب قوله في الأولى : ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ ما تقدمه وبني عليه. وجاء كل على ما يجب»[19].

3 ــ وأورد قوله تعالى : ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً، وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ ٱلأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (سورة النساء : 128).

وأورد معه قوله عز وجل : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ، فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (سورة النساء : 129). وتساءل عن السر في تعقيب الآية الأولى بقوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾، وتعقيب الثانية بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾، ثم أشار إلى وجه التناسب في كل منهما، فذكر «أن الآية الأولى مقصودها يستدعي ما ختمت به من أنه تعالى خبير بأفعال عباده وأعمالهم الظاهرة والباطنة. وذكر أن مساق الآية الأخرى يستدعي مغفرته تعالى، إذ قد عرَّفت الآية أن العدل لا يستطاع، فإن لم تكن المغفرة هلك المكلف، فورد أعقاب كل آية ما يناسب»[20].

وكان هذا الضرب من التناسب المعنوي في النظم القرآني موضع عناية كبيرة في الدراسات البيانية والبديعية التي تناولت البديع القرآني. لكن اهتمام أصحاب هذه الدراسات انصب على التمييز بين أضرب التعقيبات، ووضع المصطلحات البديعية لكل ضرب، وتعريفه.

ورغبة في زيادة التوضيح نذكر هنا تلك المصطلحات التي وُضعت ألقابا لأضرب التناسب المعنوي في خواتم الآيات، وهي :

1 ــ ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام

2 ــ الإرصاد　　3 ــ الإيغال　　4 ــ التذييل

(19) ملاك التأويل : 1/374ــ348.

(20) نفسه : 1/354ــ355.

5 ــ التسهيم 6 ــ تشابه الأطراف 7 ــ التصدير
8 ــ التعقيب 9 ــ التفويف 10 ــ التكميل
11 ــ التمكين 12 ــ التناسب 13 ــ التوشيح
14 ــ رد الإعجاز على الصدور. وهذا دليل على ميل البديعيين إلى الإكثار من التفريعات.

وهذا الاهتمام الزائد بتتبع الأقسام والتفريعات أدى إلى التضخم في الإكثار من الفنون والأبواب البديعية من جهة، وإلى الضمور في الكشف عن أسرار البلاغة والبديع في التعقيبات القرآنية، وإلى الاضطراب في استعمال المصطلحات، من جهة ثانية.

وللتخلص من هذه المساوىء كلها، وللتخفيف من تلك التعددية السلبية في المصطلحات، نقترح استعمال مصطلح واحد لهذا الفن البديعي القرآني هو مصطلح التعقيب. ونعني به الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختام الآية القرآنية متضمنا معنى مناسبا لمعناها.

وقد اخترنا هذا المصطلح، لأنه ذو دلالة واسعة، تشمل سائر أضرب الخواتم التي تأتي في أعقاب الآيات، ولأنه يبعد الدارس عن الانشغال بالمصطلحات والتعريفات وعن إرهاق الناس بها.

ولنا قدوة في بعض علماء الدراسات القرآنية الذين استعملوا هذا المصطلح كابن الزبير الغرناطي والسجلماسي صاحب المنزع البديع.

كان ذلك عرضا موجزا لبعض الأمثلة التي تعطي فكرة عن تفطن القدماء لهذا الوجه من التناسب المعنوي في القرآن، وعن الطريقة التي عالجوه بها. ومجمل ما يستفاد من هذا العرض :

1 ــ أن التناسب المعنوي في التعقيبات القرآنية يمثل خصيصة بارزة من خصائص البيان القرآني.

2 ــ أن هذا الوجه من التناسب القرآني لقي حظا من عناية الدارسين.

3 ــ أن أحدا من أولئك الدارسين لم يقم بدراسة هذا الجانب من بلاغة القرآن دراسة تستوعب جوانبه، وتكشف عن ألوان التعقيب ووظائفه المعنوية والجمالية والإيقاعية في القرآن كله.

4 ــ أن هذا الموضوع واسع، لأنه يتصل من جهة بالتناسب المعنوي، ويتصل من جهة ثانية بالتناسب الإيقاعي وتناسب الفواصل.

وقد تبين لنا، بعد الاستقراء الكامل للتعقيبات القرآنية أننا لا نستطيع أن نتناول هذا الموضوع من جوانبه المختلفة في هذا الفصل. وقد استقر الرأي، بعد التفكير، على أن نتناول هنا

ما يتصل منه بالتناسب المعنوي، وأن نؤجل ما يتصل بالتناسب الإيقاعي إلى مَكانه من الفصول اللاحقة.

وأظهرت الدراسة الاستقرائية أيضا، أننا لا نقدر على تقديم دراسة شاملة للتناسب المعنوي، في التعقيبات القرآنية كلها، لأن ذلك سيخرج بنا من الدراسة الأسلوبية إلى عمل شبيه بالتفسير. وقد قدمنا الإشارة إلى سعة هذا الموضوع.

لهذا ارتأينا أن نقتصر على ما يأتي :

ـ تقديم بيان عام عن أنواع التعقيبات القرآنية.

ـ عرض شامل لأنواع التعقيبات في سورة واحدة.

ـ عرض مفصل للتناسب المعنوي في التعقيب بالصفات الإلهية في سورة واحدة.

2 ـ أنواع التعقيبات في القرآن

أظهر البحث الاستقرائي أن التعقيب في النظم القرآني نوعان :

ـ نوع يقع به التعقيب على الآيات ، وهو الكثير.

ـ نوع يقع به التعقيب على القصص، وهو قليل.

والنوع الأول قسمان :

ـ قسم يتكرر فيه تعقيب واحد بعد كل آية، أو مجموعة من الآيات ويؤدي معنى واحدا، كما في سورتي «الرحمن» و«المرسلات». ففي الأولى تكرر «فبأي آلاء ربكما تكذبان». وفي الثانية «ويل يومئذ للمكذبين».

ـ قسم يتنوع فيه التعقيب من آية إلى أخرى، ويؤدي معاني متنوعة، وهو موجود في معظم سور القرآن.

والنوع الثاني كذلك قسمان :

ـ قسم يتكرر فيه التعقيب الواحد بعد مجموعة من قصص الأنبياء التي ترد في سورة واحدة، والسور التي نجد فيها هذا الضرب من التعقيب هي : سورة الشعراء وسورة الصافات وسورة القمر.

ـ وقسم يتنوع فيه التعقيب، وتتنوع مواقعه التي يقع فيها، ومعانيه التي يؤديها، وسيأتي بيان هذا كله.

3 ـ التعقيب على الآيات والتناسب المعنوي

مراعاة التناسب المعنوي في التعقيب على الآيات ظاهرة أسلوبية قرآنية واضحة. ويمكن التفطن إليها من التنوع الكبير في ما تذيل به الآيات من تعقيبات، فقد يكون التعقيب بتأكيد صفة أو صفتين من صفات الله تعالى، ثم تختلف الصفات باختلاف المعاني التي يستدعيها مضمون الآية، فيأتي التعقيب بتأكيد صفتي العلم والسمع، أو العلم والحكمة، أو العزة والحكمة، أو المغفرة والرحمة، أو المغفرة والحلم، أو العزة والرحمة، أو السمع والبصر، أو غير ذلك من الصفات الإلهية.

وقد يكون التعقيب لزيادة البيان بتعليل المعنى أو الحكم الذي تضمنته الآية، أو بتأكيده، أو تقريره.

وقد يكون تنبيها أو تذكيرا، أو وعدا أو وعيدا، وقد تأتي هذه المعاني مجتمعة في تعقيب واحد.

وقد أظهر الاستقراء الكامل ما يأتي :

1 ــ أن التعقيب على الآيات يتنوع في السورة الواحدة تنوعا كبيرا، ويؤدي فيها الوظائف المعنوية المشار إليها آنفا.

2 ــ أنه يكثر في السور الطوال كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام.

3 ــ أن التعقيب بالصفات الإلهية يكثر في أعقاب الآيات التي تتضمن حدودا شرعية وأوامر تكليفية.

4 ــ أن تلك التعقيبات تكثر في أعقاب الآيات التي تميل إلى الطول، وتقل بل تنعدم في الآيات التي تكون قصيرة.

5 ــ أن تلك التعقيبات تجمع بين أداء وظيفتي التناسب المعنوي والتناسب الإيقاعي بصورة عجيبة تجمع بين الوفاء بحق المعنى وحق جمال العبارة معا.

ونظرا لأن هذا الفصل لا يتسع لدراسة التناسب المعنوي في التعقيبات القرآنية كلها، فإننا سنقتصر على دراستها في سورة واحدة من السور الطوال، ولتكن سورة البقرة.

4 ـ التعقيبات في سورة البقرة

سورة البقرة هي أطول سورة في القرآن الكريم، وآياتها تميل إلى الطول في معظم أجزائها. وفيها وقعت أطول آية في القرآن، وهي آية الدَّين. ومعظم آيات هذه السورة تنتهي بتعقيب مناسب لمعنى الآية، ولوحدة الإيقاع وتناسب الفواصل.

وزيادة في الإيضاح، نقدم مقطعا من هذه السورة يؤكد ما أشرنا إليه، وليكن من الآيات التي تتضمن حدودا شرعية :

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ، وَلَا تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ، وَٱللَّهُ يَدْعُو إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى، فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيضِ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ. نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ، وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ، وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ، أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا، وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 219—228).

هذا المقطع نموذج يوضح كيف تتنوع التعقيبات التي تذيل بها الآيات في السورة الواحدة، وكيف يؤدي كل تعقيب في مكانه وظيفته في التناسب المعنوي والإيقاعي معا، من غير إخلال بحق أي من الوظيفتين.

والمقطع يتكون من عشر آيات، ختمت الأولى منها بقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة : 266)، وختمت الثالثة بقوله : ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. والتعقيبان متقاربان، لكنهما افترقا في الغاية من بيان الآيات، فقيل في الأولى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقيل في الثانية : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ووجه التناسب أن الآية الأولى تضمنت بيان حكم الخمر والميسر، وأوضحت أن فيهما إثما كبيرا ومنافع للناس. وهذا بيان يستدعي التفكير ويحث عليه للموازنة والمفاضلة.

وأما الآية الثانية فتضمنت النهي عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين حتى يؤمنوا، وبيان أن الأمة المؤمنة والعبد المؤمن خير. لكن الناس بحكم المعايير القريبة، والنظرة البشرية القاصرة، يغفلون عن وجه الصواب في ذلك، ولا يفطنون حتى تأتي الآيات بما يذكرهم ويوقظهم من الغفلة.

وختمت الآية الخامسة بقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي تتضمن بيان حدود شرعية وأمرا وتحذيرا من لقاء الله. ولما كان التحذير من لقاء الله عاما، فإن كمال البيان استدعى تقديم البشرى للمؤمنين الذين يحفظون حدود الله.

أما بقية الآيات العشر فإنها ختمت بتعقيبات تتضمن تأكيد بعض صفات الله.

ختمت اثنتان منها بصفتي العزة والحكمة، واثنتان بصفتي السمع والعلم.

وختمت آية واحدة بصفتي «الغفور الرحيم».

وختمت آية واحدة أيضا بصفتي «الغفور الحليم».

وختمت آية واحدة كذلك بتأكيد أن ﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

والتناسب المعنوي في كل هذه التعقيبات واضح. أما الآية التي ختمت بتأكيد أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فقد تضمنت بيانا يتعلق بالمحيض وما فيه من الأذى، وأمر باعتزال النساء حتى يطهرن منه. وقد جاء التعقيب مناسبا لهذا المضمون لفظا ومعنى.

أما التناسب المعنوي في التعقيبات التي تضمنت صفات الله فسيأتي بيانه في ثنايا دراسة التعقيب بصفات الله في عموم سورة البقرة.

أما التناسب الإيقاعي في هذه التعقيبات فحسبنا أن نشير هنا الى أنها تنتهي كلها بفاصلة يتردد فيها صوتان متجانسان هما النون والميم، مسبوقين بالواو الممدودة في بعضها، وبالياء الممدودة في بعضها الآخر.

ـ التعقيبات بصفات الله في سورة البقرة

وقع التعقيب بصفات الله في ختام آيات كثيرة من سورة البقرة. وتنوعت الصفات الإلهية الواردة في تلك التعقيبات، مراعاة للتناسب المعنوي والإيقاعي. وتنوعت أيضا من حيث عددها في ختام الآية. والغالب أن يختم التعقيب بصفتين إلهيتين متجاورتين متماثلتين في الوزن الصرفي، وأكثر ما تكون على وزن «فعيل»، مثل عزيز حكيم، سميع عليم، غني حليم، علي عظيم، وقد يختلفان في الوزن، فتأتي الصفة الأولى على «فاعل» أو على «فعّال»، والثانية على «فعيل» مثل : واسع عليم، شاكر عليم، توّاب رحيم... وقد يكون التعقيب بصفة واحدة كالعلم المطلق، أو القدرة المطلقة.

ولبيان التناسب المعنوي في هذه التعقيبات، نعرض الآيات التي وقعت في أعقابها. ولنبدأ بعرض تلك التي ختمت بصفة واحدة :

. التعقيب بصفة العلم المطلق

1 ــ قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ــ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 29).

2 ــ وقال : ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللَّهِ ــ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 110).

3 ــ وقال : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُءاً، وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ــ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 231).

4 ــ وقال : ﴿وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ، وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ــ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 233).

5 ــ وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ــ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 234).

6 ــ وقال : ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ، وَلَا تَنْسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ــ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 237).

7 ــ وقال : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ــ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 265).

8 ــ وقال : ﴿إِنْ تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ــ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 271).

9 ــ وقال : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ إلى قوله : ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ــ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 282).

10 ــ وقال : ﴿وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ، وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ، وَلاَ تَكْتُمُوا ٱلشَّهَادَةَ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ــ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: 283).

11 ــ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ــ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 215).

12 ــ وقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيءٍ لَهُمْ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾ إلى قوله : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ــ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة : 246).

13 ــ وقال : ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً ــ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 273).

ويمكن أن نصنف التعقيبات التي وقعت في خواتم هذه الآيات حسب صيغة التعبير عن صفة العلم كما يلي :

1 ــ والله بكل شيء عليم.

2 ــ والله بما تعملون بصير.

3 ــ والله بما تعملون خبير.

4 ــ والله بما تعملون عليم.

5 ــ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم.

6 ــ والله عليم بالظالمين.

والصيغة الأولى : (والله بكل شيء عليم) وردت تعقيبا على ثلاث آيات : **الأولى** تضمنت ذكر بديع صنع الله في خلق السموات السبع وتسويتها، وفي خلق ما في الأرض جميعا للناس. وختمت بصفة العلم إشارة إلى أن صانع ذلك ومبدعه متصف بالعلم المطلق. وقد تقدم ما قاله بعض المفسرين فيها.

وأما الآيتان : الثانية والثالثة فقد تضمنتا حدودا شرعية تتعلق بأحكام الطلاق، وحقوق الزوجة، وأحكام الدين، وكتابته، وواجبات كاتبه، والشهود.

وفي التعقيب على الآية التي تضمنت أحكام الطلاق وحقوق الزوجة، بتأكيد صفة العلم المطلق تنبيه على أنه تعالى يعلم النوايا فيما يفعله الأزواج من المُضارَّة والاعتداء، وأنه يجازى على ذلك.

وفي التعقيب على آية الدين وأحكامه بهذه الصفة إشارة إلى أنه تعالى يحيط علما بمن امتثل أمره في تلك الحدود، ومن لم يتمثل. وفي ذلك إشعار بالجزاء.

الصيغة الثانية : (والله بما تعملون بصير) وقعت تعقيبا على أربع آيات :

ـــ الأولى تضمنت أمرا بإقامة الصلاة والزكاة، ووعدا بالجزاء على الخير. وقوله تعالى في ختامها : «إن الله بما تعملون بصير» ظاهر التناسب، لأنه يتضمن الوعد والوعيد، بعد الأمر، وقيل : «كنى بقوله (بصير) عن علم المشاهد، أي لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيعه، ومن كان مبصرا لفعلك لم يخف عليه»[21].

ـــ والآية الثانية تضمنت أحكاما شرعية تتعلق بالرضاع في حال الطلاق. «ولما كان كثير من أحكامها متعلقا بالأطفال الذين لا قدرة لهم ولا منعة مما يُفعل بهم، حذر الله في ختامها وهدد بقوله : «واعلموا»، وأتى بالصفة التي هي «بصير» مبالغة في الإحاطة بما يفعله الأزواج مع الأطفال، والاطلاع عليهم»[22].

ـــ والآية الثالثة تضمنت حقوق المطلقة : «وختم الآية بهذه الصفة الدالة على المُبْصِرات، لأن ما تقدم من العفو من المطلقات والمطلقين، وهو أن يدفع شطر ما قبض، أو يكملوا لهن الصداق، وهو مشاهد مرئي، فناسب ذلك المجيء بالصفة المتعلقة بالمبصرات»[23].

ـــ وختمت الآية الرابعة التي تضمنت فضل الإنفاق في سبيل الله بهذه الصفة، لأن الإنفاق والتضحية بالمال عمل مشاهد، وفيها إشارة إلى أن الله لا يخفى عليه شيء من الأعمال، ووعد للمنفقين في سبيل الله.

الصيغة الثالثة : (والله بما تعملون خبير) ووردت تعقيبا على آيتين :

ـــ الأولى تضمنت أحكاما شرعية تتعلق بعدة المتوفى عنها زوجها، «ولما كان آخر الآية قوله تعالى : ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ وهذا مما يدرك بلطف وخفاء، ختم بقوله : ﴿والله بما تعملون خبير﴾، لأن صفة «خبير» تتعلق بإدراك المشاهد وغير المشاهد»[24].

---

(21) البحر المحيط : 349/1.

(22) نفسه : 349/1.

(23) نفسه : 238/2.

(24) نفسه : 255.

ـ والآية الثانية تضمنت بيان فضل الصدقة في حالي إبدائها وإخفائها، وختمت بهذه الصفة «لأنها تدل على العلم بما لطف من الأشياء، وخفي، فناسب الاختفاء ختمها بالصفة المتعلق بما خفي»[25].

الصيغة الرابعة : **(والله بما تعملون عليم)** وقعت تعقيبا على آية واحدة، تضمنت أحكاما شرعية تتعلق بالرهن والأمانة، وكتمان الشهادة وهي مناسبة، لأن علمه تعالى يترتب عليه الجزاء.

الصيغة الخامسة **(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)** وهي قريبة من الصيغة الرابعة، ووقعت في ختام آيتين : تضمنتا معا بيان مستحقي الصدقة. وفي قوله تعالى في ختام الآية الأولى : **﴿فإن الله به عليم﴾**، دلالة على المجازاة، فهي جملة خبرية تتضمن الوعد بالجزاء[26].

وأتى بهذه الصفة في ختام الآية الأخرى تذكيرا بأنه تعالى عليم بما ينفقه الإنسان من الخير ومقداره وكيفية جهاته المؤثرة في ترتيب الثواب... فأتى بالوصف المناسب لذلك، وهو العلم[27].

الصيغة السادسة : **(والله عليم بالظالمين)** وقعت ختاما لآية تضمنت ذكر قصة الملأ من بني اسرائيل الذين سألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكا، ليقاتلوا معه في سبيل الله، فلما بعثه لهم، وفرض عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم فقال الله تعقيبا على هذه القصة : **﴿والله عليم بالظالمين﴾**. وفيه وعيد وتهديد لمن تقاعد عن القتال بعد أن فرض عليه بسؤاله ورغبته، وبيان بأن الإعراض عما أوجب الله على العبد ظلم.

استنتاج :

نخرج من هذا العرض بالنتائج الآتية :

1 ـ أن التعقيب بصفة العلم ورد بنسبة كبيرة، في سورة البقرة، في أعقاب الآيات التي تضمنت بيان حدود تشريعية وأوامر تكليفية.

2 ـ ورد بنسبة قليلة بعد آيات تتضمن بيان بديع صنع الله في خلق الكون وتدبيره، وبيان الإنفاق في سبيل الله.

3 ـ أن صيغة التعبير عن صفة العلم تتنوع في التعقيب على الآيات في هذه السورة مراعاة لأوجه لطيفة من التناسب وفروق دقيقة في المعاني.

4 ـ أن المعاني التي يؤديها التعقيب بهذه الصفة الإلهية تتنوع باختلاف الأغراض والمقامات. فقد يأتي التعقيب بها للتذكير والتخويف. وقد يأتي للترغيب أو الوعد بالجزاء عند الله.

---

(25) البحر المحيط : 326/2.

(26) نفسه : 358/2.

(27) نفسه : 330/2.

5 ـ أن أسرار التناسب في تنوع صيغ التعبير عن صفة العلم في أعقاب الآيات تبلغ في دقتها وخفائها مبلغا يصعب معه استخراجها كلها.

ـ التعقيب بصفة القدرة المطلقة

وقع التعقيب بوصف الله تعالى بالقدرة المطلقة في سورة البقرة أربع مرات، وكلها بصيغة واحدة تقريبا، هي : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وإليك الآيات :

1 ـ قال تعالى : ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ـ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 20).

2 ـ وقال : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ، لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً، حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ، فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 109).

3 ـ وقال : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً ـ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 148).

4 ـ وقال : ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ، وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة : 284).

الآية الأولى وردت في سياق وصف المنافقين وتخويفهم. ووجه التناسب بين التخويف والتذكير بقدرة الله المطلقة، هو أن من كانت له القدرة المطلقة قادر على إنفاذ ما أوعد به.

وأما الآية الثانية فإنها تضمنت بيان ما يضمر أكثر أهل الكتاب للمؤمنين من حسد وحقد، وما يجب على المؤمنين أن يعاملوهم به من العفو والصفح، مع الإيماء إلى أن الله سينصر أولياءه، وسيخذل أعداءه. وفي ذلك وعد ووعيد، والتذكير بقدرة الله في هذا المقام مناسب للمراد.

وأما الآية الثالثة فقد أشارت إلى سنة الاختلاف بين الناس، وأتبعت ذلك بالأمر بالتسابق إلى الخيرات، وبالتذكير بأن مصير الناس جميعا إلى الله. وفي طي ذلك التذكير وعد ووعيد، لذلك ختمت الآية بصفة القدرة المطلقة.

وأما الآية الرابعة فقد تضمنت التأكيد بأن الملك كله لله، وبأنه تعالى هو الذي يحاسب عباده على ما يبدون وما يخفون، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء. وفي طي ذلك أيضا وعد ووعيد. وصفة القدرة المطلقة مناسبة لهذا المعنى.

استنتـــاج :

يستنتج من هذا العرض السريع أن التعقيب بصفة القدرة المطلقة يأتي غالبا في ختام الآيات التي تضمنت الترهيب والترغيب، أو الوعد والوعيد.

أما وجه التناسب بين الترهيب والترغيب، وبين التذكير بقدرة الله المطلقة، فيتجلى — كما أسلفنا — في إثارة الانتباه إلى أن ذلك الترهيب والترغيب صادر عمن يقدر على إنفاذه.

۔ التعقيب بصفة الرأفة :

وقع التعقيب بهذه الصفة مفردة في ختام آية واحدة من سورة البقرة، وهي قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللَّهِ — وَٱللَّهُ رَؤُوفٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ (سورة البقرة : 207).

والرأفة والرحمة متقاربتان في المعنى، وقيل الرأفة أشد الرحمة[28]. والله رؤوف بالعباد حيث كلفهم بالجهاد، فعرضهم لثواب الشهداء. قاله الزمخشري. وقال ابن عطية : ترجية تقتضي الحض على امتثال ما وقع به المدح في الآية. وقال أبو حيان الأندلسي : «ورأفته بالمؤمنين تهيئته إياهم لطاعته ورفع درجاتهم في الجنة»... وأشار إلى أن في لفظ «العباد» «التفاتا»، إذ هو خروج من ضمير غائب مفرد إلى اسم ظاهر. وحسَّنَ الالتفات هنا بهذا الإسم شيئان : أحدهما أن لفظ العباد له في استعمال القرآن تشريف واختصاص... والثاني مجيء اللفظة فاصلة، لأن قبله : ﴿وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾. وقوله ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ، وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، فناسب ﴿والله رؤوف بالعباد﴾[29].

وفي هذا الذي نقلناه ما يكفي لبيان وجه التناسب في التعقيب بصفة الرأفة : وحسبنا أن نلفت الانتباه إلى ما أشار إليه أبو حيان من وفاء هذا التعقيب بحق التناسب المعنوي والإيقاعي في آن واحد.

۔ التعقيب بصفتين متتابعتين :

التعقيب بصفتين متتابعتين من الصفات الإلهية، في خواتم آيات سورة البقرة، أكثر وقوعا من التعقيب بصفة واحدة، والصفتات المقترنتان في أعقاب الآيات تتنوعان من آية إلى أخرى، تبعا لاختلاف معانيها، وما يرتبط بها من الدلالات التي تناسب ما تتضمنه الآية، وهكذا وقع

(28) البحر المحيط : 418/1.

(29) نفسه : 119/2.

التعقيب باقتران صفتي «السميع العليم» سبع مرات، وباقتران صفتي «الغفور الحليم» ست مرات، وبصفتي «العزيز الحكيم» مثل ذلك، وبصفتي «واسع عليم» أربع مرات، وبصفتي «التواب الرحيم» مثل ذلك، وبصفتي «الغفور الحليم» مرتين وبصفة «شاكر عليم» مرة واحدة، وبصفتي «الرحمـٰن الرحيم» مرة واحدة، وبصفتي «العلي العظيم» مرة واحدة، وبصفتي «العليم الحكيم» مرة واحدة، وبصفتي «الرؤوف الرحيم» مرة واحدة.

ومعظم هذه الصفات ورد بصيغة المبالغة، وقليل منها ورد بصيغة اسم الفاعل، وأكثر أوزان المبالغة فيها هو «فعيل». وقد تتابعت صفتان على هذا الوزن في معظم الآيات. وأتى هذا الوزن مقترنا بأوزان أخرى : إما باسم الفاعل كما في «شاكر عليم» و«واسع عليم».

أو ببعض أوزان المبالغة مثل «فعول» كما في «الغفور الرحيم». و«فعال» كما في «التواب الرحيم»، و«فعلان» كما في «الرحمـٰن الرحيم».

ووقعت صيغة «فعيل» في كل ذلك متأخرة، وذلك مراعاة لما يقتضيه التناسب الإيقاعي في فواصل الآيات. وفيما يلي تفصيل لمظاهر التناسب المعنوي في التعقيب بهذه الصفات.

- التعقيب بصفتي «العزيز الحكيم»

الآيات :

1 — ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة : 129).

2 — ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ كَافَّةً، وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ، فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 209).

3 — ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...﴾ إلى قوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 220).

4 — ﴿وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً، وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 228).

5 ــ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 240).

6 ــ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَى، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤمِن، قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً، وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 260).

أما الآية الأولى فقد وردت في سياق دعاء إبراهيم عليه السلام، وهو يرفع قواعد بيت الله الحرام، يساعده ابنه إسماعيل، ويسأل الله تعالى أن يجعلهما وذريتهما مسلمين، وأن يبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. وختمت الآية بقوله تعالى : ﴿وإنك أنت العزيز الحكيم﴾ :

والعزيز : هو الغالب أو المنيع الذي لا يرام، أو الذي لا يعجزه شيء، أو الذي لا مِثْلَ له، أو المنتقم، أو القوي، أو المعز.

والحكيم : يحتمل أن يكون صفة ذات، وأن يكون صفة فعل. فعلى القول بأن «الحكيم» هو ذو الحكمة، يكون صفة ذات. وعلى القول بأن «الحكيم» فعيل بمعنى مُفعل من أحكم الشيء أتقنه يكون صفة فعل.

وأما عن وجه التناسب في التعقيب على الآية الأولى بهذين الوصفين فقد قيل فيه : «إن إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم لا يصدر إلا عمن اتصف بالعزة، وهي الغلبة أو القوة أو عدم النظير، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل، فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾. وتقدمت صفة العزيز على الحكيم لأنها من صفات الذات، والحكيم من صفات الأفعال ــ غالبا ــ ولكون الحكيم فاصلة»[30].

وأما الآية الثانية فقد تضمنت دعوة كافة الناس إلى الدخول في السلم، وهو الإسلام، والنهي عن اتباع الشيطان، والتحذير من الزلل، بعد مجيء البينات. وختمت بقوله تعالى : ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾. وفي وصفه تعالى هنا في هذا التعقيب بالعزة التي تتضمن الغلبة والقدرة، اللتين يحصل بهما الانتقام، وعيد شديد لمن خالفه وزل عن منهج الحق، وفي وصفه بالحكمة دلالة على إتقان أفعاله، وأن ما يرتبه من الزواجر لمن خالف هو من مقتضى الحكمة[31].

---

(30) البحر المحيط : 393/1.

(31) نفسه : 123/2.

وأما الآية الثالثة فقد تضمنت بيان أحكام تتعلق باليتامى ومخالطتهم والتصرف في حقوقهم، والتذكير بإحسان الله وإنعامه على أوصياء التيامى، إذ أزال إعناتهم ومشقتهم في مخالطتهم. وختمت بقوله : ﴿إن الله عزيز حكيم﴾.

قال الزمخشري : عزيز : غالب يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم، لكنه حكيم، لا يكلف إلا ما تتسع له طاقتهم. وقال ابن عطية : عزيز : لا يرد أمره، وحكيم : أي محكم ما ينفذه.

وقال أبو حيان الأندلسي : «وفي وصفه تعالى بالعزة، وهي الغلبة والاستيلاء، إشارة إلى أنه مختص بذلك، لا يشارك فيه، فكأنه لما جعل لهم ولاية على اليتامى نبههم على أنهم لا يقهرونهم... ولا يغالبونهم ولا يستولون عليهم استيلاء القاهر، فإن هذا الوصف لا يكون إلا لله. وفي وصفه تعالى بالحكمة إشارة إلى أنه لا يُتعدى ما أُذن هو تعالى فيهم وفي أموالهم»[32].

وأما الآية الرابعة فقد تضمنت أحكاما تتعلق بعدة الطلاق، وما يجب على المرأة في مدة العدة. وختمت الآية بهذين الوصفين لأنها لما تضمنت ما معناه الأمر، في قوله : «يتربصن»، والنهي في قوله : «ولا يحل لهن»، والجواز في قوله : «ولهن مثل الذي عليهن»، ناسب وصفه تعالى بالعزة، وهي القهر والغلبة، وهي تناسب التكليف، وناسب وصفه بالحكمة وهي إتقان الأشياء ووضعها على ما ينبغي، وهي تناسب التكليف أيضا[33].

وأما الآية الخامسة فقد تضمنت بيان حكم الوصية للمرأة المتوفى عنها زوجها. وفي ختم الآية بهذين الوصفين إظهار للغلبة والقهر لمن منع إنفاذ الوصية بالتمتيع المذكور، وإشعار «بالوعيد على ذلك، وقوله : «حكيم»، إظهار أن ما شرع الله من ذلك فهو جار على الحكمة والإتقان ووضع الأشياء مواضعها»[34].

وأما الآية السادسة ففي تحديد وجه التناسب في ختمها بهذين الوضعين صعوبة، فقيل إنها ختمت بذلك لبيان أنه تعالى قاهر قادر لا يمتنع عليه ما يريد من إحياء الموتى، حكيم فيما يريد. وقيل عزيز : منتقم ممن ينكر البعث، حكيم في نشر العظام الرفات[35].

استنتـــاج :

يستنتج من عرض أوجه التناسب في التعقيب بصفتي «العزيز الحكيم» في آيات سورة البقرة أن وصفه تعالى بهذين الوصفين يأتي في مقام التذكير بمعاني الغلبة والقهر والاقتدار

---

(32) البحر المحيط : 163/2.

(33) نفسه : 191/2.

(34) نفسه : 246/2.

(35) نفسه : 301/2.

والإحكام. وقد قيل إن هذه القاعدة مطردة في القرآن كله. قال ابن الزبير الغرناطي : «أما وصفه سبحانه بالعزة والحكمة فإنما يرد حيث يراد معنى الاقتدار والاستيلاء والقهر وإحاطة العلم وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالي، وما يرجع إلى هذا، كقوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ ٱللَّهُ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة آل عمران : 62). وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة الروم : 27). وقوله : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (سورة الفتح : 7). وهو كثير مطرد حيث يراد معنى القهر والإحاطة والاقتدار»[36].

- **التعقيب بصفتي «الغفور الرحيم» :**

الآيـــات :

1 ــ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ــ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 173).

2 ــ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ــ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 182).

3 ــ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ، وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ، وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ، فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ، كَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ. فَإِنِ ٱنتَهَوْا ــ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 192).

4 ــ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ، وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ ــ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 199).

5 ــ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ ــ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 218).

6 ــ ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِن فَاءُوا ــ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 226).

ووجه التناسب في تعقيب الآية الأولى بهذين الوصفين أنه تعالى لما ذكر أشياء محرمة، اقتضى المنع منها، ثم ذكر إباحتها للمضطر، في تلك الحال المقيدة له، اتبع ذلك الإخبار عن نفسه بأنه غفور رحيم، لأن المخاطب بصدد أن يخالف فيقع في شيء من أكل هذه المحرمات،

---

(36) ملاك التأويل 1 ص : 408/1ـــ411.

فأخبر بأنه غفور رحيم للعصاة إذا تابوا، رحيم بهم، أو لأن المخاطب إذا اضطر فأكل ما يزيد على قدر الحاجة فهو تعالى غفور له ذلك، رحيم بأن أباح له قدر الحاجة(37).

أما الآية الثانية فختمت بالوصفين الجليلين. وقيل «غفور» لما كان من الخائف، وقيل للمصلح، رحيم حيث رخص. وقيل غفور للموصي فيما حدث به نفسه من الجنف والخطأ والإثم إذا رجع إلى الحق، رحيم للمصلح(38).

أما الآية الثالثة فإن سياق الكلام اقتضى التعقيب بالوصفين الجليلين، وقد وردا معلقين بالانتهاء عن الكفر أو مقاتلة المؤمنين. فعلى الأولى يكون المراد : إن انتهوا عن الكفر ودخلوا في الإسلام فإن الله يغفر لهم ما قد سلف، وعلى الثاني يكون المراد : إن انتهوا عن مقاتلكم فإن الله غفور رحيم بكم، حيث أسقط عنكم تكليف قتالهم(39).

وأما الآية الرابعة فإن التعقيب فيها بالوصفين الجليلين وقع موقع التعليل الوارد في صدرها. وهاتان الصفتان للمبالغة. والتناسب في هذا التعقيب تناسب لفظي ومعنوي. لتقدم لفظ الاستغفار في صدر الآية. وهذا اللون من التناسب هو المصطلح على تسميته عند علماء البديع «برد العجز على الصدر» أو «بالتصدير».

وأما الآية الخامسة فإنها ختمت بهذين الوصفين، لأنه تعالى لما ذكر أنهم طامعون في رحمته أخبر أنه سبحانه متصف بالرحمة، وزاد وصفا آخر وهو أنه تعالى متصف بالغفران، فكأنه قيل : الله تعالى عندما ظنوا وطمعوا فيه من ثوابه، فالرحمة متحققة، لأنها من صفاته تعالى. والله غفور لما وقع منهم قبل الإيمان، وما قد يقع منهم بعده من المخالفة، وهو سبحانه رحيم، كفيل بأن يحقق لهم ما يرجون.

وأما الآية السادسة فختمت بهذين الوصفين إشعارا بإسقاط الإثم بعد الكفارة، على قول، وعلى قول آخر، إشعارا بإسقاط الكفارة(40).

استنتـــاج :

يستنتج مما تقدم أن التعقيب بالوصفين الجليلين : «الغفور الرحيم» يطرد وروده في مقام العفو والتخفيف وتقوية الرجاء في رحمة الله.

---

(37) البحر المحيط : 491/1.
(38) نفسه : 24/2.
(39) نفسه : 7/2.
(40) نفسه : 183/2.

وقد نبه بعض العلماء على اطراد هذه القاعدة في القرآن فقيل : «وإنما المطرد في الكتاب العزيز مهما جرى ذكر المغفرة طلبا أو إخبارا، وورود ما به يقوى رجاء السائل[41] كقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ــ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة المومنون : 109). وقوله : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ــ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة يوسف : 92). وقوله تعالى : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ ــ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة القصص: 16). وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ــ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة آل عمران: 31). وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ــ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة آل عمران : 129). وهذا كله جار على هذه القاعدة. وأشكل على تلك القاعدة قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة المائدة : 118). وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ــ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الممتحنة : 5).

وقيل في حل هذا الإشكال : إن آية سورة المائدة مبنية على التسليم لله سبحانه، وأنه المالك للكل يفعل فيهم ما يشاء، فلو ورد هنا : «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» لكان تعريضا بطلب المغفرة، ولم يقصد ذلك بالآية، وإنما قيل ذلك على لسان عيسى عليه السلام، تسليما لله سبحانه. وليس موضع طلب مغفرة لهم، وإنما هو تَنَصُّل من حالهم، وتسليم لله فيهم. قال القرطبي رحمه الله : «لم يقل «الغفور الرحيم». لأن مخرجه على التسليم، ولأن في ذكر «الغفور» تعريضا للسائل. والكلام لتسليم الأمرين، والحكمة تقتضيهما. وكأنه قال : فالمغفرة لا تنقص من عزك ولا تخرج عن حكمتك»[42].

وأما آية سورة الممتحنة، فإن قوله : «إنك أنت العزيز الحكيم» مبني على قوله : «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا». فإن المراد لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق، فيكون سبب فتنتهم. فلا تفعل ذلك بنا فأنت القادر على كفهم ونصرنا عليهم فإنك العزيز الذي لا معارض لما تريد ولا مانع مما تشاؤه[43].

- التعقيب بصفتي «الغفور الحليم».

الآيتـــان :

1 ــ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ، ــ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة :225).

---

(41) انظر ملاك التأويل : 407/1.

(42) الجامع لاحكام القرآن : 378/6.

(43) ملاك التأويل : 407/1ــ409.

2 ــ ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ــ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 235).

أما في الآية الأولى فقد جاءت هاتان الصفتان للدلالة على توسعة الله على عباده ، حيث لم يؤاخذهم باللغو في الأيمان، وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران والحلم عن من أوعده تعالى بالمؤاخذة، وإطماع في سعة رحمته، لأن من وصف نفسه بكثرة الغفران والصفح مطموع فيما وصف به نفسه(44).

وأما في الآية الثانية فإنه تعالى لما هدد المخاطبين بأنه مطلع على ما في أنفسهم، وحذرهم منه، أردف ذلك بالصفتين الجليلتين ليزيل عنهم بعض روع التهديد والوعيد والتحذير من عقابه، ليعتدل قلب المؤمن في الرجاء والخوف. وختم بهاتين الصفتين المقتبضتين المبالغة في الغفران والحلم، ليقوي رجاء المؤمن في إحسان الله، وطمعه في غفرانه وحلمه، إن زل وهفا(45).

ـ التعقيب بصفتي «السميع العليم»

الآيـــات :

1 ــ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ــ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة : 127).

2 ــ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ــ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة : 137).

3 ــ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً، ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ، حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ. فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ــ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 181).

4 ــ وَلاَ تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ، أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ــ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 224).

5 ــ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلاَقَ ــ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 227).

6 ــ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ــ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 244).

---

(44) البحر المحيط : 180/2.

(45) نفسه : 230/2.

7 ــ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ، قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَيُؤمِنْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى لاَ ٱنْفِصَامَ لَهَا ــ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 256).

أما الآية الأولى فقد جاءت هاتان الصفتان في ختامها مناسبتين غاية التناسب، إذ صدر من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عمل وتضرع وسؤال، فهو ــ تعالى ــ السميع لضراعتهما وتسآلهما القبول، وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما، وتقدمت صفة السميع، وإن كان سؤال التقبل متأخرا عن العمل، للمجاورة... وتأخرت صفة العلم لكونها فاصلة، ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات[46].

وأما الآية الثانية فمناسبة ورود هذين الوصفين في ختامها أن كلا من الإيمان وضده مشتمل على أقوال وأفعال وعقائد ينشأ عنها تلك الأفعال والأقوال، فناسب أن يختتم ذلك بهما، أي وهو السميع لأقوالكم، العليم بنياتكم واعتقادكم. ولما كانت هي الظاهرة لنا الدالة على ما في الباطن قدمت صفة السميع على العليم، ولأن العليم فاصلة أيضا. وتضمنت هاتان الصفتان الوعيد، لأن المعنى : وهو السميع العليم فيجازيكم بما يصدر منكم[47].

وأما الآية الثالثة ففي التعقيب عليها بهذين الوصفين تهديد ووعيد للمبدِّلين، وفيهما إشعار بأنه تعالى لا يخفى عليه شيء، فهو يجازيهم على تبديلهم شر الجزاء.

وأما الآية الرابعة فإنها ختمت بالوصفين الجليلين لتقدم ما يتعلق بهما في صدر الآية. فالذي يتعلق بالسمع الحَلِفُ، لأنه من المسموعات، والذي يتعلق بالعلم هو إرادة البِرِّ والتقوى والإصلاح، إذ هو شيء محله القلب، فهو من المعلومات، فجاءت هاتان الصفتان منتظمتين للعلة والمعلول، وجاءتا على ترتيب ما سبق من تقديم السمع على العلم، كما قدم الحلف على الإرادة[48].

وأما الآية الخامسة فقد جاءت الصفتان في ختامها باعتبار الشرط وجوابه، إذ التقدير: «وإن عزموا الطلاق فليتوقعوه، فجاء «سميع» باعتبار إيقاع الطلاق، لأنه من باب المسموعات، وهو جواب الشرط. وجاء «عليم» باعتبار العزم على الطلاق، لأنه من باب النيات، وهو الشرط، ولا تدرك النيات إلا بالعلم. وتأخُّرَ هذا الوصف لمؤاخاة رؤوس الآي، ولأن العلم أعم من السمع»[49].

---

(46) البحر المحيط : 388/1.
(47) نفسه : 411/1.
(48) نفسه : 179/2.
(49) نفسه : 183/2.

وأما الآية السادسة فإنها ختمت بالتذكير بالوصفين الجليلين إشارة إلى أنه تعالى يسمع ما يقوله المتخلفون عن القتال في سبيل الله والمتبادرون إليه، ويعلم ما انطوت عليه النيات فيجازي على ذلك[50].

وأما الآية السابعة فقد أُتي بهذين الوصفين في ختامها، لأن الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده الجنان، فناسب هذا ذكر هذين الوصفين. وقيل : «سميع» لدعائك يا محمد، عليكم بحرصك واجتهادك[51].

- **التعقيب بصفتي «واسع عليم» :**

الآيــات :

1 ــ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ــ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 115).

2 ــ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ، قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ، وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ــ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 247).

3 ــ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ــ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 261).

4 ــ ﴿ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْفَحْشَاءِ، وَٱللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 268).

أما الآية الأولى فقد ختمت بالوصفين الجليلين. فوصف الله نفسه بصفة الواسع، فقيل : ذلك لسعة مغفرته، وقيل : واسع العطاء وقيل : واسع القدرة، وقيل : وصفه تعالى نفسه بذلك الوصف إشارة إلى أنه يوسع على عباده في الحكم، دينه يُسْرٌ، وأردف بصفة «العليم» إشارة إلى أنه تعالى عليم بمصالح العباد، أو بنيات القلوب، وإن اختلفت ظواهر الأعمال في قلبه أو غيرها[52].

وأما الآية الثانية فقد تضمنت ذكر ما خص به طالوت، إذ زاده بسطة في العلم والجسم، وفي التعقيب بهذين الوصفين ما يناسب ذلك، فهو سبحانه واسع الفضل عليم بمصالح العباد فلا اعتراض عليه فيما يأمر ويختار.

(50) البحر المحيط : 251/2.
(51) نفسه : 283/2.
(52) نفسه : 361/1.

وأما الآية الثالثة فقد تضمنت تصوير الجزاء الواسع على الإنفاق في سبيل الله، فكان التعقيب بالوصفين الجليلين «واسعٌ عليمٌ» إشارة إلى أنه واسع بالعطاء، عليم بالنية. وقيل واسع بالقدرة على المجازاة، عليم بمقادير النفقات وما يترتب عليها من الجزاء[53].

والآية الرابعة قريبة من الثالثة في وجه التناسب بين مضمونها وبين التعقيب بالوصفين الجليلين.

• التعقيب بصفتي «التواب الرحيم»

1 ــ ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ــ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : 37).

2 ــ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ ــ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : 54).

3 ــ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا ــ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : 128).

4 ــ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللاَّعِنُونَ. إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : 160).

والتواب : من أسمائه تعالى، وهو الكثير القبول لتوبة العبد أو الكثير الإعانة عليها.

ووجه التناسب في العقيب بهذين الوصفين على الآيات عموما، أن لفظ التوبة سبق وروده في صدرها. فذكر صفة «التواب» في التعقيب من باب رد العجز على الصدر، وفي ذلك تناسب لفظي ومعنوي.

وتأخرت الرحمة في ذلك كله لعمومها، لأن من الرحمة التوبة، ولكونها فاصلة، و«التواب» لا يناسب أن يكون فاصلة هنا، اعتبارا لما تقدم الآيات وما جاء بعدها. وفي التعقيب بهاتين الصفتين، عموما ترغيب في التوبة. وجاء «التواب» على وزن فعّال، و«الرحيم» على وزن فعيل، وهما من أمثلة المبالغة. وفي ذلك تقوية للتوكيد وإطماع للعبد في الرجوع إلى الله، وترغيب في عفوه وإحسانه.

---

(53) البحر المحيط : 306/2.

. التعقيب بصفتي «العليم الحكيم» :

قال تعالى مخبرا عن قول الملائكة : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة : 32).

ووجه التناسب في التعقيب بهذين الوصفين هنا، أن الملائكة لما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله على أكمل أوصافه من المبالغة فيه، ثم أردفوا الوصف بالعلم، الوصف بالحكمة. وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة، لأنه تردد في الآية ووقع متصلا بالتعقيب، ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه. ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة(54).

. التعقيب بصفتي «الرحمٰن الرحيم» :

قال تعالى : ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ـ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : 160).

ذكر هاتين الصفتين في ختام هذه الآية التي تضمنت تقرير قاعدة التوحيد، تنبيها على استحقاق العبادة له سبحانه، وإطماعا بها في سعة رحمته. ومن التناسب في هذا التعقيب أن هذه الآية جاءت عقيب آية مختومة باللعنة والعذاب لمن مات غير موحد له تعالى. فختمت هذه بالرحمة على التقابل. وغالب القرآن أنه إذا ذكرت آية عذاب ذكرت آية رحمة، وإذا ذكرت آية رحمة ذكرت آية عذاب(55).

. التعقيب بصفتي «الرؤوف الرحيم»

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً...﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ـ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 143).

تقدم بيان وجه التناسب في التعقيب بهذين الوصفين. فلا نطيل بإعادته هنا.

. التعقيب بصفتي «العلي العظيم»

وهو ختام آية الكرسي (سورة البقرة : 255).

---

(54) البحر المحيط : 148/1 بتصرف.
(55) نفسه : 464/2.

وتضمنت هذه الآية الكريمة صفات الذات، كالوحدانية والحياة الدالة على البقاء، والقدرة، والملك المطلق، والإرادة، والعلم، فلما تكاملت هذه الصفات، وانتفى عنه تعالى أن يكون محلا للحوادث ختم ذلك بكونه سبحانه «العلي القدير، العظيم الشأن» وهو ختام مناسب لآية تضمنت تلك الصفات الجليلة.

. التعقيب بصفتي «الغني الحليم»

قال تعالى : ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ــ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 263).

وهذا التعقيب مناسب، لأن الآية تضمنت بيان أن الله لا يرضى الصدقة التي يتبعها الأذى، فهو غني عنها، حليم بتأخير العقوبة. وفي طي ذلك وعيد وسخط على المتصدق الذي يمن ويؤذي.

التعقيب بصفتي «الغني الحميد».

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ، وَلاَ تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ــ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (سورة البقرة : 267).

تضمنت الآية خطاب المؤمنين بالأمر بالإنفاق من الطيبات، والنهي عن الإنفاق من الخبيث. وختمت بالوصفين الجليلين تنبيها على أن الله لا يرضى الإنفاق من الخبيث، وأنه غني عن خلقه وأعمالهم حميد على كل حال، لأنه مستحق للحمد.

كان ذلك عرضا موجزا لصنف واحد من التعقيبات في سورة البقرة، وهو التعقيب على الآيات بصفات الله تعالى، وفيه ما يكفي لتأكيد أننا، لو حاولنا أن ندرس سائر ألوان التعقيب في سورة واحدة، وما ينطوي عليه من أوجه التناسب المعنوي والإيقاعي لكنا في حاجة إلى دراسة أخرى مستقلة، لأن الموضوع واسع ومتشعب جدا.

والخلاصة أن دراسة التعقيب بالصفات الالهية في سورة البقرة تمكن من استخلاص ما يلي :

1 ــ أن الصفات الإلهية التي ترد في تلك التعقيبات، مفردة ومزدوجة تتنوع حسبما تحمل من الدلالات، وحسبما يناسب ما تضمنته الآيات. فتأتي لزيادة البيان وتكميل المعنى حينا، وللترهيب أو الترغيب حينا آخر. وقد تأتي في بعض الأحيان متضمنة الوعد والوعيد في آن واحد.

2 ـــ أن تلك التعقيبات تختلف من آية إلى أخرى من حيث صيغة التعبير، والأوزان الصرفية. ولتلك الصيغ والأوزان علاقة حميمة بالمعنى وتناسب الإيقاع في الفواصل على السواء.

3 ـــ أن التعقيب بالصفات الإلهية يكثر في ختام الآيات التي تتضمن أحكاما وحدودا أو تكاليف شرعية. ولعل المقصود من ذلك ـــ على العموم ـــ هو التذكير دوما، بأن الذي شرع تلك الأحكام، وأقام تلك الحدود والتكاليف، عليم بمصالح العباد، حكيم فيما يشرع ويكلف، رقيب لا يخفى عليه شيء.

4 ـــ يكثر التعقيب بصفتي «العزيز الحكيم» في مقام إظهار قدرة الله وجلاله.

5 ـــ يكثر التعقيب بصفتي المغفرة والرحمة في مقام إظهار عفو الله وجماله.

6 ـــ التعقيب سمة من سمات النظم القرآني يجمع بين الوفاء بحق التناسب المعنوي، والوفاء بالتناسب الإيقاعي على السواء.

5 ـــ التعقيب على القصص :

وهو النوع الثاني من التعقيبات القرآنية، وقد مرت الإشارة إلى أنه قسمان : قسم يتكرر فيه تعقيب واحد بعد كل قصة من القصص التي تسرد في سياق السورة الواحدة، كما في كل من سورة الشعراء، والصافات، والقمر. وهذا القسم لا يختلف كثيرا عن التعقيب على الآيات، لأنه ـــ كما سنرى ـــ يؤدي في موقعه وظيفة مزدوجة تجمع بين الوفاء بحق التناسب المعنوي والتناسب اللفظي الإيقاعي في آن واحد.

والقسم الثاني يتنوع فيه التعقيب، ويتضمن في الغالب التذكير بالغاية من قص أخبار الأنبياء في القرآن. ويأتي في أماكن مختلفة من العرض القصصي.

القسم الأول : وقع هذا الضرب من التعقيب في سورة الشعراء، حيث تكرر التعقيب على القصص الوارد فيها بقوله تعالى : ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةًۚ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ**﴾. تكرر هذا التعقيب بصيغة واحدة ثماني مرات في هذه السورة، وورد فيها المقطع الأخير منه مرة واحدة. تكرر وروده بصيغته الكاملة بعد ذكر تكذيب قريش بالرسول وإعراضهم عما جاء به من الحق، وكذا في ختام قصص كل من موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، التي توالت في هذه السورة على هذا الترتيب.

ولا بأس من الإشارة إلى أن التكرار في قصص هذه السورة وقع في فواتحها أيضا.

وقد تساءل الزمخشري عن الداعي إلى ذلك التكرار في فواتح هذه القصص وخواتمها، ثم أجاب بقوله : «قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها. فكانت

كل واحدة منها تدلي بحق، إلى أن يفتتح بمثل ما افتتحت به صاحبتها، وأن تختم بمثل ذلك مما اختتمت به، ولأن التكرير تقرير للمعاني في النفوس وتثبيت لها في الصدور، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وَقْرٌ عن الإنصات للحق، وقلوب غُلْفٌ عن تدبره. فأوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتذكير[56]. ويتضمن هذا التعقيب تذكيرا للمخاطبين في قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، وتسجيلا على أكثرهم بالكفر في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ووعيدا ووعدا في قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، لأن العزيز هو الغالب القاهر، ولأن المعنى : عز في نقمته من الكفار، ورحم مؤمني أهل كل أمة. ولما كان المقام مقام بيان القدرة قدم صفة العزة على صفة الرحمة، والرحمةُ إذا كانت عن قدرة كانت أعظم وقعا.

والمقطع الأخير من هذا التعقيب خطاب لمحمد ﷺ : «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ» وقد تتابعت فيه صفتان جليلتان هما : العزة والرحمة، وهما متقابلتان لأن الأولى من صفات الجلال، والثانية من صفات الجمال. والجلال هو الصفة التي يتجلى بها الله سبحانه على أعدائه، والجمال هو الصفة التي يتجلى بها على أوليائه.

وعلى هذين المعنيين دارت سورة الشعراء، يظهر ذلك منذ مطلعها الذي يجمع بين التخفيف عن محمد ﷺ والتشديد على كفار قريش. والحروف المقطعة : ﴿طسٓمٓ﴾ التي افتتحت بها ترمز إلى هذين المعنيين أيضا[57].

ومن ثم يتبين أن ورود الوصفين الجليلين : ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في ختام كل تعقيب، مناسب لمضمون كل قصة ولروح السورة وجوها الخاص، ويشهد لذلك أن الوصفين وردا في خاتمة السورة في تضاعيف خطاب محمد ﷺ وتسليته، قال تعالى : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (سورة الشعراء : 217). وفي ذلك تنبيه إلى أن التوكل على من هو بهذين الوصفين كافيه شر هؤلاء وغيرهم، فهو يقهر أعداءه بعزته، وينصره عليهم برحمته.

وتكرر تعقيب واحد عقب قصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وإلياس عليهم السلام، التي توالى سردها على هذا الترتيب، في سورة الصافات، واتجهت العناية فيها إلى الحلقات الأخيرة، التي تُظهر نجاة الأنبياء، وتحقق وعد الله لهم بالنصر والجزاء. وهكذا ختمت قصة نوح بقوله تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ (سورة الصافات : 79—82). وتكرر هذا التعقيب في خاتمة كل قصة من قصص الأنبياء الآخرين، ما عدا قصة لوط، وهي التي ختم بها العرض القصصي.

(56) الكشاف : 127/3.

(57) انظر في ذلك : براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور، لمحمد بدري عبد الجليل، ط. 2، المكتب الإسلامي، بيروت 1984، ص : 117—250.

ولما كانت الحلقات الأخيرة موضع العناية في هذا العرض القصصي، إظهاراً لاطراد سنة الله في نصرة أنبيائه، وتدمير أعدائهم، فإن هذا التعقيب وما يتضمنه من تأكيد لهذه السنة الإلهية مناسب للسياق المعنوي.

وتكرر تعقيب واحد في سورة القمر، عقب ما ورد فيها من قصص الأنبياء، وهو قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر : 17).

فقد ورد بعد قصص كل من نوح، وعاد، وثمود، ولوط، عليهم السلام، بصيغة واحدة.

وتيسير القرآن للذكر : قيل معناه تسهيله للاذكار والاتعاظ، وقيل للحفظ.

وفائدة تكرير هذا التعقيب، أن يجدد المخاطبون «عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين آدكارا واتعاظا، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، لئلا يغلبهم السهو. وهذا حكم التكرير عامة، بما في ذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان»(58).

القسم الثاني : وهو القسم الذي تنوعت فيه صيغة التعقيب، واختلفت مواقعه من العرض القصصي.

فقد يأتي في مستهل العرض القصصي، كما نجد في قصة مريم من سورة آل عمران، إذ افتتحت القصة بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ. يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ﴾ (سورة آل عمران : 42ــ43). ثم حُول الخطاب إلى محمد ﷺ فقيل : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (سورة آل عمران : 44). ثم استؤنف عرض بقية مشاهد القصة.

وجاء التعقيب كذلك في تضاعيف العرض القصصي من سورة الأعراف، حيث ورد بعد قصص كل من نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام. وفيه بيان لسنة الله المطردة في أخذ المكذبين، تحذيرا لمن بعدهم. ثم ختم التعقيب بقوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (سورة الأعراف : 102).

(58) الكشاف : 40/4ــ41، والبحر المحيط : 182/8.

ثم استؤنف العرض القصصي بعد ذلك بعرض حلقات مفصلة من قصة موسى عليه السلام.

وتعددت التعقيبات في ثنايا العرض القصصي من سورة يونس : فختمت قصة نوح بقوله تعالى : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾ (سورة يونس : 73).

وختمت قصة موسى منها أيضا بقوله تعالى مخاطبا محمدا ﷺ : ﴿فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَأُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة يونس : 94—100).

وختمت قصة نوح من سورة هود بقوله تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم استؤنف العرض القصصي بعرض حلقات من قصص كل من هود وصالح، وابراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام. وختم ذلك العرض بقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ..﴾ إلى قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾.

وخُتم التعقيب بالإشارة إلى الغاية التربوية من القصص القرآني. فقال تعالى : ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ. وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلأَمْرُ كُلُّهُ، فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة هود : 120—130).

وختمت قصة يوسف من السورة التي ذكرت فيها بقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يوسف : 102).

ووردت حلقات قصيرة من قصص، كل من قوم لوط وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر في سورة الحجر. وختمت بقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ، وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ، فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلاَّقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سورة الحجر : 85—86).

ووردت حلقات من قصص كل من زكرياء، ومريم، وإبراهيم، وموسى، وإسماعيل، وإدريس عليهم السلام في سورة مريم. وختمت بقوله تعالى : ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا﴾ (سورة مريم : 58).

وعرضت حلقات من قصة موسى عليه السلام في سورة طه، وختمت بقوله تعالى : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق،وقد آتيناك من لدنا ذكرا..﴾ (سورة طه : 100).

وعرضت حلقات من قصص كل من موسى، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود، وسلميان، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريا، ومريم عليهم السلام في سورة الأنبياء. ثم ختمت بقوله تعالى : ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾ (سورة الأنبياء : 92).

وختم ما ورد من القصص في سورة «المؤمنين» بقوله تعالى : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا، إني بما تعملون عليم.وأن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون﴾ (سورة المؤمنون : 51—52).

وعرضت حلقات من قصة موسى في سورة النمل وختمت بقوله تعالى : ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (سورة النمل : 14).

ثم عرضت في السورة نفسها حلقات من قصص كل من سليمان وداود، وصالح عليهم السلام، وختمت قصة صالح بقوله تعالى : ﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، إنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ (سورة النمل 51—53) ثم استؤنف العرض القصصي بعرض حلقات من قصة لوط عليه السلام.

وعرضت حلقات مفصلة من قصة موسى في سورة القصص، وختمت بقوله تعالى مخبرا عن أمر فرعون وجنوده وعاقبتهم : ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون﴾ (سورة القصص : 39). ثم حول الخطاب إلى محمد ﷺ فقال تعالى : ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين﴾ .. إلى قوله : ﴿وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا،

﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (سورة القصص : 44 — 46).

الخلاصة :

يستخلص من هذا العرض الموجز ما يلي :

1 — يراعى في الحلقات القصصية التي تسرد في كل موضع أن تكون مناسبة لمقاصد السور، ويراعى في التعقيب عليها أن يكون مناسبا لتلك الحلقات المختارة.

2 — تتعدد المعاني في تلك التعقيبات وتختلف مراعاة لما يناسب السياق المعنوي في كل سورة. والتعقيبات التي تكررت في كل من سورة الشعراء، والصافات، والقمر أمثلة واضحة على ذلك.

3 — يكثر في التعقيب على القصص أن يتضمن التذكير بالأهداف الدينية والتربوية للقصص القرآني. ومن ذلك، أن ذلك القصص من أنباء الغيب، وفيه إثبات للوحي والنبوة. ومنه التذكير بأن الغاية من قص أنباء الرسل تثبيت فؤاد الرسول ﷺ.

4 — يراعى فيما يرد من أوصاف في التعقيبات أن تكون مناسبة للسياق المعنوي. ولذلك قيل في موضع : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. وفي موضع آخر : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾. وفي موضع ثالث : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

الباب الثاني

تَناسُب المَعاني المُتقابلة

الفصل الأول
التقابل وأساليبه في القرآن

التقابل من أبرز أساليب نظم المعاني وأوضح مظاهر التناسب في القرآن. ومعلوم أن التقابل من طرق البيان التي تجد فيها المعاني معرضا للوضوح والجمال، والتي تجد فيها النفوس لذة وسرورا.

يرى علماء الجمال أن تقابل الأجزاء المتساوية في الحجم والشكل من علامات الجمال، وهو ماثل — كما يرون — في الطبيعة : في أوراق الأشجار والأزهار مثلا، وفي أجسام الأحياء. ويظهر التقابل الجانبي بصورة كاملة في أجسام الحيوانات والإنسان. فالنصف الجانبي الأيمن منها معادل ومقابل للنصف الجانبي الأيسر. ويعد مبدأ التقابل من عوامل التوازن والجمال في الصور والأشكال الهندسية، وفي الموسيقى وفن التلحين.

والقرآن يُكثر في نظمه من استخدام هذا المبدأ، ويجعله أداة فنية للبيان، ووسيلة للتأثير في النفوس.

والتقابل في اللغة من قابل الشيءُ الشيءَ، إذا واجهه وصار ماثلا أمامه ؛ ولما وضع المتكلم الكلمة بإزاء الكلمة الأخرى والمعنى بإزاء المعنى الآخر، حصلت المقابلة من جهة اللفظ تارة ومن جهة المعنى تارة أخرى[1].

وفي كتاب التعريفات للشريف الجرجاني تعريف موسع للمتقابلين مع ذكر أقسامهما جاء فيه : «المتقابلان هما اللذان لا يجتمعان في شيء واحد، من جهة واحدة، قيد بهذا، ليدخل المتضايَفان في التعريف، لأن المتضايفين كالأبوة والبنوة قد يجتمعان في موضع واحد، كزيد مثلا، لكن لا من جهة واحدة بل من جهتين، فإن أبوته بالقياس إلى ابنه، وبنوته بالقياس إلى أبيه. فلو لم يقيد التعريف بهذا القيد لخرج المتضايفان عنه، لاجتماعهما في الجملة. والمتقابلان أربعة أقسام : الضدان، والمتضايفان، والمتقابلان بالعدم والمَلَكة، والمتقابلان بالإيجاب والسلب.

(1) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن : 147

وذلك لأن المتقابلين لا يجوز أن يكونا عدميين، إذ لا تقابل بين الأعدام. فإما أن يكونا وجوديين، أو يكون أحدهما وجوديا والآخر عدميا، فإن كانا وجوديين فإما أن يعقل كل منهما بدون الآخر، وهما الضدان، أو لا يعقل كل منهما إلا مع الآخر، وهما المتضايفان. وإن كان أحدهما وجوديا والآخر عدميا، فالعدمي إما عدم الأمر الوجودي عن الموضوع القابل، وهما المتقابلان بالعدم والملكة، أو عدمه مطلقا. وهما التقابلان بالإيجاب والسلب»[2].

والتقابل الذي عرفه الجرجاني في هذا النص هو التقابل بالمعنى الذي يبحثه علماء المنطق. وهو قريب من المعنى الذي يدرسه علماء البيان والبلاغة. غير أن تعريفات البلاغيين أقرب إلى غرضنا من تعريف المناطقة، ويظهر ذلك من التعريفات الآتية :

قال أبو هلال العسكري : «المقابلة : إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»[3].

وقال ابن رشيق : «هي مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم. وأصلها في ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا. ويأتي في المُوافق بما يوافقه. وفي المخالف بما يخالفه. وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد. فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة»[4].

والمقابلة ــ فيما يرى حازم القرطاجني ــ : «إنما تكون في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعضا. والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب، على صفة من الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر، كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه..

وأنواع المقابلات تتشعب، قل من يفطن لمواقع كثير منها... وأكثر ما يشعر به منها مقابلة التضاد والتخالف»[5].

والمقابلة عند السجلماسي : «تركيب القول، أو القول المركب من جزئين بسيطين ثانيين، كل جزء منهما مركب من جزئين أولين. والجزء جزء من البسيطة الأولى التي من أحد الجزئين البسيطين الثانيين إلى جزء جزء من البسيطة الأولى التي من البسيطة الأخرى وضع ونسبة. فحوذي ببسائط أحد الجزئين بسائط الآخر، وقوبل به على الترتيب الواجب والنظام الطبيعي».

---

(2) التعريفات : المتقابلات للجرجاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1938، ص : 174.

(3) كتاب الصناعتين، ص : 346.

(4) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي بن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط. 4، دار الجيل 1972 : 15/2.

(5) منهاج البلغاء، ص : 52.

وقال ـــ فيما رواه عن غيره ـــ : «المقابلة هي ترتيب الكلام على ما يجب فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا»[6].

يستفاد من هذه التعريفات أن التقابل يقع في الكلام بالجمع بين المعاني المتناسبة التي تكون النسبة الرابطة بينها إما نسبة مخالفة، وإما نسبة موافقة. وهذا واضح من عبارة أبي هلال العسكري «على جهة الموافقة أو المخالفة»، ومن عبارة ابن رشيق : «ويأتي في الموافق ما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه»، ومن عبارة حازم : «من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب».

ويستفاد منها أيضا أن التقابل بين المعاني قد يستتبع التقابل بين الألفاظ والعبارات. وقد ظهر هذا المعنى بوضوح من عبارة أبي هلال العسكري : «إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في اللفظ أو المعنى». وألمح إليه حازم بعد أن أوضح أن المقابلة تكون بالجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة. فقال : «على صفة من الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر».

وبيان ذلك أن بناء الكلام على المقابلة بين المعنيين مما يزيده وضوحا، وإذا لاءمت عبارة أحد المعنيين عبارة المعنى الآخر، وتماثلت أبنِيَةُ الألفاظ فيهما، زاده ذلك حسنا وبهاء. وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة توضح هذا الوجه من الحسن. من ذلك مثلا أن لفظ «اليُسْر» يقابل بلفظ «العُسْر»، ولفظ «اليُسْرى» يقابل بلفظ «العُسْرى»، و«الحَسَنَةُ» تقابل بـ «السَّيِّئَةِ»، و«الحُسْنَى» تقابل بـ «السُّوأى»، و«الضَّرَّاءُ» تقابل بـ «النَّعْمَاءِ»، و«الضُّرُّ» يقابل بـ «النَّفْع»... وهكذا.

وإيقاع التناسب في أبنية الألفاظ المتقابلة مطلب عزيز، وغاية مطلوبة، يرتكب من أجلها أحيانا ما يخالف القاعدة النحوية والقياس الصرفي. يقول العرب : «أَخَذَهُ مَا قَدُمَ ومَا حدُثَ». ولا يقال «حَدُثَ» إلا في هذا التركيب. والذي سوغه هنا مقابلته مع «قدم». ويقولون : «آتيه بالغدايا والعشايا» فجمعوا الغداة على غدايا. والقياس : غُدُوٌّ وغدوات. وآثروا ما يخالف القياس حفاظا على التناسب بين اللفظين المتقابلين.

وفي القرآن الكريم ألفاظ صيغت على خلاف القياس لتتناسب في بنيتها مع ما يقابلها. من ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ (سورة البروج : 13). ومنه قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ، ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (سورة العنكبوت : 19). والقياس : بدأ يبدأ، ثلاثيا. ولكن القرآن خالف القياس مراعاة للتناسب بين هذا الفعل والفعل الآخر. ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سورة البقرة : 119).

---

(6) المنزع البديع، ص : 344.

قال أبو حيان الغرناطي : «عدل إلى فعيل ــ يعني في «بشيرا ونذيرا» ــ للمبالغة، لأن فعيلا من صفات السجايا. والعدل في «بشير» للمبالغة مقيس عند سيبويه. إذا جعلناه من بَشَر. لأنهم قالوا : بَشَر، مخففا. وليس مقيسا في «نذير»، لأنه من أنذر. ولعل محسن ذلك كونه معطوفا على ما يجوز ذلك فيه، لأنه قد يسوغ في الكلمة مع الاجتماع مع ما يقابلها ما لا يسوغ لو انفردت»[7].

والجدير بالبيان أن للنفوس ولعا شديدا بهذا الأسلوب الذي يراعى فيه التناسب بين الألفاظ المتقابلة. وما يزال الناس يلتمسونه في مخاطباتهم، لما فيه من اللذة والإثارة.

من هنا جعل بعض البلاغيين قسما من التقابل ضمن أنواع التناسب اللفظي، ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجي الذي أشار إلى أن تناسب الألفاظ على وجهين :

ــ أن يكون معنى اللفظين متقاربا.

ــ أن يكون أحد المعْنيين مضادا أو قريبا من المضاد[8].

أما المقابلة المعنوية التي لا صلة لها بتناسب الألفاظ فقد ذكرها ابن سنان في موضع آخر، ضمن مباحث الفصاحة الخاصة بالمعاني.

ومما يستفاد من تعريفات البلاغيين الخاصة بالمقابلة أن التقابل في الكلام أكثر ما يجيء في الأضداد، ظهر هذا واضحا في قول ابن رشيق السابق، وفي قول حازم القرطاجني : «وأن أكثر ما يشعر به ويفطن إليه من صوره مقابلة التضاد والتخالف».

1 ــ التقابل والطباق

ثم إن علماء البلاغة ميزوا بين نوعين من التقابل، فسموا الأول بالمقابلة، وسموا الآخر بالطباق أو المطابقة.

وقالوا في تعريف المطابقة : «هي ذكر الشيء وضده»[9]. أو بعبارة أخرى : هي أن يجمع في الكلام بين متضادين بعد مراعاة التقابل، بحيث لا يضم الإسم إلى الفعل، ولا الفعل إلى الإسم[10].

---

(7) البحر المحيط : 367/1.

(8) سر الفصاحة، ص : 169. وانظر البرهان في علوم القرآن : 462/3 ــ والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص : 150.

(9) الصناعتين، ص : 316.

(10) الفوائد المشوق...، ص : 145.

والفرق بين المطابقة والمقابلة ــ فيما ذكروا ــ :

1 ــ أن الطباق لا يكون إلا بين ضدين غالبا. أما المقابلة، فتكون بالجمع بين ضدين فصاعدا : «وإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة».

2 ــ أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد، أما المقابلة فتكون بالأضداد وبغيرها.

ثم إنهم اختلفوا في مصطلح المطابقة، فأجمع جمهورهم على أن المطابقة في الكلام هي أن يجمع بين الشيء وضده كالبياض والسواد، والليل والنهار.

وخالف في ذلك قدامة بن جعفر، فسمى الجمع بين الضدين بالتكافؤ. أما المطابقة فهي ــ عنده ــ إيراد لفظين متساويين في البناء والصفة، مختلفين في المعنى[11]. وذلك هو ما سماه غيره بالجناس.

وكان قدامة بنى رأيه في استعمال مصطلح المطابقة على أن معناها في اللغة هو المماثلة والموافقة، لا المنافرة والتضاد.

وقريب مما ذهب إليه قدامة في معنى التطابق، ما نقل عن الرماني. وهو أن المطابقة تعني : مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان[12].

ولعل الخلاف بين البلاغيين في هذا المصطلح يعود إلى الاشتراك الواقع في لفظ المطابقة. ومن الذين نظروا إلى ما فيه من الاشتراك حازم القرطاجني. فقد ذكر أن لفظ المطابقة مشتق إما من قولك : هذا طَبَقٌ لهذا، أي مقدار له، لا يزيد عليه ولا ينقص. وإذا كان حقيقة الطباق مقابلة الشيء بما هو على قدره... سُمِيَ المتضادان، إذا تقابلا، ولاءم أحدهما في الوضع الآخر متطابقين. قال الخليل : يقال : طابقت بين شيئين إذا جمعتهما على حذو واحد، وألصقتهما. وإما من قولك طابق الفرسُ إذا وضع رجلاه في موضع يده[13].

لكن السجلماسي نفى أن يكون في لفظ المطابقة ــ حسب الاستعمال الفصيح ــ اشتراك في دلالته، وذهب إلى أن معناه في فصيح الكلام هو المنافرة والتضاد. ثم أنكر رأي قدامة بن جعفر ومن وافقه عليه فقال : «وليس لقائل أن يقول : إن اسم المطابقة والطباق، هو بمعنى الموافقة فيسوغ له نقله ــ يعني إلى الاصطلاح البلاغي ــ بهذه الجهة... لأنه قد تقرر أنه ليس من موضوع اللغة الأصيل، وإنما هو مولد لَهَجَ به قوم من الكتاب، وناس من العلماء، إما لعدم

(11) نقد الشعر، ص : 163، 185.

(12) انظر العمدة : 5/2.

(13) منهاج البلغاء، ص : 48.

البصر بلغة العرب، وإما للتساهل، وترك التحقيق في استعمال هذه الأمور، لاستمرار الاستعمال فيه بهذه الجهة. وهو غلط ولحن غير مأبوه له»[14].

وهذا الرأي الثاني هو الذي أخذ به علماء البلاغة كما يظهر من أقوال المتأخرين منهم.

ولكن يبدو أن هذا المصطلح لم يستقر على حال حتى عند المتأخرين أيضا. ومما يؤكد عدم استقراره أن بعضهم يذكر معه مصطلحات أخرى تجنبا للالتباس ودفعا للإبهام. نرى ذلك مثلا عند ابن قيم الجوزية الذي عقد بابا لهذا الأسلوب، وسماه بـ«التطبيق». ثم قال : ويسمى المطابقة والتكافؤ والتضاد[15].

وسماه الخطيب القزويني بالمطابقة. ثم قال : ويسمى الطباق والتضاد[16].

ومن دلائل التضارب الحاصل في تصور البلاغيين لفن التقابل في الكلام، بعد تقسيمه إلى طباق ومقابلة، اختلاف بعضهم في أيهما الأصل وأيهما الفرع.

فذهب ابن الأثير في جامعه، إلى أن الطباق نوع من أنواع المقابلة، لأن الحال في ذلك لا يخلو ــ كما يرى ــ من ثلاثة أقسام : إما أن يقابل الشيء بضده أو بغيره، أو بمثله[17].

وخالفه الخطيب القزويني، وعكس الترتيب فجعل المقابلة فرعا من فروع الطباق. فقال : ودخل في الطباق ما يخص المقابلة. وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة، ثم بما يقابلها. والمراد بالتوافق خلاف التقابل[18].

ومن الدلائل أيضا أن من البلاغيين من لم يفرق تفرقة واضحة بين أمثلة الطباق وأمثلة المقابلة. من ذلك مثلا أن قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى. وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (سورة النجم : 43ــ44) هو عند بعضهم من شواهد المقابلة. وعند صاحب بديع القرآن من أمثلة الطباق[19]. رمن ذلك أن قوله عز وجل : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ (سورة التوبة : 82). ورد عند صاحب الإتقان في علوم القرآن مثالا من أمثلة الطباق، والمقابلة معا في صفحة واحدة[20].

---

(14) المنزع البديع، ص : 374.
(15) الفوائد المشوق ... ص : 145.
(16) الإيضاح، ص : 348.
(17) عن الفوائد المشوق .. ص : 148.
(18) الإيضاح، ص : 353.
(19) بديع القرآن، ص : 33.
(20) الإتقان : 95/2.

2 ـ اتجاه البلاغيين في دراسة التقابل

اتجه البلاغيون في تناول هذا الأسلوب اتجاها شكليا، فانصرفت عنايتهم إلى إحصاء عدد عناصره في كل مثال، فأوضحوا أن منه ما وقعت فيه مقابلة اثنين باثنين، وأربعة بأربعة... الخ. ومما وقعت فيه مقابلة اثنين باثنين قوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ (سورة التوبة : 82). ومما وقعت فيه مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى. وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (سورة الليل : 5ــ10).

ومما وقعت فيه مقابلة خمسة بخمسة قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً، يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً. وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ ٱلْفَاسِقِينَ. ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة البقرة : 26ــ27). وبيان ذلك ــ على ما ذكروا ــ أن قوله تعالى : «بعوضة فما فوقها». تقابلٌ بين الدقيق والجليل. وقيل إن هذا من الطباق الخفي. وهو التقابل الأول. والثاني قوله تعالى : «فأما الذين آمنوا... وأما الذين كفروا». والثالث : «يضل ويهدي». والرابع : «ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه». والخامس : «يقطعون... وأن يوصل».

ومن مقابلة ستة بستة قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا، وَٱللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ. قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ، لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ (سورة آل عمران : 14ــ15).

ويمثل الاهتمام بهذا الحصر الرياضي شكلا من الدراسة البيانية الجافة التي لا تقدم شيئا من أسرار بلاغة التقابل، كما أنه يعطي مثالا عن الخلط بين الطباق والمقابلة.

وغير خاف أن التضارب في المصطلحات، والإكثار من التقسيمات، والتداخل بين أمثلة الأقسام وشواهدها، من أسباب طمس القيمة الجمالية والبيانية لأسلوب التقابل، وإرهاق كاهل درس البلاغة بما لا خير فيه.

ومن الخير لهذا الدرس أن يؤخذ مصطلح «التقابل» ويعمم على جميع طرق التعبير التي تنتظم فيها المعاني على وجه من أوجه المقابلة، سواء أكانت مقابلة بين معنيين متضادين فأكثر أو بين معنيين متخالفين فأكثر.

وليس هناك ما يدعو إلى الانشغال بوضع مصطلح خاص لكل صورة من صور التقابل. على أنه لا مانع من تقييد المصطلح بما يميز كل صورة من غيرها. كأن يقال تقابل تضاد بسيط أو مركب، وتقابل مخالفة، وتقابل سلب وإيجاب...

ومما يسوغ هذا التعميم أن التقابل مبدأ كبير في علم الجمال وفن التلحين، والتصوير، وفي سائر الفنون، وفي علم المنطق والبيان.

ومما يسوغه أيضا أن من علماء السلف من جعل الطباق أحد أنواع المقابلة، بل منهم من قال : «إن أنواع المقابلات تتشعب، وأن الناس إنما يفطنون إلى صورة من صورها، هي مقابلة التضاد والتخالف. وقالوا : ينبغي أن يفهم من اسم المطابقة في هذه الصناعة ما يفهم من اسم التقابل في صناعة المنطق. وينبغي أن ينقسم جنس المطابقة في البلاغة، حسب انقسام التقابل، إلى الأنواع الأربعة، وهي : السلب والإيجاب، والعدم والملكة، والمضافات، والأضداد»[21].

ومن المعلوم أن التقابل بين الألفاظ والمعاني من أوجه التناسب التي تزيد من جمال الكلام، ومن حلاوته في النفوس. يقول حَازم القرطاجني : «إن للنفس في تقارب المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادات، وما جرى مجراها تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأن تناظر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذالك في شيء واحد. وكذلك حال القبيح. وما كان أملك للنفس، وأمكن منها فهو أشد تحريكا لها. وكذلك أيضا مثول الحسن إزاء القبيح»[22].

وصرح ابن سينا — فيما نقله عنه صاحب المنزع البديع — «بأن التقابل بين المعاني يدل على قوة مُنَّةِ المتكلم، وحسن تصوره للمعاني، وإيراده إياها بالعبارة الحسنة...»[23].

بهذا التصور العام لفن التقابل، سنتقدم الآن، في هذا الفصل بعون الله، لعرض أساليبه في النظم القرآني. ولكن ينبغي أن نشير أولا إلى أن العلماء المعنيين بالدراسات القرآنية اتفقوا على أن التقابل يعد من أبرز الظواهر الأسلوبية في البيان القرآني.

نقل عن بعضهم أنه قال : «إن القرآن كله وارد على فن المقابلة، بظهور نكته الحكيمة العلمية من الكائنات والزمانيات والوسائط والروحانيات والأوائل والإلهيات، حيث اتحدت من حيث تعددت، واتصلت من حيث انفصلت، وأنها قد ترد على شكل المربع تارة، وشكل المسدس أخرى، وعلى شكل المثلث... إلى غير ذلك من التشكيلات العجيبة والترتيبات البديعة»[24].

---

(21) المنزع البديع، ص : 335.

(22) منهاج البلغاء، ص : 44 — 45.

(23) المنزع البديع، ص : 375.

(24) البرهان في علوم القرآن : 3/458—459.

ومن التشكيلات التي ذكرها مقابلة النظيرين كمقابلة ٱلسِّنَةِ بِٱلنَّوْمِ في قوله تعالى : ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ (سورة البقرة : 255)، لأنهما جميعا من باب الرقاد، المقابل لليقظة.

ومن مقابلة النقيضين قوله تعالى : ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (سورة الكهف : 18).

ومن مقابلة الخلافيين، مقابلة الرشد بالشر في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ (سورة الجن : 10). فقابل الشر بالرُّشد، وضد الرشد هو الغي، وضد الشر هو الخير، والخير الذي يدل عليه لفظ الشر ضمنا نظير الرشد قطعا، والغي الذي يدل عليه لفظ الرشد ضمنا نظير الشر قطعا، وحصل من هذا الشكل أربعة ألفاظ متقابلة : إثنان منطوقان، واثنان ضمنيان، فكان تقابلا رباعيا.

ومن هذا الشكل قوله تعالى : ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى. وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (سورة القيامة : 31 ــ 32)، فقابل «صَدَّقَ» بـ «كَذَّبَ»، و«صَلَّى» الذي هو أقبل بـ«تولى». ومنه قوله تعالى : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (سورة البقرة : 30)، فقابل الإفساد بالتسبيح والحمد، وسفك الدماء بالتقديس. فالتسبيح بالحمد، إذن، ينفي الفساد، والتقديس ينفي سفك الدماء...[25]

3 ــ أساليب التقابل في القرآن

والتقابل كثير في القرآن الكريم، وصوره متعددة، ويكثر مجيئه في مقامات الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وفي عرض مشاهد القيامة، وفي رسم الصور البيانية وتركيب الأمثال، وذكر صفات المؤمنين والكافرين وأحوال النفس البشرية.

ويمكن تصنيف تلك الصور في نوعين من التقابل :

ــ تقابل بين مفردين، وهو ما نقترح تسميته بالتقابل البسيط.

ــ تقابل بين مركبين، وهو ما نقترح تسميته بالتقابل المركب.

والنوع الأول كثير في القرآن الكريم لا تكاد سورة تخلو من أمثلته، ويدخل فيه المقابلة بين السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنور والظلمات، والهدى والضلال، والكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، والموت والحياة، والدنيا والآخرة، والجنة والنار، والحق والباطل، والحلال والحرام، والفساد والصلاح، والتوحيد والشرك ويدخل فيه التقابل بالإيجاب والسلب أو الأمر والنهي. وهذا الضرب كثير في القرآن الكريم.

(25). البرهان في علوم القرآن : 3/459ــ460.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ﴾ (سورة الأنعام: 1) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ. وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ. وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ. وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ﴾ (سورة فاطر: 19ــ22)، وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ. وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ. يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحديد: 1ــ6). ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ. وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا. وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ (سورة النجم: 43ــ45). ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ (بسورة فصلت: 34).

ومن أمثلة النوع الثاني قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: 81ــ82). وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة: 217ــ218).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً. وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً﴾ (سورة النساء: 56ــ57).

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ. وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾... الآيات.

﴿...وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة : 71—72).

وقوله تعالى : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ. قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ. وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ. وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ﴾ (سورة الزمر : 71—74). وأمثلة هذا النوع من التقابل كثيرة في القرآن الكريم، وتكثر في مقامات عرض مشاهد القيامة، ووصف أحوال المؤمنين والكافرين، وفي عرض صور النماذج البشرية وتركيب الأمثال والصور البيانية وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل اللاحق.

4 ــ التقابل سمة بارزة في بعض السور

في القرآن الكريم سور تقوم في بنائها العام وفي معانيها الجزئية وأساليبها على أسلوب التقابل. ومن هذه السور : الرعد، والزمر، والذاريات، والطور، والرحمن، والواقعة، والحاقة، والقيامة، والإنسان، والغاشية، والليل، والشمس... وتختلف أساليب التقابل من سورة إلى أخرى.

أما سورة الرعد فيتكون إطارها العام من المشاهد الطبيعية المتقابلة : من سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار... وجبال راسية، وأنهار جارية، وزبد ذاهب، وماء باق، وقطع من الأرض متجاورات لكنها مختلفات. ونخيل صنوان وغير صنوان. وفيما يلي مقاطع من هذه السورة توضح هذه السمة البارزة فيها :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الٓمٓر. تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ، وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ. ٱللهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا، ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ، يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً، وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ، يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ..﴾ (سورة الرعد : 1—4). ﴿...ٱللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ، ٱلْكَبِيرُ

ٱلْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنكُم مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ. لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ..﴾ (سورة الرعد : 8—11). ﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ. أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ، قُلِ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ. أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَابِياً، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ، فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ. لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَى، وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَٱفْتَدَوْا بِهِ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ. أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ. ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ. وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ. وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ...﴾ ﴿...وَٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ﴾ (سورة الرعد : 16—25). هكذا تطرد المقابلات في أسلوب هذه السورة، في كل المعاني وكل الحركات. فيتناسق التقابل المعنوي فيها مع التقابلات الحسية، وتتسق في الجو العام. ومن ثم يتقابل معنى الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر، ويتقابل رفع السموات بغير عمد مع مد الأرض، ويتقابل الأعمى مع البصير، والظلمات مع النور، ومن يخلق مع من لا يخلق. ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد، ويتقابل من أسرّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. وتتقابل دعوة الحق مع دعوة الباطل للشركاء. ويتقابل من يعلم مع من لا يعلم. ويتقابل من يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق مع الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

وبالإجمال تتقابل في هذه السورة المعاني والحركات، أو تتقابل الاتجاهات والنماذج والصور تنسيقا للجو العام[26].

ولا يتسع المجال في هذا الفصل لعرض جميع السور التي امتازت في أسلوبها ومعانيها بخاصة التقابل، وحسبنا هنا أن نقدم عرضا موجزا لسورة الرحمن وسورتين من السور القصار.

أما سورة الرحمٰن فتتكون من مقدمة ومشهدين متقابلين : مشهد أهل العذاب، ومشهد أهل النعيم.

(26) أنظر «في ظلال القرآن» : 65/5.

تضمنت المقدمة بيانا عن بعض النعم الإلهية على الإنسان، وبعض مظاهر قدرته تعالى وتدبيره الحكيم في السماء والأرض والنبات، وفي ثنايا ذلك البيان تتقابل المعاني الجزئية بصورة واضحة. وهكذا تتقابل الشمس مع القمر، والشجر مع النجم، (وهو ما لا ساق له من النبات)، والسماء المرفوعة مع الأرض الموضوعة، والإنسان مع الجان، ويتقابل البحران العذب والملح، والمشرقان مع المغربين، وفناء الخلق مع بقاء الخالق.

وبعد هذه المقدمة يبدأ عرض مشهد أهل العذاب بإيجاز، يليه عرض مشهد أهل النعيم. وهذه مقاطع من السورة تبين هذه السمة البارزة في تركيبها ومعانيها : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ. خَلَقَ ٱلإِنسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ. ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ. وَٱلأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلأَكْمَامِ. وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. خَلَقَ ٱلإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ. وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ...﴾ (سورة الرحمن : 1—20).

﴿...سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلاَنِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ فَٱنفُذُوا، لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ. وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلأَقْدَامِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ (سورة الرحمٰن : 31—44). ﴿...وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ...﴾ (سورة الرحمن : 46—78) إلى آخر السورة.

ومن السور القصيرة التي قام أسلوبها على مبدإ التقابل سورة الليل. فهي تجري في محورها على المقابلة بين العمل الحسن والعمل السيء. وقد مهدت لذلك بإطار يتقابل فيه ظلام الليل وضياء النهار، والذكورة والأنوثة في الخلق. وداخل هذا الإطار بيان عن اختلاف أعمال الناس، يتقابل فيه العمل الحسن المضيء مع العمل السيء المظلم. ثم تختم السورة ببيان بعض معاني الإيمان يسري فيها التقابل أيضا. قال تعالى : ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ. وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ. وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ

لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى، إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى. وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى. فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى. لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى. وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾.

ومن تلك السور سورة الشمس التي اتجه القصدُ فيها إلى بيان ما في النفس الإنسانية من استعداد للارتقاء بالتزكية، وللانحدار بالتدسية والمعاصي.

وقد مهدت السورة لهذا المعنى بإطار مناسب تتراءى فيه مظاهر الارتفاع والهبوط المتقابلة في مشاهد الطبيعة : في الشمس المرتفعة في ضحاها، والقمر إذا تلاها، وفي النهار، وفي الليل، وفي السماء والأرض. قال تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.

وداخل هذا الإطار بيان عن استعداد النفس البشرية للارتفاع بالإيمان والتزكية، وللهبوط بالكفر والتدسية : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

ثم ختم السورة بعرض مثال عن النفوس الفاجرة المتردية : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا. إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا. فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

5 ـ التقابل وتخيُّر الألفاظ

ولمراعاة التقابل المعنوي تأثير في اختيار الألفاظ وأبنيتها. وحسبنا هنا أن نشير إلى ما في اختيار لفظة «طحا» من مراعاة للتقابل، لأنها تحمل معنى الإلقاء إلى أسفل، ولفظ «بناها» يدل على الارتفاع. وسيأتي المزيد من التوضيح بعد قليل.

ويظهر ذلك جليا في الاختلافات اللفظية والتركيبية التي تقع في بعض الآيات المتشابهة. فقد يكون ذلك الاختلاف ناشئا عن مراعاة التقابل. ومن ذلك ما ورد في قصة إبراهيم من سورة الأنبياء وهو قوله تعالى : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ (سورة الأنبياء : 67).

وورد في سورة الصافات، في هذا المعنى نفسه : ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ (سورة الصافات : 98).

فعبر في الآية الأولى بـ«الأخسرين». وفي الثانية بـ«الأسفلين».

وقيل إنه تعالى عبر بـ«الأسفلين» في سورة الصافات مراعاة لمقابلة ما دل عليه قوله تعالى حكاية لما قاله قوم ابراهيم عليه السلام : ﴿ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ﴾، لأنه يفهم من قولهم إرادةُ علو أمرهم على ابراهيم، بعد إلقائه في النار، فقوبلوا بضد ما أرادوا، وجعلوا الأسفلين.[27].

ومن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (سورة آل عمران : 11).

وقال في سورة الأنفال : ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (سورة الأنفال : 52).

قيل إن وجه التناسب في زيادة صفة (القوي) في آية الأنفال أن قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ورد لمقابلة قول الشيطان لمن قدم ذكره من الكفار : ﴿لاَ غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فقوبل قوله المُضْمَحِل بإسناد القوة لله عز وجل. ولما لم يرد في سورة آل عمران مثل هذا، وقع الاكتفاء بقوله : ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف ; ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ، وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ (سورة الأعراف : 64).

وقال في سورة يونس : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ، وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾ (سورة يونس : 73).

فختمت آية الأعراف بقوله : «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ» وختمت آية يونس بقوله تعالى : «فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ». ووجه التناسب في اختلاف التعقيبين، أن آية الأعراف ختمت بتلك الصفة ليقابل بها قول المخاطبين لنوح عليه السلام : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾. فقيل لهم : بل أنتم قوم عمون. فأنَّى لكم بالتفريق بين الهدى والضلال.[28]

وقد مرت الإشارة إلى ما في اختيار لفظ «طَحَاهَا» في سورة «الشمس» من مراعاة للتقابل، ونضيف الآن إلى ذلك ما يؤكد ما نذهب إليه. ومما يؤكده أن القرآن الكريم استعمل لفظا آخر قريبا من لفظ «طَحَاهَا» في سورة النازعات. قال تعالى : ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (سورة النازعات : 30). وقد أختير هذا اللفظ هنا، لأنه يدل على معنى التسوية

---

(27) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الاسكافي. ط. 1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1973 ، ص : 238. وانظر ملاك التأويل : 842/2.

(28) ملاك التأويل : 532/1.

وإعطاء الأرض الشكل الخاص الذي أريد لها. وقد جاء ذلك في مقابل تسوية السماء. قال تعالى : ﴿أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (سورة النازعات : 28).

ويستفاد من كل هذا أن اعتبار التقابل يعين على تفسير الآيات، وتحديد معاني الألفاظ بدقة.

6 ـ أساليب التقابل المركب في القرآن

أساليب التقابل المركب في النظم القرآني متنوعة، وقد أظهر البحث الاستقرائي أنها تأتي على الصور الآتية :

1 ــ التقابل المألوف.

2 ــ التقابل الملفوف.

3 ــ التقابل المحذوف.

4 ــ التقابل الضمني.

5 ــ التقابل بالسلب والإيجاب.

ـ التقابل المألوف :

وهو الذي تأتي عناصره مرتبة على الصورة المألوفة، وذلك بترتيب عناصر المركب الثاني على صورة موافقة لترتيب عناصر المركب الأول. والأمثلة التي عرضنا حتى الآن، في هذا الفصل، كلها من هذا الأسلوب. ولا بأس من إعادة أمثلة منها : قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى. وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (سورة الليل : 5ــ10).

وقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (سورة يونس : 67).

وقوله : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (النمل : 86).

ـ التقابل الملفوف :

ونعني به التقابل الذي لا تنتظم فيه عناصر المتقابلين على الترتيب الطبيعي المألوف. بل تأتي ملفوفة كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

﴿فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة القصص : 73). وقوله : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** (سورة الروم : 23).

وقد أوضح السجلماسي أسلوب التقابل في الآية الأولى فقال : أرصد للجزء الأول من الجنبة الأولى وهو قوله تعالى : **﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ﴾** الجزء الأول من الجنبة الثانية، وهو قوله : **﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾**، وقوبل به. وأرصد للجزء الثاني من الجنبة الأولى أيضا، وهو قوله : **﴿وَٱلنَّهَارَ﴾** أي وجعل النهار، الجزء الثاني من الجنبة الثانية وهو قوله : **﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾**[29].

وذلك يعني أن السكون راجع إلى الليل، والابتغاء راجع إلى النهار. وأصل الترتيب : جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتبتغوا من فضله. على غرار ما ورد في الآيات التي تقدمت في التقابل المألوف.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : **﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَى وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾** (سورة هود : 24). فأصل الترتيب كالأعمى والبصير، والأصم والسميع. وفي التقابل الملفوف وجه آخر من التناسب يسمى تناسب المجاورة. ولمراعاة هذا التناسب وضع الليل بجوار النهار، والسكون بجوار ابتغاء الفضل الذي يدل على الحركة بطريقة اللزوم، كما وضع الأعمى بجوار الأصم، والبصير بجوار السميع.

ومن صور التقابل الملفوف أن يؤتى بجميع المقدمات، ثم بجميع الثواني مرتبة من آخرها، كما في قوله تعالى : **﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** (سورة آل عمران : 106). وكان الترتيب الطبيعي يقتضي تقديم الذين ابيضت وجوههم، مراعاة للترتيب الذي في المقدمتين، لكن روعي تناسب المجاورة، فقدم الذين آسودت وجوههم ليكون بجوار «**وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**».

والتقابل الملفوف أسلوب طريف من أساليب البيان القرآني يبرز وجها بارعا من أوجه بلاغته.

وغني عن البيان أن فهم المعاني المحتجبة في تضاعيف هذه التراكيب البيانية يستلزم من السامع أن يكون ذكيا، قادرا على إعادة ترتيب عناصر التقابل. ولعل في ذلك سرا من أسرار بلاغة القرآن لأن الكلام الذي تحتجب فيه المعاني بستار أسلوبي رقيق، وتتراءى من خلاله بعيدة المنال، هو الذي يجذب إليه العقول، ويترك في النفس، بعد اختراق أستاره، لذة وارتياحا.

---

(29) المنزع البديع، ص : 345 — 346.

ـ التقابل المحذوف :

وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، وهو ألطف أساليب التقابل، وأبدع ألوان الحذف. ذكره الزركشي في البرهان. وقال السيوطي : وقل من تنبه له أو نبه عليه من أهل فن البلاغة، ولم أره إلا في شرح بديعية الأعمى[30] لرفيقه الأندلسي[31]. قال الأندلسي : وهو نوع من الحذف عزيز. ومنه قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ، قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (سورة هود : 35). الأصل : إن افتريته فعلي إجرامي، وأنتم بَرَاءٌ منه، وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون. فنسبة قوله تعالى : «إجرامي»، وهو الأول، إلى قوله تعالى : «وَعَلَيْكُمْ إِجْرَامُكُمْ»، وهو الثالث، كنسبة قوله : «وأنتم براء منه»، وهو الثاني، إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وهو الرابع. وأكتفي من كل متناسبين بأحدهما[32].

ومنه قوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأحزاب : 24). تقديره كما قال المفسرون : ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم، أو يتوب عليهم فلا يعذبهم. ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (سورة النمل : 12). تقديره : «أدخل يدك تدخل، وأخرجها تخرج بيضاء». إلا أنه عرض في هذه المادة تناسب بالطباق. فلذلك بقي قانون التناسب فيه، وهو نسبة الأول إلى الثالث، ونسبة الثاني إلى الرابع، على حالة الأكثرية، فلم يتغير عن موضعه، ولم يخل بالنسبة التي بين الأول والثاني، وبين الثالث والرابع وهي نسبة النظير[33].

ومنه قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ (سورة التوبة : 102). أصل الكلام : خلطوا عملا صالحا بسيء، وآخر سيئا بصالح، لأن الخلط يستدعي مخلوطا ومخلوطا به. فاكتفى في كل من الطرفين بعنصر واحد لدلالة الآخر عليه.

ومنه قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الملك : 22). فإن فيه جملتين حذف نصف كل واحدة منهما اكتفاء بنصف

(30) الأعمى : هو محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي، من أهل المرية. شاعر، عالم بالعربية، أعمى، له مؤلفات في اللغة والنحو، ونظم كثير، وبديعيته المشار إليها هي قصيدة في مدح الرسول سماها : «الحلة السيراء في مدح خير الورى»، التزم في كل بيت أن يأتي بفن من فنون البديع. توفي سنة 780 هـ (الأعلام : 225/6)

(31) ورفيقه الأندلسي الذي شرح بديعيته هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي، صحب الأعمى في رحلته إلى الشرق، فكان ابن جابر يؤلف وينظم، والرعيني يكتب، واشتهرا بالأعمى والبصير، سمى شرحه لبديعية رفيقه «طراز الحلة وشفاء الغلة». توفي سنة 779 هـ. (الأعلام : 260/1).

(32) البرهان في علوم القرآن : 129/3.

(33) نفسه : 130/3.

الأخرى. وأصل الكلام : أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى ممن يمشي سويا على صراط مستقيم، أمَّن يمشي سويا على صراط مستقيم مِمَّن يمشي مكبا.

وإنما قلنا : إن أصله هكذا، لأن أفعل التفضيل لا بد في معناه من المفضل عليه... فلا بد من ملاحظة أربعة أمور، وليس في الآية إلا نصف إحدى الجملتين ونصف الأخرى. والذي حذف من هذه مذكور في تلك. والذي حذف من تلك مذكور في هذه، فحصل المقصود مع الإيجاز والفصاحة(34).

قال ابن البناء : «ويكتفي في الأشياء المتناسبة بذكر الطرفين ويحذف الوسطان، فيكتفي بالمقدم من إحدى النسبتين، وبالتالي من الأخرى، لأن الطرفين حاصران للوسطين، ويدلان عليهما، لأجل ارتباط التناسب(35).

ـ التقابل الضمني :

وهو أن يذكر أحد المتقابلين، ويفهم المقابل الآخر بطريقة ضمنية، والمعيار في ذلك هو سياق الكلام. ومنه قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ. ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ، أَلاَ بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ. ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (سورة الرعد : 27ــ29).

فسياق هذه الآيات يدل ضمنيا على أن الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات لهم العذاب وسوء المآب.

ومنه قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ، ذَلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة الزمر : 23).

فسياق الآية يدل ضمنيا على أن الذين لا يخشون ربهم، لا تتأثر جلودهم ولا قلوبهم بذكر الله.

ـ التقابل بالسلب والإيجاب :

وهو أن يجتمع في الكلام الواحد نفي وإثبات، سواء تقدم النفي أو تأخر.

---

(34) البرهان في علوم القرآن : 133/3.

(35) الروض المريع في صناعة البديع، لابن البناء المراكشي، تحقيق رضوان بنشقرون، ط. دار النشر المغربية 1985، ص : 69.

ومما تقدم فيه الإيجاب على السلب قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ (سورة البقرة : 253) فالقيوم هو الذي يقوم الوجود كله بعنايته ورعايته، وهو الذي ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (سورة فاطر : 41). وقوله : ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ﴾ نفي لكل صفة مضادة للقيومة.

ومما تقدم فيه الإيجاب أيضا قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ (سورة البقرة : 255). قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إثبات العلم المطلق لله تعالى. وقوله سبحانه : ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ نفي العلم عن المخلوقين، إلا ما علمهم الله. وآية الكرسي كلها من تقابل السلب والإيجاب.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران : 66). ومما تقدم فيه السلب على الإيجاب قوله تعالى : ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ (سورة الأنعام : 103).

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يونس : 61).

ففي الآية إثبات لعلم الله المطلق بطريقتي الإثبات والنفي. وفي النفي تنزيه له تعالى من أن يكون في علمه نقص. والتقابل بالسلب والإيجاب كثير في النظم القرآني، ويطول بنا البحث لو ذهبنا نحصي ما ورد في القرآن من أمثلته. وحسبنا أن نشير إلى أن هذا الضرب من التقابل يأتي في مقام التأكيد والتبيين، وفيه من الحسن ما في التقابل عامة.

7 ـ التقابل ومقصود السورة

من المؤكد أن لمقاصد السور وأهدافها تأثير في بنيتها العامة، وفي أساليبها. وكل ذلك من مراعاة مقتضى الحال، وما يناسب كل مقام. والدارس لأساليب التقابل في القرآن الكريم يلاحظ، بصورة واضحة، اختلاف صور التقابل، في المعنى الواحد، من سورة إلى أخرى، ويتمثل ذلك بجلاء في مشاهد العذاب والنعيم التي تُعرض في السورة الواحدة على سبيل التقابل، إذ يرى أن تلك المشاهد تختلف من سورة إلى أخرى. فيطول مشهد النعيم في بعضها، وفي بعضها الآخر يقصر وكذلك مشهد العذاب. ولنا في سورة الإنسان خير مثال، فقد عرضت مشهد العذاب

بإيجاز، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلاً وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً﴾ (سورة الإنسان : 4). ثم عرضت مشهد النعيم بصورة مطولة استغرق ثماني عشرة آية : من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ (سورة الإنسان : 5—22).

وعلى العكس من ذلك يرى الدارس في سورة المدثر مثلا مشهد العذاب مطولاً يكاد يستغرق السورة كلها. أما مشهد النعيم فإنه لم يشغل إلا أربع آيات قصيرة هي : ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ (سورة المدثر : 40—42).

وقد روعي في هذا المشهد ما يناسب الجو العام للسورة. ولذلك اقتصر في وصف نعيم أهل الجنة على الإخبار بأنهم يتساءلون عن المجرمين. وهذا من تأثير وحدة موضوع السورة في أسلوب التقابل، وسيأتي المزيد من التفصيل عند دراسة التقابل في مشاهد القيامة.

الفصل الثاني
التقابل في مشاهد النعيم والعذاب

مشاهد النعيم والعذاب من أبرز الموضوعات في القرآن الكريم، والتقابل بينها من أبرز مظاهر التناسب المعنوي في نظمه وأسلوبه. وتعتبر هذه المشاهد جزءا من مشاهد القيامة : البعث، والحساب، والنعيم، والعذاب، تلك التي تعرض بعض أحوال العالم الآخر، الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر.

وقد عني القرآن بترسيخ الإيمان بالعالم الآخر، كما عني بعرض مشاهده، ووصف ما ينتظر الناس فيه من حساب ونعيم وعذاب.

وهذا العالم بسيط كل البساطة، واضح وضوح العقيدة الإسلامية : موت وبعث، ونعيم، وعذاب. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم، وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله فلهم النار بما فيها من عذاب. ولا شفاعة هناك إلا لمن ارتضى الله تعالى، ولا فدية من العذاب، ولا اختلال قيد شعرة في ميزان العدالة الدقيق. **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾** (سورة الزلزلة : 8ـ9).

ولكن هذه الحقيقة البسيطة الواضحة تعرض في صور شتى، وترتسم في عالم كامل حافل بالمشاهد والمواقف، وتتراءى في عشرات من الأوضاع والأشكال.

وقبل أن نتناول صور التقابل وطرقه في مشاهد النعيم والعذاب نرى من المفيد أن نقدم عرضا موجزا للخصائص الأسلوبية التي تختص بها مشاهد القيامة في القرآن، نلخصها من كلام سيد قطب في كتاب «مشاهد القيامة».

1 ــ «هناك سمة واحدة شاملة لتلك المشاهد : إنها مشاهد حية منتزعة من عالم الأحياء. مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات، وترتسم

المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، وفي شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة، ثم تفترق السمات بعد ذلك في شتى المشاهد. فلا تخل بهذه السمة الأصيلة الشاملة لجميع المشاهد...»

2 ــ «وسمة أخرى أصيلة في هذه المشاهد : إنها جميعا حاضرة اليوم، تراها العين، وتحسها النفس. والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب، بل لا فارق هناك في بعض الأحيان، بل ربما كانت «الأخرى» هي الحاضرة، وكانت «الدنيا» ماضيا بعيدا، يتذكره المتذكرون»[1].

وتلك سمة تحيي هذه المشاهد في النفس، وتقوي أثرها في الحس، وتتحقق بوسائل شتى، نستعرض منها على سبيل الإجمال ما يلي :

ــ مرة يبدو أول المشهد في الحياة الدنيا، ونهايته في الآخرة، دون توقف وبلا فواصل، فيخيل إليك أنها قريب من قريب، وأن الإنسانية تقطع الرحلة على مشهد منك في استطراد عجيب، قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً. إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً. إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلاً وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً. إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً. عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾...الخ (سورة الإنسان : 1ــ6). ويستمر السياق إلى صور من النعيم، فتحس أنك قطعت الرحلة الطويلة في لحظات، وهي رحلة تبدأ قبل خلق الإنسان، يوم أن لم يكن شيئا مذكورا، وتنتهي في الجنة أو في النار، وتضم خلالها الحياة في بضع فقرات قصار.

ــ ومرة يريك الدنيا والآخرة حاضرتين معا. فهؤلاء جماعة يستعجلون النبي بالعذاب، بينما هم في حوزة جهنم : ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ﴾ (سورة العنكبوت : 54).

ــ ومرة يبدأ في قصة تقع في الدنيا ثم يتابع بقيتها، فإذا نحن في الأخرى. هذا فرعون يؤم قومه في الحياة الدنيا، ثم يستمر الشوط حتى يؤمهم إلى النار. قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ، وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ (سورة هود : 96ــ98).

ــ ومرة يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الأخرى، ويسوقهما مساقا واحدا، كأنهما حاضران في الزمان، يتبادلان التقديم والتأخير. قال تعالى : ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ. وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ. وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ. لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ. ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ.

(1) مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، (د. ت)، ص : 38.

كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا، فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً. أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً. وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. ٱنطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ. ٱنطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ. لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ. إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ...﴾ الخ. (سورة المرسلات : 8—34).

— ومرة تنتقل من الخبر إلى الإنشاء، أو من الوصف إلى الحوار، فيخيل إليك أن المشهد حاضر، يوجه فيه الخطاب، أو يدور فيه الحوار، قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ، ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ. وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ. أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ. ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ...﴾ الخ. (سورة قٓ : 19—26).

— ومرة يتحدث عن الدنيا كأنها ماض كان. والأخرى كأنها الحاضر الآن. قال تعالى : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا، قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ...﴾ (سورة الزمر : 71).

وهكذا تلتقي هذه الألوان من التعبير عند سمة واحدة، هي استحضار المشهد وإحياؤه. كأنما هو مشهود محسوس. وذلك بلا ريب أعظم تأثيرا في النفوس(2).

«...وسمة ثالثة في هذه المشاهد، وفي صور القرآن جميعا هي سمة التناسق، وهو تناسق يتجلى أولا في جزئيات المشهد، فتبدو هذه الجزئيات منسقة، بينها لون من التماثل، أو التشابه، أو التداعي أو التقابل. ولكنها في جو واحد، لا نشوز فيه ولا مفارقات. ويتجلى ثانية في جرس الألفاظ، ليدل هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان، وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعا يناسب جو المشهد، في جميع الأحيان، فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوه وتناسب أحاسيسه، وتشترك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام. ويتجلى ثالثا في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه مع السياق الذي يعرض فيه، سواء جاء تعقيبا، أو مقدمة لبرهان، أو تأكيدا لقضية، أو تثبيتا لإيمان... الخ»(3).

(2) مشاهد القيامة في القرآن : 38—40.

(3) نفسه، ص : 40—41.

ومشاهد القيامة في القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الديني ولكنها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني.

وتعنى هذه المشاهد بتصوير مواقف الحساب قبل النعيم والعذاب. وهنا نلتقي بألوان شتى من طرق العرض الكثيرة، وسمات شتى للموقف المعروض. مرة يطول مشهد العرض والحساب حتى لتحسبه سوف يدوم، ومرة يعرض سريعا خاطفا..

ـــ مرة يطول على هذا النحو : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ. وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ، إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.﴾ (سورة إبراهيم : 21ــ22).

أو على هذا النحو : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ (سورة الفرقان : 29).

أو على هذا النحو : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا ٱلْيَقِينُ﴾ (سورة المدثر : 39 ــ 47).

وهكذا يترك المشهد الأول للحوار والخصام، ويترك المشهد الثاني للندم والحسرات، ويترك الثالث للاعتراف الطويل، لأن كلا من هذه المواقف يستدعي التمهل والتطويل. ليتم التأثر والتأثير.

ــ ومرة يقصر العرض حتى ليبدو كاللمح كما في قوله تعالى : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة الزمر : 70). أو كما في قوله : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (سورة المومنون : 101).

وتُعنى المشاهد بتصوير النعيم والعذاب، بعد البعث والحساب، وهي تعرضهما مرة ماديين يلمسهما الحس، ومرة معنويين تدركهما النفس، ومرة تجمع بين هذا اللون وذاك. وسيأتي بيان ذلك.

ومن أطرف مشاهد القيامة، ذلك الجدل العنيف الذي يقوم بين المشركين وآلهتهم. أو بين

المتبوعين وأتباعهم، وذلك السمر اللطيف الذي يدور بين المؤمنين والملائكة، أو بين المؤمنين والمؤمنين.

ومن مشاهد الجدل العنيف بين الظالمين قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ، يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤمِنِينَ. قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً، وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ، وَجَعَلْنَا ٱلأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة سبأ : 31—33).

ومن مشاهد السمر اللطيف بين أهل الجنة قوله تعالى : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة الطور : 25—29).

كان هذا ملخصا لما ذكره سيد قطب عن خصائص مشاهد القيامة وألوانها وطرق عرضها في القرآن[4].

وكانت عنايته في هذه الدراسة متجهة لدراسة ما في تلك المشاهد من ألوان التصوير والتشخيص. أما فن التقابل، فلم يكن له من عنايته إلا الحظ القليل. وسنحاول هنا أن نبين مكانة التقابل في تلك المشاهد، واطراده في أكثرها، وطرائقه وأساليبه فيها.

1 ــ كثرة التقابل في مشاهد النعيم والعذاب

الغالب في البيان القرآني أن ترد آيات الرحمة بإزاء آيات العذاب، ومشاهد النعيم في مقابل مشاهد العذاب، وخطاب الوعيد والترهيب بإزاء خطاب الوعد والترغيب، وذلك للتخويف والتبشير، والتذكير والتحذير. وقل في القرآن أن يرد أحد هذين المعنيين منفردا.

وقد أظهرت دراسة التقابل في تلك المشاهد وفي آيات الوعد والوعيد ما يلي :

1 ــ أن السور المدنية لا يوجد فيها من تلك المشاهد المتقابلة إلا نسبة قليلة جدا. وما جاء فيها هو عبارة عن مقابلة بين آيات الوعد والوعيد، وذلك مثل ما في قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة : 81—82).

(4) مشاهد القيامة في القرآن : ص : 37—48.

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ. وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 217—218).

وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا. وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (سورة النساء : 13—14).

وقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ (سورة النساء : 173).

وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (سورة المائدة : 9—10).

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة التغابن : 9—10).

فهذه الآيات ليست مشاهد، لأنها صيغت بأسلوب تقريري، ليس فيه من فن التصوير والتشخيص شيء.

وقد وردت في السور المدنية مشاهد للنعيم والعذاب، صيغت بالأسلوب البياني المعتمد على التصوير والتشخيص، لكن بنسبة قليلة جدا.

ومن تلك المشاهد قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة آل عمران : 106—107).

ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ (سورة النساء : 56—57).

ففي المشهد الأول صورتان متقابلتان : وجوه بيضاء منعمة، تقابلها وجوه سوداء معذبة. وفيها حوار يزيد من تشخيص الموقف، وذلك حين يوجه الخطاب للذين اسودت وجوههم

فيسألون سؤال توبيخ وإنكار، ودون انتظار الإجابة منهم. يلقى إليهم خطاب آخر كله تعنيف وتبكيت.

وفي المشهد الثاني صورتان متقابلتان كذلك : صورة الذين كفروا وكذبوا يصلون النار، وكلما نضجت جلودهم، بدلوا جلودا غيرها، وهكذا في عملية مستمرة. وصورة الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ينعمون في جنات تجري من تحتها الأنهار، ويسعدون مع أزواجهم المطهرة في ظل ظليل... وبالإضافة إلى التقابل الكلي بين العذاب والرحمة، فهناك تقابل بين الصورتين في بعض الجزئيات. ففي الصورة الأولى، جلود تنضج بالنار المحرقة في عملية مستمرة. وفي مقابل ذلك يدخل أهل النعيم ظلا ظليلا.

2 ـــ أن النسبة الكبيرة من مشاهد النعيم والعذاب المتقابلة يوجد في السور المكية، وأن أكثرها مشاهد طويلة، وقد تأتي قصيرة. وإلى جانب تلك المشاهد التي تعبر بالتصوير يوجد في هذه السور عدد غير قليل من الآيات التي يتقابل فيها الوعد والوعيد بالأسلوب التقريري.

2 ـ طرق العرض في المشاهد المتقابلة

سلك القرآن طرقا شتى في عرض مشاهد النعيم والعذاب المتقابلة :

ـــ مرة يكون مشهد العذاب أطول من مشهد النعيم.

ـــ ومرة يكون مشهد النعيم أطول.

ـــ ومرة يتساوى المشهدان.

وعلى الرغم من كون تلك المشاهد تدور حول العذاب والنعيم فإنها تبدو جديدة في كل عرض، لأن ما يعرض من مناظر العذاب ومناظر النعيم، يَختلف من مشهد إلى آخر، كما أن أساليب العرض تختلف من سورة إلى أخرى.

والاختلاف بين المشهدين المتقابلين طولا وقصرا ناشىء عن مراعاة ما يناسب موضوع السورة، والسياق الذي يعرضان فيه. فقد يكون الجو السائد في السورة كلها جو الرضى والرحمة واللطف، فيقتضي ذلك أن يكون مشهد النعيم أطول، وقد يكون الجو العام في السورة جَوَّ الغضب والشدة، فيكون التطويل في مشهد العذاب أنسب له.

وفي أثناء دراستنا لهذه المشاهد، ظهر أن هناك حاجة إلى تصنيفها. وبعد أن استعرضنا الخصائص التي يمكن أن يقوم عليها التصنيف استقر الاختيار على تصنيفها باعتبار طرق العرض. وهكذا أمكن تمييز ثلاثة أصناف من المشاهد المتقابلة :

1 ــ المشاهد التي طال فيها عرض صور النعيم.
2 ــ المشاهد التي طال فيها عرض صور العذاب.
3 ــ المشاهد التي تقارب فيها عرض الصورتين.

ا ــ مشاهد طال فيها عرض صور النعيم :

من هذه المشاهد قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ. دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (سورة يونس : 7ــ10).

ففي هذا المشهد وعيد مختصر للذين لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا، وغفلوا عن آيات الله. وفي مقابل هذا الوعيد وعد مفصل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، بعرض ألوانا من النعيم الذي يسعدون به في جنات تجري من تحتها الأنهار. وهم راضون بما أكرمهم الله به، يظهر رضاهم من دعائهم الذي يرددونه، ومن تحيتهم التي تعبر عن الإحساس بالمحبة والأخوة، ومن ختم دعائهم بالثناء على الله وحمده.

ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ. وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ. إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ٱدْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ، إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ. لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (سورة الحجر : 42ــ48).

في هذا المشهد أيضا إشارة موجزة إلى أن للغاوين الذين يتبعون الشيطان موعدا في جهنم ذات الأبواب السبعة. لكل باب منهم جزء مقسوم.

وفي مقابل هذه الإشارة الموجزة عرض مفصل لصورة أهل النعيم ومقامهم في جنات وعيون. يتلقون التكريم. فيقال لهم : ادخلوها بسلام آمنين. ويسعدون بما بينهم من روح الأخوة، وهم يجلسون على سرر متقابلين، آمنين من كل كدر أو عناء، مطمئنين إلى أن سعادتهم دائمة لا تزول.

وقال تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ، بِئْسَ ٱلشَّرَابُ، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً. إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ

عَمَلاً. أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ، نِعْمَ ٱلثَّوَابُ، وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ (سورة الكهف : 29ـــ31).

في الصورة الأولى من هذا المشهد يبدو الذين كفروا في النار، وقد أحاط بهم سرادقها، يستغيثون فيغاثون بماء يشوي الوجوه، وفي الصورة المقابلة يبدو الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن، والأنهار تجري من تحتهم، عليهم أساور من ذهب، وثياب خضر من سندس واستبرق. متكئين على الأرائك.

وإلى جانب التقابل الكلي بين المشهدين أو الصورتين، هناك تقابل في بعض المعاني الجزئية. ففي الصورة الأولى تبدو النار في هيئة سرادق يحيط بالمعذبين، كما لو كانت لباسا لهم. وفي الصورة الثانية يبدو أهل النعيم وعليهم ثياب خضر من سندس واستبرق.

وفي الصورة الأولى المعذبون في ظمأ شديد يستغيثون منه، فيغاثون بماء يشوي الوجوه. وفي الصورة المقابلة أنهار جارية في جنات عدن، وبين التعقيبين اللذين ختم بهما عرض كل من الصورتين وهما قوله : ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وقوله : ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ تقابل أيضا، وتوازن.

وقال تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ. خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ. إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّاً. وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً. وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً. فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ. مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ. مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ. وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ. أُولَئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ. عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ. مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ. يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ. وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ. جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً. إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً. وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ. وَظِلٍّ مَمْدُودٍ. وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ. وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ. وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ. إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً. عُرُباً أَتْرَاباً. لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ. ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ. وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ. وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ. وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾...الآيات (سورة الواقعة : 1ـــ55).

يتألف هذا المشهد من صورتين متقابلتين أيضا : صورة النعيم، وهي مؤلفة من منظرين، وصورة أهل العذاب، وهي من منظر واحد.

وطال عرض صورة النعيم هنا أيضا، فعرض فيها لونان من النعيم : نعيم المقربين. ونعيم أصحاب اليمين.

أما المقربون فقد ظهروا في الصورة وهم على سرر موضونة، يتكئون عليها متقابلين، وعندهم ولدان مخلدون، يطوفون عليهم بأكواب وأباريق، وشراب، وفاكهة، ولحم طير مما يشتهون. وعندهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون. لا يسمعون من الكلام إلا الطيب الذي يزيد من سعادتهم.

وأما أصحاب اليمين فيظهرون في الصورة، وهم في حدائق منسقة الأشجار. ينعمون بالظل الممدود، والماء المسكوب، وفاكهة كثيرة دائمة، ونساء أبكار محببات.

وفي الصورة المقابلة أصحاب الشّمال في حر شديد، وظل من الدخان الساخن. طعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

والملحوظ أن عرض الصورة الثانية، توقف بعد ابتدائه، وتوقفت معه حركة المشهد، لبرهة من الزمن، قدم فيها بيان يتضمن ذكر الأسباب التي أوقعت أصحاب الشّمال في العذاب.

وبالرغم من قصر عرض الصورة الثانية في هذا المشهد، فإن التحليل يكشف عن مراعاة التقابل في بعض الجزئيات. ففي الصورة الأولى، يبدوا أهل النعيم ينعمون في ظل ممدود وماء مسكوب. وفي الصورة الثانية يبدو أهل العذاب في سموم وحميم.

وفي الصورة الأولى السعداء يكرمون بكل ما يتخيرون ويشتهون من الطعام. وفي الصورة الثانية الأشقياء يضطرون إلى أكل الزقوم، وإلى الشراب من الحميم.

وفي الصورة الأولى المقربون لا يسمعون لغوا ولا تأثيما، ولكن سلاما سلاما. والمعذبون يلقى عليهم بيان كله لوم وتأثيم.

وطال عرض صورة النعيم كذلك في سورة الإنسان. واختصرت صورة العذاب في آية واحدة وقد مر بيان ذلك فيما مر من هذا الباب، فلا حاجة إلى إعادته هنا.

ب ـ مشاهد طال فيها عرض صور العذاب :

في القرآن الكريم مشاهد أخرى كثيرة، تعرض صور النعيم والعذاب على وجه التقابل، وتنفرد عن المشاهد الأخرى بالتطويل في عرض صور العذاب.

من هذه المشاهد قوله تعالى : **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً، أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ. ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. أُولَٰئِكَ**

لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ. أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ. إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة هود : 18—23).

في هذا المشهد صورتان متقابلتان : الأولى صورة الذين افتروا على الله كذبا، وقد وقفوا بين يدي ربهم للعرض والحساب. وجيء بالأشهاد، يشهدون عليهم، ثم يلقى إليهم بيان يؤكد حلول لعنة الله عليهم، ويبين المعاصي والسيئات التي اقترفوها في الدنيا، عِلما بأنهم لم يكونوا في منجاة من عذاب الله، لو شاء أن يهلكهم في الدنيا. ولم يكن لهم من ينصرهم. ثم يختم هذا البيان بتأكيد الحكم بمضاعفة العذاب لهم، وبالخسران الكامل لهم في الدنيا والآخرة.

والثانية : صورة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم، وهي عبارة عن وعد موجز، يؤكد أنهم أصحاب الجنة.

وعلى الرغم من وجازة الصورة الثانية، واقتصارها على تأكيد الحكم بكون الموصوفين بالأوصاف المذكورة فيها، هم أصحاب الجنة، وهم فيها خالدون، على الرغم من ذلك، فإن مبدأ التقابل الكلي بين الصورتين بقي قائما. والتطويل في عرض الصورة الأولى، والإيجاز في عرض الثانية تابع لروح السورة ومقتضى السياق.

ومن المشاهد التي يظهر فيها القصد إلى تطويل عرض صورة العذاب وتقصير صورة النعيم قوله تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ ٱللَّهِ، هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ. قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ ٱلْمُجْرِمُونَ. فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ. فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ﴾ (سورة الشعراء : 90—104).

فقد اقتصر هنا في عرض صورة أهل النعيم على آية واحدة، تضمنت الأخبار بإزلاف الجنة للمتقين.

أما صورة أهل العذاب فقد أُطيل في عرضها. وبدأت بتبريز الجحيم للغاوين. وقبل إلقائهم فيها، تلقوا التأنيب المر، والتوبيخ الموجع. ثم ألقوا في الجحيم مع إبليس وجنوده. وهنالك نشب بينهم خصام عنيف. عرض منه في هذه السورة ما ورد على لسان الغاوين المضلَّلين. فقد علموا أنهم كانوا ضالين. وعرفوا الذين أضلوهم، فوصفوهم بالمجرمين. وعبروا عن يأسهم وندامتهم وحسرتهم.

ومن المشاهد التي طال فيها عرض صورة أهل العذاب قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ. وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ. فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ (سورة القصص : 62—66).

يعرض هذا المشهد أهل العذاب، وهم يواجهون بالإنكار والتوقيف فينادون من قبل الله تعالى : ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فلا يحيرون جوابا، وإنما يستسلمون، ويحاول كل فريق أن يلقي اللوم على الآخر. ويواجهون مرة أخرى بالإنكار الشديد، والتأنيب المر. حتى ينقطعوا، وتقوم عليهم الحجة، ويكفون عن التساؤل والتهرب من التبعات. ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. وفي هذا ما يفيد أن نهايتهم كانت هي الخسران التام.

وفي مقابل ذلك يأتي التأكيد بأن من تاب وآمن وعمل صالحا فله الفلاح. و«عسى» من الله واجبة، كما يقول العلماء.

ومن المشاهد التي جاءت على هذا النمط من العرض قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ. وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ. وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا، وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِن نَاصِرِينَ. ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا..﴾ (سورة الجاثية : 30—35).

ومن تلك المشاهد قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ. قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ، قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ. ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ، فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. فَٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ. وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ. كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة النحل : 24—32).

يتألف هذا المشهد من صورتين متقابلتين، صورة أهل العذاب وصورة أهل النعيم. المنظر الأول في كل منهما يجري في الحياة الأولى. وبقية المناظر في الأخرى.

أما صورة أهل العذاب فتستهل بعرض موقف الكفار في الدنيا مما أنزل الله، وزعمهم أنه أساطير الأولين، وترسم وزرتهم يوم القيامة، وهم يحملون أوزارهم كاملة، ومن أوزار الذين يضلونهم. ثم تعرض صورتهم وهم يقفون بين يدي الله في خزي، يتلقون اللوم والتبكيت من ربهم، ويراهم المؤمنون في ذلك الموقف فيزداد يقينهم. فيقولون : «إن الخزيَ اليوم والسوء على الكافرين». ويحصل اليقين للكفار بدورهم فيستسلمون. ثم يحاولون التهرب. فيقال لهم : «بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون». ثم يصدر إليهم الأمر الصارم بدخول أبواب جهنم والخلود فيها. ويختم عرض هذه الصورة بتأكيد ذم ذلك المثوى.

ويستهل عرض صورة أهل النعيم بعرض موقفهم مما أنزل الله. وقولهم : خَيْراً. وتأكيد أن للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الآخرة، وامتداح دار المتقين، وهي جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، يسعدون بدخولها، وبما لهم فيها من كل ما يشاءون، وهكذا تتقابل الصورتان من حيث المضمون الإجمالي، ويطول عرض إحداهما ويقصر عرض الأخرى مراعاة لما يناسب السياق ومقصود السورة، وروحها وهدفها.

ومن المشاهد القرآنية التي جاءت على هذا النمط قوله تعالى : ﴿...وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ. ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ. وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ. قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ. وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ ٱلْعَذَابِ. قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَٱدْعُوا، وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ. إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلأَشْهَادُ. يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ﴾ (سورة غافر : 45—52).

يعرض المشهد في الصورة الأولى منه صور آل فرعون وقد حاق بهم سوء العذاب، يعرضون على النار غدوا وعشيا. هذا قبل قيام الساعة. ويوم تقوم الساعة يصدر الأمر الإلـٰهي بإدخالهم أشد العذاب. ثم يعرض صورتهم وهم يتحاجون في النار. يريد الضعفاء أن يلقوا اللوم على الذين استكبروا، فيقطع هؤلاء الجدل. ويؤكدون أنهم جميعا في النار، وأن الحكم الإلـٰهي قد صدر، فلا مجال بعدهُ لأي جدال. ثم توجهوا جميعا، الضعفاء والمستكبرون، إلى خزنة النار، يتوسلون إليهم أن يسألوا الله لهم تخفيف يوم من العذاب، فيردون عليهم ردا قاسيا، كله إنكار وتقريع.

وفي مقابل هذا يأتي التأكيد القوي بأن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الدنيا، ويوم الحساب. ولا يطيل في هذا المعنى، بل يصرف الكلام إلى وصف يوم الحساب بما يناسب الصورة الأولى، صورة أهل العذاب، وذلك مراعاة للسياق وما يناسب روح السورة والجو الخاص بها.

ومن هذا الضرب ما نراه في سورة المدثر. قال تعالى : ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا ٱلْيَقِينُ. فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ**﴾ (سورة المدثر : 38—48).

ففي هذا المشهد لقطة قصيرة عن أصحاب اليمين. ظهروا فيها وهم في جلسة سَمَرٍ. ومعلوم أنهم تبادلوا أحاديث شتى، لكن الذي ذكر من أحاديثهم في هذا السياق تساؤلهم عن المجرمين وعن السبب الذي ألقى بهم في سقر.

بعد هذه اللقطة القصيرة من الجنة، يعرض المشهد صورة مطولة لأهل سقر، وهم في موقف اعتراف طويل، وحسرة مريرة. يردون على سؤال أهل الجنة ويطيلون في بسط الأسباب التي أوقعتهم في ذلك المصير الأليم. وبهذا يظهر كيف يجمع القرآن في عرض هذه المشاهد بين جمال التقابل، وجمال التناسب، فيطيل في كل سياق عرض ما يناسبه من المشهدين المتقابلين، ويصرف الخطاب إلى جهة دون أخرى، كل ذلك حفاظا على وحدة السياق والهدف، وتناسب المعاني.

ج ـ مشاهد تعادل فيها عرض الصورتين :

هذا هو الصنف الثالث من المشاهد القرآنية التي تتقابل فيها صور النعيم والعذاب، ويعرض كلا منهما بشيء من التفصيل، فتجيء الأولى منهما معادلة للثانية، أو مقاربة لها من حيث الطول أو القصر.

ولأن مشاهد هذا الصنف طويلة، في الغالب، فيستحسن الاكتفاء بتقديم نماذج منها. ومن مشاهد هذا الصنف قوله تعالى :

﴿**فَمَنِ ٱتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، أُولَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا، وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ. قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنسِ فِي ٱلنَّارِ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّى إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ**

أضلُّونا فآتِهِمْ عذاباً ضِعْفاً مِنَ آلنَّارِ. قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ، وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا آلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ. إِنَّ آلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ آلسَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ آلْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ آلْجَمَلُ فِي سَمِّ آلْخِيَاطِ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي آلْمُجْرِمِينَ. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي آلظَّالِمِينَ. وَآلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا آلصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ آلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ آلأَنْهَارُ، وَقَالُوا آلْحَمْدُ لِلَّهِ آلَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا آللَّهُ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِآلْحَقِّ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ آلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَنَادَى أَصْحَابُ آلْجَنَّةِ أَصْحَابَ آلنَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً. قَالُوا نَعَمْ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ آللَّهِ عَلَى آلظَّالِمِينَ. آلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ آللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِآلآخِرَةِ كَافِرُونَ. وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ، وَعَلَى آلأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ آلْجَنَّةِ أَنْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ. وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ آلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ آلْقَوْمِ آلظَّالِمِينَ. وَنَادَى أَصْحَابُ آلأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَهَؤُلاَءِ آلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ آللَّهُ بِرَحْمَةٍ، أُدْخُلُوا آلْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. وَنَادَى أَصْحَابُ آلنَّارِ أَصْحَابَ آلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ آلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ آللَّهُ، قَالُوا إِنَّ آللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى آلْكَافِرِينَ. آلَّذِينَ آتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ آلْحَيَاةُ آلدُّنْيَا، فَآلْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (سورة الأعراف : 35—51).

هذا مشهد طويل، مناظره متنوعة، متقابلة، بعضها من داخل جهنم، وبعضها من الجنة، وبعضها الآخر من فوق الحجاب الذي يفصل بين الجنة والنار. يبدأ العرض بمقدمة عامة أوضحت جزاء أهل النعيم وجزاء أهل العذاب. ثم يبدأ التفصيل : أما أهل العذاب فيلقى إليهم اللوم الشديد ابتداء من ساعة الاحتضار، فلا يجدون إلا الاعتراف بأنهم كانوا كافرين، ويصدر إليهم الأمر بدخول النار في أمم أخرى خلت من الجن والإنس. وهناك تنشب معركة كلامية بين تلك الأمم، وكل أمة تتميز غيضا وحنقا على الأخرى. ووسط العرض يأتي بيان يؤكد أن العذاب هو الجزاء الأبدي لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها. مهادهم جهنم، وغطاهم غواش من النار.

وفي الصورة المقابلة أهل النعيم ينعمون بما يجمعهم في النعيم من الوئام والأخوة. وقد نزع ما في صدورهم من غل. تنطلق ألسنتهم بدعاء جماعي واحد، يحمدون الله الذي هداهم لما هم فيه.

ويعبرون تعبيرا واحدا عن يقينهم بأن ما جاء به الرسل حق. ثم يُزادُ في إكرامهم فينادون أن تلك الجنة جزاء لهم بما كانوا يعملون.

وجد أهل الجنة ما وعد ربهم حقا فتذكروا وعيده، فنادوا أصحاب النار، يسألونهم : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم.

وعندها أذن مؤذن بينهم معلنا أن لعنة الله على الظالمين. وأقيم حجاب بين الفريقين. وقام على أعرافه رجال يعرفون كلا بسيماهم، بإمكانهم أن يروا ما على جانبي الحجاب. فنادوا أصحاب الجنة وسلموا عليهم.

ويتحاشون النظر إلى أهل النار. وإذا صرفت أبصارهم جهتهم دعوا الله قائلين : «ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين». ورأوا بين أصحاب النار رجالا يعرفونهم بسيماهم، فنادوهم ووجهوا إليهم اللوم الشديد والتأنيب المرير. لم يرد عليهم أصحاب النار بشيء، وإنما توجهوا بالنداء إلى أصحاب الجنة يلتمسون منهم أن يغيثوهم بشيء من الماء أو مما رزقهم الله. فردوا عليهم قائلين : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾. ويختم المشهد ببيان من قبل الله تعالى، يؤكد أن أهل النار مصيرهم الإهمال، جزاء لهم على نسيان لقاء يوم الحساب.

والتقابل بين الصورتين المكونتين لهذا المشهد واضح، يتجاوز التقابل الكلي بينهما ليشمل التقابل بين بعض العناصر الجزئية في كل من الصورتين : ففي صورة العذاب، أصحاب النار في خصام وتلاعن، يتمنى بعضهم لبعض أن يذوق أشد العذاب.

وفي الصورة المقابلة، أصحاب الجنة في نعيم مقيم. متآخين متحابين، قد نُزع ما في صدورهم من غل.

وفي الصورة الأولى يتلقى أصحاب النار من البيان ما يقطع كل أمر لهم في الخروج من العذاب، بل يضاعف لهم العذاب.

وفي الصورة المقابلة، يشعر أهل الجنة بالرضى يغمرهم. ويزاد لهم في الإكرام، فينادى فيهم ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي الصورة الأولى، أصحاب النار يلتمسون من أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم قليلا من الماء.

وفي الصورة المقابلة، أصحاب الجنة تجري من تحتهم الأنهار.

ومن المشاهد المتعادلة المفصلة، قوله تعالى :

﴿احْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ. مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ. قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ. فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ. فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ. إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ. إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ. وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ. بَلْ جَاءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلأَلِيمِ. وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِلاَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ. أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ. فَوَاكِهُ، وَهُمْ مُكْرَمُونَ. فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ. عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ. وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ. كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ. قَالَ تَٱللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلاَّ مَوْتَتَنَا ٱلأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة الصافات : 22—60).

ودون أن نبسط القول في بيان التقابل الكلي بين الصورتين في هذا المشهد، لأنه واضح، نتجه إلى إعطاء فكرة عن التقابل بينهما في العناصر الجزئية : في الصورة الأولى : يُحشر الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله، ويوقفون للسؤال، والتوبيخ، وكل ذلك بقسوة وإهانة.

وفي الصورة المقابلة : عباد الله المخلصون، وهم مكرمون في جنات النعيم. يسعدون بما طاب ولذ، وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون.

في الصورة الأولى : أصحاب النار يتخاصمون.

وفي الصورة المقابلة : عباد الله المخلصون على سرر متقابلين متآخين متحابين، في سمر لذيذ، يستعيدون ذكرياتهم.

وقد تأتي الصورتان المتعادلتان مختصرتين، كما في قوله تعالى : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا، وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ. إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ

تجْرِي مِنْ تحتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَهُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (سورة الحج : 19—24).

والتقابل هنا كلي وجزئي أيضا. فالذين كفروا في الصورة الأولى ثيابهم من نار، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، في الصورة المقابلة، ثيابهم من حرير. وزينتهم من أساور الذهب واللؤلؤ.

والذين كفروا يصب من فوق رؤوسهم الحميم. يصهر به ما في بطونهم والجلود، وهم في غم شديد.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات تجري من تحتهم الأنهار وهم في مرح وحديث لذيذ.

نخلص من هذا العرض إلى أن التقابل بين مشاهد النعيم والعذاب، وما يتصل بها من آيات الوعد والوعيد خاصة مطردة في النظم القرآني، ويمثل هذا التقابل وجها من أوجه التناسب المعنوي، وصورة من صور الترابط بين الآيات.

وتختلف تلك المشاهد المتقابلة من حيث المناظر التي تعرض فيها، والمدة الزمنية التي يستغرقها العرض، من سورة إلى أخرى، وذلك مراعاة لما يناسب المقصود والجو السائد في السورة أو السياق الذي تعرض فيه.

ولو أمعنا في تَدَبُّر المشاهد التي عرضناها هنا، وفي السياق الذي وردت فيه من كل سورة، لوجدنا أن التطويل في عرض مشهد النعيم أو العذاب يخضع لروح السورة ومقصودها.

البابُ الثالث

التّناسُب وَوَحْدة النّسَق

الباب الثالث

التناسب ووحدة النسق

البحث في التناسق المعنوي، ومراعاة وحدة النسق، أو وحدة السورة، في اختيار المفردات أو التراكيب، بحث متصل بعلم مقاصد السور الذي يبحث في الأغراض العامة، والأهداف الخاصة بكل سورة.

لهذا يحسن بنا في مستهل هذا الباب أن نقدم فكرة موجزة عن قيمة هذا العلم وصلته بموضوع التناسب.

من الثابت أن لكل سورة هدفا خاصا ومقصدا محددا، وشخصية متفردة. والمعاني الجزئية، والوحدات الصغرى، وأساليب التعبير، ومفردات التركيب تتجه كلها لخدمة هدف السورة، وتتأثر في صياغتها بروحها.

ومع أن بعض السور تلتقي في بعض المعاني الجزئية، وتتشابه في بعض الآيات، فإن ذلك لا يتنافى وانفراد كل سورة بموضوعها وهدفها، بل إن تلك المعاني المشتركة بينها هي التي تشهد بوحدة النسق في نظم القرآن، لأنها تتأثر في ألفاظها وتراكيبها بروح السورة وجوها الخاص، فيعبر عن المعنى الواحد من تلك المعاني المشتركة، في كل سورة بألفاظ وتراكيب، تختلف قليلا أو كثيرا عن الألفاظ والتراكيب التي عبر عنه بها في السور الأخرى.

وعند البحث في ذلك يتبين أنه اختلاف ناتج عن مراعاة التناسب ووحدة النسق في النظم.

ومن العلوم التي تعين على معرفة التناسب في هذا الباب «علم مقاصد السور».

قال برهان الدين البقاعي : «الحمد لله الذي أعلم سور الكتاب بما دل على مقاصدها أولي الألباب ودل بمقاصدها على تناسب أجزائها»[1].

(1) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ورقة 1 من المخطوط.

وعرف البقاعي في مكان آخر علم المناسبة، وبين قيمته، وأشار إلى توقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السور، فقال : «علم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة الكلام لما اقتضاه من الحال... وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السور المطلوب ذلك فيها. ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة»[2].

وقال آخر : «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبة الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر مَا يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب.. فهذا هو الأمر الكلي المعين على إحكام الربط بين جميع أجزاء القرآن»[3].

إن البحث في التناسب المعنوي الذي يراعى في وحدة النسق ووحدة السورة طويل وعويص، لأنه يبحث في أسرار اختيار ألفاظ القرآن ومفرداته وأبنيته وتراكيبه، وفي أوجه التناسب في اختيار كل عنصر من تلك العناصر، وفي وضعه في موضعه المقدر له من السياق القريب والبعيد، داخل إطار السورة، وهيكلها المترابط الأجزاء.

ومرد الصعوبة في ذلك هو أن كل ألفاظ القرآن وتراكيبه وسائر مواده البيانية مختارة بإحكام، مبنية بميزان، متواصلة بإحسان، فالبحث في ذلك يعني البحث في كل كلمة وكل جملة وتركيب ..

ونظرا لاتساع رقعة البحث في موضوع هذا الباب، فقد قسمناه إلى فصلين : هما :

1 ــ التناسب واختيار المفردات.

2 ــ التناسب واختيار التراكيب.

---

(2) نظم الدرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي، حيدر آباد، 1969 : 6/1.

(3) عن معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، (د. ت) : 62/1.

الفصل الأول

المناسبة في وحدة النسق واختيار المفردات

أشار غير واحد من علماء الإعجاز القرآني إلى ما يمتاز به القرآن من دقة وإحكام في اختيار الألفاظ والمفردات.

قال الجاحظ : «وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في موضع القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال»[4].

وجعل حمد بن محمد الخطابي وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به عمود البلاغة والإعجاز في نظم القرآن. يقول : «أعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا بدل مكانه غيره، جاء منه إما تبدل في المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب... والأمر فيها وفي ترتيبها عند العلماء بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانتا قد تشتركان في بعضها..»[5].

---

(4) البيان والتبيين : 20/1.

(5) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 26.

وتناول أبو بكر الباقلاني هذا الوجه من إعجاز القرآن في فصل قيم، أشار فيه إلى قيمة علم البيان، وفائدته في التفرقة بين الكلمات المتقاربة، وفي وضع كل منها في المكان المناسب، قال : «...علم البيان علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، وهو أدق من السحر، وأهول من البحر.. وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع «الصبح» موضع «الفجر» يحسن في كل كلام، إلا أن يكون شعرا أو سجعا. وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها... وتجد الأخرى، لو وضعت موضعها في محل نفار ومرمى شراد، ونائية عن استقرار»[6].

وطبق الباقلاني هذا المقياس البلاغي على بعض ألفاظ القرآن، واجتهد في الكشف عن أسرار اختيارها، ووجه مناسبتها للسياق الذي وردت فيه. وقف عند قوله تعالى : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ (سورة غافر : 5).

وأوضح أن وجه الوقوف على شرف الكلام أن نتأمل موضع لفظ «ليأخذوه». فقال : «هل تقع موقع «ليأخذوه» كلمة ؟! وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة ؟! وهل يسد مسده في الأصالة نكتة ؟! لو وضع موضع ذلك «ليقتلوه، أو ليرجموه، أو لينفوه، أو ليطردوه، أو ليهلكوه، أو ليذلوه، أو نحو هذا ما كان ذلك بديعا، ولا بارعا ولا عجيبا، ولا بالغا... فانقد موضع هذه الكلمة، تعلم بها ما نذهب إليه من تخير الكلام، وانتقاء الألفاظ، والاهتداء للمعاني. فإن كنت تقدر أن شيئا من هذه الكلمات التي عددناها عليك أو غيرها يقوم مقام هذه اللفظة لم تقف على غرضنا من هذا الكتاب»[7].

تلك جملة الإشارات التي تحدث فيها بعض علماء الإعجاز عما يمتاز به النظم القرآني من دقة وإحكام في اختيار ألفاظه، وهي إشارات تقتصر في معظمها على الحكم العام، أو التأمل الذوقي المجرد، أو النظرة الجزئية. لذلك فهي لا تكفي لمعرفة أسرار التناسب التي يراعيها القرآن في اختيار المفردات والألفاظ، وللكشف عن صلة ذلك الاختيار بما يناسب وحدة السورة وروحها ووحدة النسق في نظم الآيات.

وسنحاول، قدر المستطاع، أن نبين في هذه الدراسة ما يراعيه القرآن من تناسب في استعمال الألفاظ، وذلك من خلال الدراسة التحليلية لبعض الآيات المتشابهة لفظا، والألفاظ المتقاربة معنى.

ولما كان اختيار الألفاظ يخضع لمراعاة وحدة السورة ومقصودها وروحها حينا، وللسياق القريب حينا، فستكون هذه الدراسة التحليلية على النحو التالي :

---

(6) إعجاز القرآن، ص : 184ـ185.

(7) نفسه، ص : 197ـ198.

1 ــ تحليل للآيات التي يتصل اختيار كلمة من كلماتها بوحدة السورة ومقصودها العام.

2 ــ تحليل الآيات التي يخضع اختيار كلمة من كلماتها للسياق القريب منها.

1 ـ مراعاة روح السورة العام في اختيار الألفاظ

ينبغي أن نشير في مستهل هذه الفقرة إلى أن الدراسة الاستقرائية في هذا المجال بعيدة المنال، لأن ألفاظ القرآن كلها موضوعة في الموضع المناسب لها، بالنظر للسياق القريب والبعيد على السواء. لهذا سنقتصر على عرض نماذج تكفي لتحقيق المراد.

1 ــ قال الله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ (سورة النساء : 149). وقال : ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (سورة الأحزاب : 54).

فأوثر في الآية الأولى التعبير بلفظ «خيرا»، وأوثر في الثانية لفظ «شيئا».

واللفظ الأول (خير) لفظ خاص. واللفظ الثاني (شيئا) لفظ عام. فما هو وجه التناسب في اختيار كل من اللفظين في موضعه من السياق الذي ورد فيه ؟

نظر الخطيب الإسكافي في توجيه اختيار لفظ «الخير» في آية سورة النساء إلى السياق القريب، فأشار إلى أن هذه الآية إنما خصت بلفظ «الخير»، لأنه بإزاء «السوء» الوارد في قوله تعالى قبلها : ﴿لاَ يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ ..﴾ (سورة النساء : 148). فاقتضت المقابلة في هذا المكان أن يجعل بإزاء «السوء» «الخير»[8].

ونظر إلى السياق القريب في توجيه اختيار لفظ «شيئا» في آية سورة الأحزاب كذلك، فأوضح أن هذه الآية إنما خصت بهذا اللفظ، لأن قبلها تحذيرا من إضمار ما لا يحسن إضماره في قوله عز وجل : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، فاقتضى هذا المكان العموم. فقال تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ...﴾.[9]

ونظر ابن الزبير الغرناطي في توجيه الاختلاف بين الآيتين في اللفظين المذكورين إلى روح السورة وهدفها الخاص، فأشار إلى أن قوله تعالى في سورة النساء : ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ : «مقصود به خصوص طرف الخير، وعمل البر، جريا على ما دارت عليه سورة النساء وتردد فيها، من إصلاح ذات البين، والندب إلى العفو، والتجاوز عن السيئات»..

---

(8) درة التنزيل وغرة التأويل، ص : 85.

(9) نفسه، ص : 86.

وقال : «ألا ترى قوله تعالى لمقتسمي الميراث فيمن حضرهم من ذوي القربى وذوي الحاجات : ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾ (سورة النساء : 8).

وقوله في آيتي الفاحشة : ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ (سورة النساء : 16). وقوله في النساء : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (سورة النساء : 19). وقوله : ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾... (سورة النساء : 129)، إلى أمثال هذه الآية مما يطول ذكره، ولا يكثر في غير هذه السورة ككثرته فيها. ومن هنا لم يتعرض فيها لأحكام الطلاق، وإن كانت السورة مبنية على أحكام النساء. لكن خص من ذلك ما فيه التآليف والتصالح، وما يرجع إلى ذلك، ولم يرد فيها من أحكام الطلاق إلا ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ (سورة النساء : 130). فذكر هذا القدر عند استدعاء معنى الكلام، وتمام المقصود به إليه بأوجز لفظ، وبما يؤنس الفريقين. ولم يذكر فيها اللعان ولا الظهار، ولا الخلع، ولا «طلاق الثلاث»، بل ذكر فيها استصحاب العشرة إلى التوارث.

فلما كان مبنى السورة على هذا ناسب ذلك طرف الخير، غير مشار إلى ضده إلا بالعفو عما وقع المكلف فيه. فقال تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾، فنوسب بهذا الخصوص خصوص ما تكرر في السورة بما ذكر من العفو وما يحرزه.

وأما آية سورة الأحزاب فمقصود بها — كما ذكر ابن الزبير — ما يعم طرفي الخير والشر، واستدل على ذلك بما تقدمها في سياق السورة من قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَداً﴾ (سورة الأحزاب : 53). ومن ذكر المنافقين، وسوء مرتكبهم في قصة الأحزاب، وقولهم : ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (سورة الأحزاب : 12). فحذر الله المؤمنين من مرتكبات المنافقين وأعلمهم أنه تعالى لا يخفى عليه شيء. فقال : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾. فلما قصد في هذه الآية عموم الطرفين، ورد بلفظ مطلق، يعم الخير والشر. فقال تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً...﴾.

و«الشيء» يقع على كل موجود من ذات أو معنى، حتى إن بعض المتكلمين يطلقه على المعدوم المقدر الوجود.(10)

يبدو من هذين التوجيهين أن الكلمة القرآنية تختار بدقة متناهية، وتوضع في موضعها من الآية بإحكام تام، يجمع لها بين مناسبة السياق القريب، ومناسبة السياق البعيد، وليس هناك أي تعارض بين ما ذهب إليه كل من الخطيب الإسكافي وابن الزبير الغرناطي في توجيههما. بل إن كل واحد منهما يكمل الآخر. لأن الكلمة القرآنية تجمع بين هذين الوجهين من التناسب — كما مر ذكره —.

(10) ملاك التأويل : 1، ص : 361—363.

2 ـــ وقال تعالى في سورة الانفطار : ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (سورة الانفطار : 3). وقال تعالى في سورة التكوير : ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (سورة التكوير : 6).

فما وجه التناسب الذي روعي في اختيار كل من اللفظين : «فجرت، وسجرت» في كل من السورتين ؟

ذكر الخطيب الإسكافي أن وجه التناسب في اختيار لفظ «سجرت» في سورة التكوير يظهر بالنظر إلى ما تقدم من الأفعال التي جاءت بعد «إذا»، ومن بينها : ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾..

وفسر «سُجِّرَتِ ٱلْبِحَارُ» بمعنى أوقدت فصارت نارا، كما يسجر التنور. وقال : «فكان ذكر هذا المعنى حيث وقع.التوعد بتسعير الجحيم أولى وأشبه».

ونظر في وجه اختيار لفظ «فجرت» في السورة الأخرى إلى السياق، وفسر قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ بمعنى : سُيِّبَ ماؤها وأُسيح حتى فاض على وجه الأرض. وقال : «فكان هذا أولى بهذا المكان، لأن قبلها خبرا عن الأشياء التي يحكم الله تعالى بمزايلتها أماكنها كقوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ﴾. ومعناه آنشقت. وبعده : ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾. وبعده : ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾. فبإزاء انتثار الكواكب آنفجار البحار، فكان الإخبار عنها بهذا المعنى أولى بهذا المكان لتقدم ما يشبهها من التغيير، ومجيء ما هو تزييل عن مكانه من بعثرة القبور»[11].

أما ابن الزبير الغرناطي فقد فسر : «وإذا البحار سجرت» بمعنى ملئت، من قولك : سجرت التنور : إذا ملأته حطبا. والمراد اجتماع مياهها.

وذهب إلى أن سورة التكوير إنما خصت بلفظ «سجرت» ليناسب ما جاء معه في سياقه من ألفاظ تتحد في إبراز معنى الجمع والحشر والحشد. قال تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ. وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (سورة التكوير : 1ـــ7).

وقال : فتكوير الشمس، وانكدار النجوم، وحشر الوحوش، وتزويج النفوس، وتسجير البحار. كله اجتماع وائتلاف يناسب بعضه بعضا»[12].

وذهب إلى أن المراد بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ في الآية الأخرى : فتح بعضها إلى بعض، واختلاط العذب بالمالح..

(11) درة التنزيل وغرة التأويل، ص : 520ــ521.

(12) ملاك التأويل : 1138/2.

وقال : «وإنما خصت سورة الانفطار بلفظ الانفجار، ليناسب مطلع السورة وافتتاحها، ألا ترى في انفجار العذب إلى المالح والمالح إلى العذب، وبعضها إلى بعض انفطارا يناسب انشقاق السماء وانفطارها»...

«فانفطار السماء، وانفجار البحار، وبعثرة القبور، وانتشار النجوم، كل ذلك متناسب أوضح تناسب وأبينه»[13].

ويحسن أن نشير هنا إلى أن اختلافا يسيرا يوجد بين التحليلين اللذين لخصناهما من كتابي كل من الخطيب الإسكافي وابن الزبير الغرناطي، ومرد اختلافهما في التوجيه والتحليل هو أن لفظ «سجر» لفظ مشترك : يفيد معنى الاشتعال، وهو الذي أخذ به الإسكافي، ويفيد معنى الإملاء، وهو الذي أخذ به ابن الزبير.

ويبدو أن ما ذهب إليه ابن الزبير أرجح، ويؤيده أن الأفعال الأخرى التي تقدمت هذا اللفظ، والتي تأخرت عنه تفيد معنى الجمع، والحشد.

ومهما يكن، فإن كلا من اللفظين جاء في سياقه الذي يناسبه، وفي موضعه الذي لا يقوم فيه غيره مقامه.

3 ــ قال تعالى في سورة النازعات : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ (سورة النازعات : 34).

وقال في سورة عبس : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ (سورة عبس : 33). فسمي قيام الساعة، وهي نهاية هذا العالم، باسم «الطامّة» في الآية الأولى، وباسم «الصاخة» في الثانية.

وقبل أن نورد ما قيل في توجيه ذلك، نبين أن المعنى الواحد أو الشيء الواحد قد يعبر عنه في العربية بعدة أسماء، كما يوصف بعدة أوصاف، وذلك لأن الاعتبارات التي ينظر إليها في التسمية والوصف تختلف، و«وضعية الخطاب» و«مقتضى الحال» هو الذي يعين ما يناسب كل مقام من تلك الأسماء.

ومن أقرب الأمثلة على ذلك أن قيام الساعة سمي في القرآن بأسماء متعددة منها : الساعة، والقيامة، والواقعة، والقارعة، والآزفة، والطامة، والصاخة، والحاقة، والغاشية...

واستعمل كل منها في المكان الذي يناسبه.

أما لفظ «الطامة» فقد قيل إنه يستعمل في الشديدة التي تنسى عندها الشدائد، فتطم على ما تقدمها، أي تستره وتغطيه. والقيامة هي الطامة الكبرى، لأنها تنسي ما تقدم من شدائد الدنيا.

(13) ملاك التأويل : 1137/2.

وأما وجه التناسب في ورود هذا اللفظ في سورة النازعات، فهو أنها تضمنت ذكر ما أتى به فرعون من الطامة الكبرى في الكفر حيث قال : «أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ» فهذه في الكبائر كشدة الآخرة في الشدائد، فكأنه قرن إلى ذكر الكبيرة الموفية على أمثالها ذكر الطامة الكبرى(14).

ونظر ابن الزبير في بيان وجه التناسب في ذلك إلى مقصود سورة النازعات وروحها الخاص، فأوضح أن لفظ «الطامة» لما كان أبلغ في الإشارة إلى أهوال القيامة، خص به أبلغ السورتين في التخويف والإنذار، وقال : «وعلى ذلك بنيت سورة النازعات. ألا ترى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، ووصف الطامة الكبرى وما أتبع به بعد، وابتداء السورة وختامها. فكلها تخويف وترهيب، فناسبها أشد العبارتين موقعا أرهبهما(15).

وأما «الصاخة» فقد قيل : إنها صيحة تطعن الآذان وتصمها... وهي صيحة شديدة لشدة صوتها، يحيا بها الناس كالصيحة الشديدة التي ينبه بها النوام.

وإنما خصت سورة «عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ» بهذا اللفظ لأنها لم تُبْنَ على التخويف الشديد.

وإنما بنيت على قصة عبد الله بن أم مكتوم، وذلك مشهور. ثم ورد قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ﴾ عقب التذكير بقوله : ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، والتحريك للاعتبار بقوله : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾... إلى قوله : ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾. ثم أتبع ذكر الصاخة بقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾. فسورة «النازعات» على الجملة أشد في التخويف والترهيب، فناسبها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة في التخويف والإنذار بحالها. وليست سورة عبس كسورة النازعات في التخويف، فناسبها إيراد إسم القيامة بـ «الصاخة» .. فجاء كل على ما يناسب»(16).

4 ــ وقال تعالى في سورة الرعد : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ (سورة الرعد : 37). وقال في سورة طه : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ (سورة طه : 113). فسمى كتاب الله في الآية الأولى «حُكْماً»، وسماه في الثانية «قرآنا». والمراد بالمنزل في الموضعين واحد، وهو القرآن. ثم اختلفت العبارة عنه في السورتين.

قال الزمخشري في تفسير قوله : «حُكْماً عَرَبِيّاً» : «حكمة عربية، أي مترجمة بلسان العرب»(17).

---

(14) درة التنزيل وغرة التأويل، ص : 518.

(15) ملاك التأويل : 1136/2.

(16) نفسه : 1136/2.

(17) الكشاف : 363/2.

والتدبر في سورة الرعد يهدي إلى معرفة التناسب في ما تختص به. وهو أنها تتجه بآياتها ومعانيها وكلماتها إلى عرض آيات الحكمة الإلهية في مجالات كثيرة وآفاق واسعة : تعرض الكون في شتى آفاقه : في السموات المرفوعة بغير عمد، وفي الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، وفي الليل يغشاه النهار، وفي الأرض الممدودة، وما فيها من رواس ثابتة، وأنهار جارية، وجنات وزروع ونخيل تختلف الأشكال والألوان والطعوم، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد، وفي البرق يخيف ويطمع، والرعد يسبح ويحمد.

هذا عن الإطار العام الذي تعرض فيه قضايا السورة وموضوعاتها وهو إطار ذو طبيعة خاصة، إنه إطار المشاهد الطبيعية المتقابلة التي تتجلى فيها دلائل حكمة الله، وآيات تقديره وتدبيره.

وفي هذا السياق يرد ذكر القرآن، لأن نزوله لم يكن إلا طرفا من تلك الحكمة الإلهية، ومن ثم كانت تسميته بالإسم المشتق من الحكمة أنسب لروح السورة وموضوعها.

ويبدو أن هذا التوجيه أوجه مما ذهب إليه ابن الزبير الغرناطي الذي انطلق من تفسير قوله تعالى : «حكما عربيا» بمعنى حكم الله وقضائه في خلقه. وقد بحث في سياق السورة عما يناسب هذا المعنى، فرأى — على ما ذهب إليه — أن المتقدِّم فيها إنما هو تفاصيل أُحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف أحوال المكلفين جريا على ما سبق من قضاء الله فيهم، وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدره سبحانه في أزله، وما حكم به عليهم.. إلى أن قال : «ودارت الآي بعد هذا على أن كل جارٍ في خلقه، فبتقديره، وتناسب ذلك إلى قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾. وكل ما تقدم فهو حكمه السابق في خلقه[18].

أما قوله تعالى في سورة طه : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. فقد ورد في سياق، تَقَدَّمَهُ عرض قصة موسى عليه السلام، وما كان من فتنة قومه بعده بفعل السامري، وما كان من تذكير هارون عليه السلام لهم .. واستمرت القصة إلى قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾. والمراد به القرآن. ثم أتبع هذا بما يلائمه إلى قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي قصصا مقروءا بلسان العرب. فناسب كلا من العبارتين موضعه أتم مناسبة[19].

5 — قال تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (سورة المعارج : 40). وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (سورة الرحمن : 17). وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (سورة المزمل : 9).

(18) ملاك التأويل : 707/2.

(19) نفسه : 709/2.

هذا النموذج يتعلق بإبراز وجه التناسب في استعمال صيغة الجمع والتثنية والإفراد من لفظ واحد، وصلته بروح السورة وموضوعها وأسلوبها.

أما وجه اختصاص سورة الرحمن بصيغة المثنى فيرجع إلى وجه لطيف من أوجه التناسب، وهو أن هذه السورة بنيت على ذكر المثاني والمزدوجات : فذكر فيها أولا نوعي الإيجاد، وهما الخلق والتعليم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره، وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات : ٱلنَّجْمَ والشجرَ، ثم ذكر السماء المرفوعة، والأرض الموضوعة، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان... ثم ذكر خلق نوعي المكلفين، وهما الإنس والجان، ثم ذكر المشرقين والمغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين : الملح والعذب، فتأمل مناسبة تثنية المشرق والمغرب في هذا، وحسن ائتلاف هذين اللفظين مع ما يكتنفهما من المزدوجات[20].

واستقراء سورة الرحمن يظهر أن التثنية هي القوة التي تهيمن على أسلوب التعبير فيها، تكثر فيها الأسماء المثناة بالألف والنون، وبالياء والنون : المشرقين والمغربين، البحرين، الثقلان، جنتان، عينان، زوجان، وتكثر فيها التثنية بالواو : الشمس والقمر، النجم والشجر، اللؤلؤ والمرجان، الجن والإنس، نار ونحاس، والنواصي والأقدام، والياقوت والمرجان.

واستقراء هذه الأمثلة يعين على إدراك الروح العام الذي يسري في أسلوب السورة، ويسهل تحليل طرق التعبير فيها، والكشف عن أوجه التناسب التي تربط بينها.

ولا يكفي في فهم أسرار النظم القرآني ما نراه عند المفسرين من الخلاف في تعيين المراد بالمشرقين والمغربين في هذه السورة. فقد قيل : المراد بالمشرقين والمغربين، مشرقا الشمس صيفا وشتاء، ومغرباها .. وقيل المشرقان : مشرق الفجر ومشرق الشفق، والمغربان مغرب الشمس ومغرب الشفق... وقيل غير ذلك[21].

وإنما أُتي المفسرون من جهة تعلقهم بالمفردات ودلالتها الحسية، ومن إهمال وحدة السورة والروح العام التي تربط بين مفرداتها وآياتها ..

أما ورود لفظي المشرق والمغرب بصيغة الإفراد في سورة المزمل، فلأن هذه الصيغة هي التي تناسب السياق. وبيان ذلك أن الله تعالى أمر رسوله ـــ ﷺ ـــ في مطلع السورة بقيام الليل، ثم أخبر أن له في النهار سَبْحاً طويلا، فلما تقدم ذكر الليل والنهار، عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهرا الليل والنهار. فكان الإفراد في هذا السياق أنسب من التثنية والجمع.

(20) عن بدائع الفوائد : 1/221ـــ222 بتصرف.

(21) سورة الرحمن : شوقي ضيف. ص : 67 وما بعدها.

وأما مجيئهما بصيغتي الجمع في سورة المعارج فلأنهما وردا في سياق بيان سعة ربوبية الله تعالى، وإحاطة قدرته... وذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي إحدى آياته ــ سبحانه ــ العظيمة. ونقله ــ تعالى ــ لها، وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب مظهر من مظاهر القدرة المطلقة وسعة الربوبية.

...وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور، وفي ذلك بيان أن من قدر على هذا، قادر على أن يبدل المخاطبين خيرا منهم، وما هو بمسبوق قال تعالى : ﴿فَلَاۤ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ. عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (سورة المعارج : 40 ــ 41).

2 ـ مراعاة السياق في اختيار لفظ أو صيغته

وإذا كان القرآن يراعي في اختيار اللفظ روح السورة العام، فإنه ــ وهذا أسهل وأولى ــ يراعي في ذلك الاختيار نسق الكلام وسياقه القريب، ومن هنا نراه يعبر عن المعنى الواحد، أو الشيء الواحد بلفظ في موضع، ونراه في موضع آخر يعبر عنه بلفظ غيره. وليس ذلك لمجرد التصرف في الكلام، وإنما هو لمراعاة ما يناسب كل سياق، وكل مقام.

وقبل أن نبدأ في عرض النماذج التي توضح مراعاة السياق في التعبير، ينبغي أن أذكر بأن الاستقراء الكامل في هذا الباب أيضا غير ميسر، لأنه يتوقف على دراسة ألفاظ القرآن كلها. لذلك سنقتصر على تقديم نماذج توضيحية.

1 ــ قال تعالى في سورة الحج : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (سورة الحج : 5).

وقال في سورة فصلت : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (سورة فصلت : 39).

فوصف الأرض في الآية الأولى بأنها «هامدة» ووصفها في الثانية بأنها «خاشعة».

وقد يقال إن هذا مجرد تنويع في التعبير، غير أن التدبر في سياق كل من الآيتين يظهر غير ذلك.

أما وصفها بكونها «هامدة» فقد ورد في سياق قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ، وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ

عِلْمٍ شَيْئاً، وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (سورة الحج : 5).

وهذا السياق هو سياق بعث وإحياء : الناس خلقوا أصلا من التراب، وسيبعثون مرة ثانية من التراب. والتراب مادة ميتة ساكنة فمما يتناسب مع هذا السياق وصف الأرض بأنها هامدة. فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت، وظهرت فيها الحياة.

وأما وصفها بالخشوع (خاشعة)، فقد جاء في سياق قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ، وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ... وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (سورة فصلت : 37—39).

وهذا السياق سياق عبادة وخشوع وسجود يتناسب معه وصف الأرض بأنها خاشعة، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت.

ويحسن أن نلاحظ أن الهمود والخشوع يتحدان في المعنى العام، وهو السكون، لكنهما يختلفان في بعض الدلالات. ولذلك كان الهمود مناسبا في السياق الذي يدور الحديث فيه على الإحياء والبعث، وكان الخشوع مناسبا في السياق الذي يدور الحديث فيه على العبادة والسجود والتسبيح.

2 ــ قال تعالى : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الفاتحة : 6). وقال : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الأحقاف : 30).

في هذا النموذج نرى القرآن الكريم يعبر عن دين الله الذي جاء به الرسل بلفظ «الصراط» في سورة الفاتحة، ويعبر عنه في سورة الأحقاف بلفظ «طريق».

أما الصراط فالمشهور عند اللغويين أنه مشتق من سرط الشيء إذا ابتلعه بلعا سهلا، فسمي الطريق صراطا، لأنه يسرط المارة.

والصراط : الطريق الذي جمع خمسة أوصاف هي أن يكون طريقا سهلا، مسلوكا، واسعا، موصلا إلى المقصود. فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطا، ولا الصعب الشاق، ولا المسدود غير الموصل.

ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك.

والسياق الذي ورد فيه لفظ «الصراط» في سورة الفاتحة هو سياق الدعاء، وسؤال الهداية، والذي يناسبه هو هذا اللفظ. وَوُصِفَ بالمستقيم زيادة في البيان، ولأن الذين يسألون الله الهداية إنما يسألون الطريق السهل المستقيم الموصول.

وأما آية سورة الأحقاف فقد ورد فيها لفظ الطريق، لأن سياق الكلام يتعلق بحكاية قول مؤمني الجن الذين حملوا إلى قومهم خبر نزول القرآن، ودعوهم إلى الإيمان.

وقولهم في وصف القرآن : ﴿يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه وجه دقيق من التناسب، ذلك أنهم قدموا قبله ذكر موسى، وأن الكتاب الذي سمعوه مصدق لما بين يديه من كتاب موسى وغيره. قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (سورة الأحقاف : 30)، إشارة إلى أنه لم يكن أول كتاب نزل من عند الله. وقولهم : «يهدي إلى طريق مستقيم»، معناه : يهدي إلى سبيل مطروق، قد مرت عليه الرسل قبله، وأنه ليس ببدع، كما قال في أول السورة نفسها : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاق : 9)، فاقتضت البلاغة ووحدة السياق لفظ «الطريق» لأنه فعيل بمعنى مفعول، أي مطروق، مَشَتْ عليه الرسل والأنبياء قبل[22].

3 ـــ قال تعالى : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ (سورة النحل : 34). وقال في سورة الزمر : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ (سورة الزمر : 51).

أما الآية الأولى فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبرا عن المشركين : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل : 28). ثم آستمرت الآية إلى قوله تعالى : ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (سورة النحل : 32). ثم صرف الكلام إلى كفار العرب في توقفهم عن الإيمان، فقيل : ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (سورة النحل : 33). والمراد الذين قالوا : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾. فقيل بناء على قولهم ذاك، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وتناسب هذا تناسبا بينا».

وأما آية الزمر فقد وقع قبلها قوله : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ. وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ (سورة الزمر : 48). وبعد هذا : ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورةالزمر : 50). ثم قال : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، مراعاة لوحدة السياق وتناسبه.

---

(22) عن بدائع الفوائد : 2/16ـــ17 بتصرف.

4 ــ قال تعالى في سورة البقرة : ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة : 38).

وقال في سورة طه : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ﴾ (سورة طه : 123).

فعبر في الآية الأولى بصيغة الثلاثي من فعل «تَبِعَ». وعبر في الثانية بصيغة الخماسي منه «اتبع».

قال تاج القراء : «تَبِعَ» و«ٱتَّبَعَ» بمعنى[23]. وإنما أختار في «طه» ٱتَّبَعَ مُوَافَقَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى قَبْلُ : ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ (سورة طه : 108).

وهذا يعني أن إيثار صيغة الخماسي من هذا الفعل في آية طه، كان لمراعاة التناسب اللفظي في سياق الكلام.

وأما آية البقرة فقد أوثر فيه الثلاثي المجرد، وقيل ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، لأن الآية وردت في سياق حكاية قصة آدم عليه السلام، وما كان من أمر الله بأن يسكن الجنة هو وزوجه، ويأكلا منها رغدا. وما كان من إبليس الذي أزلهما عنها فأخرجهما مما كانا فيه.

ولم يرد في هذا السياق مما كان من إبليس سوى قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ (سورة البقرة : 36). من غير تعرض لما كان من وسوسته وإغرائه ولا لذكر الكيفية في إغوائه لهما. لهذا اقتصر في هذا السياق على الثلاثي المجرد من «تبع».

ولما ورد في آية طه ذكر ما يفهم منه قُوة كيد الشيطان في إغواء آدم وزوجه، وهو قوله تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ (سورة طه : 120). ناسبه «فمن اتبع» بصيغة الخماسي التي تنبيء عن زيادة على معنى «فعل» الثلاثي، لأن مقاومة كيد الشيطان تحتاج إلى قوة ومعالجة[24].

5 ــ وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام : 117).

وقال في سورة النجم : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ (سورة النجم : 30).

---

(23) البرهان في متشابه القرآن، لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق عبد القادر احمد عطا، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت 1986، ص : 27.

(24) عن ملاك التأويل : 1/190ـــ194 بتصرف.

ووجه التناسب في التعبير بصيغة المستقبل «يَضِل» في سورة الأنعام، أن الآية قد اكتنفها من الأفعال الاستقبالية، والإخبار بما يكون قطعيا في المآل ما يقتضي المضارع، ليتناسب النظم والسياق[25].

وأما آية سورة النجم فمبنية على مطلع السورة في قوله تعالى : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾. فقال تعالى مُشيراً إلى حال المخاطبين : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

3 ـ مراعاة السياق في القراءات

مما يتصل بمراعاة السياق اختلاف القراء في بعض ألفاظ القرآن، واختيار بعضهم القراءة بصيغة، واختيار الآخرين القراءة بغيرها. وقد أوضح العلماء في توجيه القراءات والاحتجاج لها أن بعض أئمة القراء نظروا فيما آختاروا إلى التناسب والإئتلاف في نظم الكلام.

1 ـ اختلفوا في قوله تعالى : ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصَدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة الرعد : 33).

فقرأ عاصم وحمزة والكسائي : ﴿وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بضم الصاد. قال ابن زنجلة : وحجتهم أن الكلام أتى عقيب الخبر من الله بلفظ ما لم يسم فاعله وهو قوله تعالى : ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾. فجرى الكلام بعده بترك تسمية الفاعل ليأتلف الكلام على نظام واحد[26].

2 ـ واختلفوا في قوله تعالى : ﴿تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً﴾ (سورة الغاشية : 4). فقرأ أبو عمرو وأبو بكر : ﴿تُصْلَىٰ نَاراً﴾، بضم التاء. قال ابن زنجلة : وحجتهما ذكرها اليزيدي فقال : لقوله بعدها : ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ فجعل اليزيدي «تصلى» بلفظ ما بعده إذ أتى في سياقه، ليأتلف الكلام على نظام واحد[27].

3 ـ واختلفوا في قوله تعالى : ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة : 279)، فقرأوا كلهم الأولى بفتح التاء والثانية بضمها. وروي عن عاصم أنه قرأ الأولى بضم التاء والثانية بفتحها. قال أبو علي الفارسي : «ويرجع تقديم «لا تَظْلِمُونَ» بفتح التاء، بأنه أشكلُ بما قبله، لأن الفعل الذي قبله مُسند إلى فاعل، وهو قوله : ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ..﴾فـ«تَظْلِمُونَ» أشكل بما قبله، لإسناد الفعل فيه إلى فاعل»[28].

---

(25) عن ملاك التأويل : 471/1.

(26) حجة القراءات، لأبي زرعة بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط. 4، 1984، ص 374.

(27) نفسه، ص : 759.

(28) الحجة في علل القراءات السبع، لأبي علي الحسن الفارسي، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983 307/2.

4 ـــ واختلفوا في ضم التاء ورفع اللام وفتحها وجزمها من قوله تعالى : ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (سورة البقرة : 119). فقرأ نافع وحده : «ولا تَسْأَلْ» مفتوحة التاء، مجزومة اللام.

وقرأ الباقون من السبعة : «ولا تُسْأَلُ» مضمومة التاء مرفوعة اللام.

قال أبو علي الفارسي : «وحجة من قرأ بالرفع على الاخبار لا على النهي أن الكلام قبله وبعده خبر، فإذا كان أشكل بما قبله وما بعده كان أولى»[29].

5 ـــ واختلفوا في قوله تعالى : ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ (سورة آل عمران : 79).

فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمروا : «تَعْلَمُونَ» بإسكان العين، وفتح اللام مخففا.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي : «تُعَلِّمُونَ» مثقلا.

قال مكي بن أبي طالب : «وحجة من خفف أنه حمله على ما بعده من قوله تعالى : «تدرسون» مخففا، ولم يقل تدرّسون، فحمل الفعلين على معنى واحد أليق وأحسن في المطابقة والمجانسة»[30].

6 ـــ واختلفوا في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ (سورة الأنعام : 91).

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يَجْعَلُونَهُ» بالياء، وقرأ باقي السبعة بالتاء. قال أبو عبيد : التاء تختار للمخاطبة قبلها وبعدها. فالتي قبلها قوله تعالى : ﴿قُلْ﴾ والتي بعدها قوله : ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾. فكان قراءتهم ما توسط بين الخطابين من الكلام على لفظ ما قبله وما بعده، ليأتلف نظام الكلام على سياق واحد أولى[31].

وقد أوضح أبو علي الفارسي القاعدة الأسلوبية العامة في اختيار القراءة بضمير الخطاب أو الغيبة فقال : «القول في جملة ذلك أن ما كان قبله خطاب جعل بالتاء، ليكون الخطاب معطوفا على خطاب، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً... وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة : 74).

---

(29) الحجة في علل القراءات السبع : 163/2ـــ168.

(30) الكشف عن وجوه القراءات السبع : 225/1.

(31) حجة القراءات، ص : 261.

فالتاء في «تَعْلَمُونَ» أحسن، لأن المتقدم خطاب. وإن كان الذي قبله غيبة حَسُنَ أن يجعل على لفظ الغيبة، ليعطف ما للغيبة على مثله، كما عطف ما للخطاب على مثله[32].

7 ــ واختلفوا في قوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (سورة الرعد : 42).

فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «الكَافِر» بالافراد. وقرأ باقي السبعة «الكفار» بالجمع.

وحجة من قرأ بالجمع أن الكلام أتى عقيب قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فقرأوا : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ﴾ بلفظ ما تقدمه، ليأتلف الكلام على سياق واحد[33].

8 ــ واختلفوا في قوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ (سورة الأنعام : 115).

فقرأ عاصم وحمزة والكسائي : «كَلِمَةُ رَبِّكَ» على الإفراد، وقرأ الباقون من السبعة : «كلمات ربك» على الجمع. وحجة الذين قرأوا بالجمع أنها مكتوبة بالتاء، فدل ذلك على الجمع... وحجة أخرى، وهي أن «الكلمات» التي جاءت بعدها، وردت بلفظ الجمع، فقال تعالى : ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، وفيها إجماع. فكان الجمع في الأولى أشبه بالصواب، للتوفيق بينهما إذ كانا بمعنى واحد[34].

9 ــ واختلفوا في قوله تعالى : ﴿كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (سورة البقرة : 285)، فقرأ حمزة والكسائي «وكتابه» بصيغة الإفراد، وقرأ باقي السبعة «وكُتُبِهِ» بصيغة الجمع. وحجة هؤلاء ما تقدم وما تأخر في سياق الكلام : ما تقدم ذُكِر بلفظ الجمع، وهو قوله تعالى : ﴿كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ﴾. وما تأخر ذكر بلفظ الجمع أيضا، وهو قوله تعالى : ﴿وَرُسُلِهِ﴾ فكذلك قرأوا ﴿وَكُتُبِهِ﴾ بالجمع، ليأتلف الكلام على نظام واحدة[35].

قال أبو علي الفارسي : «والإسمان اللذان أحدهما قبله والآخر بعده (يعني بعد «كتبه») مجموعان. فهذا يقوي الجمع، ليكون الكلام مشاكلا لما قبله وما بعده»[36].

تلك جملة من الأمثلة التي توضح أن من أئمة القراء من يراعي في اختياره وحدة النسق وائتلاف الكلام على نظام واحد، وقد عرضنا في هذه الأمثلة، مما يتعلق بمراعاة تناسب الألفاظ في

---

(32) الحجة في علل القراءات السبع : 91/2ــ92.

(33) حجة القراءات، ص : 375.

(34) نفسه، ص : 268.

(35) نفسه، ص : 153.

(36) الحجة في علل القراءات السبع : 335/2.

السياق الواحد، قراءة بعض القراء أفعالا على البناء للمعلوم أو المجهول، وقراءتهم أفعالا أخرى بضمير الغيبة أو الخطاب، وقراءة أسماء بالإفراد أو الجمع. ورأينا فيما عرضناه أيضا من احتجاج العلماء لتلك القراءات، أن مراعاة التناسب اللفظي في نسق الكلام كان من أسس الاختيار في القراءات. ولو تتبعنا اختلافات القراء المتعلقة بأبنية الألفاظ لوجدنا أن الكثير منها ــ عند بعضهم ــ يرجع إلى هذا الأساس.

الفصل الثاني

المناسبة في وحدة النسق واختيار التراكيب

رأينا في الفصل السابق كيف يراعي القرآن الكريم أوجها دقيقة من التناسب في اختيار الألفاظ المفردة، فلنأت الآن لبيان بعض أسرار التناسب التي يراعيها في اختيار التراكيب.

وفي مستهل الحديث عن هذا الجانب، يحسن بنا أن نقدم لمحة سريعة عن نظام تركيب الجملة في اللغة العربية، وما يمتاز به من المرونة.

1 ـ نظام تركيب الجملة في العربية ومرونته

من المبادىء الأولى في هذا النظام أن لكل عنصر رتبته الخاصة، يحتفظ بها في جميع الأحوال، ولو تغير نظام تركيب الجملة.

فالجملة الفعلية تنبني على هذا المنوال :

فعل + فاعل + مفعول + قيد

والجملة الإسمية تنبني على النظام الآتي :

مبتدأ + خبر + قيد

غير أن هذا النظام يتمتع بحظ غير قليل من المرونة، فيتغير ترتيب العناصر، حين يعرض من الأغراض المعنوية والتعبيرية ما يستدعي التغيير، فيقدم منها ما كانت رتبته التأخير، ويتأخر ما كانت رتبته التقديم، ويحذف عنصر منها في حال، ويزادُ في حال أخرى.

وقد درس العلماء هذا النظام وأوضحوا ما يمتاز به من المُرونة، وعرفوا ببعض الوظائف المعنوية والجمالية التي يؤديها اختلاف أحوال تركيب الجملة.

بدأ البحث في أحوال تركيب الجملة القرآنية منذ وقت مبكر على يد نخبة من علماء القرن الثالث من الهجرة، الذين عنوا بالتأليف في معاني القرآن وأساليبه، كأبي عبيدة معمر بن المثنى

(110ـ203 هـ)[1]، وأبي عمرو الجاحظ (163ـ255 هـ)، وأبي زكريا يحيى بن زياد المعروف بالفراء (144ـ207 هـ)[2]، وابن قتيبة (213ـ276 هـ)[3].

وقد درسوا كثيرا من الأساليب التي تتعلق بتركيب الجملة القرآنية، كالتقديم والتأخير، والإفراد والجمع، والمجاز والحقيقة.

ثم انتقلت هذه المباحث إلى كتب فقه اللغة، فصارت من خصائص العربية وسننها.

وقد تناول عثمان بن جني[4] هذه المباحث في باب «شجاعة اللغة العربية» وتناولها أحمد بن فارس[5] ضمن سنن العربية.

ومن أشهر البلاغيين الذين عنوا بدراسة أحوال التراكيب ودلالتها ووظائفها البيانية عبد القاهر الجرجاني، فقد جعل ما أسماه بالمعاني النحوية، والفروق المعنوية بين التراكيب، من دلائل الإعجاز، وذهب إلى أن فضيلة الكلام وفصاحته مردها إلى خصائص التراكيب، وإلى وضع كل عنصر من عناصر الجملة في الموضع الذي يناسب مقتضى الحال، وتقتضيه صورة المعنى في النفس. وفي كتابه «دلائل الإعجاز» فصول كبيرة تناول فيها وظائف التقديم والتأخير والتعريف والتنكير، والحذف والزيادة..

واستلهم ابن خلدون من عبد القاهر ومن جاء بعده رأيه في قيمة أحوال التراكيب في اللغة العربية، وميزتها على اللغات الأخرى فقال : «وكل معنى لابد أن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود، لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن، أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما اللسان العربي، فإنما يدل عليها بكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم وتأخير أو حذف أو حركة إعراب، وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة، ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك

---

(1) من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته بالبصرة. كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم، ويخطىء إذا قرأ القرآن نظرا. له نحو 200 مؤلف. (الأعلام : 191/8)

(2) إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، كان يلقب أمير المؤمنين في النحو. عهد إليه المأمون بتربية ابنه. كان فقيها متكلما. توفي في طريق مكة. له مؤلفات كثيرة.
(الأعلام : 178/9)

(3) من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين، ولد ببغداد وسكن الكوفة وولي قضاء الدينور، فنسب إليها. طبع الكثير من كتبه.
(الأعلام : 281/4)

(4) انظر كتاب الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت 1952 : 360/2ـ441.

(5) انظر كتاب الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق مصطفى الشويمي، بيروت 1964، ص : 240ـ243.

الكيفيات، كما قدمنا. فكان الكلام العربي لذلك أوجز، وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن، وهذا معنى قوله ﷺ : أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارا»[6].

تلك لمحة عن نظام الجملة وقيمة أحوال تركيبها في اللسان العربي من حيث أداء المعاني وما يكتنفها من أحوال تخصها.

وإلى جانب هذه الوظيفة المعنوية، هناك وظائف أخرى جمالية، تراعى في اختيار التراكيب اللغوية، منها ما يتصل بتناسب الكلام الموزون أو المسجوع والمزدوج، كتناسب فواصل الآيات في القرآن.

ومنها ما يتصل بوحدة نسق الكلام وانتظامه في سياق واحد.

والوظائف المعنوية والجمالية التي تؤديها التراكيب في نسق الكلام لا تتعارض، بل إن التوفيق بينها من أحسن صفات الكلام البليغ، والبلغاء من البشر قد ينجحون في التوفيق بينها وقد لا ينجحون، ويوفقون إلى ذلك في بعض كلامهم ويجانبهم التوفيق في بعض.

أما القرآن الكريم فإنه، في كل ما تناول من المعاني والأغراض، يجمع في اختيار التراكيب بين الوظيفتين بالعدل، فلا يجورُ فيه المعنى على حق اللفظ، ولا اللفظ على حق المعنى.

ولا يتسع المجال في هذا الفصل لدراسة كل أحوال تركيب الجملة القرآنية، وبحث صلتها بالتناسب اللفظي وانتظام نسق الكلام.

ويكفينا أن ندرس من تلك الأحوال : التقديم والتأخير، والحذف والزيادة. على أن يكون اهتمامنا منصبا على الصلة بين هذه الأساليب وبين التناسب في النظم القرآني.

2 ـ التقديم والتأخير والتناسب

تناول البلاغيون وعلماء الإعجاز مبحث التقديم والتأخير في الأسلوب القرآني بالدرس والتحليل، وبينوا أغراضه وأنواعه. ونوهوا بقيمته البيانية والبلاغية.

قال عبد القاهر الجرجاني : «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكانه إلى مكان»[7].

---

(6) مقدمة ابن خلدون، ص : 556.

(7) دلائل الإعجاز : 160.

ونقل الفخر الرازي عن أبي الحسن الرماني أن التركيب الذي يقع فيه النقل بالتقديم والتأخير يحسن من وجوه، منها :

1 ـــ أن تكون الحاجة إلى ذكره أشد وإلى العلم به أهم، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم.

2 ـــ أن يكون التأخير أليق بما اتصل به من الكلام كقوله تعالى : ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ (سورة إبراهيم : 50). فهذا أليق بما بعده، وهو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وهو أشكل بما قبله أيضا، لأن قبله : «مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ».

وذهب ابن الأثير إلى أن التقديم والتأخير يستعمل لغرضين هما : الاختصاص، ومراعاة نظم الكلام. وقال : «وهذا الوجه الثاني أبلغ وأوكد من الاختصاص»(8).

وساق أمثلة من القرآن وقع فيها التقديم مراعاة لنظم الكلام. كقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سورة الفاتحة : 5). قال : فإنه لم يقدم المفعول للاختصاص خلافا للزمخشري، وإنما قدم لمراعاة نظم الكلام، لأنه لو قال : نعبدك ونستعينك، لم يكن له حسن، ألا ترى أنه قدم قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ، ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فقال بعده : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون(9).

قال : ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ (سورة طه : 67). «وإنما قدم المفعول على الفاعل، وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصدا لتحسين النظم».

ومنه قوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَٱسْلُكُوهُ﴾ (سورة الحاقة : 30ـــ31).

ومنه قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة : 23). فتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص، وإنما هو من أجل نظم الكلام(10).

يبدو جليا من رأي ابن الأثير وتحليله لأمثلة من التقديم والتأخير في القرآن، أنه يذهب إلى أن مراعاة نظم الكلام هي أهم أغراض التقديم والتأخير فيها، وهو بهذا الرأي يناقض ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن أهم أغراض التقديم والتأخير هو الغرض المعنوي.

كما يبدو من تحليلات ابن الأثير للأمثلة القرآنية التي ساقها أنه يفصل بين الوظيفة الجمالية والوظيفة المعنوية للتقديم والتأخير في النظم القرآني. وقد بدا ذلك واضحا في قوله : إن تقديم

---

(8) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة، ط. 1، مكتبة نهضة مصر 1962 : 218/2.

(9) نفسه : 224/2.

(10) نفسه : 225/2.

المفعول في قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لم يكن للاختصاص وإنما هو لمراعاة نظم الكلام.

وهذا رأي غير صائب، ولا يليق بالقرآن الكريم، والذي نراه صائبا هو أن التقديم والتأخير في النظم القرآني يجمع بين الوظيفتين الجمالية والمعنوية على السواء. وإلا فما الذي يمنع أن نقول : إن التقديم في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقع لإفادة الاختصاص، ولمراعاة نظم الكلام معا.

تلك لمحة موجزة عن آراء البلاغيين في أسلوب التقديم والتأخير وأغراضه. والملاحظ أنهم لم يتجاوزوا في دراسة هذا الأسلوب حدود الجملة وأحوال تركيبها. ولم يتعمقوا في بحث صلته بالتناسب في النظم القرآني.

ومبحث التقديم والتأخير في الأسلوب القرآني لا ينحصر في دائرة تركيب الجملة، بل يتناول إلى جانب ذلك مباحث أخرى : كترتيب الصفات، وترتيب المتعاطفين بالواو، لأن الواو — كما قيل — وإن كانت لا تفيد الترتيب فإنه لا يتقدم اللفظ في الكتاب العزيز ذكرا، أو يتأخر إلا لموجب(11).

ولهذا دعا الإمام السهيلي إلى وجوب البحث عن الحكمة في تقديم ما قدم، وتأخير ما أخر من الألفاظ في القرآن نحو : «السميع البصير»، و«الظلمات والنور»، و«الليل والنهار»، «والجن والإنس». وتقديم السماء على الأرض في الأكثر وتقديم الأرض عليها في بعض الآيات، ونحو «سميع عليم»، ولم يجيء عليم سميع، وكذلك «عزيز حكيم»، و«غفور رحيم». وفي موضع واحد «الرحيم الغفور» إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر. وليس شيء من ذلك يخلو من فائدة لأنه كلام الحكيم الخبير.

وأشار إلى الأصل البياني العام للتقديم، ثم بين بعض أسبابه. فذكر أن ما تقدم من الكلم فتقديمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان. وأن المعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالنسب، وإما بالفضل والكمال.

وقال : «نعم، وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعاني، كقولهم : ربيعة ومضر(12).

وفي كتب علوم القرآن دراسة موسعة للتقديم والتأخير في أسلوب القرآن، تناولت بالبحث أنواعه وأغراضه، وأوضحت ما خالف فيه القرآن أحد الأسباب السابقة مراعاة لوجه من أوجه التناسب، كالمحافظة على تناسب الفواصل، أو تناسب السياق.

---

(11) انظر ملاك التأويل : 445/1.

(12) انظر بدائع الفوائد : 61/1.

ونحن في هذه الدراسة، لا نريد أن نطيل بعرض ما قيل في أغراض التقديم والتأخير، فذلك معروف، يسهل الرجوع إليه في مصادر علوم القرآن، ولكن الذي يعنينا هو بيان ما كان منه لغرض التناسب.

وسنركز الاهتمام هنا على ما وقع فيه التقديم والتأخير حفاظا على وحدة السياق، أما ما وقع فيه مراعاة لتناسب الفواصل فسنؤخره إلى مكانه من هذه الدراسة.

ويقع التقديم والتأخير حفاظا على وحدة السياق في تركيب الجملة، وفي ترتيب المتعاطفين بالواو، وفي ترتيب الصفات.

ا ــ التقديم والتأخير في تركيب الجملة القرآنية

1 ــ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة البقرة : 172ــ173).

وجاء في ثلاثة مواضع : ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ﴾[13].

فقدم في سورة البقرة المجرور الذي هو «به» وأخر فيما سواها.

والقاعدة العامة أن العرب مهما آعتنت بشيء، أو قصدت به قصد زيادة من تأكيد أو تشريف، قدمته أو قدمت ضميره. قال سيبويه : «كأنهم يقدمون الذي هو أهم، وهم ببيانه أعنى»[14].

وآية البقرة قد تقدم قبلها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾ (سورة البقرة : 168). وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (سورة البقرة : 172). فورد تعريفهم بذكر ما أبيح لهم، وورد ما يقصد إيجابه وإباحته مفتتحا بنداء المخاطبين، ومختتما بالأمر بالشكر لجليل تلك النعمة، وعظيم التوسعة فيها. فلما تحصل بهذه المقاصد الجليلة ما ليس في شيء من تلك المواضع والآيات الأخر، وخص ما ذكره بعدُ مما حرم عليهم بكلمة «إنما» المقتضية الحصر، والرافعة لضعف المفهوم .. فلما تحصل في هذه الآية ما أشير إليه من تأكيد هذا المحرم، مما ليس في الآي الأخرى، ناسبه تقديم المضمر المجرور، في قوله ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ﴾ ليكون الكلام بتقديم المجرور في قوة أن لو قيل : إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، والمهل به لغير الله، وهذا مقصود الكلام، ولم يكن تأخير المجرور ليحرز هذا، ولا ليناسب ما تقدم، فجرى الكلام كله من أول القصة إلى آخرها على أسلوب من البلاغة ملحوظ في آخره وأوله.

(13) هي : سورة المائدة : 3، وسورة الأنعام : 145، وسورة النحل : 115.

(14) الكتاب : كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار العلم 1966 : 24/1.

أما الآي الأخرى فليس فيها ما في هذه، فتأخر الضمير المجرور إلى محله الذي هو موضعه، ولم يكن ليناسبه التقديم[15].

2 ــ قال تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (سورة النساء : 41).

وقال في سورة النحل : ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ (سورة النحل : 89).

فقدم المجرور بـ «على» في سورة النساء، وأخر في سورة النحل.

أما آية النحل فتقدمها قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة النحل : 89) فتقدم آسم الشهيد على المشهود عليه، فورد ما نسق على ذلك من الأخبار بشهادته عليه السلام على أمته مرتبا على ما تقدمه من مقتضى النظم في التناظر والتناسب. فقيل : ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾، متوازنا مع قوله : ﴿شَهِيداً عَلَيْهِم﴾...

أما آية النساء فلم يرد فيها إفصاح بذكر المشهود عليهم، ولا كناية عنهم بضمير، ولا آسم إشارة، بل في آية النساء داع إلى تقدم المجرور بعلى، وهو أنه لما تقدم قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (سورة النساء : 38)، وذلك من صفة المنافقين، ناسب هذا تقدم المجرور في قوله : ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾، حتى كأنه بحسب المفهوم لم يقصد به غيرهم، ولا شهد على من سواهم، وليس في آية النحل ما يقتضي ذلك، بل مقتضاها إطلاق شهادته عليه السلام للجميع من صالح وطالح، إذ لم يتقدم قبلها التقييد[16]..

3 ــ قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾ (سورة الرعد : 38)، وقال في سورة الروم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ (سورة الروم : 47).

فقدم ذكر الرسل على المجرور في سورة الرعد، وقدم المجرور على ذكر الرسل في سورة الروم.

والقاعدة في القرآن الكريم أنه إذا ورد آسم محمد ﷺ مع غيره من الرسل، عليهم السلام، أن يتقدم آسمه، ظاهرا كان أو مضمرا. وعلى هذه القاعدة قدم المجرور في قوله : ﴿مِن قَبْلِكَ رُسُلاً﴾ في سورة الروم.

---

(15) انظر ملاك التأويل 1/248ـ251

(16) نفسه : 1/341ـ343.

أما آية سورة الرعد فقد جاءت في سياق قوله تعالى : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾ (سورة الرعد : 32)، فحملت الآية الثانية في نظمها على الآية المتقدمة، فتأخر المجرور بـ «من» للموازنة والتناسب[17].

وإنما تأخر ضمير محمد ﷺ في الآية الأولى عند ذكر الرسل، لأن ذكرهم هنا لم يرد معرَّفا بأحوالهم، وما منحوا من الاصطفاء والتكريم، ولو ورد ذكرهم لهذا الغرض لكان آسمه عليه السلام متقدم الذكر...

4 ــ وقال تعالى في سورة النحل : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل : 14).

وقال في سورة الملائكة : ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة فاطر : 12).

فأُخِّرَ المجرور في سورة النحل فقيل : ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، وقدم في سورة فاطر، فقيل : ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.

ووجه التأخير في الأولى أن الآية جاءت في سياق بني على تأخير المجرورات عما تعلقت به، وجرى الكلام على نسق واحد للتناسب والتشاكل، فقيل : لِتَأْكُلُوا مِنْهُ..، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ..، وَمَوَاخِرَ فِيهِ، ولو قيل هنا : فيه مواخر لما ناسب ما تقدم.

وأما آية سورة الملائكة فمبنية على تقدم المجرور على ما به تعلق. قال تعالى : ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً﴾، فناسب ذلك تأخر العامل في المجرور الثاني أيضا، ليتناسب الكلام ببناء آخره على ما بني عليه أوله[18].

5 ــ وقال تعالى في سورة الحديد : ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة الحديد : 12).

وقال في سورة التحريم : ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيءَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة التحريم : 8).

فقدم الفعل «يسعى» في الأولى وأخر في الثانية. ووجه ذلك أن قوله تعالى في سورة التحريم : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يُفهِمُ من حيث المعية قرب المنزلة، وعلو الحال، فناسب ذلك ورود الجملة الإسمية هنا، لما تقتضيه من الثبوت وتقدمه واستحكامه، فقيل : «نورهم يسعى».

---

(17) انظر ملاك التأويل : 2/709ــ711.

(18) نفسه : 2/734ــ735.

وأما قوله في سورة الحديد : ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ فبشارة للمؤمنين، ولم يأت هنا كونهم مع نبيهم، فلم يرد مما يُفهم تمكن المنزلة وثبوتها مثل ما ورد في آية «التحريم». وإنما هذه بشارة، فناسبها التجدد والحدوث فقيل : «يسعى نورهم» ليفهم التكرر وحدوث الشيء بعد الشيء[19].

ب ــ التقديم والتأخير في ترتيب المتعاطفين بالواو أو بأوْ

1 ــ قال الله تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (سورة البقرة : 284).

وقال في سورة آل عمران : ﴿قُلِ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ (سورة آل عمران : 29).

فتقدم في هذه الآية ذكر الإخفاء، وتأخر في آية البقرة. والمراد من الآيتين تعريف العباد بإحاطة علمه سبحانه بما ظهر وما بطن على حد سواء.

أما الآية الثانية فقد وردت في سياق، سَبَقَ فيه قوله تعالى ناهيا زاجرا : ﴿لاَ يَتَّخِذِ ٱلْمُومِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُومِنِينَ﴾ (سورة آل عمران : 28). وحذر تعالى من ذلك أشد التحذير إلا عند التقية، فقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (سورة آل عمران : 28)، ثم أتبع ذلك بتأكيد التحذير، فقال : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (سورة آل عمران : 28). فلما نهاهم الله تعالى عن هذا الفعل الذي هو من صفات المنافقين، أعني إبداء الشيء وإخفاء خلافه في المعتقدات، كان أهم شيء إعلامهم بأنه سبحانه يعلم ما يخفون كعلمه ما يبدون، فهذا وجه تقديم الإخفاء في آية آل عمران.

أما آية البقرة فلم يجر فيها ذكر النفاق ولا صفة أهله، وإنما الخطاب فيها وفي آية ٱلدَّيْنِ قبلها، وفيما أعقبت به بعد للمؤمنين، فيما يخصهم من الأحكام، فورد فيها قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (سورة البقرة : 284). مقدما فيها بادي أعمالهم بناء على سلامة بواطنهم وتنزيههم عن صفة المنافقين.. وتقديم ذكر الإبداء على الإخفاء مطرد في الآيات التي تختص بذكر المؤمنين، كما اطرد تقديم الإخفاء في الآيات التي يذكر فيها المنافقون، ويراعى في كل ذلك ما يناسب السياق[20].

---

(19) انظر ملاك التأويل : 1071/2.

(20) نفسه : 279/1ــ282.

2 — وقال تعالى في قصة مريم من سورة الأنبياء : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء : 91). فقدم هنا ضمير مريم، وقدم الابن عليها في غير هذه السورة. قال تعالى في سورة المؤمنين : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (سورة المؤمنون : 50).

أما تقديم ضمير مريم في آية «الأنبياء»، فلأن السياق في ذكر مريم، ولأن قبل الآية، ﴿وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (سورة الأنبياء : 91).

وأما تقديم الابن في الآية الثانية، فلأن السياق في ذكر الرسل، وقد عرضت السورة قصة إرسال نوح، وورد فيها بعد ذلك : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ (سورة المؤمنون : 31). وأشارت بإيجاز إلى إرسال موسى وهارون، ثم جاء ذكر عيسى فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾. فكان تقديم الابن هنا مناسبا للسياق، لأن عيسى عليه السلام من الرسل.

3 — وقال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (سورة النحل : 6).

فقدم «تريحون» على «تسرحون»، وإراحة الأنعام متأخرة في الترتيب الزمني. ولكن لما كان السياق في بيان ما في الأنعام من متعة وجمال للإنسان، والأنعام تبدو وقت رواحها أكثر جمالا، لأنها تعود من المرعى بطانا، لذلك فإن تقديم «تريحون» هو الذي يناسب هذا السياق.

4 — وقال تعالى : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ (سورة الأنبياء : 79).

فقدم الحكم مع أن العلم قبل الحكم، ولكن لما كان السياق في الحديث عن الحكم كان تقديمه أنسب. وقبل هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء : 78).

5 — القاعدة في الأسلوب القرآني، حيثما ورد ذكر الرحمة والعذاب أن يقدم ذكر الرحمة ويؤخر ذكر العذاب. وخرج عن هذه القاعدة مراعاة لما يناسب السياق في مواضع، فقدم ذكر العذاب. ومن ذلك قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ، يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ، وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة المائدة : 40).

ووجه المناسبة في تقديم ذكر العذاب في هذه الآية أنها وردت في سياق ذكر حُكم قُطاع الطريق والمحاربين والسراق، فكان تقديم العذاب هو الذي يناسب ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (سورة العنكبوت : 21).

وقُدم ذكر العذاب في هذه الآية أيضا، لأنها وردت في سياق حكاية إنذار إبراهيم عليه السلام لقومه، وفيهم النمرود، على قول، وفي سياق مخاطبة كفار مكة على قول آخر.

ومن هذا القبيل قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام : 165).

ووجه تقديم ذكر العذاب أن سورة الأنعام كلها مناظرة للكفار ووعيد لهم، وورد فيها قبيل هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. وهو تهديد ووعيد، فكان تقديم ذكر العقاب أنسب لهذا.

6 ـــ وقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة الأعراف : 188).

وقال في سورة يونس : ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة يونس : 49).

فقدم ذكر النفع في سورة الأعراف، وأخر في سورة يونس.

ووجه تقديمه في الأولى أنها وردت في سياق ذُكِر فيه أن الكفار سألوا النبي ﷺ عن الساعة، وتكرر ذلك في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي عالم بها، وكان ظاهر السياق يشير إلى أنهم كانوا يظنون أنه عليه السلام يعلمها، فطلبوا تعريفهم بها، ولا شك أن العلم بالشيء نفع لصاحبه، فعرفهم أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا. وتقدم ذكر النفع لأنه مشير إلى ما ظنوه أنه عنده من علمها. فأعلمهم أنه، عليه السلام، لا يملك من ذلك شيئا إلا ما شاء الله.

وأما تأخير ذكر النفع في سورة يونس، وتقديم الضر عليه، فلمراعاة ما يناسب ما تقدم في السياق قبل، وهو قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا ٱلْوَعْدُ﴾. فطلبوا تعجيل العذاب آستهانة وتكذيبا، ولم يعلموا ما في طلبهم من المحنة والمضرة العاجلة، فقال لهم عليه السلام بأمر ربه : إني لاَ أَمْلِكُ الضر ولا النفع لنفسي، ولا لكم، فلا تستعجلوني ذلك، فليس بيدي، فقدم الضر هنا، لأجل ما تقدم من طلبهم تعجيل العذاب[21].

---

(21) انظر ملاك التأويل : 577/1

ج ـ التقديم والتأخير في ترتيب الصفات :

1 ـ قال الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنعام : 83).

وقال في سورة يوسف : ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة يوسف : 6).

فقدم «الحكيم» في الآية الأولى وأخر في الثانية. أما الآية الأولى فتقدم فيها «الحكيم» على «العليم»، لأنها وردت في مقام تشريع الأحكام. وأما الآية الثانية فتقدم فيها «العليم» لقوله تعالى قبلها : ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، ولقوله بعدها : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ (سورة يوسف : 100). فكان تقديم صفة العلم أنسب لهذا السياق.

2 ـ وقال تعالى : ﴿ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام : 102).

وقال في سورة غافر : ﴿ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ..﴾ (سورة غافر : 62).

أما الآية الأولى فقدم فيها الوصف بالوحدانية، لما تقدم قبلها في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ، وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام : 100). وقوله : ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ (سورة الأنعام : 101). فلما تقدم هذا في السياق كان نفي ما جعلوه وادعوه من الشركاء والصاحبة والولد أنسب، فقدم قوله تعالى : ﴿لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾، لأن السياق كان في تقرير وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الشركاء والولد.

وأما الآية الثانية، فقد تقدم في سياقها قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة غافر : 57). ثم قوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ (سورة غافر : 61). فلما تقدم ذكر الخلق الأعظم، ولم يتقدم مثل ما تقدم في آية «الأنعام»، أعقب ذلك بالتنبيه على أنه سبحانه خالق كل شيء، فكان تقديم هذا الوصف هنا أنسب للسياق والمقام. فجاء ترتيب الوصفين في كل من الآيتين على ما يقتضيه انتظام الكلام[22].

3 ـ وقال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة : 114).

(22) انظر ملاك التأويل : 468/1، ودرة التنزيل...، ص : 127.

وقال في سورة هود : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (سورة هود : 75). فتقدم في الأولى وصفه بـ «أواه» على حليم، وتأخر في الثانية.

والأواه : الكثير التأوه. والمراد بالآية أن إبراهيم، عليه السلام، مع غلظة أبيه عليه، يتأوه تأسفا وتحسرا على إعراض أبيه عن إجابة دعوته. وكان عليه السلام لفرط رأفته وحلمه يعطف على أبيه ويستغفر له، ولم يزل على ذلك إلى أن تبين له أنه عدو لله، فتبرأ منه، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بما كان من أبيه إبراهيم في ذلك ليقتدي به. فتقدم وصف إبراهيم، عليه السلام، في هذه الآية بأنه أواه مراعاة لما يناسب هذا السياق.

وأما الآية الثانية فقد تقدم فيها وصفه بالحلم مراعاة لما ذكر قبل من مجادلة إبراهيم في قوم لوط، لَمَّا علم بأن الله حكم عليهم بالهلاك، وذلك من فرط حلمه عليه السلام. فكان تقديم وصفه بالحلم في هذا السياق أنسب[23].

كان هذا تحليلا لجملة من أمثلة التقديم والتأخير في النظم القرآني، حاولنا أن نظهر به كيف يحافظ في النظم القرآني على وحدة السياق، وانتظام نسق الكلام، وكيف يراعى ذلك في اختيار التراكيب اللغوية.

وقد اخترنا هذه الأمثلة، أو جلها من الآيات المتشابهة، وهي تلك الآيات التي تتحد في المعنى المراد بها، وتختلف من حيث التركيب، بالتقديم والتأخير، من سياق إلى آخر.

ويستفاد من تلك الأمثلة أن وحدة السياق تؤثر فى اختيار التراكيب، وأن القرآن لا يغير التعبير عن المعنى الواحد لمجرد التصرف في الفصاحة، بل يفعل ذلك حفاظا على تناسب الكلام، وزيادة البيان.

3 ـ الحذف والزيادة والتناسب

من أهم أحوال التركيب اللغوي التي تتصل بالتناسب في النظم القرآني أسلوب الحذف والذكر.

أما الحذف فإنه ظاهرة أسلوبية بارزة في الكلام العربي، تناولها النحاة واللغويون والبيانيون، ونوهوا بقيمتها البيانية.

قال سيبويه : «والحذف في كلامهم كثير، إذا كان في الكلام ما يدل عليه»[24].

(23) انظر ملاك التأويل : 1 ص : 603ـ604.

(24) الكتاب : 153/1.

وجعل ابن جني أسلوب الحذف على رأس المباحث اللغوية التي تناولها تحت عنوان : «شجاعة العربية»، وقال في مستهل حديثه عن هذا الباب : «أعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة، والتقديم والتأخير والحمل على المعنى، والتحريف»(25).

وقال : «وقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة»(26).

وحظي أسلوب الحذف بحظ وافر من عناية البلاغيين وعلماء الدراسات القرآنية.

وجملة ما يستفاد من دراسات هؤلاء أن الحذف شكل من أشكال القدرة البيانية، تسمو به العبارة عن الاسفاف، ويشتد أسرها، ويتسع مجالها الدلالي، وتكثر إيحاءاتها.

ذكر أبو الحسن الرماني ما في حذف جواب الشرط من بلاغة. وأورد قوله تعالى : **﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ..﴾** (سورة الزمر : 73). وأشار إلى العلة في بلاغة حذف جواب «إذا» من هذه الآية، فقال : «وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الذي تضمنه الجواب»(27).

وقال حازم القرطاجني موضحا سر بلاغة الحذف في هذه الآية : «فحذف الجواب إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى، فجعل الحذف دليلا على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه، وتركت النفوس تقدر ما شأنه، ولا يُبلغ مع ذلك كنهُ ما هنالك، لقوله عليه الصلاة والسلام : ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(28).

وقال عبد القاهر الجرجاني منوها بقيمة أسلوب الحذف : «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد في الإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تُبِنْ»(29).

ومجمل أغراض الحذف حسبما ذكره البلاغيون :

1 ـــ التفخيم والتعظيم.
2 ـــ زيادة اللذة باستنباط المعنى المحذوف.
3 ـــ طلب الإيجاز والاختصار.
4 ـــ التسجيع.

---

(25) الخصائص : 360/2.
(26) نفسه.
(27) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 71.
(28) منهاج البلغاء. نقلا عن البرهان في علوم القرآن : 105/3ــ106.
(29) دلائل الإعجاز، ص : 146.

١ ـ الحذف والزيادة والتناسب في النظم القرآني :

يشغل باب الحذف حيزا كبيرا في الدراسات التي تناولت أساليب القرآن. وذكر العلماء أن مما كثر حذفه في القرآن «المضاف»، أوضح ابن جني أنه وقع حذفه في القرآن في ما يقرب من ألف موضع[30]. وذكر الزركشي حذفه في القرآن فقال : «هو كثير»[31]. وتتبع العز بن عبد السلام مواضع حذفه، فعرض الآيات القرآنية التي وقع فيها حذفه حسب ترتيب السور في المصحف[32].

أما علاقة هذا الأسلوب بالتناسب ووحدة السياق، فلا نصادف لها صدى في الدراسات القرآنية إلا ضمن إشارات قليلة، كالإشارة إلى ما حذف من بعض الآيات أو التراكيب القرآنية حفاظا على تناسب الفواصل، أو ضمن توجيه الآيات المتشابهة التي يقع الحذف في تركيبها أحيانا.

وسنحاول أن نبين، من خلال أمثلة من هذه الآيات كيف يختار الحذف مراعاة لما يناسب السياق حينا، وتختار الزيادة مراعاة لذلك حينا آخر.

1 ـ قال الله تعالى في سورة النحل : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (سورة النحل : 70).

وقال في سورة الحج : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ (سورة الحج : 5).

فقيل في الآية الأولى : ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾ بحذف «من». وقيل في الثانية ﴿مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ بزيادته.

ووجه زيادته أن الآية وردت في سياق تكرر فيه هذا الحرف. قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ، وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى..﴾ (سورة الحج : 5). فقد تكررت لفظة «من» في هذه الآية في ستة مواضع : الخمسة منها قبل قوله : ﴿مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ والواحدة بعدها، وكلها أفادت معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله : ﴿مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ إذ النظم مع سقوطها ملتئم، والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاستدعاها سياق الآية للتناسب في النظم[33]. ولم يكن في آية النحل داع يستدعيها من المعنى ولا من التناسب في النظم، فحذفت.

---

(30) الخصائص : 362/2.

(31) البرهان في علوم القرآن : 146/3.

(32) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الطباعة العامرة 1311هـ، ص 115—205.

(33) انظر ملاك التأويل : 748/2—749.

2 ـــ وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (سورة الأنعام : 6). فقيل هنا «من قبلهم» ومثله في سورة الـمٓ[34] السجدة وفي سورة صٓ[35].

وسائر ما ورد في القرآن من مثل ذلك ورد بحذف «من» كقوله تعالى في سورة مريم : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾[36]. ومثله في سورة طه[37]، وفي سورة يسٓ[38].

وتمهيدا لبيان وجه التناسب في زيادة هذا الحرف وحذفه، نشير إلى أنه إنما يزاد حيث يراد تأكيد ما تضمنت الآيات من الوعيد، وهو أبدا في مثل هذه المواضع، يفيد معنى التأكيد، ولا ينفك عن ذلك. ثم إن حذفه أوجز من إثباته. ولكل مقام مقال. فحيثما ورد في سياق تفصيل وعيد وتكرر قبله الترهيب والتخويف، فذلك موضع زيادته، والتأكيد بإثباته، وحيث لا يتقدم تفصيل الوعيد، أو تكون آيات الترهيب لا تبلغ درجة الاستيفاء فهذا موضع حذفه.

وبتطبيق هذه القاعدة على الآيات التي زيد فيها هذا الحرف يتبين وجه التناسب.

فأما آية «الأنعام» فقد تقدمها قوله تعالى : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (سورة الأنعام : 4).

وقوله : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الأنعام : 5).

وهذا تسجيل ببقائهم على الإعراض وإنفاذ الوعيد فيهم. ولا أشد من هذا ونحوه.

ومثل هذا في الشدة والإشارة إلى إنفاذ الوعيد قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ (سورة السجدة : 22). ثم قال في آخر السورة : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ، إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ (سورة السجدة : 30). فناسب الآية الواقعة بين هذين الوعيدين الشديدين زيادة «من» لإفادة التأكيد الذي بني عليه سياق الآيات.

وأما آية سورة صٓ فيكفي من شدة التخويف واستيفاء الوعيد ما تضمنته من أولها إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ (سورة صٓ : 15).

فلعظيم ما ورد في هذه السورة من مرتكبات كفار قريش وغيرهم، وقع التأكيد بـ«مِنْ» في قوله تعالى : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ (سورة صٓ : 3).

---

(34) سورة الـمٓ السجدة : 26.
(35) سورة صٓ : 3.
(36) سورة مريم : 74.
(37) سورة طه : 128.
(38) سورة يسٓ : 31.

أما الآيات التي حذف منها هذا الحرف فلم يرد فيما اتصل بها من الآيات ما ورد في المواضع الأخرى من التغليظ في الوعيد، وتكرار التهديد.

وإذا تأملنا قوله تعالى في سورة مريم : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ (سورة مريم : 74). لم نجد فيها ولا ما انتظم معها في سياقها، متقدما أو متأخرا، ما يوازن في التهديد واحدة من تلك الآيات السابقة.

وأما آية «طه» فأوضح في الإيحاء بالرجاء، هي وما انتظم معها، يوضح ذلك افتتاحها بقوله عز وجل : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، إلى قوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِأُولِي النُّهَى﴾ (سورة طه : 128)، من عظيم الحلم، وجليل الرفق.

وأما آية سورة «يس» فأوضح فيما ذكر .. وإنما حاصلها وحاصل ما انتظم معها تحريك المخاطبين للاعتبار، وتذكيرهم بالآلاء والنعم[39].

3 — قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران : 133).

وقال في سورة الحديد : ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (سورة الحديد : 21).

والمراد في الموضعين الحث على المبادرة إلى أفعال البر وجزيل الثواب. واختلفت العبارة، فحذف المضاف في الأولى، وجيء في الثانية بكاف التشبيه عوضا منه. فقيل في الأولى : ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وقيل في الثانية : ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

أما حذف المضاف فيكون كثيرا عند قصد المبالغة، وكذا جعل الشيء نفس الشيء. وهذا كثير، ومنه قولهم : نهارك صائم، وليلك قائم، وباب ذلك مما يقصد به المبالغة فيجعل نفس الشيء.

وقوله تعالى : ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يمكن إلحاقه بهذا الأسلوب. وقد اتصل بها ما يدل على القصد إلى المبالغة، ومن ذلك جملة «عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ» : فـ«عرضها» : مبتدأ، والسموات : خبر عنه. وكون الخبر جمعا أفاد ما ذكر من قصد المبالغة هنا. ثم ورد بعد ذلك ما يؤكد إرادة المبالغة، وهو قوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فوصف من أعدت لهم الجنة ووسمهم بالمتقين، وهم الذين وفوا بالإيمان وتوابعه التي يكمل بها.

فلما تضمنت آية آل عمران من قصد المبالغة ما دلت عليه القرائن المذكورة، ناسب ذلك حذف المضاف وجعل العرض نفس السموات والأرض.

---

(39) انظر ملاك التأويل : 1/415—420.

ولما لم يقصد في آية سورة الحديد ما ذكر من المبالغة، أفصح بما يفيد معنى «مثل»، وهو كاف التشبيه. وأفرد لفظ السماء واقتصر في صفة من أعدت لهم الجنة على صفة الإيمان، فتناسب كل ذلك في سياقه.

4 ــ وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ﴾ (سورة المائدة : 1).

وفي سورة الحج : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ﴾ (سورة الحج : 30).

فخصت الآية الأولى بزيادة لفظ «بهيمة»، وخصت الآية الثانية بحذفه.

والأنعام هي الأصناف التي ذكرت في سورة الأنعام : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ، مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، و﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ (سورة الأنعام : 143).

وإذا عرف أن الأنعام هي الأزواج الثمانية، فمن المعلوم أن غيرها من الوحشي الذي لا يدرك إلا بالصيد محرم على الحاج مادام في عمله. قال تعالى : ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ (سورة المائدة : 96).

ولما كانت آية سورة الحج متعلقة بما أمر به الحاج، وصل بها ذكر ما يحل أكل لحمه للمحرِم حال إحرامه، فقال تعالى : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ﴾.

أما قوله : ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ﴾، في سورةِ المائدة، فالمراد به الوحشي. وقال القرطبي : «بهيمة الأنعام» «وحشيها»[40].

ووجه زيادة هذا اللفظ في هذه السورة أنها من آخر ما نزل من القرآن، وقد تضمنت مُتَمِّمَاتٍ من الأحكام، كآية الوضوء والتيمم وتفاصيل الصيد، واستيفاء المُحَرَّمات من المأكولات والمشروبات، وفيها ورد : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (سورة المائدة : 3)، فناسب هذا ذكر حِلِّيَّةِ بهيمة الأنعام، إلحاقا لها بالأنعام، إذ لم يذكره الله في غيرها. وبهذا يتضح وجه التناسب ما وقع من الزيادة والحذف في كل من الآيتين.

5 ــ وقال تعالى : ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِٱللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ. رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ (سورة التوبة : 86ـ87).

وقال بعده : ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة : 93).

(40) أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق محمد علي البجاوي، ط. 2، 1967ـ68 : 34/6.

فجاء في الآية الأولى قوله : ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ببناء الفعل للمفعول، مكتفى به عن الفاعل، وفي الآية الثانية : ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾ ببناء الفعل للفاعل على الأصل.

أما الآية الأولى فقد بني الفعل فيها للمفعول، لأن مطلع الآية قبلها، وهو قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، على بناء الفعل للمفعول، فجاء قوله : ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ على ذلك أيضاً، ليناسب ختام هذه الآية ما بدئت به الآية قبلها.

وأما الآية الثانية فلم يقع في سياقها ما يستدعي بناء الفعل للمفعول، فذكر الفاعل فيها جريا على الأصل.

6 ـــ وقال تعالى في سورة النحل : ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (سورة النحل : 29).

وفي غيرها «فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ»(41) بإسقاط اللام.

أما آية النحل فقد زيد فيها اللام رعاية لما يناسب السياق. وبيان ذلك أن الآية جاءت بعد ثمان آيات في ذكر هؤلاء المقول لهم : ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، وتلك إطالة في ذكرهم، والإطالة يناسبها التأكيد باللام المشيرة إلى معنى القسم، والإيجاز يناسبه سقوطها.

ب ـ الحذف لدلالة التناسب

هناك نوع بليغ من الحذف يعتمد على دليل التناسب، يسميه بعض العلماء بـ«الاحتباك»، ويسميه بعضهم بالحذف المقابلي، أو بالاكتفاء بالمقابل.

وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كل واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه(42).

وبتعبير آخر «هو قول مركب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأول منهما إلى الثالث، كنسبة الثاني إلى الرابع، أو ما كانت النسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزىء من كل متناسبين بأحدهما لقطع الدلالة مما ذكر على ما ترك»(43).

وهذا يعني أن يكتفى في الأشياء المتناسبة بذكر الطرفين، ويحذف الوسطان، فيكتفي بالمقدم من إحدى النسبتين، وبالثاني من الأخرى، لأن الطرفين حاصران للوسطين، ويدلان عليهما، لأجل ارتباط التناسب(44).

(41) سورة الزمر : 72، وسورة غافر : 76.
(42) البرهان في علوم القرآن : 129/3.
(43) المنزع البديع، ص : 195.
(44) الروض المريع في صناعة البديع.

وصور هذا النوع في النظم القرآني كثيرة، وهي من ألطف أنواع الحذف وأبدعها. وقد قدمنا أمثلة منه عند دراسة أساليب التقابل في القرآن، وهناك أمثلة أخرى لا تدخل في باب التقابل، ولكنها من أنواع الحذف التي تتصل بالتناسب. ومن هذه الأمثلة :

1 ـ قوله تعالى : ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأنبياء : 5).

وتقدير محذوفاته : إنْ أُرسل فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون فأتوا بآية. فنسبة قوله : ﴿إِنْ أُرْسِلَ﴾ وهو المحذوف الأول، إلى قوله : ﴿كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾، وهو الثالث المثبت، كنسبة قوله : ﴿فلياتنابآية﴾، وهو الثاني المثبت إلى قوله : ﴿فَأْتُوا بِآيَة﴾، وهو الرابع المحذوف، فاجتزىء من كل متناسبين بأحدهما، لقطع الدلالة عليه، وذلك أنه آجتزىء من الأول المحذوف وهو قوله تعالى : ﴿إِنْ أُرْسِلَ﴾، بالثالث المثبت، وهو قوله : ﴿كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، كما آجْتُزِىءَ من الرابع المحذوف وهو قوله : ﴿فَأْتُوا بِآيَة﴾ بالثاني المثبت، وهو قوله : ﴿فليأتنا بآية﴾، فحذف من الأول ما أثبت في الثاني، ومن الثاني ما أثبت في الأول(45).

2 ـ ومنها قوله تعالى : ﴿فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيضِ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ (سورة البقرة : 222).

فهو قول مركب من أجزاء أربعة، نسبة الأول منها إلى الثالث كنسبة الثاني إلى الرابع، وذلك أن قوله : ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾، وهو الأول، مناسب للثالث، وهو قوله : ﴿فَإِذَا طَهُرْنَ﴾، وقوله : ﴿وَيَتَطَهَّرْنَ﴾، وهو الثاني مناسب لقوله : ﴿وَتَطَهَّرْنَ﴾، وهو الرابع. وتقدير محذوفاته : «حَتَّى يَطْهُرْنَ وَيَتَطَهَّرْنَ، فَإِذَا طَهُرْنَ وَتَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ..» فحذف الثالث لدلالة الأول عليه، وحذف الثاني لدلالة الرابع عليه، ودلالة السياق قاطعة بهذه المحذوفات. وبهذا يعتضد القول بالمنع من وطء الحائض إلا بعد الطهر والتطهر معا، وهو مذهب الإمام الشافعي(46).

3 ـ ومنها قوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (سورة النمل : 12).

تقدير محذوفاته : أَدْخِلْ يَدَكَ تَدْخُلْ، وأخرجها تخرج بيضاء من غير سوء.

إلا أنه قد عرض في هذه المادة تناسب بالطباق (يعني أدخل يدك تخرج)، فلذلك بقي القانون فيه الذي هو نسبة الأول إلى الثالث، ونسبة الثاني إلى الرابع على حال الأكثرية، فلم يتغير عن موضعه(47).

---

(45) المنزع البديع، ص : 196.

(46) نفسه، ص : 197.

(47) نفسه، ص : 198.

4 — ومنها قوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأحزاب : 24).

تقديره — كما قال المفسرون — : ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم، أو يتوب عليهم فلا يعذبهم.

فحذف الطرفان الثاني والثالث لدليل التناسب.

ولهذا النوع من الحذف قيمة بيانية وبلاغية خاصة. وقد نوه به السجلماسي فقال : «إنه من القول الجميل ذي الطلاوة والبهجة والماء والعذوبة، الجزل المقطع، الغريب المنزع، اللذيذ المسموع، لما بين أجزائه من الارتباط ولما للنفس الناطقة من الالتذاذ بإدراك النسب والوصل بين الأشياء.. فلذلك توفر له من المزية ما يباين به سائر النظوم.»(48).

مما تقدم في هذا الفصل يتضح أن نظام تركيب الجملة القرآنية نظام محكم، يراعى فيه أن يكون صالحا، لتأدية المعنى على أكمل الوجوه، وأن يكون متآلفا متناسبا مع النظم القرآني في السياق المعنوي في كل مقام.

والوفاء بهذين الغرضين في النظم، هو أعلى مراتب البلاغة التي تنقطع دونها أعناق البلغاء.

ولهذا الغرض المزدوج تُقدمُ بعض عناصر الجملة القرآنية، وتؤخر أُخرى، وتحذف عناصر أو تذكر.

وقد حاولنا من خلال الأمثلة التي عرضناها أن نبين بعض أوجه التناسب المعنوي اللطيف في آختيار تركيب الجملة القرآنية، لكن يجب أن نعترف بأن الإحاطة بأسرار القرآن من هذا الوجه غاية بعيدة المنال. لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

---

(48) المنزع البديع، ص : 195.

القسم الثاني

التناسب اللفظي والإيقاعي

الباب الرابع

قيمة التناسب الصوتي والإيقاعي في العربية والقرآن

الفصـــل الأول

حظ اللغة العربية من الخصائص الصوتية والإيقاعية

اللغة نوع من الموسيقى، وجهازنا الصوتي أشبه بمجموعة من الآلات الموسيقية، تخرج منها الألفاظ بنغمات مختلفة ودرجات متباينة من الشدة والضعف والسرعة والبطء وغير ذلك من الصفات، التي شرحها علماء القراءات والأصوات.

وللحروف مخارج مختلفة من الحلق والفم واللسان والثنايا والشفتين والخيشوم، ولها كذلك صفات كالجهر والهمس والشدة والرخاوة والصفير والأطباق... والحروف أو الأصوات التي تتكون منها الكلمة هي التي تحدد جرسها ونغماتها وأثرها الموسيقي.

وتبعا لاختلاف مخارج الحروف وصفاتها، يكون اختلاف الكلمات صوتيا، في الوضوح والشدة والسرعة وفي الرنين والإيقاع. فبعض الكلمات يبدو خافتا، وبعضها يظهر مجلجلا، وبعضها خفيف التموجات يجري كالماء، وبعضها تسمع له ما يشبه الحفيف أو الخرير وبعضها له نقرات كالدفوف أو طرقات كمطرقة الحداد، وبعضها تحس فيه صلابة، وبعضها تلمس فيه الرخاوة واللين، وبعضها هواء يسمح بالتموج الصوتي والطواعية الموسيقية كحروف المد، وبعضها له غير ذلك من الصفات التي تجعل للكلمة في النفس أثرا موسيقيا خاصا.

وتختلف الأصوات من ثلاث جهات : الشدة، والدرجة، والنوع؛ فالشدة تكون حسب السعة أي البعد ما بين قمة الموجة وقرارها، ويتبع ذلك استمرار الصوت مدة أطول إن لم يعقه عائق.

والدرجة تكون بقصر مدة دور الموجة أو تقارب بعضها من بعض، ويتبع ذلك عددها في الثانية، وبحسب العدد تكون حدة الصوت أو غلظه. أما القوة والضعف والارتفاع والانخفاض، والسرعة والبطء فهي تابعة للدرجة والشدة معا. وبطريقة التنغيم يستطيع الإنسان أن ينتقل بين عدد من الدرجات للتعبير عن حالات أو كيفيات متباينة. أما نوع الصوت أو طابعه فيأتي في

شكل الموجة أي من استواء خطوطها أو انطوائها على موجات أخرى ثانوية في داخلها، وكلما زاد عدد هذه الموجات الصغيرة في رحم الموجة الأم كان الصوت غنيا، وكانت له صفته المميزة في الثراء.

وحين تجتمع الكلمات في الجمل والعبارات، تكتسب جرسا موسيقيا آخر زيادة على ما كان لها من موسيقى فردية، وذلك مثل تشابه بعض الكلمات في الوزن، أو في الموقع أو تعاقب كلمتين متشابهتين في الوزن والرنين، أو في التساوي بين فقرتين أو جملتين في عدد الكلمات أو في وزن كل منها. أو في تماثل الكلمتين الأخيرتين، أو في التشابه الذي يبرز في فترات متكافئة.

إن الموسيقى صفة أصيلة في اللغة المنطوقة قبل أن تكون خاصة من خصائص الفن الأدبي. ولا تقتصر الموسيقى على الشعر وحده. ولكل لغة من اللغات موسيقاها الخاصة، تستمدها من خصائصها الصوتية، وأنظمتها الخاصة في تركيب الجمل والعبارات. وتتفاوت اللغات في حظوظها من الموسيقية، ومن القدرة على تسخير الإيقاع لدعم طاقاتها التعبيرية، أو لتوفير حظها من جمال التعبير.

ويرجع السبب في هذا التفاوت إلى اختلاف طبائع الناطقين وأذواقهم وأساليب عيشهم وثقافاتهم، وإلى اختلاف الأوضاع الاجتماعية والحضارية التي أحاطت بكل لغة، وأثرت في حياتها وتطورها، كما يرجع إلى اختلاف اللغات نفسها في خصائصها الصوتية والمعجمية والتركيبية.

وقد تواترت الشهادات التي تؤكد أن العربية من أوفر اللغات حظا من الموسيقية. وأن «العرب كانوا في أول أمرهم قوما بدوا لا يحسنون من الصناعات كبير شيء. وكانت لغتهم هي صناعتهم، فأقبلوا عليها كل الإقبال، وأفتنوا في صوغها أشد افتنان، وجعلوا شعرها ذروة تجتمع عندها غايات ما يستطيعون من الملكة والإتقان والإبداع»(1).

وجد العرب في لغتهم مرونة واسعة وطواعية كبيرة، فسخروها لارضاء ميلهم وولعهم بالإيقاع والنغم الصوتي اللذيذ.

ولشدة ولعهم بالإيقاع، وإدراكهم لقيمته الجمالية والتعبيرية لم يكتفوا باستعماله في صياغة الشعر، بل زينوا به كثيرا من أصناف كلامهم المنثور، فأكثروا فيه من التوازن والتناسب، والازدواج، والسجع وغير ذلك من المحسنات التي يمكن اعتبارها من عناصر الإيقاع.

ويشهد لما ذكرناه من حرص العرب على الإيقاع وتزيين كلامهم به أن الطرق التي يتقيدون بها في النظم لا تكاد تخرج عن أصناف يتبوأ فيها الإيقاع القائم على التوازن والتساوي والتقفية مكانا محمودا.

---

(1) المرشد إلى فهم أشعار العرب، عبد الله الطيب المجذوب، دار الفكر، 1969 : 809/3.

وصف الجاحظ أصناف النظم عند العرب فقال : «ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والمزدوج والمجانس[2]».

ووصف الباقلاني الطرق التي يتقيدون بها في نظم الكلام البديع فقال : «إن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا»[3].

يستفاد من هذين الوصفين أن معظم الطرق التي كان العرب يصوغون بها كلامهم كانت تعتمد على الإيقاع، ولا يستثني من ذلك إلا طريقة واحدة، وهي التي يرسل فيها الكلام إرسالا، وحتى الكلام المرسل له إيقاعه الداخلي.

وتقيد العرب في كلامهم بهذه الطرق دليل على أن الفن القولي عندهم لا يكاد يستقل عن الإيقاع. ودليل على أنهم كانوا يدركون ما للإيقاع من تأثير على النفوس. وقد عرف البلاغيون هذه الحقيقة، فقال أحدهم : «وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان، وهذا أمر لا مراء فيه لوضوحه، وذلك لأن الاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع»[4].

ويرى بعض المحدثين أن المنشأ النفسي لميل العرب إلى الإيقاع وشيوعه في القول العربي بشكل لافت للنظر إنما هو التركيب النفسي للشخصية العربية القديمة التي طبعتها الصحراء الرتيبة بإيقاعها الرتيب ذي النغمة الواحدة المتكررة»[5].

ويظهر ولع العرب بجمال الإيقاع في كثرة السجع والازدواج والتوازن والترصيع في منثور كلامهم. وقد أشار بعض الباحثين إلى هذه الحقيقة فقال : «ولقد ازدانت العربية بزينة الإيقاع منذ نشأتها نظما ونثرا. وما التنوين والإعراب سوى بعض آلات الموسيقى اللفظية وما التسجيع والتوازن والازدواج والاتباع وأنواع البديع اللفظي وقوانين الإعلال والإدغام سوى مظاهر أخرى لاهتمام العرب المفرط بجمال الرنة، وحسن الإيقاع»[6].

ويمكن إجمال أسباب هذا الميل الفطري الذي حبب الإيقاع إلى النفس العربية في ثلاثة :

---

(2) رسالة حجج النبوة، عن رسائل الجاحظ، ص : 143 (جمع السندوبي).

(3) إعجاز القرآن، ص : 35.

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط. 1، 1962 : 147/1.

(5) فجر الإسلام، أحمد أمين، ط. 10، مكتبة النهضة المصرية 1965، ص : 45.

(6) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، روز غريب، ط. 1، دار العلم للملايين، بيروت 1952، ص : 132.

1 ــ أن النفس البدوية طروب بطبيعتها، وأن جميع انفعالاتها ومطامحها واندفاعاتها إنما تنجلي في تعبير موقع موزون، هو بيت شعر موزون، أو فقرة مسجوعة متوازنة.

2 ــ أن العرب كانوا أمة أمية تعتمد على السماع في مختلف أغراضها. أكثر من اعتمادها على القراءة والكتابة. وكان من آثار ذلك أن أصبحت الأذن العربية دقيقة التمييز بين الأصوات المختلفة، شديدة الإحساس برنينها وإيقاعها. فلم يكن غريبا أن يهتم الفصحاء حينئذ بالصورة الصوتية المسموعة، وأن يأتي كلامهم وفيه من السجع والتقفية ما يزيد من حلاوة موسيقاه في آذان السامعين.

3 ــ أن الكلام الموزون والمعدل المسجوع أطول بقاء من الكلام المرسل. قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقيد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره[7].

1 ـ التوازن والسجع في النثر الجاهلي والإسلامي

لهذه الأسباب شاع التوازن والسجع فيما روي من نثر الجاهلية وصدر الإسلام، كالخطب والحكم والأمثال، إضافة إلى شاهد الجاهلية الذي عرف بسجع الكهان: «وليست هذه الخاصة إلا لأن العربي كان مفتونا بالوزن والإيقاع، شديد العناية بالتنغيم في كلامه»[8].

وللمزيد من التوضيح، نورد أمثلة من خطبهم وأمثالهم، لنقف على ما قررناه من شيوع السجع والتوازن فيما روي من النثر العربي القديم.

يعترف مؤرخو الأدب أن الخطابة كانت مزدهرة في العصر الجاهلي، ولكنهم لا يثقون بصحة كل ما يروى منها. ومع ذلك فإنهم لا ينفون أنها كانت تعتمد السجع. يقول شوقي ضيف : «ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة، نلاحظ أن من نحلوها إنما قاسوها على أمثلة رويت لهم. فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم روي مسجوعا كان معنى ذلك أنه ثبت عند الرواة أنهم كانوا يسجعون فيها»[9].

وقال زكي مبارك : «وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع كخطبة قس بن ساعدة، وخطبة النابغة الذبياني. ومع أننا نرتاب في صحة تلك الخطب، فإننا نرى في وضعها

---

(7) البيان والتبيين : 287/1.

(8) فن الأسجاع : 12/1.

(9) العصر الجاهلي، ص : 417.

مسجوعة، على فرض صحة الوضع، دليلا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية لأنهم أقرب إلى ذلك العهد»(10).

أما خطبة قس بن ساعدة فقد أكد الجاحظ صحتها اعتمادا على أن النبي ﷺ هو الذي رواها سماعا، سمعها من صاحبها وهو يخطب بها في سوق عكاظ. قال الجاحظ : «وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال». غير أنه لم يورد من هذه الخطبة إلا الفقرات الآتية : «أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت. ضوء وظلام، وبر وآثام، لباس ومركب، ومطعم ومشروب. ونجوم تمور، وبحور لا تغور. وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات أبراج. مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون. أرضوا فأقاموا، أم حبسوا فناموا ؟»(11).

ومن الواضح أن هذه الخطبة حافلة بعناصر الإيقاع، كالازدواج والتوازن، والسجع حتى كادت بعض فقراتها أن تكون موزونة.

وكانت منافراتهم ومفاخراتهم تجري على هذا المنوال. قال الجاحظ : «كان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس، ونفيل ابن عبد العزى يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار»(12).

وبالرجوع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية في تاريخ الطبري نجد أنها مسجوعة. ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطأة الكلبي، فقد رويت في شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى، فهي مسجوعة، ومثلها منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل المروية في كتاب «الأغاني»، فهي الأخرى مبنية على السجع(13).

أما كهان العصر الجاهلي، فقد ثبت عند من تحدثوا عنهم أنهم كانوا يعتمدون على السجع.

ومما يدل على أنهم كانوا يسجعون، بل على أنهم كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديث الذي رواه أبو هريرة، فقد حدث أنه اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو وليدة. وقضى بدية المرأة على عاقلتها(14). فقال رجل من الهذليين : يا رسول الله : كيف

---

(10) النثر الفني في القرن الرابع الهجري : 1/76—78.

(11) البيان والتبيين : 1/308—309.

(12) نفسه : 1/290.

(13) النقائض : 1/141.

(14) العقل في كلام العرب : الدية. وعقل القتيل : وداه. والعاقلة : هم العصبة، وهم القرابة من قبل الأب الذي يعطون الدية. والعاقلة : اسم فاعلة من العقل، وهي من الصفات الغالبة (اللسان : مادة عقل).

أدي من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل ؟ فمثل ذلك يطل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اسجع كسجع الكهان»[15].

إن كلمة «السجع» التي اختارها العرب وجعلوها مصطلحا فنيا لهذا الأسلوب لتحمل في طياتها معنى الإيقاع. فهي مأخوذة من سجع الحمام. وسجع الحمام يمتاز عن أصوات الطيور الأخرى بجمال إيقاعه، وكان العرب يطربون لسجع الحمام ويتغنون به في شعرهم، ويعجبون به على رداءة صوته، ولم يتغنوا قط بأصوات البلابل والشحارير مع أنها تفوق الحمام حسن صوت وعذوبة لحن، وحلاوة تغريد، والسر في ذلك أن سجع الحمام يمتاز بطابعه الإيقاعي والتوازني، بينما أصوات البلابل والشحارير لا أثر فيها للإيقاع المتوازن، وتمتاز بالطابع النغمي. وإذن فاختيار كلمة «السجع» دليل على الإدراك التام لما في هذا النمط التعبيري من جمال إيقاعي.

ـ التوازن في الأمثال

ولا يقتصر العرب في تحسين كلامهم المنثور بالإيقاع على فن السجع بل إنهم، وإن تحرروا من الالتزام بالسجع في بعض الحالات، لا يكادون يخلون بجمال الإيقاع، وذلك كما نرى في بعض الأمثال. إن من ينظر في الأمثال العربية قبل الإسلام ليلاحظ في طائفة منها ضروبا من القيم الإيقاعية كالتوازن وتشابه القوالب اللفظية.

ومن أمثالهم التي تظهر فيها هذه الخاصة :

قولهم : «إنما هو كبارح الأروى قليلا ما يرى[16]».

وقولهم : «إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»[17].

وقولهم : «إنك لتكثر الحز وتخطىء المفصل»[18].

وقولهم : «إذ قرح الجنان، بكت العينان، وإذا تلاحت الخصوم، تسافهت الحلوم»[19].

وقد يزيدون في مبنى اللفظ ما ليس فيه أصلا إيثارا للتوازن والسجع. كما قالوا في الدعاء على الإنسان : «بِفِيهِ الْبَرَى، وحُمَّى خَيْبَرَى، وَشَرُّ مَا يُرَى، فَإِنَّهُ خَيْسَرَى».

في لسان العرب أنهم زادوا الألف في خيبر لما يؤثرونه من السجع. وفيه أنه لا يقال خيسرى إلا في هذا السجع[20].

(15) صحيح مسلم : 110/5، موطأ مالك : 192/2.

(16) مجمع الميداني، ص : 27.

(17) نفسه، ص : 10.

(18) نفسه، ص . 59.

(19) نفسه، ص : 80. وانظر المرشد إلى فهم أشعار العرب : 733/2ـ734.

(20) اللسان (مادة : خسر).

وكثيرا ما نلاحظ في بعض الأمثال احتفالا بتوازن الكلمات، وقد ينتهي التوازن ببعضها إلى أن يتم لها وزنها، فإذا هي بيت أو شطر بيت. ومن هذا الضرب قولهم :

«تَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبَنُ الصَّرِيحُ»[21].

وقولهم : «كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ»[22].

وقولهم : «كَذِي الْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعٌ»[23].

وقولهم : «وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ»[24].

ومن هنا نرى الشعراء لا يجدون صعوبة في نظم هذه الأمثال مع أشعارهم التي تلتقي معها في الوزن والإيقاع.

نخلص من هذا إلى أن كل شيء يؤكد أن العرب كانوا في الجاهلية يحرصون على توفير حظ منطقهم من جمال الإيقاع سواء ضربوا الأمثال أو أرسلوا الحكم، أو نظموا الشعر، أو خطبوا.

قال مصطفى صادق الرافعي : «ولقد كانت الأوزان فطرية في العرب، فهي في الرجز، وهي في السجع، وهي في الشعر جميعا»[25].

وأجمل بعض المحدثين خصائص النثر في الأمثال الجاهلية فذكر أنها تمتاز بما يلي :

1 ــ الميل إلى الجمل القصيرة المتلاحقة.

2 ــ الميل إلى التسوية بين العبارات، وكثرة الفواصل والفقرات السريعة.

3 ــ الميل إلى التسجيع المقترن بالتوازن العددي للعبارات، لأن الحفظ إليه أسرع[26].

وعرض عبد الله الطيب نماذج من النثر في الجاهلية وصدر الإسلام، ثم استنتج أن ذلك النثر يتسم بسمة الشاعرية، فقال : «ولعلك إذا تبينت هذا تبين لك أنه لم يكن في العربية نثر خالص النثرية حقا... وإنما دخل النثر البحت الأجرد في العربية مع دخول التأليف المستفيض، كالذي كان من كتب النحو واللغة والفقه.

ومما يؤكد قوة التقارب بين النثر والشعر في الجاهلية أن ابن رشيق لما تحدث عن بعض

(21) الشطر الأول : المستجير بعمرو عند كربته.

(22) شطر بيت للنابغة الذبياني.

(23) شطرين للنابغة الذبياني وأوله : فحملتني ذنب امرىء وتركته.

(24) شطر بيت لطرفة بن العبد (المعلقة).

(25) تاريخ آداب العرب : 309/2.

(26) الأمثال : عبد المجيد عابدين، ص : 98.

العلل التي تدخل في أوزان الشعر، كالخرم (وهو ذهاب أول حركة من وتد الجزء الأول من البيت) قال :

«فإذا اجتمع الخرم والقبض على الجزء فذلك هو الثرم، وهو قبيح... وإنما كانت العرب تأتي به، لأن أحدهم يتكلم بالكلام على أنه غير الشعر، ثم يرى فيه رأيا فيصرفه إلى جهة الشعر...»(27).

وأشار إلى قصيدة عبيد بن الأبرص المشهورة : «أقفر من أهله ملحوب...».

فقال : «إنها كادت تكون كلاما غير موزون بعلة ولا غيرها. حتى قال بعض الناس إنها خطبة ارتجلها، فاتزن له أكثرها»(28).

والحق أن العربي كان مفتونا بالإيقاع، ميالا إلى حب التوازن، شديد العناية بالتنغيم. يتضح ذلك، إضافة إلى ما قدمناه، في بعض الظواهر الأسلوبية التي شاعت في كلام العرب كالاتباع والمزاوجة. فمن صور الاتباع قولهم : «غني ملي» و«قسيم وسيم»، و«حسن بسن»، و«كثير بثير»، و«عطشان نطشان». ويروى أن بعضهم سئل عن هذا الاتباع والغاية من استعماله فأجاب : هو شيء نتد به كلامنا(29).

وهذا الجواب يفيد أن الغاية من استعماله هي تقوية عنصر الإيقاع. ويؤيد ذلك أن اللفظ التابع في مثل هذه العبارات لا يعرف له معنى، في غالب الأحيان. وإنما هو صلة صوتية يؤتى بها لتركيز الإيقاع الصوتي للعبارة.

تلك بعض الإشارات التي تظهر شيئا من قيمة الإيقاع في أصناف النظم المعروفة عند العرب في الجاهلية.

2 ـ النثر في عصر نزول القرآن.

اللغة الأدبية وأساليب النثر في عصر نزول القرآن لم تكن تخالف كثيرا الأساليب التي جرى عليها النثر الجاهلي. ومما يسوغ هذا الحكم أن التطور الذي ينقل التعبير من أسلوب إلى أسلوب لا يتم في وقت قصير، وخصوصا في أمة أمية محافظة.

ولا نتردد في الحكم بأن خطباء هذا العصر وقصاصه وحكماءه أخذوا من بلاغة القرآن ما قدروا عليه، وأضافوه إلى ما آل إليهم من تراث السجع والموازنات والأمثال والمنافرات، وغير ذلك من ضروب القول المأثور، فأبدعوا نثرا يتسم بضروب من الإيقاع والرنين.

(27) العمدة في محاسن الشعر... 140/1.

(28) نفسه : 140/1.

(29) انظر المزهر في علوم اللغة، للسيوطي، دار إحياء الكتب العربية، (د. ت) : 416/1.

ولعل الحديث النبوي الشريف من أحسن ما يستشهد به في هذا الباب. لأنه أفصح من كلام سائر الفصحاء. وقد شهد صلى الله عليه وسلم لنفسه بهذه الفضيلة إذ قال : «أنا أفصح العرب، غير أني من قريش، ورببت في بني سعيد» الحديث.

وشهد له بذلك أيضا كبار علماء البيان. قال الجاحظ : «ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ»[30].

ولبيان صلة هذا الوصف الكريم الذي وصف به الجاحظ كلام رسول الله ﷺ بما نحن بصدده من حديث الإيقاع نوجه الانتباه إلى قوله : «ولا أعدل وزنا»، ففيه إشارة إلى ما كان عليه الصلاة والسلام يتحراه في كلامه من التوازن والتعادل وحسن النظم.

ويؤكد ذلك أيضا أن قدامة بن جعفر تحدث في باب نعوت الوزن من كتاب «نقد الشعر» عن التصريع، وساق أمثلة من الشعر القديم ثم قال : «وإنما يذهبون في هذا الباب إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضا، فإنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله ﷺ، وقد كان يتوخى فيه مثل ذلك، فمنه ما روي عنه عليه السلام من أنه عوذ الحسن والحسين فقال : «أعيذهما من السامة والهامة وكل عين لامّة»[31]. وإنما أراد مُلِمَّةٍ، فلاتباع الكلمة أخواتها في الوزن قال : «لَامّة». وكذلك ما جاء عنه ﷺ، أنه قال : «خير المال سكة مأبورة، ومهرة مأمورة»[32]. فقال مأمورة من أجل مأبورة. والقياس «مُؤْمَّرَة»[33].

وقال قدامة : «وإذا كان هذا مقصودا في الكلام المنثور فاستعماله في الشعر الموزون أقمن وأحسن»[34].

وقال ابن الأثير : «والنبي ﷺ قد نطق بالسجع كثير، حتى إنه غير الكلمة عن وجهها اتباعا لها، بأخواتها من أجل السجع»[35].

ومن أدعيته ﷺ : «اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، والحور بعد الكور، وسوء المنقلب في الأهل والمال».

والحور بعد الكور، معناه : انتشار الأمر بعد انضمامه. وذلك مأخوذ من حور العمامة بعد كورها. وهو نقضها بعد ليِّها، ونشرها بعد طيها. قال الشريف الرضي : وقد روى هذا الكلام

(30) البيان والتبيين : 2/17—18.
(31) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، ومسلم في كتاب الذكر.
(32) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.
(33) من قولهم : أمّره الله، أي كثر نسله.
(34) نقد الشعر، ص : 50—51.
(35) المثل السائر : 1/272—273.

على وجه آخر، فقيل : من الحور بعد الكون بالنون. من قولهم حار إذا رجع. والرواية الأولى أعرف عند أهل اللسان، وأشبه بمزاوجة الكلام[36].

ويستفاد من كلام الشريف الرضي أن الأسلوب الأعرف عند أهل اللسان، وما يراعى فيه من مزاوجة الكلام أساس صالح لترجيح رواية من روايات الحديث على غيرها.

ولما تعرض النبي ﷺ للأذى والضرب بالحجارة على يد سفهاء ثقيف، التجأ إلى بستان، واستظل بظل شجرة، ثم توجه إلى ربه بدعاء مؤثر غني بالخصائص الإيقاعية التي تعبر عن ذات نفسه ﷺ. فقال : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[37].

وما من شك في أن كل من ينصت إلى هذا الدعاء يحس بما في عباراته من شاعرية وإيقاع مؤثر، ينبع من توازن قرائنه وانسجام مقاطعه وحركاته.

وتحدث عبد الله الطيب عن شاعرية النثر العربي، فأورد مقاطع من حديث أم زرع المشهور، ودعا إلى تأمل ما فيه من جودة الإيقاع والرنين. ونورد بدورنا مقاطع من هذا الحديث لنتبين ما فيها من حلاوة الإيقاع.

قالت السادسة : «زوجي إن أَكَلَ لَفَّ، وإنْ شَرِبَ ٱشْتَفَّ، وإذَا ٱضْطَجَعَ ٱلْتَفَّ، وَلَا يُولِجُ ٱلْكَفَّ، لِيَعْلَمَ ٱلْبَثَّ».

قالت الثامنة : «زوجي ٱلْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَٱلرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ».

قالت التاسعة : «زوجي رَفِيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ، قريبُ البيتِ من النَّادِ».

قالت العاشرة : «زوجي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ ؟! مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ. له إبلٌ قليلاتُ المسارحِ كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ، وإذا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ».

قالت الحادية عشرة : «زوجي أبو زرع، فَمَا أَبُو زرع، أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي. وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وأَطِيطٍ... وعِندَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ، وأَرْقُدُ فأَتَصَبَّحُ، وأَشْرَبُ فأَتَقَنَّحُ.

(36) المجازات النبوية، للشريف الرضي، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي 1967، ص : 141—142.
(37) السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط. 2، 1955، 420/1.

أمُّ أبي زرع فما أمُّ أبي زرع ؟! عَكُومُها رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فِساح...»[38].

قال عبد الله الطيب : «وجلي واضح أيها القارىء الكريم ما في هذا الحديث من جودة الإيقاع، وتلاحق الرنين، وتأمل بعده كثيرا من الأحاديث فإنك واجد فيها ألوانا من طريقة ما فيه»[39].

ومن حديثه ﷺ الذي جرى عن طريقة السجع والازدواج قوله : «يقول العبد : مَالِي، مالي. وإنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ أَعْطَيْتَ فَأَمْضَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ»[40].

وقال، فيما رواه عبد الله بن مسعود : «استحيوا من الله حق الحياء، فقالوا : إنا لنستحيي من الله، فقال : وَلَكِنِ ٱلْحَيَاءُ مِنَ ٱللَّهِ أَنْ تَحْفَظَ ٱلرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَٱلْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَذْكُرَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْبِلَى، وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ تَرَكَ لَها زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيا».

وقال، فيما رواه عبد الله بن سلام : «أيها الناس أَفْشُوا السَّلام، وأَطْعِموا الطَّعَام، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وصَلُّوا باللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَام، تدخلوا الجنة بسلام»[41].

ومن أدعيته ﷺ التي بنيت على الازدواج وتشابه المقاطع : «اللهم إني أسألك رَحْمَةً تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا ٱلْفِتَنِ، وَتَعْصِمُنِي بها مِنْ كُلِّ سُوءٍ».

«اللهم إني أسألك الفَوْزَ فِي القَضَاء، وَنُزُلَ الشُّهَدَاء، وَعَيْشَ السُّعَدَاء، والنَّصْرَ عَلى الأَعْدَاء»[42].

ومن استعاذاته ﷺ التي بنيت على تعادل الفقرات وتماثل القرائن، قوله : «اللهم إني أعوذ بك مِنْ طَبْعٍ يَهْدِي إلى طَمَعٍ، ومن طَمَعٍ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ، ومن طَمَعٍ حَيْثُ لَا مَطْمَعَ. اللهم إني أعوذ بك من عِلْمٍ لَا ينفع، وقلبٍ لَا يَخْشَع، وَدُعَاء لَا يُسْمَع، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَع. وأعوذ بك من الجوع، فإنه بِئْسَ الضَّجِيع، ومن الخيانة فإنها بئس البِطَانَة، ومن ٱلْكَسَلِ والبُخْلِ والجُبْنِ، ومن الهَرَمِ ومِنْ أَرْذَلِ العُمُرِ»[43].

وروي أنه ﷺ سمع رجلا يفتخر بنسبه، فقال له : «ذَلِكَ ٱلأم لِجَدِّكَ، وأَقَلُّ لِحَدِّكَ، وأَقَلُّ لِعَدِّكَ، وأَضْرَعُ لِخَدِّكِ، وأَبْعَدُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُوله»[44].

(38) انظر حديث أم زرع في فتح الباري : 9/254—255.
(39) المرشد إلى فهم أشعار العرب : 3/792.
(40) المثل السائر : 1/272—273.
(41) نفسه : 1/272—273.
(42) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص : 89.
(43) إحياء علوم الدين : 1/381.
(44) المنزع البديع، ص : 485.

من هذه الأحاديث والأدعية النبوية الشريفة، يتبين أن عنصر الإيقاع الذي يقوم على التوازن والسجع وتعادل الفقرات وتشابه القرائن كان من السمات البارزة في نثر صدر الإسلام، كما كان كذلك في نثر الجاهلية. وغني عن البيان أن خطب الخلفاء الراشدين كانت تجري على هذا المنهج من الاحتفال بالإيقاع، تتزين بجماله، وتتوسل به للتأثير والإقناع، وقد كفتنا كتب الأدب وتاريخه مؤونة التوسع في عرض خصائص الخطابة في ذلك العصر. ويكفي أن نتأمل قطعة من خطبة علي كرم الله وجهه في الجهاد، قال فيها :

«يا عجبا كل العجب، عجب يميت القلب، ويشغل الفهم، ويكثر الأحزان. من تظافر هؤلاء على باطلهم، وفشلكم في حقكم، حتى أصبحتم غرضا ترمون ولا ترمون، ويغار عليكم ولا تغيرون، ويعصى الله فيكم وترضون. إذا قلت لكم أغزوهم في الصيف، قلتم هذه حمارة القيظ، أمهلنا ينصرم عنا الحر، فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون، فأنتم والله، من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال...».

3 ـ الخصائص الإيقاعية للعربية

ذلك الميل الفطري الشديد الذي فطرت عليه النفس العربية، وجعلها تطرب إلى جمال الإيقاع في كلامها، وحملها على التقيد به والتزامه في جل أصناف نظمها شعرا ونثرا، أثر تأثيرا حميدا في اللغة العربية، فزاد من استعدادها الموسيقي، وضاعف من طواعيتها للأوزان، ومن مرونتها لمقتضيات التقفية، ووسع من قدرتها على التصرف في النظم وحسن التأليف.

وقد أكد غير واحد من النقاد واللغويين القدماء والمحدثين ما تمتاز به العربية من خصائص يتصل معظمها بالموسيقى وجمال الإيقاع.

ورد في المقابسات أن أبا حيان التوحيدي سأل أستاذه أبا سليمان المنطقي : «هل بلاغة أحسن من بلاغة العرب ؟ فقال : هذا لا يبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق، ثم نحكم حكما بريئا من الهوى والتقليد، والعصبية والمين...

ولكن قد سمعنا لغات كثيرة من أهلها، فعلى ما ظهر لنا، وخيل إلينا، لم نجد لغة كالعربية وذلك أنها أوسع مناهج وألطف مخارج، وأعلى مدارج، وحروفها أتم، وأسماؤها أعظم، ومعانيها أوغل، ومعاريضها أشمل»(45).

---

(45) المقابسات، المقابسة 88، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق محمد توفيق حسن، مطبعة الإرشاد بغداد، 1970، ص : 293ـ294.

ويبدو أن أبا سليمان المنطقي كان حريصا على الإنصاف في الحكم، والاعتدال في المفاضلة. ولكن مع إحساسه بصعوبة الحكم، فإنه لم يجد ما يمنعه من ذكر بعض الخصائص التي امتازت بها اللغة العربية.

ومع أنه جرى في التعبير عن تلك الخصائص على أسلوب غير مباشر، فإن مجمل كلامه يفيد أن هذه اللغة تمتاز بسعة مناهجها في طرق التعبير وأساليب التصرف، وبكثرة أسمائها وتمام حروفها. وكثير من هذه الصفات يدخل في باب الخصائص الإيقاعية.

وقال أبو أحمد العسكري . «البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة، ولا على ملك دون سوقة، ولا على لسان دون لسان، بل هي مقسومة على أكثر الألسنة، فهم فيها مشتركون، وهي موجودة في كلام اليونان، وكلام العجم، وكلام الهند وغيرهم. ولكنها في العرب أكثر، لكثرة تصرفها في النثر والنظم والخطب والسجع والمزدوج والرجز، وهم أيضا متفاوتون»[46].

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن كل ما قيل في تفضيل اللغة العربية غير مسلم، وأنه إنما صدر عن موقف عاطفي أو تعصبي.

وفي اعتقادنا أن ذكر ما تمتاز به لغة ما من خصائص، لا يعني تفضيلها بصورة مطلقة على غيرها. والرأي الصائب هو أن لكل لغة فضائلها وخصائصها، وأن كل لغة تتأثر فيما تختص به من خصائص بعوامل كثيرة، من أهمها الظروف الحضارية والثقافية التي تعاقبت عليها، والقوانين والأنظمة الداخلية التي بنيت عليها. ومعلوم أن اللغة العربية مرت بظروف حضارية واجتماعية متميزة، كما أنها نشأت وشبت على خصائص وأنظمة صوتية ونحوية وصرفية خاصة، فلا عجب إذن أن تنفرد عن غيرها من اللغات التي لم تعرف في حياتها مثل تلك الظروف التي عرفتها ببعض الخصائص.

وليس هنا مجال للتفصيل في هذه الظروف، ويكفي أن نشير بإيجاز إلى أن اللغة العربية كانت تقع من حياة أهلها موقعا عزيزا، كان العرب يقدسون البيان ويعزون أهله، ويبوئونهم مقام الزعامة والسيادة، وكانوا يعتمدون على الشعر في تخليد أيامهم ومفاخرهم، في حين كان غيرهم من الأمم يعتمد في ذلك على البنيان والتدوين.

قال مصطفى صادق الرافعي : «وليس في الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هذه الجزيرة، فما كان فيهم كالبيان آنق منظرا، وأبدع مظهرا، وأمد سببا إلى النفس وأرد عليها بالعاقبة. ولا كان كذلك البيان أزكى فرعا، وأقوم في سمائهم شرعا، وأوفر من أنفسهم ريعا، وأكثر في

(46) رسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم، ص : 213.

سوقهم شراء وبيعا، وهذا موضع عجيب للتأمل... وأي شيء في تاريخ الأمم أعجب من نشأة لغوية تنتهي بمعجزة لغوية»[47].

«ولأمة العرب تجربة فريدة في الشعر... وذلك أنه لم تحص أمة من الأمم ما أحصته هذه من الشعراء، وسبب ذلك أن الرجل كان يدرج في بيئة تعشق الشعر وتقوله فيسمعه المرء من أخيه وأمه وأبيه... في كل المناسبات من السلم والحرب». ولا حاجة إلى التفصيل في هذه النقطة، فهي من الحقائق المعروفة.

إلى جانب هذه العوامل الحضارية والاجتماعية، توافرت للغة العربية خصائص أخرى صوتية وصرفية ضاعفت نصيبها من الموسيقية، وقدرتها على إقامة الإيقاع وإبداعه. وقد أوضح العلماء كثيرا من خصائص هذه اللغة وسننها، وأكد الجاحظ في دفاعه عن العربية ردا على الشعوبية أننا «إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت...»[48].

وأكد العقاد في العصر الحديث هذه الحقيقة بطريقة علمية في فصل عنون له بـ «الفصاحة العلمية»، أوضح فيه أن الفصاحة العربية، في دعوى أهلها، مفخرة لا تشبه مفاخر الناطقين باللغات الأخرى، لأن دليلها علمي حاضر، لا يتعسر العلم به، والتثبت منه على ناطق بلسان من الألسنة، ولا حاجة له في هذا الدليل إلى غير النطق وحسن الاستماع. وقال : «إن اللفظ الفصيح هو اللفظ الصريح الذي لا لبس فيه ولا اختلاط في أدواته. وهذا هو اللفظ العربي بدليله العلمي الذي لا تعتمد دعواه على أنانية قومية ولا على نزعة طائفية.

فلا لبس بين مخارج الحروف في اللغة العربية ولا إهمال لمخرج منها».

«وجميع المخارج الصوتية في اللسان العربي مستعملة متميزة بأصواتها. وليس في العربية حرف يلتبس بين مخرجين، وليس في النطق العربي مخرج ينطبق فيه حرفان».

«واللسان العربي المبين يتجنب اللبس في الحركات الأصلية، كما يتجنب اللبس في الحروف الساكنة، فلا لبس بين الفتح والضم والكسر».

وأوضح العقاد سعة جهاز النطق العربي ووضوحه فقال : «إن فصاحة النطق مزية نادرة تمتاز بها اللغة العربية فليست هي من دعاوي الفخر والأنانية، ولكنها حقيقة يقررها علم وظائف الأعضاء، لأن جهاز النطق في الإنسان وظيفته معروفة، ولا خفاء بالفرق بين تقسيماته التي

(47) تاريخ اداب العرب : 158/2.

(48) البيان والتبيين : 29/3.

تستوي في الأداء وتميز الحروف والمخارج، وبين تقسيماته التي تعطل بعض الأداء، ويعرض فيها اللبس والتلفيق لما نؤديه، فإن الحكم في ذلك، كالحكم على كل أداة ناطقة أو عازفة من أدوات الأنغام والأصوات».

ولا يخفى أن جهاز النطق واحد في الناس من أبناء الأمم المختلفة، وكل ما يتفق له من العوارض الحسنة أو المعيبة يجوز أن يتفق للإنسان العربي في حالة من حالاته وقد شوهد هذا التشابه في المخارج الصوتية بين لهجات بعض القبائل العربية ولهجات الأمم الأخرى، ولكن الفرق في الحالتين أن لهجات النطق العربي قد اجتمعت في لسان واحد ينتهي إليه الاختيار، ويبقى فيه متداولا بين أبنائه، ولم يتفرق بين أشتات من الأمم يأخذ كل شتيت منه بنصيب غير نصيب سواه...

وانتهى العقاد في ختام هذا الفصل إلى تقرير أن الفصاحة العربية، قد بلغت بأداة النطق الآدمية غاية ما بلغه الإنسان المعبر عن ذات نفسه بالكلمات والحروف[49].

وكرر هذه الفكرة أو النظرية في مكان آخر، فأشار إلى أن جهاز النطق الإنساني أداة موسيقية وافية. وأوضح أن أمة من الأمم القديمة والحديثة لم تحسن استخدامها على أوفاها، كما استخدمتها الأمة العربية، لأنها ــ كما قال ــ انتفعت بجميع المخارج الصوتية في تقسيم حروفها[50] (...).

ولشدة اقتناعه بتفرد اللغة العربية وغناها بالخصائص الإيقاعية سماها باللغة الشاعرة.

ولم ينفرد العقاد بهذا الرأي، إذ شاركه فيه كثير من الدارسين العرب المحدثين. كما أن بعض المستشرقين وافقوا على هذه الحقيقة، واعترفوا بغنى العربية بالخصائص الإيقاعية.

يقول وليام مارسيه : «إن التركيب العربي غني بالوقع الموسيقي»[51].

ويقول بلاشير : «إن اللغة العربية أداة قوية وغنية بالأصوات التي تدفع إلى التماس الأنغام الموسيقية»[52].

فإذا كان ما ذكر العلماء من مزايا العربية صحيحا، فما هي الخصائص التي جعلتها لغة غنية بالإيقاع الموسيقي ؟

يمكن إجمال تلك الخصائص فيما يلي :

(49) اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر، (د. ت)، ص : 54ــ61.
(50) نفسه، ص : 14.
(51) آراء في العربية، وليام مارسيه، ص : 37.
(52) نقلا عن تاريخ الأدب العربي ــ العصر الجاهلي، ص : 48.

ا ـ سعة المدرج الصوتي

تمتاز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي، سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعا عادلا يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات، أضف إلى ذلك أن العرب يراعون في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي. ولذلك تجنبوا اجتماع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال، والجيم مع القاف والظاء والطاء والصاد. وتجنبوا اجتماع حروف الحلق[53]. وقد مر قبل قليل كيف حاول العقاد أن يثبت للعربية هذه الميزة بطريقة علمية.

وذكر محمد المبارك أن الباحث قد يجد في لغات أخرى، غير العربية حروفا أكثر عددا، ولكن مخارجها محصورة في نطاق ضيق وفي مدرج أقصر، قد تجدها متكاثرة في جانب الشفتين وما والاهما من الفم أو الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنة، أو تجدها متزاحمة في جهة الحَلق. وفي كلا الحالين ضيق في الأفق الصوتي، واختلال في الميزان الصوتي، وفقدان الحسن والانسجام بسبب سوء توزيع الحروف[54].

ب ـ اطراد الأوزان في النظام الصرفي

إن النظام الصرفي في العربية يقوم على اتخاذ قوالب للمعاني تصب فيها الألفاظ، وهياكل من الأوزان تبنى على هيئتها مواد الكلمات، وإن هذا النوع من تصنيف قوالب المعاني في شكله المتسع الموجود في العربية مما تمتاز به هذه اللغة ولا نجد في اللغات الأخرى منه إلا اليسير.

وإن هذه القوالب أو الأبنية كثيرة في العربية ولا وجه للموازنة بينها وبين اللغات الأخرى في غزارتها. ولقوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية وظيفة فنية، فهي أوزان موسيقية أي أن كل بناء منها ذو نغمة موسيقية ثابتة، تدركها الأذن بسهولة ويسر.

وقد أشار العقاد إلى هذه الميزة، واعتبرها من منابع موسيقية اللغة العربية، فأوضح أن الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في هذه اللغة، وقال : «فالفرق بين ينظر وناظر، ومنظور ونظائر، ونظارة، ومناظرة، ومنظار، ومنظر... وما يتفرع عليها هو فرق بين أسماء وأفعال وصفات وأفراد وجموع، وهو كله قائم على الفرق بين وزن ووزن، أو قياس صوتي وقياس مثله، يتوقف على اختلاف الحركات والنبرات، أي على اختلاف النغمة الموسيقية. وحكم الأسماء الجامدة كحكم المشتقات في هذه الخصلة، فإنها تجري جميعا على أوزان معلومة تشملها بأقسامها.

---

(53) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ط. 3، دار الفكر، بيروت 1968، ص : 251، ودراسات في فقه اللغة، ص : 331.

(54) نفسه، ص : 250.

وميزة اللغة العربية في بناء أوزان كلماتها أن تلك الأوزان أطردت كلها في دلالتها على معانيها على قياس واحد..».

وبعد أن عقد العقاد موازنة بين اللغة العربية وبعض اللغات في هذه الخصلة، وساق كلمات من اللغة الأنجليزية، خلص إلى القول : «فليس بين أوزانها ومعانيها ارتباط على الإطلاق كالارتباط القياسي الذي يوجد في أوزان اللغة العريقة، كلها اطردت على قياس واحد. وهذا الذي نعنيه بدلالة الحركة الموسيقية في تركيب المفردات على حدة، بعدما رأيناه من دلالة المخارج الصوتية على شاعرية اللغة في تكوين مفرداتها»(55).

وأوضح البهبيتي ناحية أخرى مما تمتاز به اللغة العربية في بنية كلماتها وصيغها الاشتقاقية، وبين القيمة الإيقاعية والموسيقية لذلك، فقال : «إن للغة العربية من ناحية بنية الكلمات وصيغها الاشتقاقية منطقا مطردا لا يتعثر ولا يكبو، فالألف والتضعيف للتعدية إلا في الشاذ، والألف والسين والتاء للنسبة أو الطلب، والألف والنون للمطاوعة، والألف بعد فاء الفعل الثلاثي مع كسر ما قبل الآخر، لبيان صيغة الفاعل منه، إلى آخر ما هنالك من أشباه هذا المنطق، وخاصة في الصيغ المزيدة. وهذه أمور دعا إليها اتصال الإحساس بالارتباط الوثيق بين اللفظ ومدلوله، أي بين الجرس الصائت والمعنى المجرد، ومدى تعبير هذا عن ذاك، وهي عملية موسيقية لا تتم إلا لمزاج حساس دقيق الحس بالموسيقى...

والمتهيء من هذه الخاصة للغة العربية لا يكاد يتهيأ منه لسواها إلا القليل...

وعندي أنه في اللغة العربية أثر من آثار الشعر»(56).

ويرى بعض المعاصرين أن اللغات تختلف اختلافا واسعا من حيث وفرة الكلمات التي يمكن أن يقفى بعضها مع بعض. ففي حين تقل هذه الكلمات قلة شديدة في اللغة الانجليزية مثلا، فإنها تتوافر في اللغة العربية توافرا لعله هو الذي ثبت قاعدة القافية الواحدة في القصيدة العربية. ويرجع سبب الاختلاف إلى طبيعة الأصوات اللغوية في كل من اللغتين.

فإذا أضيف إلى هذه الخاصة في اللغة العربية خاصة أخرى، وهي خاصة الاشتقاق التي تسهل للشاعر أن يصوغ كلمات على قافية واحدة من أصول غير متفقة الأواخر... تبين كيف استطاعت العربية أن تصوغ قصائد من عشرات الأبيات على قافية واحدة، وأن تلتزم فيها ما لا يلزم أحيانا(57).

---

(55) اللغة الشاعرة : 14ـ16.

(56) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري، ص : 93ـ94.

(57) موسيقى الشعر العربي، شكري عياد، ط. 6، دار المعرفة، القاهرة، ص : 108.

وأشار عبد الله الطيب إلى غنى العربية بأوزانها ومشتقاتها وجعل ذلك دليلا على شاعريتها، ورد على الذين يشكون من القافية الموحدة بحجة أنها قيد ثقيل. فقال : «وهذه الحجة ضعيفة، لأن اللغة العربية واسعة جدا وبنيتها تساعد على كثرة القوافي، إذ فيها أكثر من ستين ألف أصل ثلاثي ورباعي، وكل أصل من هذه الأصول له نظائر عدة، تنتهي بمثل الحرف الذي ينتهي به ذلك الأصل... ثم إن هذه الأصول فيها نحو من عشرين ألف أصل ذي فروع ومشتقات، وهذه المشتقات تنتهي بنفس الحروف التي تنتهي بها أصولها في الغالب»(58).

ج ـ المقاطع الصوتية في العربية مقاطع إيقاعية :

إن اللغة التي تقوم على مبدأ المقاطع الممدودة والمقصورة لغة إيقاعية أكثر من غيرها، وذلك كالعربية. وتخضع المقاطع اللفظية في العربية إلى مبدأ أساسي، يقضي بأن تكون ذات كميات من الوزن والوقت، ومقسمة إلى صنفين : مقاطع مقصورة، ومقاطع ممدودة، فأما المقطع المقصور فهو الذي يتألف من متحرك، لا يليه ساكن، وهو خفيف. وأما المقطع الممدود فهو الذي يتألف من متحرك وساكن، وهو ثقيل... وهذا المبدأ ثابت في اللغة العربية سواء أكان في الشعر أم في النثر. وكل قراءة للقرآن أو للشعر أو للنثر لا يلتزم فيها به قراءة خاطئة، والقرآن كتاب ناطق باللسان العربي المبين، وكل مقرىء لا يخضع في قراءته إلى هذا المبدأ مخطىء متطاول على مبادىء اللغة.

ومن هذه الخاصة أتى سحر الكلمة في اللغة العربية، وتأثر العرب بالشعر والخطابة. ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزة محمد ﷺ هي القرآن، وما ذلك إلا لأن المقاطع اللفظية ذات وزن من الثقل والخفة، فإذا تناسب الثقل والخفة آندرج فيهما الإيقاع بيسر، لأنه يجد الظروف الملائمة لانبعاثه فيضفي على العبارة مزيدا من الحسن والسحر. وأما اللغات الأخرى فلا نسبة فيها بين أوزان المقاطع وما تستغرقه في الوقت، فلا يجد فيها الإيقاع الظروف الملائمة، فتكون أضعف تأثيرا وأقل تعبيرا. وكأني بهذه اخاصة كانت عامة في جميع اللغات ففقدتها في مرحلة من مراحل حياتها، إلا العربية الفصحى فقد حافظت عليها(59).

د ـ الإعراب ومرونة التركيب :

إن اللغة العربية تمتاز بين لغات العالم بهذه الخاصة الفنية، مع شيوع أنواع من الإعراب في بعض اللغات الهندية الجرمانية. إلا أن الإعراب العربي واف، مقرر القواعد، يعم أقسام الكلام : أفعالا وأسماء وحروفا حيثما وقعت بمعانيها من الجمل والعبارات...

---

(58) المرشد إلى فهم أشعار العرب : 17/2.

(59) نظرية إيقاع الشعر العربي، محمد العياشي، المطبعة العصرية، تونس 1976، ص : 146ــ158.

«وهذا الإعراب المفصل في هذه اللغة الشاعرة، هو آية السليقة الفنية في التراكيب العربية المفيدة، توافرت لها جملا مفهومة، بعد أن توافرت لها حروفا تجمع مخارج النطق الإنساني على أفصحها وأوفاها، وبعد أن توافر لها مفردات ترتبط فيها المعاني بضوابط الحركات والأوزان.

«وليس أوفق للشعر الموزون من العبارات التي تنتظم فيها حركات الإعراب، وتتقابل مقاطع العروض، وأبواب الأوزان وعلامات الإعراب، فإن هذه الحركات والعلامات تجري مجرى الأصوات الموسيقية، وتستقر في مواضعها المقدرة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع، ولها بعد ذلك مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير في كل وزن من أوزان البحور، لأن علامات الإعراب تدل على معناها كيفما كان موقعها من الجملة المنظومة. فلا يصعب على الشاعر أن يتصرف بها دون أن يتغير معناها. إذا كان هذا المعنى موقوفا على حركتها المستقلة الملازمة لها، وليس هو بالموقوف على رص الكلمات كما ترص الجمادات...

«ولا يستقيم هذا الشاعر ينظم بغير اللغة العربية، لأن الترتيب الآلي يقيده بموضع لا يتعداه، حيث يطلقه الإعراب العربي..

«وتنفرد اللغة العربية بسمة الشاعرية لأنها جمعت على هذا المثال البديع بين أبواب الاشتقاق وأوزان العروض وحركات الإعراب»(٦٠).

إن الإعراب يعطي لناظم الكلام في الشعر أو النثر، حرية كبرى في تقديم الألفاظ وتأخيرها، وفق القواعد النحوية، أو المقتضيات البلاغية، لأن الإعراب بطبعه يحتفظ للفظة بمعناها في ترتيب الكلام أينما وضعت.

ولأن هذا الإعراب يعطي اللفظ حرية التنقل داخل الكلام مع احتفاظه بمعناه، كان للعربية حظ وافر من المرونة في نظم العبارة المقيدة بقيود الوزن والتقفية.

هـ ـ الترادف ووفرة المفردات :

كان للعربية من ظروف حياتها الخاصة ما جعلها تكتسب ثراء كبيرا في كثرة مفرداتها، إذ كانت تتجمع لها، على مر الأيام واتصال الاحتكاك بين القبائل، ألفاظ متعددة للدلالة على المعنى الواحد، وذلك مما يتيح للناظم فرصة انتقاء اللفظ الذي يناسب النغمة أو الإيقاع الموسيقي لكلامه.

وهذه حقيقة معروفة، يعرفها أهل البيان الذين يمارسون فنَّ التعبير، ويتقيدون بقوانين النظم، فما أكثر ما تحملهم تلك القوانين على اختيار الكلمة التي تؤدي المعنى وتجري مع الوزن والإيقاع في آن واحد.

(60) اللغة الشاعرة، ص : 20ـ25.

وتعد ظاهرة الترادف من خصائص اللغة العربية البارزة، وقد أقر بها العلماء العرب، وكانت موضع خلاف بين اللغويين السنيين واللغويين المعتزلة، فأنكرها الأولون، وانتصر لها الآخرون. ولا يتسع المجال هنا لتفصيل هذا الخلاف ودوافعه[61]. ويكفي أن نشير إلى أن رأي الفريق الثاني هو الذي أكدته الدراسات الحديثة.

وقد أبدى بعض المستشرقين إعجابه بغنى معجم اللغة العربية فقال : «إنه يمتلكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم... ويجب أن نقر بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيرا بكلمات استعملها الشعراء وصفا لأشياء، فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء... ولكن على رغم هذا كله، يجب أن نعترف بأن معجم اللغة العربية غني غِنًى رائعا»[62].

تلك أهم الخصائص التي جعلت اللغة العربية أكثر موسيقية، وأوفر قدرة على الاستجابة لما تقتضيه قواعد النظم والوزن والتوازن والسجع وغيرها من فنون النظم الإيقاعي.

وكثيرا ما استثمر الشعراء والخطباء العرب هذه الخاصة الموسيقية فقابلوا بين نغمة الكلام وموضوعه، وجعلوا من الإيقاع أداة تبليغ وتأثير، واعتبروه جزءا أصيلا من التعبير، ولم يكونوا يتصورون أنهم، بالتزام السجع والازدواج، يتكلفون حلية زائدة يمكن أن يستغنى عنها. يشهد لذلك أن أعرابيا شكا إلى عامل فقال : «حُلِّقَتْ رِكَابِي، وَشُقِّقَتْ ثِيَابِي، وَضُرِبَتْ صِحَابِي». فقال العامل : أو سجع أيضا. فاستغرب الأعرابي، وتعجب من إنكار العامل عليه في السجع. وقال : فكيف أقول ؟!

قال عبد القاهر الجرجاني موضحا نظرة الأعرابي إلى السجع : «وذلك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ، ولم يره بالسجع مخلا بمعنى أو محدثا في الكلام استكراها، أو خارجا إلى تكلف أو استعمال ما ليس بمعتاد في غرضه...»[63].

وذكر الجاحظ أن ذلك الأعرابي لو قال : «حلئت إبلي أو جمالي أو نوقي أو بعراني أو صرمتي لكان لم يعبر عن خفي معناه، وإنما حُلِّئَتْ رِكَابِه : فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب. وكذلك، وشقت ثيابي، وضربت صحابي»[64].

وقد كان الجاحظ على علم بالوظيفة الأصيلة التي يقوم بها الإيقاع في الحكمة العربية، ولذلك كان يرى استحالة ترجمتها إلى لغة أخرى. يقول :

«ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن»[65].

(61) انظر مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، أحمد أبو زيد، دار الأمان، الرباط 1989، ص : 37.
(62) عن فجر الإسلام، ص : 54.
(63) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق أحمد مصطفى المراغي، القاهرة 1982، ص : 18.
(64) نفسه، ص : 18—19.
(65) الحيوان : 75/1.

الفصل الثاني
روعة القرآن وجمال التناسب الإيقاعي

للقرآن روعة تهز النفوس، وسحر تخشع له القلوب، وقد وصف القرآن نفسه أثر روعته هذه في النفوس في غير موضع.

قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ، ذَلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة الزمر : 23).

وقال : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (سورة المائدة : 82—83).

وقال : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (سورة الحشر : 21).

وقال : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَى﴾ (سورة الرعد : 31) جواب «لو» محذوف، تقديره : لكان هو هذا القرآن.

وقال : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة يونس : 57).

كان كفار قريش أول من أحس بروعة القرآن، وبسطوته على القلوب، وبتأثيره العجيب في النفوس، لذلك وصفوه بالسحر. حكى عنهم القرآن ذلك في عدة آيات.

قال تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى، وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة سبأ : 43).

وقال : ﴿وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة الأحقاف : 7).

وذكر القرآن عن أحد أشرافهم أنه لم يجد أقرب وصف ينطبق على القرآن، بعد التقدير والتفكير إلا وصف السحر. قال تعالى : ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ. فقال إن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ (سورة المدثر : 18ـــ25).

وتذكر كتب التفسير والسيرة النبوية أن الرجل المعني في هذه الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان قد أحس بروعة القرآن، ولكنه عاند وجحد. روي أنه ذهب إلى النبي ﷺ وسمع منه القرآن، ولما عاد سأله قومه، فقال : «والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى»[1].

وقرأ النبي ﷺ الآيات الأولى من سورة حمٓ فصلت فلما سمعها عتبة بن ربيعة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها، ثم انتهى النبي ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة... فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه[2].

ولم يطق كفار قريش أن يستعلن أبو بكر بقراءة القرآن في فناء داره، إذ كانت تهوي إليه أفئدة من أبنائهم ونسائهم وعبيدهم يستمعون لقراءته، فخشي المشركون أن يفتتنوا. وكان ابن الدغنة قد أجار أبا بكر، فأمروه أن يسترد جواره منه، إذا أصر على الإعلان بقراءته، وقد فعل[3].

كان كفار قريش مع شركهم وعنادهم واستكراه نفوسهم على التكذيب ينجذبون لسماع القرآن، ويطيلون الاستماع استطابة لما فيه من لفظ ذي نغم يجذب الأسماع، وعبارة مشرقة تستميل النفوس. قال ابن اسحاق : «حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا،

(1) البحر المحيط : 8/1.

(2) السيرة لابن هشام : 293/1ـــ294.

(3) عن النبأ العظيم، ص : 87. والحديث رواه البخاري.

وقال بعضهم لبعض لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا»(4). والخبر مشهور فلا نطيل بإيراده كاملا.

ويكفينا أن نشير إلى ما يستفاد منه، وهو أن هؤلاء الثلاثة، وهم من أشراف العرب، اجتذبهم سماع القرآن حتى ذهلوا عن الوقت، وواصلوا الاستماع ثلاث ليال حتى مطلع الفجر، ولم ينقطعوا عن العودة إلا خوفا من أن يراهم أتباعهم من العامة.

ولما أحسوا بالميل القوي إلى استماع القرآن، وعرفوا ما له من أثر أخاذ في نفوسهم، تواصوا ألا يسمعوه. كما أخبر عنهم الله عز وجل في القرآن، قال : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (سورة فصلت : 26).

وروي عن الطفيل بن أبي عمرو السدوسي أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، وكان رجلا شاعرا شريفا لبيبا، فمشى إليه رجال من قريش، فقالوا له : «يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله سحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه وأخيه وزوجه. وإننا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه، ولا تسمع منه شيئا. قال الطفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أمري ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى إنني جعلت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا، فرقا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال : فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائما يصلي عند الكعبة فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله. فسمعت كلاما حسنا، فقلت في نفسي : واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح. فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته، فسكتُّ حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته حتى دخلت عليه، فقلت : يا محمد، إن قومك قالوا كذا وكذا. فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف، لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني، فسمعت قولا حسنا فاعرض علي أمرك. فقال : فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا علي القرآن. فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق»(5).

(4) السيرة، لابن هشام : 315/1.

(5) نفسه : 341/1.

هذه النصوص تبين قوة تأثير القرآن في نفوس العرب، وفعله في قلوبهم، كان أشدهم عنادا لا ينجو من سحره. سمعه عمر بن الخطاب فانخلع قلبه من الكفر والشرك، وفاء إلى الإيمان، وسمعه أبو ذر الغفاري فآمن وسمعه أخوه أنيس فأذعن.

وروي أن أعرابيا لما سمع قوله تعالى : ﴿**وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ، وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ (سورة الذاريات : 22) وقال : من الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين. قالها ثلاثا ثم مات[6].

وروي أن آخر سمع قوله تعالى : ﴿**فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ (سورة الحجر : 94) فسجد. فقيل له : لم سجدت ؟ فقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام[7].

وروي أن عمر بن الخطاب خرج ذات ليلة يَعُسُّ المدينة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلي، فوقف يستمع قراءته، فقرأ «**وَٱلطُّورِ**» حتى بلغ ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَا لَهُ مِن دَافِعٍ**﴾ (سورة الطور : 7 ـــ 8) قال : قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فمكث مليا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه[8].

وإن تأثير القرآن وروعته تمتد لتشمل أهل الكتاب، فقد ذكرت كتب السيرة أن قريشا سعت إلى استرداد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، فأمر النجاشي بإحضار أولئك المهاجرين إلى مجلسه، وكان جعفر بن أبي طالب يتكلم بلسانهم. فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به محمد شيئا ؟ فقال : نعم، فقرأ عليه صدرا من سورة (كهيعص)، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته، حتى اخضلت مصاحفهم، حين سمعوا ما تلاه عليهم، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم التفت إلى رسولي قريش، وقال : انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما[9].

وروي أن يهوديا بكى من سماع القرآن، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ فقال : إنما أبكاني الشجى.

تلك جملة من الأخبار المأثورة التي تشهد لروعة القرآن وسطوته وسحره وقوة تأثيره. ويستفاد منها أن منابع تلك الروعة القرآنية متنوعة.

---

(6) البرهان في علوم القرآن : 41/3.

(7) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة 1383 : 70/1.

(8) في ظلال القرآن : 598/7.

(9) سيرة ابن هشام 1 : 336ـــ337.

فمن هؤلاء الذين نقلنا أخبار تأثرهم بالقرآن من تأثر بوعيده وقوارعه التي تنذر بالعذاب في الحياة الدنيا والآخرة، كعتبة بن ربيعة الذي قرأ عليه النبي ﷺ الآيات الأولى من سورة حم فصلت، فقد ذكر أنه لما سمع قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، قام فوضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الرحم أن يكف عن القراءة خوفا من أن ينزل بهم ما أنذر به.

وكعمر بن الخطاب الذي تأثر لسماع قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ (سورة الطور : 7—8) فمكث شهرا يعوده الناس، لا يدرون ما مرضه ؟

ومنهم من تأثر بما يشع من الآيات من جلال الألوهية كالأعرابي الذي سمع قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فصاح : من الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثا ثم مات.

ومنهم من أثرت فيه حلاوة القرآن وطلاوته وفصاحته، كالثلاثة الذين اجتذبتهم قراءة النبي ﷺ ، فواصلوا الاستماع إليه ثلاث ليال حتى مطلع الفجر، ثم لم يستطيعوا مقاومة جاذبية القرآن فتعاهدوا على أن لا يعودوا.

وكالطفيل بن عمرو السدوسي، والوليد بن المغيرة، والأعرابي الذي ذكرت المصادر أنه سجد لسماع قوله تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الحجر : 94). ومنهم من تأثر بالشجي وطيب النغم والإيقاع كاليهودي الذي بكى لسماع قراءة القرآن.

ولقد أدرك بعض علماء السلف ما يختص به القرآن من سطوة على النفوس، وما له من روعة في القلوب، وعد هذه الخاصة من أوجه إعجازه، ومن هؤلاء الإمام المحدث محمد بن حمد الخطابي الذي ذهب إلى أن في القرآن وجها من الإعجاز ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، فكم من عدو لرسول الله ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون قتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانا(10).

وقال جلال الدين السيوطي : «ومن وجوه إعجاز القرآن روعته التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته. أما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته،

(10) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 64.

تصديقا لقوله تعالى : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾» (سورة الزمر : 23).

ويدل على أن هذا شيء خص به القرآن أنه يعتري حتى من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصراني أنه مر بقارىء فوقف يبكي، فقيل : مم بكيت ؟ قال : الشجى والنظم.

وهذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام وبعده[11].

وقال : «وقد أسلم جماعة عند سماعه، ومات جماعة عند سماع آيات منه. أفردوا بالتصنيف»[12].

يستخلص من هذا أن منابع روعة القرآن متنوعة، وأن تحديدها ليس بالأمر السهل.

يقول سيد قطب : «إن في هذا القرآن سرا خاصا يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث في مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هناك شيئا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصرا ما ينسكب في الحسن بمجرد الاستماع لهذا القرآن. يدركه بعض الناس واضحا، ويدركه بعض الناس غامضا، ولكنه في كل حال موجود. هذا العنصر الذي ينسكب في الحسن يصعب تحديد مصدره. أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها لشيء آخر وراءها غير محدود؟»[13].

1 ـ آراء العلماء في أسباب روعة القرآن

اتفقت كلمة العلماء الذين عنوا بدراسة إعجاز القرآن على أن أسرار روعة القرآن موجودة في القرآن ذاته، تنبع من شيء موجود فيه، لا من شيء خارج عنه، لكنهم اختلفوا في تحديد أسبابها ومصادرها فذهب فريق منهم إلى التماسها في جمال التعبير والصياغة اللفظية والتناسب الصوتي والإيقاعي. ومعظم أنصار هذا المذهب من المعتزلة.

وذهب فريق آخر إلى التماسها في النظم وأحوال التراكيب كالتقديم والتأخير والحذف والذكر، والإظهار والإضمار، والتعريف والتنكير، ومناسبتها لمقتضى الحال. ومعظم أنصار هذا المذهب من الأشاعرة.

---

(11) معترك الأقران : 242/1.
(12) الإتقان في علوم القرآن : 123/2.
(13) في ظلال القرآن : 605/7.

وقد احتدمت الخصومة بين هذين الفريقين حول قضية اللفظ والمعنى، وحاول كل منهما أن يضع نظرية في البلاغة والإعجاز موافقة لمذهبه. ولا يتسع المجال هنا للتفصيل في هذين الاتجاهين، ويكفي أن نقدم خلاصة نوضح بها مكانة الإيقاع في كل منهما.

أما الاتجاه الأول، فإنه يجعل للصياغة اللفظية مكانة مرموقة، ويرى أصحابه أن أسرار روعة القرآن يجب أن تلتمس في جمال تلك الصياغة، وهؤلاء هم الذين كانوا يهتمون بالإيقاع القرآني ويعدونه من أسباب جمال الصياغة، ودراساتهم المتعلقة بإعجاز القرآن حافلة بالمباحث البلاغية التي تتناول العناصر الإيقاعية كـ «التلاؤم»، و«الفواصل»، و«تناسب المقدار»، و«الترصيع»... إلى غير ذلك من فنون البديع و«أسرار الفصاحة» التي احتلت مركز الاهتمام عند الجاحظ وأبي الحسن الرماني والقاضي عبد الجبار، وابن سنان الخفاجي.

أما الفريق الثاني فإنه لا يعير هذه العناصر الإيقاعية أي اهتمام، بل يتجه إلى التماس أسباب روعة القرآن في المعاني التركيبية، وفي مطابقتها لمقتضى الحال، وإمام هؤلاء هو عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن الروعة التي داخلت نفوس فصحاء العرب من سماع القرآن، ليست في تخير الألفاظ وصياغتها، ولا في الفواصل وتوازن فقرات الكلام، إذ كانوا قادرين على نظم القوافي والأشعار الموزونة، وإنما الذي راعهم منه هو نظم المعاني وتفصيل العبارة على مقتضاها.

ويذهب أنصار هذا الاتجاه إلى التقليل من قيمة الإيقاع وموسيقى الكلام في روعة القرآن[14].

ا ـ رأي حمد بن محمد الخطابي :

يرى أن ما يوجد للقرآن من العذوبة في حس السامع والهشاشة في نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس أمر لابد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم.

وأشار إلى أنه قام باستقراء أوصاف القرآن الخارجية، وأنه لم يجد منها شيئا يثبت على النظر أو يستقيم في القياس، ويطرد على المعايير. وخلص من ذلك إلى أن السر في تلك الروعة وذلك التأثير القرآني العجيب يجب أن يكون مطلوبا من ذاته.

ثم أوضح أن السبب فيه هو أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة (...) فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز المطلق الرسل، وقال : «فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل

(14) انظر في هذا الرأي كتاب «دلائل الاعجاز» للجرجاني، والمنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ص : 271ـــ273.

نوع من أنواعها شعبة فامتزج لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة... فكان اجتماع هذين الأمرين في نظمه مع نبو كل منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن»(15).

يفهم من كلام الخطابي في هذا النص أن من أسباب روعة القرآن وتأثيره اجتماع الفخامة والعذوبة في أسلوبه.

والفخامة والعذوبة صفتان تتعلقان بالصياغة اللفظية، وقوة التعبير ولينه. فالصفة الأولى نعت للكلام ذي الإيقاع الشديد ؛ والثانية نعت للكلام ذي الإيقاع اللين.

ويعني بامتزاج هذين الوصفين أن القرآن يراعي التناسب بين المعاني وطريقة التعبير، فيستعمل الفخامة في مقام الشدة والترهيب ويستعمل العذوبة في مقام اللين والترغيب.

من هذه الآراء والاتجاهات يستخلص أن علماء الإعجاز الأوائل منهم من يرى أن جمال الإيقاع يعد من الأسباب الموضوعية لما يختص به القرآن من روعة وتأثير. غير أن هؤلاء لم يتعمقوا في بحث النظم الموسيقي للقرآن، بل إنهم لم يستعملوا مصطلحات «الإيقاع» و«الموسيقى» و«النغم»، و«الجرس» في دراساتهم أصلا، وذلك لأنهم كانوا يشعرون بالحرج من نعت أي شيء من كتاب الله بأنه ذو جرس أو إيقاع أو موسيقى، أو بأنه مشتمل على صفة من صفات الشعر أو الغناء، وفضلوا أن يستعملوا مصطلحات أخرى كـ : «الفصاحة»، و«الجزالة»، و«الفخامة»، و«العذوبة»، و«السلاسة»، و«صفاء الديباجة»، و«حسن الرصف»... وآثروها على أي كلمة تشم منها رائحة الترنم والنغم.

ثم إن هذا الرأي الذي ارتبط بالاتجاه الاعتزالي تضاءلت العناية به بظهور النظرية الأشعرية في النظم والإعجاز. وبقي كذلك حتى ظهر مصطفى صادق الرافعي في العصر الحديث.

• • •

يرى جمهور الدارسين المحدثين أن من أهم أسباب روعة القرآن حلاوة الجرس وعذوبة الإيقاع. وكان هذا الرأي جزءا من العناية بقيمة العنصر الإيقاعي وقيمته في التعبير الأدبي عامة. وقد ظهرت العناية بهذا العنصر في الدراسات النقدية والأدبية الحديثة. فأكدت تلك الدراسات أن للألفاظ من حيث هي ألفاظ وأصوات أثر موسيقي خاص يوحي إلى السمع بتأثيرات مستقلة تمام الاستقلال عن المعنى(16).

---

(15) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 23ـــ24.

(16) التوجيه الأدبي، لطه حسين وأحمد أمين وآخرين، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1952، ص : 138.

كما أكدت أن العبارة في العمل الأدبي تستمد دلالتها من عناصر متعددة : من الدلالة اللغوية للألفاظ، ومن الدلالة المعنوية الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين، ثم من الإيقاع الموسيقي الناشىء عن مجموع إيقاعات الألفاظ متناغما بعضها مع بعض، ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة.

وقد أنكر غير واحد من الدارسين المحدثين ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في قيمة الألفاظ والإيقاع. قال محمد مندور : «ينكر عبد القاهر كل مزية للفظ، وهو في ذلك يناقض آراء الجاحظ في الفصاحة، ولكن هذا في الحق إنكار مسرف، لا نقره... والذي لاشك فيه أن لجرس الألفاظ قيمة ووقعا إيجابيا، كثيرا ما يعين الأديب على استنفاذ إحساسه»(17).

وأعرب سيد قطب عن إعجابه بعبد القاهر وبنظريته في النظم وبنفاذ حسه الفني... ثم أوضح أنه يختلف معه في كثير مما تحويه تلك النظرية بسبب إغفاله التام للقيم اللفظية والصوتية، ولها ـــ كما يرى سيد قطب ـــ قيمة كبيرة في العمل الفني(18).

وبالإجمال، فقد اتفقت كلمة الدارسين المحدثين على أن القيمة الإيقاعية التي تحملها الألفاظ ليست مما يستهان به في التعبير الأدبي وفي النظم القرآني، لأن لها أثرا في تحريك النفوس، وتهيئتها لتقبل المعاني.

وذهب كثير منهم إلى أن جزءا كبيرا من روعة القرآن ينبع من جمال الإيقاع في نظمه.

ب ـ رأي مصطفى صادق الرافعي :

يرى الرافعي أن سر تلك الروعة يكمن في موسيقى القرآن الناشئة عن انسجامه واطراد نسقه. وأوضح أن العرب الذين نزل فيهم القرآن وصنع في نفوسهم ذلك الصنيع العجيب إنما تأثروا به لأنهم «رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسقها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها، ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف، دون ما عداها»(19).

---

(17) في الميزان الجديد، محمد مندور، ط. 3، مطبعة نهضة مصر (د. ت)، ص : 194.

(18) النقد الأدبي، أصوله ومناهجه : سيد قطب، ط. 4، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت 1966، ص : 68.

(19) إعجاز القرآن، ص : 189.

ويرى الرافعي أن هذه الموسيقى اللغوية هي بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل واللسان..

وقال : «والقرآن من هذه الجهة يغلب بنظمه كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في الأنفس لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه»[20].

وقال : «وهذه حالة مطردة يعرفها الناس جميعا، وما من أعجمي يسمع ترتيل القرآن، إن فهمه أو لم يفهمه، إلا اعترته رقة للشجي والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج في نفسه، وتجيش نفسه بها مع أنه لا يعتريه من ذلك شيء، إذا هو سمع الألحان العربية في الغناء والشعر»[21].

ج ـ رأي الزرقاني :

تحدث الزرقاني عن خصائص النظم القرآني وجعل على رأسها ما سماه بـ «مسحة القرآن اللفظية». فقال : «إنها مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي».

وقال : «وهذا النظام الصوتي أو التوقيعي هو أول شيء أحسته الأذن العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلا أو مسجوعا، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر، لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة، لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا في الشعر»[22].

د ـ رأي سيد قطب :

يرى أن في القرآن إيقاعا موسيقيا متعدد الأنواع، ينبع من انسجام الحروف في الكلمة المفردة، وانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة.

وأشار إلى ما جاء في القرآن حكاية عن كفار العرب : ﴿بَلِ ٱفْتَرَاهُ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (سورة الأنبياء : 5)، وما رد به القرآن عليهم : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (سورة يس : 69).

وأشار إلى أن ما أكدته الآية الكريمة من تنزيه الرسول ﷺ عن الشعر صحيح، لكن العرب لم يكونوا جاهلين بخصائص الشعر يوم قالوا عن القرآن إنه شعر.

---

(20) إعجاز القرآن، ص : 216.

(21) نفسه، ص : 216.

(22) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، ط. 3، دار إحياء الكتب العربية، (د. ت)، ص : 206ـ208.

لقد قالوا ذلك حين راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل، وتلك خصائص الشعر الأساسية إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل.

وأكد سيد قطب أن الإنسان يحس بذلك الإيقاع الداخلي، حيثما تلا من القرآن، يحس به واضحا بارزا في السور القصار والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص[23].

ولعل في هذه الآراء التي قدمناها ما يكفي لإثبات أن الرأي السائد بين المعنيين بالدراسات القرآنية والنقدية الحديثة هو أن لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل سامع، حتى من لا يفهم العربية، وأن تلك الروعة تنبع من نظام القرآن الصوتي البديع، ذلك النظام الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه، والذي وزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا متناسبا يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادي النفس فيه آنا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة، فيجد عندها راحته العظمى.

هـ ـ رأي بعض المستشرقين :

أشار بعض المستشرقين إلى أن جانبا كبيرا من أسرار روعة القرآن، وأسباب تأثيره في نفوس العرب وغيرهم يكمن في جمال الإيقاع، ومن هؤلاء «هاملتون جب» «H. Gibb»، و«بيير كرابون دو كابرونا» (Pierre Crapon de Caprona).

يرى الأول أن الموسيقية المنبعثة من الأصوات القرآنية تلعب دورا هو فوق التعريف في تكييف عقل السامع، وتهيئته لتلقي الدعوة، وأن الجمال الفني في القرآن هو رأس ما جذب العرب إلى الإسلام[24].

وقال : «فالقدرة على تحريك قلوب الناس، والتأثير في تغيير مجرى حياتهم، كما يصيدران عن القرآن، ولا يفسران بمضمون المذاهب القرآنية، وبما يحض القرآن عليه بصورة مجردة عادية، بل إنهما يرجعان إلى زينة القرآن اللفظية الحية، ذلك أن القرآن مثله مثل كتب الأنبياء في العهد القديم، إنما يتكلم لغة الشعر على الرغم من تحرره من نير الوزن والعروض..».

وقال : «وليس هذا الرأي بمحض فرض يستدل عليه بتجربتي الشخصية وحدها، بل إنه في الواقع عقيدة الإعجاز، أي الإيمان بأن القرآن معجز، والاستناد في ذلك إلى خصال القرآن الفنية والبديعية بقدر الاستناد إلى جوهر مضمونه»[25].

(23) انظر التصوير الفني في القرآن، ص : 84—85.
(24) بنية الفكر الديني في الاسلام، ص : 90.
(25) نفسه، ص 91.

أما الثاني فقد قام بتحليل مفصل للإيقاع القرآني في مجموعة من السور المكية، منطلقا من التسليم بأن الجميع يجد في القرآن إيقاعا طيبا، وبأن الوقت قد حان لبحث هذه المسألة بعمق، لتحديد ما هو هذا الإيقاع الذي يطيب للجميع أن يجده في القرآن(26).

ثم أوضح أن هذا التحليل الإيقاعي يبرز أننا لسنا بصدد خطاب مألوف، ولا بصدد شعر عادي، لكن أمام ترنيمة جديدة أكثر منها تراثية.

وقال : «إن هذه الملاحظات توضح لنا في الوقت ذاته التفسير الممكن لكلمة «سورة» التي لم يوجد لها تفسير مرض. ونقترح أن تكون هي المعادل العربي للكلمة العبرية «شيرة» أي نشيد. وإذا كان المعنى الديني غير واضح، فإن السورة تبدو ــ على الأقل ــ كأنها نشيد، لا تبشير ولا موعظة، لكن نشيد مقدس، تعد الخصوبة الإيقاعية التي توجد فيه أثرا لازدهار حساسية موسيقية عجيبة، تتمثل على مستوى الأشكال في تعدد التفاعيل، والتقطيع الفقري، والائتلاف والتفرع الإيقاعي، لتنتهي إلى توازن عام»(27).

وتساءل في ختام تحليله الإيقاعي، قائلا : «هل بإمكاننا الآن، ونحن نعالج القضية بعمق، أن نحدد ما هو القرآن ؟»

ثم قال : «إن التحليل الصارم والتجربة الصحيحة لتلك السور يمكننا من إزاحة جانب من الستار واكتشاف أناشيد ذات قيمة عجيبة سواء بجمالها النغمي، وبغناها من حيث الصور»(28).

استنادا إلى ما عرضناه من آراء القدماء والمحدثين حول الأسباب الموضوعية لروعة القرآن الكريم، نخلص إلى أن جمال الإيقاع وتناسب الأصوات في النظم القرآني يعد من تلك الأسباب، إن لم يكن أهمها. وهناك أدلة ووقائع كثيرة تثبت هذه الحقيقة، منها :

1 ــ أن تلك الروعة التي يختص بها القرآن لا تكون إلا مع تجويد القراءة.
2 ــ أن من لا يعرفون اللغة العربية يشعرون بروعة القرآن ويتأثرون بسماع تلاوته.
3 ــ أن الإيقاع كان منذ القديم جزءا من طقوس العبادة.

2 ـ تجويد القراءة وروعة القرآن

من الثابت أن ما وصف من روعة القرآن، وتأثيره العجيب في نفوس السامعين، لا يحدث إلا إذا كانت قراءته مرتلة، لأن الترتيل هو الذي يهيء لنظم القرآن أن يطلق ما يكمن في أصواته وحركاته ومقاطعه وفواصله من جمال إيقاعي.

(26) Structure rythmique des sourates mécquoises, p. 184.
(27) نفسه.
(28) نفسه، ص : 556.

ولله الحكمة البالغة في تسمية هذا الكتاب الكريم قرآنا، ففي هذه التسمية إشارة واضحة إلى أنه كتاب أنزل بنصه وبطريقة قراءته. ولذلك لا يستحفظ بمجرد الكتابة، بل بالقراءة والحفظ في الصدور.

فالنبي ﷺ إنما كان يتلو القرآن بتعليم من الله تعالى. ولهذا فإن القراءة سنة، ومن شروط صحتها صحة الإسناد.

ولا شك أن الأمة مأمورة ومتعبدة بإقامة القراءة، وتجويدها على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية، كما أنها متعبدة بإقامة حدود القرآن وأحكامه.

وقد أمر الله بتجويد القراءة :

قال : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (سورة المزمل : 1)

وقال : ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَى مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ (سورة الإسراء : 106).

وكان النبي ﷺ يقرأ على مهل ويمد صوته بالقراءة.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءته فقالت : لا كسردكم هذا، لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها[29].

وسئل أنس بن مالك عن قراءته ﷺ فقال : كان يمد صوته مدا. وفي رواية : كانت مدا[30].

وقول أنس : «يمد صوته مدا» بتأكيد الفعل بالمصدر يدل على إشباع المد[31].

وحث النبي ﷺ على تجويد القراءة وتزيينها بالصوت الحسن، فقال : «زينوا القراءة بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا»[32].

وما ذلك إلا لأن ما يختزنه القرآن من جمال إيقاعي لا يظهر، ولا يحدث تأثيره إلا بتجويد القراءة، وقد نبه العلماء على هذه الحقيقة فأوضحوا أن روعة القرآن لا تظهر إلا بهذا الشرط.

قال ابن الجزري : «وهذه سنة الله تبارك وتعالى فيمن يقرأ القرآن مجودا مصححا كما أنزل،

---

(29) الكشاف عن حقائق التنزيل : 175/4.

(30) صحيح البخاري ـــ باب مد القراءة.

(31) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها مكي القيسي، تحقيق محي الدين رمضان، ط. 2، مؤسسة الرسالة، 1984 : 57/1.

(32) رواه أصحاب السنن.

تلتذ الأسماع بتلاوته، وتخشع القلوب عند قراءته حتى يكاد أن يسلب العقول، ويأخذ بالألباب. سر من أسرار الله تعالى، يودعه من يشاء من خلقه»[33].

وقال : «وقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن صوت، ولا معرفة بالألحان، إلا أنه كان جيد الأداء، قيما باللفظ، فكان إذا قرأ أطرب المسامع، وأخذ من القلوب بالمجامع، وكان الخلق يزدحمون عليه، ويجتمعون على الاستماع إليه : أمم من الخواص والعوام، يشترك في ذلك من يعرف اللسان العربي ومن لا يعرفه من سائر الأنام، مع تركهم جماعات من ذوي الأصوات الحسان، عارفين بالمقامات والألحان، لخروجهم عن التجويد والاتقان».

وقال : «وأخبرني جماعة من شيوخي وغيرهم أخبارا بلغت التواتر على شيخهم الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الصائغ المصري، وكان أستاذا في التجويد أنه قرأ يوما في صلاة الصبح : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ﴾ (سورة النمل : 20). وكرر هذه الآية فنزل طائر على رأس الشيخ يسمع قراءته حتى أكملها فنظر إليه فإذا هو هدهد»[34].

3 ـ إحساس من لا يعرف العربية بروعة القرآن

إذا كانت روعة القرآن للمسلمين مِمَّن يعرفون العربية تنبع من جمال الايقاع وبلاغة المعاني معا، فإن روعته لغيرهم ممن لا يعرفون لغة القرآن ولا يفهمونه لا تنبع إلا من تناسب الأصوات، وطيب النغمات، لأن من لا يعرف العربية إذا تأثر بقراءة القرآن فإنما يتأثر بحسن ائتلاف الأصوات، ولذيذ الايقاعات، وقد تعددت الوقائع التي تثبت هذه الحقيقة في شتى العصور والبلدان. وحسبنا أن نورد منها ما شهد به بعض المعاصرين.

قال عبد الخالق عظيمة : «أما إعجاز جرس ألفاظ القرآن وأصوات كلماته فيحس به من له أذن موسيقية، ولو كان أعجميا لا يعرف اللغة العربية.

وقال : في عصرنا وفي أيامنا هذه فتاة أمريكية مسيحية، ثقافتها لا تتجاوز دراسة الموسيقى، سمعت تلاوة القرآن من الاذاعات المختلفة فشد انتباهها جرس ألفاظ القرآن الكريم وأصوات كلماته، ودفعها ذلك إلى أن تتعلم اللغة العربية، حتى تستطيع أن تقرأ القرآن، تعلمت اللغة العربية واستطاعت أن تقرأ القرآن، ولكنها لم تقنع بذلك، وحضرت إلى القاهرة لتتعلم قراءة القرآن مع التجويد على شيخ من شيوخ القراءة».

---

(33) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تصحيح علي محمد الضباع، مصر، (د. ت)، 1/ص : 212ـ213.
(34) نفسه: 212/1ـ213.

قال : «وفيما قرأت : ضابط كندي من جنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية تأثر بقراءة الشيخ محمد رفعت فحضر إلى مجلسه واستمع لقراءته ثم أعلن إسلامه»[35].

وحكى سيد قطب أنه، هو وجماعة من رفاقه أقاموا صلاة الجمعة على ظهر سفينة للركاب، فجاء ركاب السفينة ومعظمهم من غير المسلمين لمشاهدة الصلاة، ولما انتهت الصلاة تقدم المشاهدون لتهنئة المصلين، وكان من بينهم سيدة يوغسلافية بدت شديدة التأثر، تفيض عيناها بالدمع، لا تتمالك مشاعرها، فقالت : إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاة المسلمين وما فيها من نظام وخشوع وروح.

قال سيد قطب : «وليس هذا موضع الشاهد وإنما هو في قولها : أي لغة هذه التي كان قسيسكم يتحدث ؟ فأجبناها : فقالت : إن هذه اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفا. ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن هذا ليس هو الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه، إن الموضوع الذي لفت حسي هو أن الإمام كانت ترد في أثناء كلامه بهذه اللغة الموسيقية فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه، نوع أكثر موسيقية وأكثر إيقاعا. هذه الفقرات الخاصة التي كانت تحدث في رعشة وقشعريرة، إنها شيء آخر، كما لو كان الإمام مملوءا من الروح القدس.

قال سيد قطب : وتفكرنا قليلا، ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة، وفي أثناء الصلاة، وكانت مع ذلك مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة من سيدة لا تفهم مما نقول شيئا»[36].

ثم عقب على هذه القصة بقوله : «وليست هذه قاعدة، ولكن وقوع هذه الحادثة وأمثالها مما ذكر لي غير واحد ذو دلالة على أن في هذا القرآن سرا آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد سماع تلاوته».

في هذه الوقائع ما يكفي لاثبات ما ذكرنا من كون تناسب الأصوات وروعة الإيقاع من أهم أسباب ما ينفرد به القرآن من قوة التأثير.

4 ـ استخدام الإيقاع في طقوس العبادة

لا عجب في أن تكون روعة القرآن للنفوس راجعة، في جانب منها على الأقل، إلى ما يمتاز به القرآن من إيقاع فريد، لأن الايقاع الجميل، وثيق الصلة بالجانب الانفعالي للانسان، وله أثر عميق في تقوية الشعور الديني.

---

(35) دراسة لأسلوب القرآن الكريم، القسم 3، مجلد 1، محمد عبد الخالق عضيمة، مطبعة حسان، القاهرة، (د. ت)، ص: 7—8.

(36) في ظلال القرآن : 4/422—423.

وقد عرف الحكماء هذه الحقيقة واستخدموها للتأثير على النفوس. ذكر إخوان الصفاء أن الناس كانوا يستدفعون المناحس والبلاء بالدعاء والبكاء، وكانوا يستعملون عند الضراعة والقراءة ألحانا من الموسيقى تسمى «المُحْزن» وهي التي ترقق القلوب إذا سُمعت، وتُبكي العيون، وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب[37].

وذكروا الغرض النفسي والديني من استخدام الألحان في الهياكل وبيوت العبادات، فقالوا : «وهذا كان غرض الحكماء من استعمالهم الألحان الموسيقية ونغم الأوتار في الهياكل وبيوت العبادات عند القرابين في سنن النواميس الالهية، وخاصة الألحان المُحزنة المُرققة للقلوب القاسية، المذكرة للنفوس الساهية، والأرواح الإلهية. وكانوا يلحنون مع نقرات تلك الأوتار كلمات وأبياتا موزونة قد ألفت في هذا المعنى، ووصف فيها نعيم عالم الأرواح، ولذات أهلهم وسرورهم، كما يقرأ غزاة المسلمين عند النفير آيات من القرآن أنزلت في هذا المعنى لترقق القلوب وتشوق النفوس إلى عالم الأرواح، ونعيم الجنان مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة التوبة : 111)»[38].

وكرر إخوان الصفا هذا المعنى في مكان آخر بصيغة إجمالية، فأوضحوا أن استعمال أصحاب النواميس الإلهية للموسيقى في الهياكل وبيوت العبادات، وعند القراءة في الصلوات، وعند القرابين والدعاء والتضرع والبكاء، كما كان يفعل داود النبي عليه السلام عند قراءة مزاميره، وكما يفعل النصارى في كنائسهم، والمسلمون في مساجدهم من طيب النغمة ولحن القراءة، فإن كل ذلك لرقة القلوب، ولخضوع النفوس ولخشوعها، والانقياد لأوامر الله تعالى ونواهيه، والتوبة إليه من الذنوب[39].

فالايقاع إذن وثيق الصلة بالعبادات، وله مكانة خاصة في لغة الكتب السماوية، فإنها نزلت بلغة إيقاعية، لكن الإيقاع فيها يختلف عما هو معروف في الشعر الدنيوي. وكانت المزامير والأناشيد العبرية والأحاديث الإنجيلية مبنية على أسلوب الموازنة. وما يزال الإنشاد الموسيقي من شعائر الكنيسة المسيحية.

---

(37) رسائل إخوان الصفا : 186/1ـ187.

(38) نفسه : 208/1ـ209.

(39) نفسه : 186/1ـ187.

وقد استخدم الإيقاع في القرآن بطريقة محكمة، وكان يؤلف في التعبير بين الغرض الديني والغرض الفني الجمالي، ويجعل هذا الغرض الثاني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، التي يعد الإيقاع أحد ركائزه. والفن والدين صنوان يتلاقيان في أعماق النفس وقرارة الروح.

وسيأتي في الفصول الآتية تحليل نماذج من الآيات القرآنية إيقاعيا، غير أنه من المفيد أن نوضح هنا أن البنية الإيقاعية لتلك الآيات تتألف من عناصر صوتية وإيقاعية متداخلة تتصل اتصالا وثيقا بالمعاني، وتشمل تلك العناصر الأصوات والحركات والمقاطع الصوتية، وتعادل الفقرات، كما تشمل الكلمات وأبنيتها، وتناسب الفواصل. ودراسة التناسب الإيقاعي تقتضي النظر إلى هذه العناصر مجتمعة، غير أن هذا الضرب من التحليل ليس ميسرا، لذلك أثرنا أن نأخذ كل عنصر على حدة، لتسهيل الدراسة، ولإفساح المجال، في كل فصل، لعرض آراء العلماء في قيمة كل عنصر عنصر، ومناقشتها، قبل أن نعرض النماذج القرآنية التي تتجلى فيها قيمتها في التناسب الإيقاعي لنظم الآيات.

البابُ الخامس

التّناسُب اللّفظي

الفصل الأول

تناسب المشاكلة

كان مصطلح «المشاكلة» يستعمل في الدراسات القرآنية والبلاغية بمعنيين : أحدهما عام، يشمل الكثير من أوجه التناسب اللفظي، وثانيهما محدود، جعله بعض البلاغيين خاصا بالأسلوب الذي يذكر فيه الشيء باسم غيره لوقوعه في صحبته.

والمشاكلة بمفهومها العام أصل من أصول العربية، تطلب في الكلام، ويترك لأجلها ما هو قياس في الصرف أو الاعراب، ويتعمدها الفصحاء لما لها من قيمة جمالية.

وقد أكد العديد من كبار علماء اللغة هذا الأصل. ذكر أبو علي الفارسي أنه «قد تحدث أشياء توجب تقديم غير الأصل على الأصل للتشاكل، وهو ما يوجب الموافقة[1]».

وقال : «وإذا كانوا قد استجازوا لتشاكل الألفاظ وتشابهها، أن يجروا على الثاني، طلبا للتشاكل، ما لا يصح في المعنى على الحقيقة، فأن يلزم ذلك ويحافظ عليه فيما يصح أجدر وأولى»[2].

وذكر ابن الحاجب في أماليه أن الشيء قد يكون غير فصيح فيلحقه أمر فيجعله فصيحا، كقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ (سورة العنكبوت : 19).

وقال : «إن الفصيح (بدأ يبدأ) الثلاثي، بل لا يكاد يسمع (أبدأ) الرباعي، لكن فصح (يُبْدِئُ) بما حسّنه من التناسب مع قوله تعالى : «يُعيده» »[3].

ولهذا ناقش السبكي في عروس الافراح ما ذهب إليه بعض البلاغيين من اشتراط عدم مخالفة القياس في فصاحة الكلام، وخالفهم، مستدلا بما ورد في القرآن الكريم، وأنكر قول من ذهب إلى أن الكلمة غير الفصيحة قد تقع في القرآن[4].

---

(1) الحجة في القراءات السبع : لابن خالويه، تحقيق عبد العال سالم مكرم، ط. 3، 1979 : 52/1 — 53.

(2) الحجة في علل القراءات السبع : 236/2.

(3) انظر فيض الفتاح على نور الاقاح، للشنقيطي، طبعة حجرية بفاس 1329هـ : 19/1.

(4) عروس الأفراح. ضمن شروح التلخيص : 91/1.

وللمشاكلة اللفظية صور كثيرة، وطرق عديدة، ليست مخالفة القياس إلا واحدة منها.

وقد تتبعنا هذا الوجه من التناسب اللفظي في النظم القرآني فوجدنا منه صورا عديدة، يمكن إجمالها فيما يلي :

ـ مشاكلة المجازاة : وهي تسمية الجزاء على الفعل باسم الفعل أو تسمية الفعل باسم الجزاء.

ـ مشاكلة الاشتقاق والتصريف : وهي أن يشترك اللفظان في المادة اللغوية أو في جزء منها، مع اختلاف المعنيين.

ـ مشاكلة التجانس الصوتي.

ـ المشاكلة اللفظية بين أول الآية وختامها.

ـ المشاكلة في تشكيل الصور البيانية.

1 ـ مشاكلة المجازاة:

هذه هي الصورة الأولى من المشاكلة اللفظية في لغة القرآن. ويكثر وقوعها في الآيات التي تضمنت الإشارة إلى جزاء الله تعالى على الأفعال السيئة كالاستهزاء، والخداع، والمكر، ونسيان الله وآياته في الدنيا.

▫ الاستهـــزاء :

قال تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة البقرة : 14ـ15).

قال الزمخشري : «فإن قلت : لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى، لأنه متعال عن القبيح. والسخرية من باب العيب والجهل. قلت : معناه إنزال الهوان والحقارة بهم.. وقيل سمي جزاء الاستهزاء باسمه»(5).

وقال الشريف الجرجاني : «وذلك لما بين الفعل وجزائه من ملابسة قوية، ونوع سببية مع وجود المشاكلة المحسنة ههنا»(6).

---

(5) الكشاف : 187/1.

(6) حاشية الشريف الجرجاني على هامش الكشاف للزمخشري، طهران، (د. ت) : 187/1.

- السخــريــة :

قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ، وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة : 79).

قوله : «سخر الله منهم» : قيل صيغته خبر، ومعناه الدعاء، وقيل معناه جازاهم على سخريتهم. وجزاء الشيء قد يسمى باسم الشيء(7).

وقال ابن عطية : تسمية للعقوبة باسم الذنب(8).

- الخــداع :

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (سورة النساء : 142).

قال الزمخشري : «وهو خادعهم» : وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة(9).

وقال أبو حيان الغرناطي : «ومعنى «وهو خادعهم» أي منزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سماها باسم الذنب»(10).

- المكــر :

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ، وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران : 54).

وقال : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال : 30).

وقال : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ (سورة الأعراف : 99).

وقال : ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ (سورة يونس : 21).

وقال : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ (سورة الرعد : 42).

وقال : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة النمل : 50).

---

(7) البحر المحيط : 76/1.

(8) نفسه. 1/ ص : 76.

(9) الكشاف : 573/1.

(10) البحر المحيط : 377/3.

ومكر الله هو مجازاته على المكر. سمي ذلك مكرا، لأن المجازاة ناشئة عن المكر.. وكثيرا ما تسمى العقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه[11].

وقال العز بن عبد السلام : «سخرية الله واستهزاؤه ومكره وخدعه من مجاز التشبيه، ويجوز أن يكونِ من مجاز تسمية المسبب باسم سببه، فإن سخريته تعالى واستهزاءه ومكره مسبب على استهزائهم ومكرهم وسخريتهم»[12].

• النسيـان :

قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ (سورة الأعراف : 51).

وقال : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (سورة التوبة : 67).

وقال : ﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (سورة طه : 126).

وقال : ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ (سورة السجدة : 14)

وقال : ﴿وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (سورة الجاثية : 34).

وفُسر النسيان المسند إلى الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات بأنه «إخبار من الله تعالى عما يفعل بالمذكورين. فقال ابن عباس وجماعة : «يتركهم في العذاب، كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم»[13]. وقال قتادة : «نُسُوا من الخير ولم يُنسوا من الشر»[14]. وقال الزمخشري «يفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير، لا يذكرونهم به»[15].

قال أبو حيان الغرناطي : «وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة، فهو من جهة الله تسمية العقوبة باسم الذنب»[16].

ومن قبيل مشاكلة المجازاة ما ورد في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (سورة الزخرف : 59).

وقوله : ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً﴾ (سورة الأنفال : 19).

وقوله : ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ (سورة الإسراء : 8).

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ (سورة الإسراء : 15—16).

(11) انظر البحر المحيط : 472/2.

(12) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : 109.

(13) عن البحر المحيط : 305/4.

(14) نفسه. 305/4.

(15) الكشاف : 82/2.

(16) البحر المحيط : 305/4.

«إنهم، أي الكافرون، يكيدون لإطفاء نور الحق وإبطال أمر الله. وقوله : «وأكيد» أي أجازيهم على كيدهم فسمى الجزاء كيدا على سبيل المقابلة نحو قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ (سورة آل عمران : 54). وقوله : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (سورة البقرة : 14ـــ15)»[17].

ويمكن أن يلحق بهذا الضرب من المشاكلة اللفظية آيات أخر تضمنت إسناد «إزاغة» القلوب، و«صرفها» إلى الله تعالى. كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (سورة الصف : 5).

وقوله : ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (سورة التوبة : 127).

قال أبو الحسن الرماني : «جونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد، وهو الذهاب عن الشيء. أما هم فذهبوا عن الذكر، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير»[18].

وقوله تعالى حكاية لقول عيسى عليه السلام : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (سورة المائدة : 116).

وقوله تعالى خطابا لمحمد ﷺ : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ (سورة المؤمنون : 72).

وقوله «فخراج ربك» معناه : عطاء ربك. وأوثر التعبير بالخراج، مراعاة لحسن المشاكلة اللفظية، ولأن هذا اللفظ يؤدي هذه الوظيفة الجمالية، ويؤدي في الوقت نفسه المعنى المراد كاملا غير منقوص.

وآثر القرآن استعمال هذه الصورة من المشاكلة اللفظية في صياغة الآيات التي تضمنت إرشاد العباد إلى العدل في العقاب، وردّ الاعتداء، والجزاء على السيئة، كما في قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (سورة الشورى : 40). قال المفسرون : «هذا بيان للانتصار. أي لا يتعدى فيما يجازي به من بُغي عليه... وسمّى القصاص سيئة على سبيل المقابلة (المشاكلة)»[19].

وقال الزمخشري : «والمعنى : أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة»[20].

---

(17) البحر المحيط : 456/8.

(18) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 92.

(19) انظر البحر المحيط : 523/7.

(20) الكشاف : 473/3.

وقال تعالى : ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة : 178).

قال الرماني : أي جازوه بما يستحق على طريق العدل. إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان»[21].

وقوله «فاعتدوا» ليس أمرا على التحتم، إذ يجوز العفو. وسمي ذلك اعتداء على سبيل «المقابلة» أي اعتداء مماثلا لاعتدائه.

وقال تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ (سورة النحل : 126). فسمى الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة (المشاكلة). والمعنى : إن صنع بكم صنيع سوء، من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه[22].

وقال أبو حيان الغرناطي : «وسمى المجازاة على الذنب معاقبة، لأجل المقابلة (المشاكلة) والمعنى : قابلوا من صنع بكم صنيع سوء بمثله. وهو عكس «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللهُ»[23].

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللهُ﴾ (سورة الحج : 60).

فسُمي الفعل الأول معاقبة على سبيل المشاكلة اللفظية. قال الزمخشري «تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث إنه سبب، وذلك مسبب عنه، كما يحملون النظير على النظير، والنقيض على النقيض للملابسة»[24].

وقد يؤثر القرآن المشاكلة اللفظية بناء على كلام مقدر، فيؤثر اللفظ الذي يناسب المعنى ويحقق هذا الغرض البلاغي في آن واحد. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً﴾ (سورة البقرة : 138) والمعنى : تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل في ذلك أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر، يسمونه المعمودية، ويقولون : هو تطهير لهم ؛ وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانيا حقا. فأمر المسلمون أن يقولوا لهم : ﴿آمَنَّا بِٱللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾ إلى قوله : ﴿صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً﴾ أي صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم. قال الزمخشري : «وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريق المشاكلة»[25]. وجيء بهذا اللفظ للمشاكلة، وإن لم يكن قد تقدم، لأن قرينة الحال التي

(21) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 91.

(22) انظر الكشاف : 435/2.

(23) البحر المحيط : 549/5.

(24) الكشاف : 20/3.

(25) نفسه : 316/1.

هي سبب النزول، من غمس النصارى أولادهم في الماء الأصفر، دلت على ذلك[26].

الأمثلة التي عرضناها حتى الآن تمثل الصورة الأولى من صور المشاكلة اللفظية في لغة القرآن الكريم، وهي التي سميناها مشاكلة المجازاة. وقد آثرنا تقييد مصطلح المشاكلة بهذا التقييد، لأنها ــ كما تبين الأمثلة ــ مشاكلة تقع فيما بين الذنب وجزائه، فيسمى أحدهما باسم الآخر.

وقد ظهر من الأمثلة التي حللناها أن هذه الصورة من المشاكلة اللفظية أتت في القرآن بأسلوبين :

1 ــ الأول أن يسمى الجزاء والعقاب باسم الذنب وهذا هو الأكثر ومنه جميع الآيات التي ذكر فيها جزاء الله على أفعال العباد السيئة : كما في : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾... ومنه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. و﴿فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

2 ــ الثاني : هو أن يسمى الذنب باسم الجزاء وهو عكس الأسلوب الأول. ومنه : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾. و﴿إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أسلوبا ثالثا، هو الذي تكون فيه المشاكلة اللفظية مبنية على لفظ مقدر، كما رأينا في المثال الأخير.

2 ـ مشاكلة التجنيس والاشتقاق :

وهذه هي الصورة الثانية من المشاكلة اللفظية، وهي كثيرة في القرآن الكريم. وتعد من أساليب التعبير الفني الجميل ومن فنون البيان التي تقع موقعا طيبا في النفوس.

وقد تناول البلاغيون هذا اللون من المشاكلة ضمن فن الجناس أو التجانس، لأنها عبارة عن استعمال لفظين، يجمعهما أصل واحد في اللغة، للدلالة على معنيين.

وقد تناوله أبو الحسن الرماني تحت مصطلح المناسبة التي هي من التجانس[27].

وذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أن مزية هذا الفن من التعبير تكمن في حيز المعنى، يفهم ذلك من قوله وهو يتحدث عن قيمة الجناس : إن المتكلم قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها. فبهذه السريرة صار الجناس من حِلَى الشعر»[28].

(26) الإيضاح في علوم البلاغة، ص : 361.

(27) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 92.

(28) أسرار البلاغة، ص : 12.

وَرَدُّ علة هذا الأسلوب الجمالية إلى حيز المعنى، هو في الحقيقة جزء من مذهب في البلاغة وإعجاز القرآن ذهب إليه عبد القاهر، وبناه على أصول المذهب الأشعري في العقيدة[29].

وأما غير عبد القاهر من البلاغيين فإنهم يذهبون إلى أن علة جمال هذا الأسلوب ترجع إلى فن الصياغة اللفظية، ولذلك صنفوه مع فنون البديع المتعلقة بالألفاظ.

ولبيان رأي هذا الفريق نسوق ما ذكره بعضهم في تعليل جمال هذا الأسلوب :

أورد أبو محمد السجلماسي قول الشاعر :

وَذَلِكُمْ أَنْ ذُلَّ ٱلْجَارِ حَالَفَكُمْ ... وَأَنَّ أَنْفَكُمْ لاَ يَعْرِفُ ٱلْأَنَفَا[30]

فأوضح ما بين لفظتي «أنفكم» و«الأنفا» من الاتفاق في المادة اللغوية... ثم قال : «فكان له من الحلاوة، وحسن الموقع، وارتياح النفس نحوه، والاهتزاز ما لا يكون لو قيل مثلا: «وأن أنفكم لا يعرف الغضبا». ولم يكن كذلك لعدم الاشتقاق المؤذن بالتناسب الذي جلبت النفوس الناطقة على إدراكه، والارتياح والطرب بإدراكه[31].

وأشار السيوطي إلى أن فائدة هذا اللون من التناسب اللفظي تكمن في الميل والإصغاء إليه، «فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها، ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى، ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس شوق إليه»[32].

ونحن حين نجعل هذا الفن من صور المشاكلة اللفظية في القرآن لا نعني أنه حِلية لفظية زائدة، وقد بينا مرات عديدة أن الميزة التي انفرد بها القرآن، في استعمال هذه الفنون التعبيرية، هي أنه يجمع فيها بين الوفاء بحق اللفظ والمعنى على حد سواء.

وسنحاول أن نبين هذه الميزة من خلال الأمثلة التي سنعرضها.

سبق أن أشرنا إلى أن أمثلة هذا الأسلوب كثيرة في القرآن، وقد انتهينا من استقرائها إلى أن هذا اللون من المشاكلة اللفظية يأتي على أضرب مختلفة منها :

1 ـ أن يكون من اسم وفعل.
2 ـ أن يكون من فعلين
3 ـ أن يكون من اسمين.

---

(29) انظر في ذلك المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن : 293.

(30) البيت لأحد بني عبس، ولعله التوزي عبد الله بن محمد بن هارون. (إعجاز القرآن : 129) و(الموازنة : 265/1) و(العمدة : 328/1).

(31) المنزع البديع، ص : 502.

(32) الإتقان في علوم القرآن : 90/2.

• الضـرب الأول :

قال تعالى : ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ﴾ (سورة البقرة : 272).

وقال : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ (سورة آل عمران : 37).

وقال : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ (سورة المائدة : 27).

وقال : ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا ٱلَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ (سورة الأنعام : 128).

وقال : ﴿لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة الأنعام : 128).

وقال : ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ...﴾ (سورة الأنفال : 7—8).

وقال : ﴿وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ (سورة التوبة : 29).

وقال : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (سورة الأنعام : 79).

وقال : ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة الأنعام : 88).

وقال : ﴿وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ، وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (سورة التوبة : 120).

وقال : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (سورة يونس : 26).

وقال : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ (سورة يونس : 63).

وقال : ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ (سورة يوسف : 19).

وقال : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ (سورة النحل : 30).

وقال : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ﴾ (سورة الإسراء : 18).

وقال : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (سورة الحج : 67).

وقال : ﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ﴾ (سورة النور : 37).

وقال : ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (سورة الشعراء : 197).

وقال : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (سورة النمل : 44).

وقال : ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنْشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ (سورة العنكبوت : 20).

وقال : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا السوءىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ (سورة الروم : 10).

وقال : ﴿فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (سورة الروم : 30).

وقال : ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِن رِباً لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ (سورة الروم : 39).

وقال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ (سورة الروم : 43).

وقال : ﴿وَٱلَّذِي جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ...﴾ (سورة الزمر : 33).

وقال : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (سورة قٓ : 17).

وقال : وَغَرَّكُمْ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (سورة الحديد : 14).

وقال : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ (سورة التغابن : 9).

وقال : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ (سورة المدثر : 8).

وقال : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ (سورة النازعات : 6).

وقال : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ...﴾ (سورة الواقعة : 1).

وقال : ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (سورة الأعلى : 8).

هذه جملة أمثلة من الضرب الأول من مشاكلة التجنيس والاشتقاق، وهي تكفي لإعطاء فكرة عن نسبة ورودها في لغة القرآن. ولم نر حاجة إلى عرض كل الآيات التي خرجنا بها من عملية الاستقراء، لأنها كثيرة، وما كان منها مكررا اكتفينا منه بمثال واحد. وتقع المشاكلة اللفظية في هذا الضرب بين كلمتين من أصل لغوي واحد، إحداهما فعل والثانية إسم. غير أن ما عرضنا من الأمثلة يظهر أن هذا الأسلوب لا يجري على نمط واحد، بل يجري على نمطين : نمط يتقدم فيه الفعل ثم يليه الإسم، وهذا هو الأكثر، ونمط يبدأ بالإسم ثم يليه الفعل، وهو قليل، والأمثلة التي قدمناها تظهر تفاوتا كبيرا في نسبة وقوع هذين النمطين في القرآن. وواضح ما لهذا اللون من التناسب اللفظي من حلاوة وعذوبة في النفس.

. الضرب الثاني :

وهو الذي تقع فيه المشاكلة اللفظية بين فعلين، ومن هذا الضرب قوله تعالى : ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (سورة المائدة : 9).

وقوله : ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (سورة التوبة : 127).

وقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ (سورة الطور : 33).

وقوله : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (سورة الصف : 5).

الضرب الثالث :

وهو أن تقع المشاكلة اللفظية بين إسمين يجمعهما أصل لغوي واحد. ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ.. لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ (سورة البقرة : 233).

وقوله : ﴿.. وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ..﴾ (سورة آل عمران : 14).

وقوله : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ (سورة آل عمران : 26).

وقوله : ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ (سورة يونس : 35).

3 ـ مشاكلة التجنيس الصوتي :

صورة أخرى من المشاكلة اللفظية، وهي التي تكون بين كلمتين لا يجمعهما أصل لغوي واحد، وإنما الذي يجمع بينهما هو هذا التجانس الصوتي، الذي يستلذ في الكلام، إذا أتى بريئا من التكلف والتعسف. ومن هذه الصورة قوله تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (سورة البقرة : 144).

وقوله : ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة المائدة : 55).

وقوله : ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ (سورة الأنعام : 32).

وقوله : ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيءَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ (سورة التوبة : 61).

وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (سورة التوبة : 38).

وقوله : ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَى يُوسُفَ﴾ (سورة يوسف : 84).

وقوله : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (سورة النجم : 12).

وقوله : ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (سورة الرحمن : 54)

وقوله : ﴿أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ (سورة الواقعة : 69).

وقوله : ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ (سورة الواقعة : 89).

وقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (سورة غافر : 75).

وقوله : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ (سورة الأنعام : 26).

وقوله : ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (سورة الكهف : 104).

وقوله : ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ (سورة الشعراء : 168).

4 ـ المشاكلة اللفظية بين مطلع الآية وخاتمتها

تناول البلاغيون وعلماء الدراسات القرآنية هذه الصورة من التناسب ضمن صور التناسب المعنوي، ووضعوا لها مصطلحات متعددة، كـ«التصدير»، و«الإرصاد»، و«التوشيح»، و«التذييل» و«المناسبة»، و«رد العجز على الصدر». واعتمدوا في ذلك على ما في هذا الأسلوب من رد آخر الكلام على أوله، وإعادة كلمة من كلمات عجزه على صدره.

وكان بعض أهل البديع يفرق في هذا الأسلوب بين صورتين : صورة يعاد فيها، في خاتمة الكلام، شيء مما ذكر في صدره، بمعناه دون لفظه، وصورة أخرى يعاد فيها المعنى بلفظه، وجعل لكل صورة مصطلحا خاصا.

وهذه الصورة الثانية هي التي نعني هنا، ونرى أنها من صور المشاكلة اللفظية والتناسب المعنوي معا. ولو كان الغرض منها هو التناسب المعنوي فحسب، لأعيد المعنى دون اللفظ. واستقراء أمثلة هذا الأسلوب في الآيات القرآنية يوضح ما نذهب إليه.

هذا الأسلوبْ يكثر استعماله في الآيات التي تختم بتعقيب يتمم المعنى، ويرد آخر الآية على أولها، تأكيدا أو بيانا أو تعليلا، وكثيرا ما يفصل بين صدر الآية والتعقيب عليها، عند القراءة، بوقف يشعر بأن ذلك التعقيب جيء به لأداء وظيفة من الوظائف التي أشرنا إليها.

ومن الآيات التي جاء فيها التعقيب تعليلا لمعنى مذكور في صدرها، مع مراعاة المشاكلة اللفظية، قوله تعالى :

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (سورة آل عمران : 8).

وقوله : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران : 76).

وقوله : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران : 159).

وقوله : ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المائدة : 42).

وقوله : ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة : 190).

فالمشاكلة اللفظية واضحة في هذه الأمثلة، لأن التعقيب الذي ختم به كل منها اشتمل على لفظ مناسب في الاشتقاق للفظ آخر في صدرها.

وهذه التعقيبات أدت، إلى جانب هذه الوظيفة الجمالية، وظيفة معنوية، لأنها تضمنت تعليل ما ورد في صدر الآية، ولذلك دخلت في أولها أداة التأكيد التي تفيد التعليل في أفصح استعمالاتها، وهي «إن»، فكأن المعنى : وهب لنا من لدنك رحمة، لأنك أنت الوهاب... ولا تعتدوا، لأن الله لا يحب المعتدين.

ومن الآيات التي جاء فيها التعقيب للبيان والتكميل، مع مراعاة المشاكلة اللفظية، قوله تعالى :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (سورة النساء : 81).

وقوله : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (سورة النساء : 99).

وقوله : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ. وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً.﴾ (سورة النساء : 147).

وقوله : ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ (سورة النساء : 149).

وقوله : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة المائدة : 64).

وقوله : ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة الأعراف : 87).

وقوله : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (سورة الأعراف : 89).

وقوله : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِئُوا، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (سورة التوبة : 64).

وقوله : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (سورة التوبة : 108).

وقوله : ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة يونس : 52).

وقوله : ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (سورة يوسف : 52).

وقوله : ﴿وَمَالَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (سورة إبراهيم : 12).

وقوله : ﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ، لاَ جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّ ٱللَّهَ لاَيُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (سورة النحل : 29).

وقوله : ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة النحل : 124).

وقوله : ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (سورة الإسراء : 21).

وقوله : ﴿خُلِقَ ٱلإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ، سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (سورة الأنبياء : 37).

وقوله : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الأنبياء : 42).

وقوله : ﴿لاَ تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ، وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَى﴾ (سورة طه : 61).

وقوله : ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (سورة آل عمران : 187).

ويظهر من هذه الأمثلة أن هذا اللون من التناسب اللفظي الذي يجعل من المشاكلة اللفظية بين أول الآية وآخرها، سببا لإحكام الربط بين أجزاء القول، له قيمة جمالية وبيانية، تزيد من بلاغة الكلام وحسنه. وقد نوه أبو محمد السجلماسي بقيمته الجمالية إذ قال : «ويكسب البيت الذي يكون فيه، والقول بالجملة الذي يحله هذا الفن من النظم أبهة وجمالا، ويكسوه رونقا وديباجة، ويزيده ماء وطلاوة»[33].

5 ـ المشاكلة في تشكيل الصور البيانية

المشاكلة في رسم الصور البيانية قريبة مما يسمى عند المصورين بـ«وحدة الرسم»، وهي من القواعد الأولية في فن التصوير، وهي أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة، فلا تتنافر جزئياتها، بل يتحتم أن تكون متناسبة.

والتصوير في الأسلوب القرآني يقوم على هذه القاعدة، بمعنى أنه يراعي التناسب بين أطراف الصورة البيانية.

(33) المنزع البديع، ص : 409.

والتصوير في الأسلوب القرآني، هو قبل كل شيء، تصوير بالألفاظ. ومراعاة التناسب بين أجزاء الصورة يعني بالضرورة مراعاة المشاكلة بين الألفاظ.

والتصوير من الأساليب التعبيرية البارزة في أسلوب القرآن، وكل الأمثال التي وردت فيه من هذا الأسلوب، ولا يتسع المجال هنا لعرض كل الأمثال القرآنية. وحسبنا أن نقدم أمثلة توضح ما نعنيه بالمشاكلة في تشكيل الصور :

1 ــ قال تعالى : **﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً، بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾** (سورة الجمعة : 5).

يعني بقوله : «الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها «بني إسرائيل» الذين كلفوا بإقامة شرع الله، الذي أنزل إليهم في التوراة. ولكن القرآن لم يقل : كلفوا، ولا أمروا، ولا فرض عليهم، وإنما قال : «حُمِّلُوا»، وبعدها : «لَمْ يَحْمِلُوا»، أي لم يمتثلوا ولم يقوموا بما فرض عليهم، ليأتي الطرف الأول من الصورة البيانية مناسبا للطرف الثاني. والطرف الثاني هو قوله تعالى : «كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً»، وفيه صورة للحمار يحمل أسفارا على ظهره، لكنه لا يعلم شيئا من قيمة ما يحمل، والمشاكلة اللفظية هي في استعمال الألفاظ المشتقة من «الحمل» في التعبير عن التكليف، وفي التمرد على الامتثال. وهذه المشاكلة هي الأداة الفنية التي استخدمها القرآن للحفاظ على وحدة الصورة وتناسب أجزائها.

2 ــ وقال تعالى : **﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾** (سورة الملك : 15).

قوله : «ذلولا» تصوير للأرض التي تسبح في الفضاء، والإنسان على ظهرها، في صورة حيوان مركوب، مطيع لراكبه، خاضع لإرادته وحاجته. وقوله بعد ذلك : «فامشوا في مناكبها» تعبير مناسب لهذه الصورة، والمنكب هو مجتمع رأس الكتف والعضد. والمراد فامشوا في أنحائها. ولو قيل : «فامشوا في أنحائها» لما كان مناسبا ولا بارعا، ولفاتت وحدة الصورة وتناسب أجزائها.

3 ــ وقال تعالى : **﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ ٱللَّيْلِ سَكَناً﴾** (سورة الأنعام : 95ــ96).

لما كان السياق في ذكر صفات الله تعالى، وبيان آثار قدرته في شق الحب والنوى وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي. وكلها صور من بث الحياة في الوجود، لما كان السياق في ذلك عبر عن انبلاج الصبح بما يناسبه فقال : «فالقُ الإصباح» وفي هذا التعبير إيحاء بأن الصبح يشق كما يشق الحب والنوى، وبأنه وقت لانشقاق الحياة والحركة في الوجود، بعد سكون الليل. والمقابلة بين «فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنا» يوضح هذا المعنى.

وهناك أمثلة أخرى نكتفي بتقديمها :

1 ـ قال الله تعالى : ﴿لاَ تُدرِكُهُ ٱلأَبصَارُ، وَهُوَ يُدرِكُ ٱلأَبصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبصَرَ فَلِنَفسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (سورة الأنعام : 104ـ105).

2 ـ وقال تعالى : ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِٱلحَقِّ وَأَكثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلحَقُّ أَهوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلأَرضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (سورة المؤمنين : 71).

وعن قتادة : أن الحق في قوله : «ولو اتبع الحق أهواءهم» هو الله.

3 ـ وقال : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لأَغلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ لاَ تَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱليَومِ ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ... أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنهُ﴾ (سورة المجادلة : 22).

4 ـ وقال : ﴿وَأَنزَلنَا مَعَهُمُ ٱلكِتَابَ وَٱلمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلقِسطِ، وَأَنزَلنَا ٱلحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (سورة الحديد : 25).

فالمشاكلة اللفظية واضحة في هذه الآيات، ففي الآية الأولى قوله تعالى : «وهو يدرك الأبصار» وهو بيان بأن الله تعالى يدرك الأشياء كلها، جليلها ودقيقها، واللفظ القرآني يؤدي هذا المعنى بطريقة جمعت بين وضوح الدلالة، وجمال العبارة. ومنشأ جمالها هذه المشاكلة اللفظية. وقوله تعالى : ﴿هَذِهِ بَصَائِرُ من رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَبصَرَ فَلِنَفسِهِ﴾ ، وارد أيضا على النسق الأول، فتم التناسب في نسق الآية وتناسبت مواد نظمها.

وقوله تعالى في الآية الثانية : «ولو اتبع الحق أهواءهم» على رأي من قال من المفسرين : إن الحق هو الله، وارد على أسلوب المشاكلة الذي يحفظ وحدة نسق العبارة، ويزيد من بهائها ورشاقتها.

وقوله تعالى في الآية الثالثة : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلإِيمَانَ﴾ إشارة إلى تثبيت الإيمان في قلوب الموصوفين. وقيل هنا «كَتَبَ فِي قلوبهم الإيمان» ليناسب قوله في أول الآية : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لأَغلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

وقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلنَا ٱلحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ﴾ لا يعني أن الحديد أنزل حقيقة إلى الأرض، فهو منها، وهي مصدره، ولكن لما قيل قبل «وأنزلنا معهم الكتاب والميزان» عبر عن إيجاد الحديد وتكوينه بالإنزال مراعاة لهذا الملحظ الجمالي في العبارة، مع الوفاء بحق المعنى.

وهذا اللون من التناسب يتصل بالمشاكلة اللفظية من وجه، وبوحدة النسق من وجه آخر. وقد مرت أمثلة أخرى منه في الفصول السابقة.

الفصل الثاني

تناسب المجاورة والإتباع

ذكر علماء اللغة أن العرب يحملون اللفظ على ما يجاوره، ويغيرون كثيرا من كلامهم عن قوانينه النحوية أو الصرفية للاتباع والمجاورة. كما جرت عادة النحاة أن يعللوا بالمجاورة كثيرا من الظواهر النحوية.

قال ابن فارس : «للعرب الإتباع، وهو أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها ورويها إشباعا وتأكيدا»[1].

ونقل عن الفراء وغيره : أن العرب إذا ضمت حرفا إلى حرف، فربما أجروه على بنيته، ولو أفرد لتركوه على جهته. من ذلك قولهم : إنني لآتيه بالعشايا والغدايا. فجمعوا «الغداة» على «غدايا»، لما ضمت إلى العشايا. وأنشد للقلاح بن حباب :

هَتَّاكُ أَخْبِيَةٍ وَلاَّجُ أَبْوِبَـةٍ   يَخْلِطُ بِالْجِدِّ مِنْهُ ٱلْبِرَّ وَاللِّينَـا

فجمع الباب على «أبوبة»، إذ كان متبعا «لأخبِيَةٍ» ولو أفرد لم يجز[2].

ومما خالفوا فيه الأصل للمجاورة قولهم : «هَنَأَنِي الطعامُ وَمَرَأَنِي» فإذا أفردوا قالوا : «أمرأني».

ومن ذلك قولهم : «جاء فلان بالضيح والريح». وأصله بالضّح، أي بما طلعت عليه الشمس وجرت به الريح. فقيل «الضيح للازدواج مع الريح».

ومن ذلك ما ورد في الحديث : «ارجعن مأزرات غير ما مأجورات». والأصل : موزورات من الوزر[3].

(1) عن المزهر في علوم اللغة وأنواعها : 414/1.

(2) أدب الكاتب، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط. 4، مطبعة السعادة بمصر 1963، ص : 485—486.

(3) الاقتضاب، ص : 219. وسر الفصاحة، ص 177. والصناعتين، ص 276.

ومن ذلك قولهم : «أخذني ما قَدُمَ وَمَا حَدُثَ». لا يضم الدال من «حدث» في شيء من الكلام إلا في هذا الموضع، وذلك لمكان «قَدُم» على الازدواج[4].

قال ابن الزبير الغرناطي : «العرب تراعي مجاورة الألفاظ فتحمل اللفظ على مجاوره لمجرد المضارعة اللفظية، وإن اختلف المعنى. ومنه الاتباع في يسوؤك وينوؤك[5].

والأصل يُنيئك بضم الياء وكسر النون متعديا، على مثال يزيلك وزنا وتعدية. فإذا ضم إلى «يسوؤك» ترك الأصل للاتباع.

وقال أبو علي الفارسي : «قد تحدث أشياء توجب تقديم غير الأصل على الأصل طلبا للتشاكل وما يوجب الموافقة»[6].

وقال أيضا : «وإذا كانوا قد استجازوا لتشاكل الألفاظ وتشابهها أن يجروا على الثاني، طلبا للتشاكل، ما لا يصح في المعنى، فأن يلزم ذلك ويحافظ عليه فيما يصح في المعنى أجدر وأولى»[7].

وقال أبو حيان الأندلسي : «قد يسوغ في الكلمة مع الاجتماع مَا لَا يسوغ فيها إذا انفردت»[8].

وموجز القول أن العرب يغيرون كثيرا من كلامهم عن قوانينه للازدواج والاتباع حتى قالوا : «مَا يَعْرف سُحَادِلَيْهِ من عُنَادِلَيْهِ»، فثنوا ما هو وتر، لأجل ما هو شفع[9].

وقد وقع الاتباع للمجاورة في لغة القرآن، ووردت فيه ألفاظ وتراكيب خارجة عن القياس النحوي والصرفي الذي وضعه النحاة.

وقد اعتمد تاج السبكي على ذلك في مناقشة الذين اشترطوا في فصاحة الكلمة عدم مخالفة القياس، واحتج عليهم بما ورد من ذلك في القرآن[10].

وصور الاتباع في لغة القرآن متنوعة، فهناك إتباع لفظي، وهو الذي تغير فيه الكلمة عن القياس، لتناسب كلمة مجاورة لها مناسبة لفظية، وهناك إتباع صوتي، وهو الذي تغير فيه الحركات والأصوات للعلة نفسها.

---

(4) المزهر في علوم اللغة : 1/340—341.

(5) ملاك التأويل : 1/455—456.

(6) الحجة في علل القراءات السبع : 1/52—53.

(7) نفسه : 2/236.

(8) البحر المحيط : 1/367.

(9) في القاموس المحيط : السُّحادِل كعُلابِط : الذَّكَر. وَعُنَادِلَيْهِ : هُما الخصيتان : (مادة : سحل).

(10) انظر المزهر في علوم اللغة : 1/188.

وسنقتصر في هذا الفصل على الإتباع اللفظي. أما الإتباع الصوتي فسيأتي ضمن القسم الخاص بالتناسب الصوتي والإيقاعي.

I ـ المجــاورة

1 ـ تغيير صيغة اللفظ للمجاورة والتناسب :

وقع تغيير عدد من ألفاظ القرآن لهذه العلة الأسلوبية. فجاءت بعض المصادر، والصفات والأفعال على غير القياس الذي تعارف عليه النحاة وعلماء الصرف. كما جاءت بعض الألفاظ منونة، وهي ــ حسب القاعدة ــ ممنوعة من الصرف. ووقع الحذف في بعض الألفاظ والزيادة في بعضها الآخر، وقرأ القراء بإحدى اللغتين الواردتين في بعض الألفاظ. كل ذلك مراعاة للمجاورة والتناسب اللفظي.

ا ـ تغيير بنية المصدر للمجاورة :

1 ــ قال تعالى : ﴿ فَٱلْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ (سورة المرسلات : 5).

جاء في الكشاف : «فإن قلت : ما العذر والنذر ؟ وبما انتصبا ؟ قلت : هما مصدران من عَذَر : إذا محا الإساءة. ومن أنذر : إذا خوف. على فعل»[11].

ويفهم من كلام الزمخشري أن الأصل في مصدر «أنذر» هو الإنذار. وعدل عن ذلك في الآية الكريمة للتناسب اللفظي بين المصدرين المتجاورين.

2 ــ وقال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وإِقَامَ ٱلصَّلاَةِ وإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ﴾ (سورة الأنبياء : 73).

الأصل : وإقامة الصلاة. لكن أضاف المصدر وحذف الهاء، وذهب الكوفيون إلى أنه أراد «إقامة» وصار المضاف إليه عوضا عن التاء. وهذا قول الفراء أيضا[12].

ونص سيبويه على أنه مصدر بمعنى الإقامة. وإنما كان الأكثر «الإقامة بالتاء»[13].

و«الإقامة» هو المصدر المقيس في مصدر «أفعل»، إذا اعتلت عينه.

---

(11) الكشاف : 202/4.

(12) معاني القرآن، لأبي زكرياء الفراء، تحقيق محمد علي النجار وأحمد نجاتي، ط. 1، دار الكتب المصرية 1955، 454/2.

(13) الكتاب ج. 2 : هذا باب ما أواخر الأسماء فيه الهاء.

وجاء في القرآن الكريم بحذف التاء في موضعين : في الآية المذكورة أعلاه، وفي قوله تعالى : ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ ٱلزَّكَاةِ﴾ (سورة النور : 37).

قال أبو حيان الغرناطي: وحسن ذلك (أي حذف التاء من المصدر) أنه قابل «وإيتاء» وهو بغير تاء، فتقع الموازنة بين قوله : «وإقام الصلاة» وقوله : «وإيتاء الزكاة»[14].

3 ــ وقال تعالى : ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (سورة المزمل : 8).

الأصل في المصدر من «تَبَتَّل» أن يقال «تَبَتُّلاً» لكن وقع العدول عن الأصل في هذه الآية لسببين : لفظي ومعنوي.

والسبب اللفظي هو مراعاة تناسب رؤوس الآيات المتجاورة، لأن قبلها : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾. (سورة المزمل : 4 ــ 5). وبعدها : ﴿لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً. وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً...﴾ الآيات. (سورة المزمل: 9ــ15).

والسبب المعنوي هو أن المصدر من «تبتل» هو «تَبَتُّلا» كالتعلم والتفهم. لكن جاء على التفعيل لسر لطيف، هو أن في هذا الفعل إيذانا بالتدرج، وفي التفعيل إيذان بالتكثير والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، والمصدر الدال على الآخر كأنه قيل : بتل نفسك إليه تبتيلا، وتبتل أنت إليه تبتلا. ففهم المعنيان في الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز[15].

ب ــ تغيير بنية الفعل للمجاورة :

قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (سورة العنكبوت : 19).

قرأ الجمهور «يُبْدِئُ» مضارع أبدأ. والزبير، وعيسى، وأبو عمرو، بخلاف عنه : «يَبْدأُ» مضارع بَدأَ[16].

قال ابن الحاجب : قد يكون الشيء غير فصيح فيلحقه أمر فيجعله فصيحا كقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُم يُعِيدُهُ﴾ إن الفصيح بَدأ يَبْدأ، بل لا يكاد

(14) البحر المحيط : 329/5.

(15) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : 323/2.

(16) البحر المحيط : 146/7.

يسمع أبدا الرباعي. قال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (سورة الأعراف : 29) لكن فصح «يُبْدِئُ» بما حسنه من التناسب مع قوله : «يُعِيده»[17].

ج ـ تغيير بنية الصفة للمجاورة :

قال تعالى : ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ (سورة النساء : 4).

«هنيئا مريئا» : مريئا من هنؤ الطعام ومَرُؤَ، إذا كان سائغا لا تنغيص فيه. يقال : هنأني الطعام ومرأني. فإذا أفرد الثاني قيل : أمرأني رباعيا.

واستعمل في الآية ثلاثيا على الاتباع[18].

2 ـ الحذف والزيادة للمجاورة :

وطلبا للتناسب اللفظي، ومراعاة للمجاورة، يقع الحذف والزيادة في بعض ألفاظ القرآن الكريم.

1 ــ قال تعالى : ﴿غَافِرِ ٱلذَّنبِ، وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ، شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ﴾ (سورة غافر : 2).

قال الزجاج : «غافر»، و«قابل» صفتان، و«شديد» بدل. وقال الزمخشري : جَعْلُ «شَدِيد العِقاب» وحده بدلا، بين الصفات فيه نبوّ ظاهر. والوجه أن يقال : لما صودف بين هذه المعارف هذه النكرةُ الواحدة، آذنت بأنها كلها أبدال، غير صفات. ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على «مُسْتَفْعِلُنْ»، فهي محكوم عليها بأنها من الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على «مُتَفاعِلُن» كانت من الكامل، ولا نبو في ذلك[19].

ونقل أبو حيان الغرناطي عن بعض النحاة أن لقائل أن يقول : هي صفات. وإنما حذفت الألف واللام من «شديد العقاب» ليزاوج ما قبله وما بعده لفظا، فقد غيروا كثيرا من كلامهم للازدواج[20].

2 ــ وقال تعالى : ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ (سورة الأعراف : 195). أما قوله : «فلا تنظرون» فقد اجتزىء فيه بحركة الكسر عن الياء، لسبب إيقاعي هو تماثل الفواصل، لأن أواخر الآيات في سياقها ختمت بالنون في الأسماء والأفعال.

(17) انظر البرهان في علوم القرآن : 66/1.
(18) البحر المحيط : 152/3.
(19) الكشاف : 413/3.
(20) البحر المحيط : 447/7ــ448.

أما قوله : «فكيدون». فقد قرئت بإثبات الياء وصلا ووقفا، وقرأها معظم القراء السبعة بحذف الياء اجتزاء بالكسرة عنها[21].

وحسن ذلك في هذه الآية مجاورتها لكلمة الفاصلة التي حذف منها الياء.

وحذف ياء الإضافة، لتناسب الفواصل كثير في القرآن الكريم، وكذا حذف ياء الإسم المنقوص المعرف، وياء الفعل غير المجزوم. وستأتي أمثلة ذلك كله في قسم التناسب الصوتي والإيقاعي.

3 ـ الزيادة في لفظ للمجاورة :

وردت في القرآن الكريم ألفاظ وعبارات زيد فيها مراعاة للمجاورة. ومن ذلك :

1 ـ قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ (سورة النساء : 90) «فاللام التي في «لَسَلَّطَهُمْ» جواب «لَوْ». واللام التي في «لَقَاتَلُوكُم» جاءت محاذاة لتلك اللام الأولى، وإلا فالمعنى : لسلطهم عليكم فقاتلوكم.

2 ـ ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ، أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (سورة النمل : 21).

قوله تعالى : ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ ليس موضع قسم، لأنه عذر للهدهد، فلم يكن ليقسم على الهدهد أن يأتي بعذر، لكنه لما جاء به على إثر ما يجوز فيه القسم أجراه مجراه»[22].

تلك جملة من الألفاظ القرآنية أو التراكيب التي خالفت ما قاسه اللغويون والنحاة، وقد رأينا في الأمثلة ما وقع فيها تغيير بنية المصادر، والفعل، والصفة، وما وقع فيها الحذف والزيادة طلبا للتناسب بين اللفظين المتجاورين.

ولا نقول إن القرآن خالف في ذلك الأصل في القياس اللغوي، لأن التماس هذا اللون من التناسب في جمال التعبير، هو أيضا أصل من أصول كلام العرب، يحرصون عليه إذا عرض لهم ويغيرون من أجله الكلام عن قوانينه. فيحملون اللفظ على ما يجاوره، لما في ذلك من إظهار القدرة على التصرف في الكلام، ومن إرضاء لحاسة الجمال.

4 ـ مراعاة المجاورة في اختيار القراءة :

اختار بعض القراء صرف بعض ما لا ينصرف من ألفاظ القرآن، وَوُجِّهَ ذلك على أنه من مراعاة المجاورة والاتباع.

(21) البحر المحيط : 466/4.

(22) البرهان في علوم القرآن : 371/3.

1 ــ قرأ نافع وأبو بكر والكسائي «سَلاَسِلاً» بالتنوين، من قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاً وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرا﴾ (سورة الإنسان : 4).

وذكر العلماء لذلك وجهين :

الأول : ذكره الفراء قال : «إن العرب تُجري ما لا يجري في الشعر، فلو كان خطأ ما أدخلوه في أشعارهم. فلذلك هؤلاء أجروا «سلاسلا».

والثاني : أنه لما كان بجواره جمع ينصرف، أتبع الأول الثاني. وقد أشار ابن زنجلة إلى هذا الوجه، واحتج لِمن قرأ اللفظ بالتنوين بأنهم اتبعوا مرسوم المصحف في الوصل والوقف، لأنها مكتوبة بالألف، وإن لم تكن رأس آية فهي تشاكل رؤوس الآي، لأن بعدها «أغلالا وسعيرا»[23].

2 ــ ومن قبيل ذلك قراءة نافع وأبي بكر والكسائي : «قَوَارِيراً قَوَارِيراً»، منونا كلاهما. من قوله تعالى : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرا. قَوَارِيراً مِنْ فِضَّةٍ...﴾ (سورة الإنسان : 15ــ16) فإذا وقفوا وقفوا بالألف اتباعا للمصحف، ولأن الأولى رأس آية، وكرهوا أن يخالفوا بين لفظين متجاورين معناهما واحد.

قال ابن زنجلة : من قرأ «قَوَارِيراً قَوَارِيراً» بإجرائهما جميعا كانت له ثلاث حجج :

إحداهن : أن يقول : نونت الأولى، لأنها رأس آية، ورؤوس الآيات جاءت بالتنوين، فنون الأولى ليوافق رؤوس الآيات، ونون الثانية على الجوار للأولى.

وثانيتهن : أن العرب تُجري ما لا يُجرى في كثير من كلامها.

والثالثة : اتّباع المصحف[24].

3 ــ ومن ذلك أيضا أن القراء اختلفوا في قوله تعالى : ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ﴾ (سورة هود : 68).

وقرأ حفص وحمزة في هذه الآية بغير صرف، لَفْظَ «ثمود»، ومثله في سورة «العنكبوت»، و«الفرقان»، و«النجم».

وصرفهن الباقون من القراء السبعة. فقرأوا بالتنوين، وحجتهم في ذلك المصحف، لأنهن مكتوبات في المصحف بالألف.

وزاد عليهم الكسائي حرفا خامسا، وهو قوله : ﴿أَلاَ بُعْداً لِثَمُودٍ﴾ منونا، وقال : «إنما أجريت الثاني لقربه من الأول، لأنه استقبح أن ينون اسما واحدا، ويدع التنوين في آية واحدة، ويخالف بين اللفظين[25].

(23) حجة القراءات، ص : 737ــ738.

(24) نفسه، ص : 378.

(25) معاني القرآن : 20/2.

4 ــ ومن ذلك أيضا قراءة الأعمش : «وَيَغُوثاً وَيعوقا» من قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَذَرُنَّ وُدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (سورة نوح : 23). قرأ بتنوين «يغوثا ويعوقا».

قال الزمخشري في توجيه هذه القراءة : «لعله قصد الازدواج، فصرفهما لمصادفته أخواتها منصرفات في «وُدّاً وَسُوَاعاً وَنَسْراً» كما قرىء «وضحاها» بالإمالة، لوقوعه مع الممالات، للازدواج»[26].

وَوَهَّمَ آبْنُ عَطِية الزمخشري في هذا التوجيه. وقال أبو حيان الأندلسي : «ليس ذلك بوهم، وتخريجه على وجهين : أحدهما أنه جاء على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف، والثاني أنه صرف لمناسبة ما قبله وما بعده»[27].

5 ــ وقريب مما تقدم أن جمهور القراء قرأوا «يوقنون» من قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِٱلآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (سورة البقرة : 3).

بواو ساكنة بعد الياء، وهي مبدلة من ياء، لأنه من أيقن.

وقرأ أبو حية النمري بهمزة ساكنة بدل الواو : «يؤقنون».

ووجهت هذه القراءة بأن هذه الواو لما جاورت المضموم، فكأن الضمة فيها، وهم يبدلون من الواو المضمومة همزة، قالوا في «وُجُوه» و«وُقِتَتْ» : أُجوه وأُقتت[28].

ووجهت أيضا بأنه همز لفظ «يؤقنون» لتتم المناسبة بينه وبين «يؤمنون»[29].

5 ــ مخالفة أصل القراءة للمجاورة :

وخالف بعض أئمة القراء أصله في قراءة بعض الألفاظ من القرآن حفاظا على حسن الجوار.

1 ــ من ذلك أن الإمام ورشا خالف أصله في تسهيل الهمزة في «مؤذن» من قوله تعالى : ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الأعراف : 44) فقرأ بتحقيق الهمزة لمجاورة «فأذن»[30].

2 ــ وخالف أبو عمرو أصله في لفظ «نُكُر» من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ (سورة القمر : 6). فقرأه مع جمهور القراء بضم الكاف. وقرأه ابن كثير بالإسكان.

(26) الكشاف : 164/4.

(27) البحر المحيط : 342/8.

(28) نفسه : 42/1.

(29) مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ع2، س 1397هـ.

(30) النشر في القراءات العشر : 395/1.

قال ابن زنجلة : هما لغتان، مثل الرُّعُبُ والرعْب. وإنما خالف أبو عمرو أصله، فقرأ هاهنا بالتثقيل، لأن رؤوس الآيات مثقلة. نحو «عذر، ونذر»، ولهذا اختار التثقيل[31]

3 — ومن أصول قراءة أبي عمرو، قراءة «يُنْزِل» في كل القرآن بالتخفيف. وخالف هذا الأصل في قراءة قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ (سورة الأنعام : 37).

فسئل : لم شددت هذا اللفظ هنا، وأنت تخفف «ينزل في كل القرآن ؟ فقال : لقربه من قوله تعالى : ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

6 ـ اختيار إحدى اللغتين لحسن الجوار والتوافق :

ويختار بعض أئمة القراء القراءة بإحدى اللغتين المنقولتين في الكلمة، كالرُّشْدِ والرَّشَدِ، بضم الراء المشددة وسكون الشين في الأولى، وفتحهما في الثانية، وكالوَتْر بفتح الواو وبكسرها وكالقَدْرِ بسكون الدال وفتحها، وكَدَبَر الليل وأَدْبَر.

1 — قال تعالى : ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ. والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (سورة المدثر : 33—34).

قرأ نافع وحمزة وحفص : «أدْبر» على أفْعل. وقرأ باقي السبعة : «إذا دَبَرَ»، على فَعَلَ. وهما لغتان : يقال : دَبَر الليلُ وأدْبَر، وكذا قَبَلَ وأقْبَلَ.

قال أبو عبيد : الاختيار : «إذا» بالألف «دَبَرَ» بغير ألف، لموافقة الحرف الذي يليه، ألا ترى أنه قال : «وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ»، فكيف يكون في أحدهما «إذا»، وفي الآخرة «إذ»، فلهذا اخترنا أن نجعلهما جميعا «إذا» على لفظ واحد[32].

2 — وقال تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ (سورة الأعراف : 146).

قرىء لفظ «الرشد» هنا بوجهين : وقيل إن من فتح الراء والشين أراد به الدين، لأن بعده ذكر ٱلْغَيِّ. والدينُ ضد الغي. ومن ضم الراء أراد الصلاح[33].

— وقال تعالى : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ (سورة الكهف : 66) وقرىء هذا أيضا بوجهين : قرأ أبو عمرو «رَشَداً» بفتح الراء، وقرأ باقي السبعة

(31) حجة القراءات، ص : 688.

(32) نفسه، ص : 733—734.

(33) النشر في القراءات العشر : 311/2.

بضمها. وقد سئل أبو عمرو عن ذلك فقال : الرُّشْدُ بالضم هو الصلاح، وبالفتح هو العلم. وموسى عليه السلام إنما طلب من الخضر العلم.

قال ابن الجزري : وهذا في غاية الحسن. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً﴾ (سورة النساء : 6). كيف أجمع على ضمه. لكن جمهور أهل اللغة على أن الضم والفتح في «الرشد» لغتان، كالبُخْل والبَخَل، والسُّقم والسَّقَم، والحُزن والحَزن[34].

واحتج ابن زنجلة لمن قرأ «رُشدا» بضم الراء من قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾. واختار هذا الوجه وبين علة اختياره، فقال : وأجود الوجهين «الرُّشد» بضم الراء، وإنما قلت ذلك، لتوفيق ما بينه وبين ما قبله وما بعده من أواخر الآي ؛ وذلك أن الآي قبلها وبعدها أتت بسكون الحرف الأوسط من الكلمة، وهو قوله : «وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْما»، وقوله : «مَعِي صَبْراً»...

وقوله : «مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرا». فكان الوجه فيما توسط أن يجري بلفظ ما تقدم وما تأخر، إذ كان في سياقه، فكان أولى من مخالفة ما بينهما، لتأتلف رؤوس الآي على نظام واحد[35].

واقتصر القراء السبعة على أحد الوجهين الجائزين، مراعاة للتناسب، فأجمعوا على القراءة بفتح الراء والشين من «رَشَدا» في موضعين :

— قوله تعالى : ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ (سورة الكهف : 10).

وقوله : ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ (سورة الجن : 14).

قال ابن الجزري : «ويحتمل عندي أن يكون فتح الحرفين لمناسبة رؤوس الآي»[36].

يعني أن فواصل الآيات في السياق الذي وقعت فيه كل من الآيتين جاءت محركة الوسط. ونظير هذا قراءة : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ (سورة تبت : 1) بفتح الهاء وسكونها. ولم يقرأ ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (سورة تبت : 3) إلا بالفتح، لمراعاة تناسب الفواصل[37].

3 — وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (سورة المراسلات : 35). قرأ السبعة بثبوت النون (يعتذرون) وكان النصب ممكنا كما في قوله تعالى : ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ (سورة فاطر : 36)، ولكن عدل عنه لتناسب الفواصل[38].

---

(34) النشر في القراءات العشر : 312/2.

(35) حجة القراءات، ص : 423.

(36) النشر في القراءات العشر : 311/2.

(37) روح المعاني : 55/9.

(38) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لأبي محمد الأنصاري، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة (د. ت)، 481/2.

4 ــ وأجمع القراء في قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (سورة القمر : 49) على قراءة «بِقَدَرٍ» بفتح الدال. وكان يجوز الإسكان.

قال الأخفش : القَدَرُ والقَدْر : لغتان. ودليل الفتح من القرآن قوله تعالى : ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (سورة الرعد : 17) وقد أجمع القراء السبعة على فتحها. ودليل الإسكان قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ (سورة الأنعام : 19) وقد أجمع القراء السبعة على الإسكان في قراءتها.

وعلة إجماعهم على الفتح في «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» هو أن رؤوس الآي في سياقها على الفتح.

5 ــ وقال تعالى : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (سورة الفجر : 2).

قرأ حمزة والكسائي «الوِتر» بكسر الواو، وقرأ باقي السبعة بالفتح. وهما لغتان. والفتح لغة أهل الحجاز. قال ابن خالويه : «الحجة لمن فتح أنه طابق بين لفظ «الشَّفْع» ولفظ «الوتر»»[39].

II ـ الإتبـــاع

1 ـ التقابل والإتباع في الأوزان

ورد في القرآن الكريم عدد كبير من الألفاظ التي تحمل معاني متضادة أو متقابلة. ويؤثر القرآن أحيانا بناء ما تجاور من تلك الألفاظ على وزن واحد، يجمع أحيانا بين التوازن الصرفي والعروضي، ويقتصر حينا على التوازن العروضي.

قال تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ﴾ (سورة الواقعة : 9) يريد أصحاب الشّمال. يقال لليد الشمال : اليد الشُّؤْمَى.

ولما قال تعالى : ﴿فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ (سورة الواقعة : 8)، راعى المجاورة والتوازن اللفظي بين اللفظين المُتقابلين، فقال : وأصحاب المشأمة...»

ولما قال في الآية الأخرى : ﴿وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ﴾ (سورة الواقعة : 27) راعى مثل ذلك فقال : ﴿وأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ﴾ (سورة الواقعة : 41).

وبين «اليمين» و«الشمال» توازن عروضي.

(39) الحجة في القراءات السبع، ص : 370.

وإذا ذكر القرآن لفظ «الضر» قابله بـ«ـالنفع» مثل :

ــ ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ (سورة يونس : 49).

ــ ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ (سورة الفرقان : 3).

وإذا ذكر لفظ «الضَّراء» قابله بالنعماء أو السراء، مثل :

ــ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ (سورة هود : 10).

ــ ﴿الذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ (سورة آل عمران : 134).

وإذا ذكر «اليسر» قابله «العسر» : مثل :

ــ ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ (سورة الشرح : 5ــ6).

وإذا ذكر «الْيُسْرى» قابله بـ«ـالعُسرى»، مثل :

ــ ﴿فأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُه للعسرى﴾ (سورة الليل : 7ــ8).

وإذا ذكر «اليَسير» قابله بـ«ـالعسير»، مثل :

ــ ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (سورة المدثر : 9ــ10).

وإذا ذكر «الحُسْنَ» قابله بـ«ـالسُّوء»، مثل :

ــ ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ (سورة النمل : 11).

وإذا ذكر لفظ «الحسنة» قابله بلفظ «السيئة»، مثل :

ــ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ (سورة الأعراف : 95).

ــ ﴿وَيستَعْجِلُونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (سورة الرعد : 6).

ــ ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ (سورة الرعد : 22).

ــ ﴿وَلاَ تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلاَ ٱلسَّيِّئَةُ﴾ (سورة فصلت : 39).

ــ ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الأعراف : 168).

وإذا ذكر «البَشير» قابله بـ«ـالنذير». وإذا ذكر لفظ «المبشرين» ذكر بجواره لفظ «المنذرين»، مثل :

ــ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سورة البقرة : 119).

ــ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سورة سبأ : 28).

ــ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (سورة البقرة : 213).

ــ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (سورة الأنعام : 48).

ومن أمثلة مراعاة حسن الجوار بين الأضداد والكلمات المتقابلة التي يؤتى بها على وزن واحد قوله تعالى : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ (سورة الأنبياء : 90) وقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾ (سورة يونس : 50) وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ (سورة فصلت : 11).

2 ـ الإتباع اللفظي والتوافق في الأوزان :

وصل القرآن الكريم بين كثير من الألفاظ التي تحمل معاني ودلالات متوافقة، وأتى بها على وزن واحد، وكان ذلك من صور المجاورة اللفظية في لغته.

ويكثر مثل هذا الاتباع في مقام الوصف حيث تذكر أوصاف متعددة، لتأكيد حقيقة من الحقائق، أو تقوية معنى من المعاني. ويرافق ذلك عادة تكرار نغمي وإيقاعي، يناسب ذلك الغرض.

وقد جاء هذا في الأوصاف الذميمة التي وصف القرآن بها بعض المخلوقات، كما جاء في الأوصاف الحميدة.

وقد جاء هذا في الأوصاف الذميمة التي وصف القرآن بها بعض المخلوقات، كما جاء في الأوصاف الحميدة.

قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ (سورة الهمزة : 1).

وقال : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ (سورة المائدة : 42).

وقال : ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حلاَّفٍ مَهِينٍ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (سورة القلم : 11).

وقال : ﴿وَحَمَلَهَا ٱلإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (سورة الأحزاب : 72).

وقال : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة القصص : 18).

وقال : ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (سورة الملك : 21).

وقال : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (سورة ق : 24).

وقال : ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ (سورة الأنعام : 45).

وقال : ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (سورة الإسراء : 29).

وقال : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ (سورة الإسراء : 18).

وقال : ﴿عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ﴾ (سورة التحريم : 6).

وقال : ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة البقرة : 208).

ومن أمثلة الاتباع في الأوصاف الحميدة قوله تعالى :

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (سورة القصص : 89).

وقوله : ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة الحجر : 89).

وقوله : ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (سورة النساء : 4).

3 ـ الإتباع وتوافق الوزن في صفات الله

يكثر في الآيات القرآنية أن تختم بصفتين من صفات الله تعالى، تأتيان متتابعتين في ختام الآية، لتأكيد معناها، أو تعليل بعض ما ورد فيها. ويغلب أن تأتي الصفتان متوازنتين صرفيا وعروضيا، وقد تأتيان متوازنتين عروضيا فحسب.

ولا يتسع المجال في هذا الفصل لعرض كل ما ورد في القرآن من هذه الصفات لأنه كثير، وسيطول بنا البحث لو أردنا استقراءه كاملا.

ونرى أن الأنسب لهذه الدراسة هو أن نقتصر على عرض أنواع الأوزان التي وقعت متجاورة في أواخر الآيات التي ختمت بصفات الله، مع بيان أكثرها ترددا، وأعلاها نسبة.

وصفات الله تعالى الواردة في القرآن جاءت كلها على أوزان المبالغة.

والصفتان المقترنتان في خواتم الآيات تأتيان إما على وزن واحد، هكذا : «فعيل فعيل» أو «فعول فعول»، ولم يتكرر فيها غير هذين الوزنين.

وإما على وزنين هكذا : «فاعل فعيل» أو «فعّال فَعُول»، أو «فعّال فعيل». وقد يكون هذان الوزنان متفقين صرفيا وعروضيا، وقد يكونان متوازنين عروضيا فحسب مثل «فعول فعيل».

وقد أظهر الاستقراء أن النسبة الكبرى من تلك الصفات التي وقعت متجاورة في خواتم الآيات جاءت على وزن «فعيل»، وقع مكررا وحده في نسبة كبيرة من الآيات. وأتى مقترنا بأوزان أخرى، وأغلب حالاته أن يقترن مع «فعول» متأخرا عنه في الغالب، وقد يتقدم.

ومن أمثلة تكراره : «العليم الحكيم»، «العزيز الحكيم»، «السميع العليم»، «الغني الحميد»، «العزيز العليم»، «الحكيم العليم»، «الحكيم الخبير»، «اللطيف الخبير»، «العزيز الرحيم»، «العزيز الحميد»، «العلي العظيم»، «الولي الحميد».

«غني كريم» «قوي عزيز» «حكيم حميد»، «علي حكيم»، «سميع قريب».

«سميعا بصيرا»، «عليما خبيرا»، «عليا كبيرا»، «سميعا عليما»، «خبيرا بصيرا».

ويأتي في المرتبة الثانية، بعد هذا الوزن، من حيث الكثرة «فعول فعيل»، وهما وزنان متوازنان عروضيا. ومن أمثلتهما : «الغفور الرحيم»، «الغفور الحليم»، «الرؤوف الرحيم»، «العزيز الغفور»، «رحيم ودود»، «حليما غفورا». وتكرر كلُّ زوج من هذه الصفات في عدد كبير من الآيات لا حاجة إلى عرضها كلها.

أما الآيات التي تكرر في خاتمتها صفتان على وزن «فعول» فهي قليلة جدا. ومن أمثلته : «عفو غفور»، «الغفور الودود».

نكتفي بهذه الأوزان، لأنها هي التي تمثل صورة من صور المجاورة والاتباع. أما الأوزان الأخرى التي اختلفت صرفيا وعروضيا فلا تعد ـــ في نظرنا ـــ من المجاورة والاتباع اللفظي.

وفي ختام هذا العرض، يحسن بنا أن نقدم توضيحا، نبين به كيف جعلنا تتابع صفتين على وزن واحد، أو على وزنين متفقين عروضيا، من صور الاتباع والمجاورة اللفظية.

لقد فعلنا هذا بناء على أن تتابع كلمتين متوازنتين هو في حقيقته تتابع لنغمة صوتية واحدة، تتكرر لتقوية أثرها الصوتي في السمع، ولتقوية معنى الكلام في النفس، ولأن الاتباع لا يقتصر على ما خولف به القياس الصرفي أو النحوي، يدل على ذلك أن كبار العلماء، لما ذكروا أن العرب يغيرون كلامهم عن قوانينه، لأجل الاتباع، بينوا أنهم إن كانوا فعلوا ذلك فيما لا يصح في المعنى ففعله فيما يصح في المعنى أجدر وأولى. وتتابع الصفتين المتجاورتين المتوازنتين من هذا الاتباع فيما يصح في المعنى[40].

وجملة القول أن المجاورة والاتباع من أوجه التناسب اللفظي في النظم القرآني. وقد كان الخروج عن الأصل في اللغة، وركوب الضرورة من علامة الفحولة عند الشعراء ـــ كما يقول المحققون ـــ

وإذا كان هذا من علامات الفصاحة وقوة البيان عندهم، فخليق بنا أن نجد منه في القرآن ما يدل على علو مكانته في الفصاحة.

لهذا فلا عجب أن رأينا القرآن يغير اللفظ عن بنيته، مصدرا كان أو فعلا، مراعاة للمجاورة والتناسب.

كما أنه لا عجب أن نرى القراء يراعون مثل ذلك في اختيارهم ولا أن نرى بعضهم يخالف أصول اختياره تحقيقاً لهذه الغاية، ولا أن يختاروا القراءة بإحدى اللغتين، أو أحد الوجهين الجائزين، مراعاة لحسن الجوار وجمال الأداء.

---

(40) انظر فيما تقدم من هذا الفصل ما نقلناه من أقوال العلماء.

الباب السادس

التّناسُب الصّوتى والإيقاعى

الفصــل الأول

تناسب الأصوات فـي نظم الآيات

مر معنا في الفصل السابق أن للقرآن روعة، وأن جانبا من تلك الروعة يرجع إلى جمال الإيقاع. ومعلوم أن ذلك الجمال الإيقاعي ينبع من التناسب بين العناصر الصوتية واللفظية، أي من الأصوات اللغوية والحركات والمقاطع الصوتية، ومن توازن الفقرات والآيات، ومن تماثل الفواصل والغايات.

إن البنية الإيقاعية للآية أو الآيات تتألف من عناصر صوتية ولفظية وزمانية متداخلة، تدرك الأذن السلمية جمالها، لكن الدراسة التحليلية تقصر عن الإحاطة بأسرار ذلك الجمال. وسنحاول في هذا الفصل أن نقدم فكرة عن الأصوات في اللغة العربية وكيف تتناسب، ثم نتحدث عن آراء بعض القدماء في تناسب الأصوات في النظم القرآني، ثم عن بعض الطرق التي سلكها القرآن للحفاظ على ذلك التناسب، ثم نختم بالحديث عن التناسب بين الجرس الصوتي وبين المعاني.

1 ـ نبذة عن الأصوات في العربية

عدد الأصوات في العربية تسعة وعشرون (29) صوتا على الأرجح، تختلف بحسب مخارجها وصفاتها.

ا ـ المخـارج :

رتب اللغويون القدماء وعلماء التجويد مخارج الأصوات بدءا من الجوف أو الحلق وانتهاء بالشفتين على النحو التالي :

1 ــ من الجوف، مخرج الألف، على رأي أهل التجويد.

2 ــ من أقصى الحلق مخرج الهمزة والهاء.

3 ـ من وسط الحلق مخرج العين والحاء.

4 ـ من أدنى الحلق مع أول الفم مخرج الغين والخاء.

5 ـ من أقصى اللسان، مخرج القاف.

6 ـ من أسفل من ذلك إلى مقدم الفم مخرج الكاف.

7 ـ من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.

8 ـ من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد.

9 ـ من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان فويق الضاحك مخرج اللام.

10 ـ من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا مخرج النون المتحركة.

11 ـ من طرف اللسان من فوق، مع مغارز الثنايا مخرج الراء.

12 ـ بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء.

13 ـ بين الثنايا وطرف اللسان مخرج الصاد والزاي والسين.

14 ـ بين أطراف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء، والذال، والثاء.

15 ـ من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء.

16 ـ مما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو.

17 ـ من الخياشيم مخرج الغنة والنون الخفيفة الساكنة.

وللغويين المحدثين آراء وعبارات خاصة في تحديد هذه المخارج لا يتسع المجال هنا لذكرها.

وقد شبه بعض القدماء الحلق والفم بالناي، فإن الصوت يخرج منه مستطيلا أملس ساذجا.. فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوتا لا يشبه صاحبه. فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة.

ب ـ الصفـــات :

تختلف صفات الأصوات تبعا لأوضاع جهاز النطق. وقد ميز اللغويون القدماء وعلماء التجويد بين تلك الأصوات على النحو التالي :

1 ـ المهموسة : وهي عشرة أحرف يجمعها هجاء قولك : «سكت فحثه شخص» وسميت بذلك لضعف الاعتماد عليها عند خروجها.

2 ـ المجهورة : وهي ما عدا العشرة المهموسة.

3 ـ الشديدة : وهي ثمانية أحرف يجمعها هجاء قولك : «أجد قط بكت» والشدة من علامات قوة الحرف.

4 ــ الرخوة : وهي ثلاثة عشر حرفا يجمعها قولك : «ثخذ ظغش زحف صه ضس»، وهي ما عدا الشديدة المذكورة. وما عدا هجاء قولك : «لم يروعنا».. والأصوات الرخوة أضعف من الشديدة.

5 ــ المطبقة، وهي أربعة : الطاء، والظاء، والصاد، والضاد. وإنما سميت بهذا، لأن طائفة من اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها.

6 ــ المنفتحة : وهي خمسة وعشرون، أي ما عدا الأصوات المطبقة المذكورة. وسميت بالمنفتحة، لأن اللسان لا ينطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بها.

7 ــ المستعلية : وهي سبعة منها المطبقة المذكورة قبل، و«الغين»، و«الخاء»، و«القاف». وإنما سميت بالمستعلية، لأن الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك فينطبق الصوت مستعليا.

8 ــ المستفلة : وهي اثنان وعشرون صوتا، أي ما عدا المستعلية. ووصفت بهذا الوصف، لأن اللسان والصوت لا يستعلي عند النطق بها إلى الحنك، بل يستفل اللسان إلى قاع الفم.

9 ــ أصوات الصفير : وهي ثلاثة : الزاي، والسين، والصاد. ووصفت بهذا الوصف، لصوت يخرج معها عند النطق بها يشبه الصفير.

10 ــ أصوات القلقلة : وهي خمسة، يجمعها هجاء قولك : «قطب جد». وإنما وصفت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليها وإرادة إتمام النطق بها.

11 ــ أصوات المد واللين : وهي ثلاثة : الألف، والواو الساكنة التي قبلها ضمة، والياء الساكنة التي قبلها كسرة. وإنما سميت بأصوات المد، لأن مد الصوت لا يكون في شيء من الكلام إلا فيهن، ووصفت باللين لأنها تخرج من النطق في لين من غير كلفة على اللسان واللهاة بخلاف سائر الأصوات.

12 ــ الصوت المكرر : وهو الراء، سمي بذلك لأنه يتكرر على اللسان عند النطق به.

13 ــ المستطيل : وهو الضاد، وصف بذلك لأنه استطال على الفم عند النطق به حتى آتصل بمخرج اللام.

14 ــ المتفشي : وهو الشين، وصفت بذلك لأنها تفشت في مخرجها عند النطق بها.

15 ــ المذلقة : وهي ستة : الفاء، والباء، والميم، والراء، والنون، واللام، وسميت بذلك لأنها من طرف اللسان، وهو ذلقة، وهي أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحا، وأكثرها امتزاجا بغيرها.

16 ــ المصمتة : وهي اثنان وعشرون، أي ما عدا المذلقة.
والألف خارجة عن المذلقة والمصمتة، لأنها هواء، لا مستقر لها في المخرج.
ولا توجد كلمة كثرت حروفها، في كلام العرب إلا وفيها حروف من الحروف المذلقة أو الألف.

تلك أهم صفات الأصوات، كما ذكرها اللغويون القدماء وعلماء التجويد. وما ينبغي توضيحه هو أن من تلك الصفات ما هو من علامات قوة الصوت، ومنها ما هو من علامات ضعفه. فالجهر، والشدة، والصفير والأطباق، والاستعلاء من علامات القوة، والهمس والرخاوة، والخفاء، واللين من علامات الضعف في الأصوات.

وإذا اجتمعت في صوت أنواع من صفات القوة كان ذلك أقوى له كـ«الطاء» الذي اجتمعت فيه صفات الجهر والشدة والأطباق والاستعلاء.

وإذا اجتمعت فيه أنواع من صفات الضعف كان أضعف له كـ«الهاء» التي هي مهموسة، رخوة، منفتحة، خفية، وكل واحدة من هذه الصفات من صفات الضعف[1].

وكما وصف القدماء الأصوات بالقوة والضعف وصفوا بهما الحركات أيضا، والحركات ما هي إلا أصوات مد قصيرة، قالوا : الضمة حركة قوية، والفتحة حركة خفيفة، والكسرة متوسطة، وذهب بعضهم إلى أن الضمة تدل على العلو والصعود، والكسرة تدل على الانخفاض والهبوط والفتحة تدل على الاعتدال.

وقيل إن وصف الحركات بالصعود والعلو والانحدار والتوسط والاعتدال مستمد من صناعة الموسيقى[2].

2 ـ تأليف الأصوات وتناسبها

لا يظهر تناسب الأصوات من تنافرها إلا في حال التأليف، إما في لفظة مفردة، وإما في ألفاظ مؤلفة، لأن التأليف هو المسرح الذي تلتقي فيه الأصوات على اختلاف مخارجها وصفاتها، فتتداخل أجراسها، وتتجاوب نغماتها. وعلى قدر تناسبها في الامتزاج تكون حلاوة الإيقاع، ورشاقة الصياغة.

ولهذا فإننا نحتاج إلى تقديم نبذة عن طرق التأليف التي تتيح للأصوات أن تكون متناسبة.

(1) انظر الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، لأبي محمد القيسي، تحقيق احمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، دمشق 1973، ص : 93ــ94.

(2) المجلة العربية للعلوم الانسانية، ع 24، ص : 121، سنة 1986.

تناول اللغويون والبلاغيون القدماء هذه المسألة ضمن حديثهم عن تنافر الأصوات وتلاؤمها، وقد اختلفت آراؤهم، فذهب جماعة، منهم : ابن دريد(3)، وابن جني(4)، وابن سنان الخفاجي(5) إلى اعتبار تباعد مخارج الأصوات علة لتناسبها في التأليف.

وذهب جماعة أخرى، منهم : الخليل بن أحمد(6)، وأبو الحسن الرماني(7) وبهاء الدين السبكي(8) إلى اعتبار الاعتدال علة لتناسبها، واعتبار التباعد الشديد والتقارب الشديد سببا لتنافرها.

وذهب ابن الأثير(9) إلى جعل حاسة السمع معيارا لتناسبها وتنافرها. وفيما يلي تفصيل آراء الفريقين :

ـ رأي ابن دريد :

قال في الجمهرة : «آعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت، لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم، ودون حروف الذلاقة، كلفته جرسا واحدا، وحركات مختلفة، ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء، فأمكن، لوجدت الهمزة تتحول هاء في بعض اللغات لقربها منها، ولوجدت الحاء في بعض الألسنة تتحول هاء، وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف»(10).

وقال : «وآعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحدة في كلمة واحدة لصعوبة ذلك على الألسنة، وأصعبها حروف الحلق. فأما حرفان فقد اجتمعا، مثل «أح»

(3) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أئمة اللغة والأدب، وهو صاحب المقصورة الدريدية، من كتبه : «الاشتقاق» و«المقصور والممدود» و«الجمهرة» ــ في اللغة ــ. الاعلام : 310/6.

(4) هو عثمان بن جني أبو الفتح، من أئمة الأدب والنحو، كان أبوه مملوكا روميا. ومن أشهر تصانيفه : «الخصائص» في اللغة، و«التصريف الملوكي» و«سر صناعة الاعراب» و«شرح ديوان المتنبي» توفي سنة 372هـ. الاعلام : 364/4.

(5) هو محمد بن عبد الله الخفاجي الحلبي، شاعر، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره، وكانت له ولاية، وعصى بها فأحتيل عليه فقتل مسموما. له ديوان شعر، وكتاب «سر الفصاحة». توفي 466هـ. الأعلام : 266/4.

(6) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، ولد ومات بالبصرة، له كتاب «العين» في اللغة، و«معاني الحروف» و«كتاب العروض» وغيرها. توفي سنة 170هـ. الاعلام : 363/2.

(7) هو علي بن عيسى الرماني، باحث معتزلي مفسر، من كبار النحاة، مولده ووفاته ببغداد، له نحو مائة مصنف، توفي سنة 384هـ. الاعلام : 134/5.

(8) هو أحمد بن علي بن عبد الكافي أبو حامد، فاضل، ولي قضاء الشام سنة 762هـ، وكثرت رحلاته. له «عروس الأفراح، شرح تلخيص المفتاح». مات مجاورا بمكة سنة 763هـ. الاعلام : 171/1.

(9) هو نصر الدين بن محمد الشيباني الجزري أبو الفتح، ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب، وزير من العلماء الكتاب المترسلين، كان قوي الحافظة. ومن تآليفه : «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» و«الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور»، وغيرها. توفي سنة 637هـ. الاعلام : 354/8.

(10) المزهر في علوم اللغة : 191/1ـ192.

بلا فاصلة، مثل «أحد» و«أهل»، و«عهد». غير أن من شأنهم إذا أرادوا هذا أن يبدأوا بالأقوى من الحرفين، ويؤخرون الألين»[11].

ـ رأي ابن جني :

ذكر في «سر صناعة الإعراب» أن التأليف على ثلاثة أضرب: أحدها : تأليف الحروف المتباعدة، وهو أحسنه، وهو أغلب في كلام العرب، والثاني الحروف المتماثلة (...) وهو ما يلي الأول في الحسن والثالث : الحروف المتقاربة، فإما رفض وإما قل استعماله. وإنما كان أقل من المتماثلين، وإن كان فيهما ما في المتقاربين وزيادة، لأن المتماثلين يخفان بالإدغام»[12].

ـ رأي ابن سنان الخفاجي :

ذكر من شروط فصاحة اللفظ والتأليف أن يكون من حروف متباعدة المخارج، وقال : «وعلة هذا واضحة، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجرى مع السمع مجرى الألوان من البصر. ولا شك أن الألوان المتباينة إذا اجتمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود. وإذا كان هذا موجودا لا يحسن النزاع فيه، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفه من الحروف المتباعدة كالعلة في حسن النقوش، إذا مزجت من الألوان المتباعدة»[13].

وأورد رأي الرماني الذي ذهب فيه ــ نقلا عن الخليل بن أحمد ــ إلى جعل التباعد الشديد والتقارب الشديد بين الحروف سببا لتنافرها في التأليف، وأنكره، وأكد أن التنافر ليس في بعد ما بين مخارج الحروف، وإنما هو في القرب. وقال : «ويدل على صحة ذلك الاعتبار، فإن هذه الكلمة (ألَمْ) غير متنافرة، وهي، مع ذلك، مبنية من حروف متباعدة المخارج، لأن الهمزة من أقصى الحلق، والميم من الشفتين، واللام متوسطة بينهما. وعلى مذهبه (يعني الرماني) كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافرا، لأنه على غاية ما يمكن من البعد، وكذلك «أم» و«أو»، لأن الواو من أبعد الحروف من الهمزة. وليس هذان المثلان مثل «عع»، ولا «سز»، لما يوجد فيهما من التنافر، لقرب ما بين الحرفين في كل كلمة. ومتى آعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجها من التنافر على ما ذكره، فأما الإدغام والإبدال فشاهدان على التنافر في قرب الحروف دون بعدها. لأنهما لا يكادان يردان في الكلام إلا فرارا من تقارب الحروف. وهذا الرأي يجب عندي اعتماده»[14].

(11) المزهر في علوم اللغة : 192/1.

(12) سر صناعة الاعراب، لابن جني، تحقيق جماعة من الأساتذة، ط. 1، مطبعة البابي الحلبي 1954، ص : 99.

(13) سر الفصاحة، ص : 64.

(14) نفسه، ص : 101ــ102.

- رأي الرماني :

يرى أبو الحسن الرماني أن التأليف على ثلاثة أوجه : متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا. وأن السبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، وكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما.

والتعديل بين الحروف — كما يفهم في كلام الرماني — هو أن لا تكون شديدة التقارب ولا شديدة التباعد في مخارجها.

يوضح ذلك ما قاله في سبب التنافر. فالسبب فيه — فيما نقله عن الخليل بن أحمد — البعد الشديد أو القرب الشديد. «وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفرة، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال».

وقال : «والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع. فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان، في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام»[15].

وقال : «وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة له من بعض، كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون من الشعر من المكسور، واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق»[16].

- رأي بهاء الدين السبكي :

يرى أن تناسب الأصوات في التأليف يكون في الاعتدال، وأن التنافر بينها يكون إما لتباعد الحروف جدا، أو لتقاربها جدا، وقال : «ويشبه استواء تقارب الحروف وتباعدها في تحصيل التنافر استواء المثلين اللذين هما في غاية الوفاق، والضدين اللذين هما في غاية الخلاف، في كون كل من المثلين والضدين لا يجتمع مع الآخر، فلا يجتمع المثلان لشدة تقاربهما، ولا الضدان لشدة تباعدهما، وحيث دار الحديث بين الحروف المتباعدة والمتقاربة، فالمتباعدة أخف».

وقال : «رتب الفصاحة متفاوتة، فإن الكلمة تخف وتثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف لا يلائمه قربا أو بعدا، فإن كانت الكلمة ثلاثية فتراكيبها إثنا عشر :

الأول : الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو «ع.د.ب».

الثاني : الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط نحو «ع.ر.د».

(15) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 88—89.

(16) المزهر في علوم اللغة : 193/1 — 194.

الثالث	:	من الأعلى الأدنى إلى الأعلى نحو «ع.م.هـ».
الرابع	:	من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو «ع.ل.ن».
الخامس	:	من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى نحو «ب.د.ع».
السادس	:	من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط نحو «ب.ع.د».
السابع	:	من الأدنى إلى الأعلى إلى الأدنى نحو «ف.ع.م».
الثامن	:	من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو (ف.د.م».
التاسع	:	من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى نحو «د.ع.م».
العاشر	:	من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى نحو «د.م.ع».
الحادي عشر	:	من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى نحو «ن.ع.ل».
الثاني عشر	:	من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط نحو «ن.م.ل».

وقال : «إذا تقرر هذا فاعلم أن أحسن هذه التراكيب وأكثرها استعمالا ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى، ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى، ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط. وأما ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى فهما سيان في الاستعمال.

«وأقل الجميع استعمالا ما انتقل فيه من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط».

«وأحسن التراكيب ما تقدمت فيه نقلة الانحدار من غير طفرة، بأن ينتقل من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى، أو من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط. ودون هذين ما تقدمت فيه نقلة الارتفاع من غير طفرة».

«وأما الرباعي والخماسي، فعلى نحو ما سبق في الثلاثي، ويخص ما فوق الثلاثي كثرة اشتماله على حروف الذلاقة، لتجبر خفتها ما فيه من الثقل[17]».

– رأي ابن الأثير :

أفردنا ابن الأثير عن الفريقين المذكورين، لأن له رأيا خاصا، فهو لا ينكر أن يكون تباعد مخارج الحروف من أسباب تناسب الأصوات وحسن التأليف، ولكنه يقول : إن حسن الألفاظ لا يعرف من جهة تباعد المخارج، وإنما يعرف من جهة حاسة السمع. وإذا نظر في ما استحسنه السمع وجد متباعد المخارج، وكذلك إذا نظر في ما استقبحه وجد متقارب المخارج. واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج لا بعده.

(17) انظر المزهر في علوم اللغة : 1/197–198.

وذكر بعض الشواذ التي شذت عن هذه القاعدة. وأكد أن مخارج الحروف لا تعتبر في حسن التأليف[18].

نخلص من هذا العرض إلى أن آراء القدماء في أسباب تناسب الأصوات في التأليف تراوحت بين التعليل الموضوعي الصوتي، وبين التعليل الذاتي الذوقي.

فالذين تحدثوا عن تباعد مخارج الحروف وتقاربها والاعتدال بينها في التأليف أرادوا أن يبحثوا عن علة موضوعية، لتناسب الأصوات أو تنافرها، تستمد من صورة امتزاج الأصوات عند التأليف. والذين تحدثوا عن حاسة السمع باعتبارها المعيار الذي يعرف به التناسب والتنافر في تأليف الأصوات، أرادوا أن يجعلوا العلة في ذلك ذاتية ذوقية.

وهناك من جمع بين التعليلين الموضوعي والذاتي وهو أبو الحسن الرماني.

ويبدو أن هذا هو الرأي الراجح، لأن جمال تناسب الأصوات في العبارة المؤلفة له أسبابه الموضوعية التي يعرفها أهل صناعة الكلام، لكن درجة إحساسهم بجمال التناسب متفاوتة، كما تتفاوت درجة إحساسهم بما في قطعة موسيقية من جمال التناسب.

ومهما يكن، فإن التناسب هو أهم الأسباب الموضوعية لحسن المسموعات عامة، يقول ابن خلدون : «والحَسَنُ في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة، وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة، وغير ذلك. والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن»[19].

وفي رسائل إخوان الصفاء : «أن الأصوات الحادة والغليظة متضادات، ولكن إذا كانت على نسبة تأليفية ائتلفت وامتزجت واتحدت وصارت لحنا موزونا، واستلذتها المسامع، وفرحت بها الأرواح، وسرت بها النفوس، وإن كانت على غير النسبة تنافرت وتباينت..»[20].

3 ـ التناسب الصوتي في النظم القرآني

النظم القرآني نظم له روعة خاصة، ورونق متميز، يبدو فيه جمال التناسب الصوتي والإيقاعي واضحا. وموسيقى هذا النظم داخلية قبل أن تكون خارجية، تتخلل الآية، وتنتظم جميع عناصرها : من الأصوات والمقاطع والحركات والسكنات والكلمات والفواصل. حتى آيات التشريع والأحكام نجدها متصفة بهذه الخاصة الموسيقية، «ولعل جمال النغمة وتناسب الإيقاع هو

---

(18) المثل السائر، القسم الأول، ص : 222—226.

(19) مقدمة ابن خلدون، ص : 425.

(20) رسائل إخوان الصفاء : 195/1.

السبب في العدول في كثير من الآيات عن ألفاظ وقوالب، وعن طرائف من التركيب والتأليف اللغوي المعتاد[21].

غير أن الباحث لا يجد في الدراسات القرآنية السابقة دراسة تحليلية تبرز الطرق التي يمتاز بها القرآن في النظم الصوتي للآيات، وكل ما يصادفه لا يتجاوز إشارات مقتضبة أو أحكاما عامة. وهذه أيضا نادرة، لا يوجد منها إلا ما ذكره أبو الحسن الرماني ومصطفى صادق الرافعي.

أما الرماني فقد تحدث عن التلاؤم بين الأصوات باعتباره من نكت بلاغة القرآن التي تشترك مع النكت الأخرى لإظهار الإعجاز، ويرى أن القرآن كله في الطبقة العليا من التلاؤم، وأن هذا التلاؤم «إذا انضاف إليه حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام»[22].

ولا نظفر عنده في هذا الباب بشيء من التحليل الموضوعي للنظم الصوتي في القرآن، ولكنه أشار إلى شيء منه في أثناء حديثه عن «الإيجاز»، حيث أورد قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، ووازن بينه وبين العبارة التي استحسنها الناس في معنى الآية، وهي قولهم : «القتلُ أنْفَى لِلْقَتْلِ».

قال : «وقد استحسن الناس هذا، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز، وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة. أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في قولهم : «القتل أنفى للقتل»، وزيادة معان حسنة، منها إبانة العدل، لذكر القصاص، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه، لذكره الحياة ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به.

وأما الإيجاز في العبارة فإن الذي هو نظير «القتل أنفى للقتل» قوله : «القصاص حياة»، والأول أربعة عشر حرفا، والثاني عشرة أحرف. وأما بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة، فإن في قولهم : القتل أنفى للقتل تكريرا غيره أبلغ منه..

وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد الهمزة من اللام، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام. فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها، صار أبلغ منه وأحسن، وإن كان الأول بليغا حسنا[23].

---

(21) دراسة أدبية لنصوص قرآنية، لمحمد المبارك، دار الفكر، ط.4، 1973، ص : 156.

(22) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 89.

(23) نفسه، ص : 71—72.

كان أعمق من تحدث عن هذا الوجه من الإعجاز القرآني، عقد فصلا خاصا للحروف وأصواتها لبيان قيمتها في النظم الموسيقي للقرآن. ومما ذكر فيه «أن الطريقة التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألفت بها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق، وصفات من اللهجة، لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي ﷺ، فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوى من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن لم يسمعه بد من الاسترسال إليه، والتوفر على الإصغاء.

«وأصوات الحروف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع من التركيب، وجهة من التأليف، حتى يمازج بعضها بعضا، ويتألفا منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة، ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده.

«وكان العرب يسترسلون ويحذمون[24] في منطقهم كيفما اتفق لهم، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت، دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت... فلما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها»[25].

وقال : «وحسبك بهذا آعتبارا في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير، وغير ذلك»[26].

وأوضح أن من الخصائص التي آنفرد بها القرآن، وباين بها سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد، وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وقال : «ولا وجه لتعليل ذلك إلا إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وإيجازا، وابتداء وردا، وإفرادا وتكريرا»[27].

---

(24) يقال : حذم في قراءته إذا أسرع.

(25) إعجاز القرآن، ص : 213—214.

(26) نفسه، ص : 218.

(27) نفسه، ص : 218.

وعرض الرافعي في فصل آخر لنظام توزيع الحركات الصرفية واللغوية في نظم الآية القرآنية، فأشار إلى أن تلك الحركات «تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيىء بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل... فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الحروف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي ؛ حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، «من ذلك لفظة «النُّذُر»»، جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا، فضلا عن جسأة هذا الحرف، ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام... ولكنه جاء في القرآن على العكس، وانتفى من طبيعته في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (سورة القمر : 36). فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف، وأجر حركاتها في حس السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال «لقد»، وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تمادوا» مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد.

...ثم ردد نظرك في الراء من «تماروا» فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون «أَنْذَرَهُم» وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر»»[28].

«وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة... وليس منها إلا متخير مقصود إليه من بين الكلم ومن بين الحروف والحركات..»[29].

تلك خلاصة لما قدمه الرافعي من إشارات وأحكام عن النظم الصوتي الموسيقي للقرآن، ويبدو أنه كان يصف من ذلك ما أحسه وتذوقه من جمال ذلك النظم، وكان له من شاعريته الخصبة خير معين على الإحساس بما في النظم القرآني من موسيقى صوتية فريدة.

وأما الدراسة التحليلية لذلك النظام الصوتي الفريد، فلم يقدم فيه إلا مثالا واحدا، هو الذي أوردناه آنفا.

---

(28) إعجاز القرآن، ص : 227ـ228.

(29) نفسه، ص : 228.

والحقيقة أن تحليل النظام الصوتي والإيقاعي في نظم القرآن بهذه الطريقة التفصيلية، التي تطمح إلى الوقوف عند العناصر الجزئية، والبحث في مخارج الحروف وصفاتها والحركات والسكنات والمد والغنة... ليس تحليلا سهلا، والطريق إليه غير ممهد، ثم إن كل ما سينتهي إليه من الأحكام سيبقى أحكاما ذوقية شخصية، بلا أدلة موضوعية.

لهذا نرى أن يتجه البحث في النظم الصوتي للقرآن اتجاها مخالفا لما بدأه الرماني والرافعي في الإشارات التي ذكرناها، فينظر في الأصوات والألفاظ والتراكيب التي تجنبها القرآن، ويبين من الناحية الصوتية ما دعا إلى ذلك، مع محاولة إبراز صلته بالتركيب الصوتي، والتناسب الإيقاعي.

4 ـ تجنب أسباب التنافر الصوتي في النظم القرآني

سلك القرآن طرقا من النظم في تأليف الألفاظ والأصوات، تجنب بها كل من شأنه أن يكون سببا في التعقيد اللفظي، أو التنافر الصوتي. وأسباب التنافر الصوتي كثيرة، قد تأتي من تتابع بعض الأصوات، أو من تتابع الحركات الثقيلة، أو من استعمال صيغ لفظية في نسق غير ملائم.. وقد تجنب القرآن هذه الأسباب وغيرها، وسخر ما في اللغة العربية من إمكانات صرفية ومعجمية للتعبير عن معاني الآيات، مع الحفاظ على جمال النظم والتناسب الصوتي.

ا ـ تجنب تتابع الأصوات المتماثلة أو المتقاربة :

1 ــ تجنب القرآن الجمع بين ظاءين في كلام أو جملتين معقودتين عقد كلام واحد.

قال تعالى في سورة النحل : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ (سورة النحل : 61).

وقال في سورة الملائكة : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ (سورة الملائكة : 45).

قال الخطيب الاسكافي : «لم يذكر الظهر في الآية الأولى، لتقدم الظاء في المبتدأ بعد «لو» والظاء تعز في كلام العرب، ألا ترى أنها ليست لأمة من الأمم سوى العرب، فلما اختصت بلغتها وتجنبت إلا فيها، استعملت في الآية الأولى مباشرة بعد «لو»، واستعملت في الآية الثانية في جواب ما بعد «لو» (...).

«وأجريت مجرى ما استعمل من الحروف فلم يجمع بينها في جملتين معقودتين عقد كلام واحد، وهما ما بعد «لو» وجوابها، وحُسن التأليف وقصد الحروف مراعي في الفصاحة لا يخفى على أهل البلاغة»[30].

(30) درة التنزيل وغرة التأويل، ص : 266.

2 ــ وتجنب القرآن تكرار حروف الحلق في كلمتين متتابعتين، كما في قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ (سورة المجادلة : 7).

تساءل بعض العلماء، لِم انتقل في نظم هذه الآية من الثلاثة إلى الخمسة ؟ وعدل عن الترتيب في الانتقال من الثلاثة إلى الأربعة ؟ ثم بين أن ذلك تصرف في التعبير أريد به تجنب تتابع أصوات الحلق فقال : «منع من ذلك أمران : أحدهما الخشية من مجيء نظم الكلام معيبا لثقله على النطق والسمع، لبشاعة تكرار لفظ التربيع بغير حاجز يباعد بين اللفظين، فإنه لو قيل بعد قوله : «إلا هو رابعهم» ولا أربعة، لثقل الكلام لمجاورة لفظين فيهما أربعة أحرف من حروف الحلق هما العينان والهاءان..

«والأمر الثاني الذي منع من ذكر الأربعة هو تجنب تكرار المعاني والألفاظ بغير فائدة»(31).

3 ــ وتجنب القرآن تكرار صوت الكاف ثلاث مرات في ما هو كالكلمة الواحدة.

قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ (سورة الأنعام : 6) فجيء بفعل «مَكَّن» متعديا بنفسه في قوله : «مَكَّنَّاهم»، ثم جيء به متعديا بحرف الجر في قوله : «مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ»، ولو عداه بنفسه هنا كما في الكلمة الأولى لتوالي حرف الكاف ثلاث مرات، ويظهر ذلك عند النطق الصحيح، لأن النون الساكنة تخفى في النطق قبل حرف الكاف. فإذا أخفيت في قولنا «مَا لَمْ نُمَكِّنْكُم»، اتصل صوت الكاف المشدد بصوت الكاف الذي بعد النون، وفي ذلك تتابع صوتي ثقيل على اللسان.

4 ــ وتجنب القرآن تكرار حرف السين ثلاث مرات على التتابع.

قال تعالى : ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس : 10).

الأصل : دسسها. فأبدل من السين الأخيرة ياء، تجنبا لتكرار الحرف الواحد.

قال ابن الأثير : «اعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم.. ولشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره، فقالوا : أمليت الكتاب، والأصل : أمللت، فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة. وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة، فما بالك بالألفاظ الكثيرة»(32).

ونقول : إذا كانوا قد فعلوا ذلك في الحرفين، فما بالك بالثلاثة كما في «دساها».

ومن هذا القبيل، أي تجنب تكرار الحرفين المتماثلين، قوله تعالى : ﴿ٱنظُرْ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ (سورة طه : 97)، بحذف اللام الثاني من «ظللت». وقوله تعالى :

(31) بديع القرآن، ص : 334.

(32) المثل السائر : 1/403ــ404.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ (سورة الكهف : 97) بحذف التاء من «استطاعوا». أجمع القراء على القراءة بحذف التاء تخفيفا، باستثناء حمزة. قال ابن خالويه : «والاختيار ما عليه الإجماع لأنه يراد به استطاعوا، فتحذف التاء كراهية اجتماع حرفين متقاربين في المخرج»[33].

ومن هذا القبيل أيضا حذف تاء المضارعة أو إدغامها في لام الفعل المضارع من صيغة «تفعل» المسند إلى ضمير المخاطب أو المخاطبين وهو كثير في الأسلوب القرآني.

ب ـ تجنب تتابع الحركات الثقيلة :

وعدل القرآن عن استعمال بعض الصيغ اللفظية والصرفية، فرارا من تتابع حركة الكسرة فيما هو كالكلمة الواحدة. وقد عدل القرآن لهذا السبب إلى صيغة من صيغ الجمع الشاذة ـــ فيما يقول النحاة ـــ قال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ (سورة النحل : 112). فجمع النعمة على «أنْعُم»، وهو، بحسب قواعد النحو من جموع القلة. والسياق يقتضي الكثرة. ثم هو إلى ذلك جمع شاذ، لأن تكسير «فِعْلة» على «أَفْعُل» قليل في كلام العرب. قال سيبويه : «وقد كسرت «فعلة» على «أفعل» وذلك قليل عزيز، ليس بالأصل، قالوا : نعمة وأنعم، وشدة وأشد»[34].

وسياق الآية يقتضي ـــ كما تقدم ـــ جمع الكثرة، لأن قوله تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ يتضمن الامتنان على أهل مكة، وتذكيرهم بنعم الله، من الأمن والأرزاق الكثيرة والعيش الرغد.

فما الداعي الذي دعا إلى العدول عن جمع الكثرة، واستعمال جمع للقلة شاذ ؟

الداعي إلى ذلك هو تجنب تتابع حركة الكسرة، لأنه لو قيل : «بنعم الله» لتوالى صوت الكسرة مرتين فيما هو كالكلمة الواحدة، لأن الكسرة الأولى، وإن كانت لحرف الجر، فإنه أي حرف الجر، كالجزء من الكلمة. قال ابن جني : «ويدلك على شدة امتزاج حرف الجر بما جره، أن العرب قد أجرتهما مجرى الجزء الواحد قولهم : مَرَرْتُ بِي، والمال لي. فتسكينهم الياء في «بي» و«لي»، وكونهما على حرف واحد يدلك على اعتمادهما على الباء واللام قبلهما، وأنهما غير مقدرين الانفصال منهما (...) ولأجل ما ذكرناه من شدة اتصال الجار بالمجرور ما قبح عندهم حذف الجار وتبقية جره بحاله»[35].

وقيل : ليس في العربية مما جاء على «فِعِل» إلا «إِبِل» و«إِطِل» لاستثقال الكسرتين المتتابعتين، لهذه الأسباب عدل القرآن إلى صيغة «أنعم» في الآية السابقة.

(33) الحجة في القراءات السبع، ص : 233.

(34) الكتاب : باب تكسير الواحد للجمع.

(35) سر صناعة الاعراب، ص : 149.

وعدل إلى هذه الصيغة في آية أخرى للسبب نفسه. وهي قوله تعالى : ﴿شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ، آجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة النحل : 121).

ولما زال هذا المحذور، ولم يتصل جمع «النعمة» بحرف الجر المكسور، جمع على «فِعَل» كما في قوله تعالى : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (سورة لقمان : 20).

وتوزيع الحركات جزء من نظم الكلام، وتأليف الأصوات في الصياغة اللفظية، لأن منها ما هو خفيف، ومنها ما هو ثقيل. وخفة الحركات من شروط فصاحة التعبير. قال ابن الأثير : «إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم يستثقل، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة، فإنه إذا توالى حركتان منها في الكلمة استثقلت، ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء»[36].

ج ـ تجنب الهمزة المضمومة بعد المكسورة من كلمتين :

تحدث علماء القراءات عن التقاء الهمزتين المختلفتي الحركة من كلمتين، فأشاروا إلى ما وقع منها في التركيب الصوتي للقرآن، وهو خمسة أضرب :

1 ـ المكسورة بعد المفتوحة، نحو : ﴿تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ آللّٰهِ﴾ (سورة الحجرات : 9)، ﴿شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ...﴾ (سورة البقرة : 133)، ﴿وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ (سورة المائدة : 64).

2 ـ المضمومة بعد المفتوحة نحو قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا...﴾ (سورة المومنون : 44) وليس في القرآن من هذا النوع غيره.

3 ـ المفتوحة بعد المضمومة، نحو قوله تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ...﴾ (سورة الأعراف : 110)، ﴿سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ (سورة التوبة : 37)، ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ (سورة هود : 44).

4 ـ المفتوحة بعد المكسورة، نحو قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ آيتِنَا...﴾ (سورة الأنفال : 32) ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى﴾ (سورة النساء : 51).

5 ـ المكسورة بعد المضمومة، نحو قوله تعالى : ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة : 213)، ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ إِنِّي﴾ (سورة النمل : 29).

وقالوا : إن القسمة العقلية تقتضي للهمزتين المختلفتين ستة أضرب، إلا أن الضرب السادس لم يوجد في القرآن، وهو أن تكون الهمزة الأولى مكسورة والثانية مضمومة، وقد ورد

(36) المثل السائر : 268/1.

موضعه في سورة القصص، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة القصص : 23) والمراد وجد على الماء أمة[37].

والعرب يكرهون الخروج من ضم إلى كسر في أبنية الألفاظ، ويتجنبونه فرارا مما يستثقل. قال ابن جني : «فأما استكراههم الخروج من كسر إلى ضم بناء لازما، فليس ذلك شيئا راجعا إلى الحروف، وإنما هو استثقال منهم للخروج من ثقيل إلى ما هو أثقل منه»[38].

والهمزة صوت ثقيل في النطق، والنطق بالهمزة المضمومة بعد المكسورة يزيد من الثقل.

د ـ تجنب بعض الألفاظ والأبنية الصرفية :

تجنب القرآن آستعمال بعض الألفاظ إلا بصيغة الجمع، وتجنب استعمال بعضها إلا بصيغة الإفراد، وتجنب كلية استعمال ألفاظ أخرى.

بعض الألفاظ لم يرد فيه إلا مجموعا، فإذا احتاج إلى المفرد منها استعمل مرادفها، كلفظ «اللب» فإنه لم يرد في القرآن إلا مجموعا كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر : 21)، وقوله : ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ (سورة إبراهيم : 52) ونحوهما. ولم يرد فيه مفردا، بل جاء في مكانه «القلب». والسبب في تجنب هذا اللفظ يرجع إلى تركيبه الصوتي. قال مصطفى صادق الرافعي : «وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين، يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة، تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها، نصبا أو رفعا أو جرا، فأسقطها من نظمه بتة، على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أن فيه لفظة «الجب»، وهي في وزنها ونطقها لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة»[39].

وكذلك لفظ «الكوب» استعمل فيه مجموعا، ولم يرد فيه مفردا، «لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ «أكواب» الذي هو جمع.

وكذلك لفظ «الإرجاء» لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعا، وترك المفرد، لعلة في لفظه

وعكس ذلك لفظ «الأرض» فإنه لم يرد في القرآن إلا مفردا. فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بالأرض معها مفردة في كل موضع. ولما احتاج القرآن إلى جمعها عدل إلى تعبير يفيد معنى

(37) النشر في القراءات العشر : 388/1. وانظر سراج القارىء المبتدىء وتذكار المقرىء المنتهي، ص : 73.

(38) سر صناعة الاعراب، ص : 81.

(39) إعجاز القرآن، ص : 232.

الجمع، وذلك في قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق : 12)، فلم يقل : وسبع أرضين.

وتجنب القرآن استعمال لفظ «الأجر» ومرادفه كلية. فلما احتاج إليه أخرج معناه بألطف عبارة في قوله تعالى : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ (سورة القصص : 38).

وتجنب القرآن صيغتي المضارع والأمر من فعل «جاء»، وآثر عليهما الأمر والمضارع من مرادفه، وهو «أتى» في آيات كثيرة، دل استقراؤها على اطراد هذه القاعدة.

قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون : 68)، ولم يقل ما لم يجئ آباءهم.

وقال : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ (سورة مريم : 43) ولم يقل : ما لم يجئك.

وقال : ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ (سورة العنكبوت : 53) ولم يقل : وليجيئنهم.

وقال : ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ (سورة الأعراف : 106)، ولم يقل : فجئ بها.

توضح هذه الآيات ومثيلاتها أن القرآن تجنب كلية استعمال المضارع والأمر من «جاء». وعند الحاجة إليهما أو إلى أحدهما، عدل القرآن إلى مرادف «جاء»، وهو «أتى». ولاشك في أن صيغتي المضارع والأمر من هذا الفعل أخف من «يجيء» و«جئ»، لأن الفرق بينهما محسوس.

والعدل عن صيغة إلى أخرى طلبا لخفة العبارة وحسنها كثير في النظم القرآني، واستقراؤه يطول، وقد نبه عليه بعض علماء الإعجاز وأشار إلى بعض أمثلته، منها قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ (سورة العنكبوت : 48)، قال : هذا أحسن من التعبير بـ «تَقْرَأُ» لثقله بالهمزة.

ومنها قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (سورة البقرة : 1)، أحسن من لاشك فيه، لثقل الإدغام، ولهذا كثر ذكر الريب.

ومنها : ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ (سورة آل عمران : 139)، أحسن من «لا تضعفوا» لخفته، و﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ (سورة مريم : 4) أحسن من «ضعف»، لأن الفتحة أخف من الضمة.

ومنها «آمن» أخف من «صدق»، ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق.

و﴿آثَرَكَ اللّهُ﴾ (سورة يوسف : 91)، أخف من فَضَّلَك، و«آتى» أخف من «أعطى» و«أنذر» أخف من «خوِّف»، و«خَيْرٌ لَكم» أخف من «أفضل لكم»، والمصدر في نحو : ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ﴾ (سورة لقمان : 11)، وقوله : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (سورة البقرة : 1) أخف من «مَخلوقه»، و«الغائب». و«نَكَحَ» أخف من «تَزَوَّج»، لأن «فعل» أخف من «تفعل». ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر...»(40).

5 ـ التناسب بين المعنى والإيقاع الصوتي

من المعروف أن للأصوات اللغوية وطريقة توزيعها في نسيج العبارة تأثيرا في إيقاعها شدة ولينا. فتكون ذات إيقاع قوي إذا كانت نسبة الأصوات ذات الجرس القوي غالبة عليها. وتكون ذات إيقاع رخي إذا كانت نسبة الأصوات اللينة والضعيفة غالبة عليها.

والنظم القرآني يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والأغراض، ونوع التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المخاطبين. وألفاظ القرآن ــ على حد تعبير مصطفى صادق الرافعي ــ «إذ اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة...»(41).

يشتد الخطاب القرآني في مقامات الإنذار والوعيد، ووصف غضب الله على المجرمين، وتصوير مشاهد عذابهم، ويرق في مقامات الترغيب والتسلية والتلطف في مخاطبة الانبياء، والمخلصين من المؤمنين.

ولتوزيع الأصوات قيمة واضحة في تكييف الايقاع شدة ولينا. ومن المفيد أن نقدم أمثلة توضح هذه الفكرة.

قال تعالى : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِن غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (سورة الحج : 19ــ21).

هذا مشهد عنيف من مشاهد العذاب، ترتسم صور العنف في مناظره : من تقطيع ثياب من نار للمعذبين، ومن صب الحميم من فوق رؤوسهم ليصهر ما في بطونهم والجلود، ومن مقاطع الحديد يقمعون بها في العذاب.

وقد رسمت هذه الصورة بالألفاظ المناسبة التي تألفت من الأصوات القوية والشديدة كالطاء المشددة، والقاف المضمومة في «قطعت»، والباء المشددة المضمومة، والصاد في

(40) الاتقان في علوم القرآن : 125/2.
(41) إعجاز القرآن، ص : 30.

«يصب»، والهمزة المضمومة الممدودة في «رؤوسهم»، والباء والطاء المضمومتين في «بطونهم»، والجيم المضمومة في «الجلود» و«أن يخرجوا»، والدال المكسورة والمضمومة في «من حديد»، وأرادوا»، و«أعيدوا»، والقاف المضمومة والمكسورة في «ذوقوا»، و«الحريق»، وصوت القلقلة الذي تكرر في حروف الفاصلة وهو الدال من «الجلود» والدال الأخيرة من «حديد»، والقاف من «الحريق».

وهكذا جمعت الألفاظ وأصواتها في هذا المشهد صفات الجهر، والشدة، والاستعلاء، والتفخيم، والاطباق، والقلقلة، وهي كلها من صفات القوة في الأصوات.

وزاد توزيع الحركات في التركيب الصوتي للآيات من قوة التعبير، وعنف المشهد. فالضمة كثيرة التردد في هذا التركيب، وقعت على الميم، والقاف، والباء، والهمزة الممدودة، والراء والطاء، والجيم، واللام، والذال، وكلها أصوات ذات جرس قوي.

وجاءت متتابعة في عدد من الكلمات، يكفي النطق بها لرسم صورة الغلظة والشدة والعنف، لأن تتابعها يحتم عند القراءة تكوير الشفتين، مع استعلاء الصوت.

وأمثال هذه المشاهد التي يشارك فيها توزيع الأصوات في التعبير والتصوير كثيرة في القرآن، وقد درس منها سيد قطب في كتابيه «مشاهد القيامة..» و«التصوير الفني في القرآن» نماذج كثيرة، وبين، بما لا يحتاج إلى زيادة ــ قيمة الايقاع الصوتي فيها[42].

وأما الآيات التي ترد في مقامات الترغيب والتسلية والتلطف فإن الرضى والمحبة اللذين يغمران المقام تنعكس آثاره على الألفاظ والعبارات فتجعلها رقيقة رخية الإيقاع. وهذا اللون من التعبير كثير في القرآن، حسبنا أن نقدم منه أمثلة :

قال تعالى في خطاب محمد ﷺ : ﴿طَهَ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَٱلسَّمَوَاتِ ٱلْعُلَى ٱلرَّحْمَانُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَى، وإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وأَخْفَى، ٱللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ (سورة طه : 1ــ7)

فهذا خطاب يفيض رقة ولطفا، وتردد فيه من أصوات اللين والمد ما جعل إيقاعه متموجا رخيا. وزاد صوت الغنة الذي تردد مع التنوين والنون الساكنة هذا الإيقاع عذوبة ورشاقة.

وقال تعالى عن محمد ﷺ : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً

(42) مشاهد القيامة... ص : 49ــ227؛ والتصوير الفني...، ص : 85ــ94.

أخرى، عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَى﴾ (سورة النجم : 8ــ18).

ورقة هذا الخطاب، واضحة ولأصوات اللين التي ترددت فيه بكثرة، ولحركة الفتحة التي تتابعت في معظم مقاطعه أثر واضح في رقته ولطفه. والمقام مقام القرب والمناجاة، والرضى الغامر، والمحبة الفياضة، في ليلة المعراج، وهي ليلة التسلية والتكريم من رب كريم لعبده محمد ﷺ.

ويكثر هذا اللون من الخطاب الرقيق في مقام الدعاء ومناجاة الأنبياء والصالحين لله تعالى، كما في الدعاء الذي ختمت به سورة آل عمران : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة آل عمران : 191ــ194).

وهناك أدعية أخرى لا حاجة إلى الإطالة بإيرادها. وخلاصة القول أن القرآن كما يراعي في نظمه تناسب الأصوات، وحسن ائتلافها، ويتجنب كل أسباب التنافر والاستثقال، يراعي أيضا التناسب بين الايقاع الصوتي والمعاني، ويسخر هذا الايقاع لرسم صور المعاني في الخيال، ولإثارة الإحساس بها في نفوس المخاطبين.

وختام القول في هذا الفصل، أننا، مع ما بذلناه من جهد، لا نزال نؤمن بأن تناسب الأصوات سر من أسرار القرآن، يدرك بالتذوق والاحساس أكثر مما يدرك بالتحليل والبحث الموضوعي.

وإن الدراسة التحليلية للصورة التي امتزجت بها الأصوات في نظم الآيات، على اختلاف مخارجها وصفاتها من الجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والقوة واللين، وبيان أسرار تناسبها، تحليل ذوقي ذاتي يصعب إثبات نتائجه بالدليل الموضوعي المقنع.

الفصـــل الثـانـي

الـمقاطع الصوتية وقيمتها فـي التناسب الصوتي

إذا كان لتوزيع الأصوات وطريقة تأليفها أثر هام في التناسب الصوتي لنظم الآيات، فإن للمقاطع الصوتية وتأليفها أثر في هذا التناسب لا يقل أهمية. والجمال في النظم القرآني ينبع من تناسب المقاطع كما ينبع من تناسب الأصوات بمخارجها وصفاتها.

وقد أكدت الأخبار الصحيحة أن العرب أحسوا بالتناسب البديع الذي امتازت به المقاطع القرآنية، عندما طرقت آياته أسماعهم، فاستطابوا ما فيها من حلاوة الإيقاع، ووصفوه بصفة الشعر، وزعموا أن النبي ﷺ شاعر.

1 ـ مفهوم المقطع عند اللغويين المحدثين

ينبغي أن نشير في مستهل هذه الفقرة إلى أن مفهوم المقطع الصوتي حديث في الدراسات اللغوية العربية، آستفادته من الدراسات اللغوية الأجنبية. وأما القدماء فلم يكونوا يعرفونه، وكانوا ينظرون في نظام الحركات والسكنات، وجرى الخليل بن أحمد على تسمية العناصر الايقاعية للشعر بالأسباب والأوتاد والفواصل.

ويبدو أن اللغويين المحدثين وجدوا صعوبة كبيرة في تحديد مفهوم المقطع، فالذين عنوا بدراسة علم الأصوات (Phonétique) لهم تعريفات عديدة. والذين اهتموا بدراسة علم وظائف الأصوات (Phonologie) لهم أيضا تعريفات عديدة.

* وأهم تعريفات الفريق الأول أن المقطع هو :

1 ـــ تتابع من الأصوات الكلامية له حد أعلى أو قمة إسماع تقع بين حدين اثنين من الإسماع.

2 ـــ أو هو : جزء من تيار كلامي يحوي صوتا مقطعيا ذا حجم أعظم، محاطا بجزئين أضعف منه.

3 ـــ أو هو : وحدة من عنصر أو أكثر، تصاحبها نبضة صدرية واحدة.

• وأهم تعريفات الفريق الثاني أن المقطع هو :

1 ـــ الوحدة التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر في اللغات المنبورة، أو نغمة واحدة في اللغات النغمية.

2 ـــ أو هو : الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها.

3 ـــ أو هو : وحدة تحتوي على صائت واحد فقط، إما وحده وإما مع صوائت بأعداد معينة وبنظام معين[1].

وعرفه عبد الصبور شاهين بقوله : «هو مزيج من صامت وحركة، يتفق مع طريقة اللغة في تأليف بنيتها»[2].

وعرفه كمال إبراهيم بدري بقوله : «هو الميدان الذي يلعب فيه النبر دوره»[3].

والمقاطع الصوتية نوعان : متحرك، وساكن. والمقطع المتحرك هو الذي ينتهي بصوت لين قصير أو طويل، مثل «بَ»، و«بَا». وأما الساكن فهو الذي ينتهي بصوت ساكن، مثل «منْ»، «لمْ»، «قدْ».

واللغات، بصفة عامة، تتباين في ميلها إلى نوع خاص من المقاطع. وقد أشار النحاة القدماء إلى ميل اللغة العربية إلى المقاطع الساكنة، حيث قرروا استحالة اجتماع أربع متحركات في الكلمة الواحدة، وكراهته فيما هو كالكلمة، ومعنى هذا أن اللسان العربي ينفر ـــ كما يقول المحدثون ـــ من توالي أربعة مقاطع متحركة فيما هو كالكلمة[4].

2 ـ أنواع المقاطع في اللغة العربية

تعددت عبارات اللغويين المحدثين، ومصطلحاتهم في التعريف بأنواع المقاطع في العربية. ورغبة في الإيضاح والاختصار، نكتفي بعرض هذه الأنواع كما أوردها إبراهيم أنيس، وهي خمسة أنواع :

1 ـــ صوت ساكن + صوت لين قصير مثل (بَ) (وَ)..

2 ـــ صوت ساكن + صوت لين طويل مثل (ما) (لا)..

---

(1) دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار، توزيع عالم الكتب، القاهرة 1976، ص : 241ـــ242 بتصرف.

(2) المنهج الصوتي للبنية العربية، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، 1980، ص : 38.

(3) علم اللغة المبرمج، كمال ابراهيم كمال، جامعة الملك سعود، الرياض 1402هـ ص : 142.

(4) الأصوات اللغوية، ابراهيم أنيس، ط. 5. مكتبة الأنجلو المصرية 1979، ص : 163.

3 ــ صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن مثل (لَمْ، قَدْ..)
4 ــ صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن مثل (بَابْ) بسكون الباء الأخيرة.
5 ــ صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان، مثل المقطع الأخير من «مستقر»، وهو «قر» بإسكان الراء المشددة[5].

واختار بعض الدارسين المحدثين تقسيم المقاطع في اللغة العربية إلى ثلاثة أنواع لا غير، هي :

1 ــ مقطع قصير، مثل : (بَ) (لَ)..
2 ــ مقطع طويل مثل : (بَا)، (لَا)..
3 ــ مقطع زائد الطويل مثل : (لَامْ) بسكون الميم[6].

ويمكن أن يؤول هذا التقسيم إلى نوعين هما : طويل، وقصير.

وهذا التقسيم الثاني هو الذي اختاره أحد العروضيين المحدثين، في محاولة منه لدراسة الإيقاع الشعري على أسس موسيقية. وذهب إلى أن المقاطع اللفظية في اللغة العربية قسمان : مقاطع مقصورة ومقاطع ممدودة.

فأما المقطع المقصور فهو الذي يتألف من متحرك لا يليه ساكن، وهو خفيف. وأما المقطع الممدود فهو الذي يتألف من متحرك يليه ساكن، وهو ثقيل[7].

وأشار إلى أن الفضل في محافظة اللغة العربية الفصحى على هذا الأساس المقطعي يرجع إلى أمرين أو عاملين :

1 ــ **القرآن** : وذلك لأن المسلمين أخذوا قراءته سُنّة، وتناقلوها رواية فلما حُفظت سنة القراءة القرآنية حفظ معها مبدأ القصر والامتداد في التركيب المقطعي للغة العربية.
2 ــ **الشعر** : وذلك لأن موسيقى الشعر العربي لا تستقيم إلا بالخضوع لهذا الأساس المقطعي[8].

3 ـ التناسب في تأليف المقاطع

لما كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة، وكان لكل مقطع سماته الصوتية المتميزة،

---

(5) الأصوات اللغوية، ص : 163.
(6) لغة القرآن في جزء عم، محمود احمد نحلة، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص : 356ــ357.
(7) نظرية إيقاع الشعر العربي، ص : 146.
(8) نفسه، ص : 149.

كان ترتيب هذه المقاطع في الكلمات وتواليها على نسق معين ذا أثر كبير في إحداث أنواع من الإيقاع الداخلي، وحلاوة هذا الإيقاع الداخلي تنبع من التناسب في تأليف المقاطع.

«واللغة التي تقوم على مبدأ المقاطع الممدودة والمقصورة لغة إيقاعية أكثر من غيرها، كالعربية... وذلك لأن المقاطع الصوتية ذات وزن مختلف يتراوح بين الثقل والخفة، فإذا تناسب الثقل والخفة، اندرج الايقاع اللذيذ فيها بيسر، لأنه يجد الظروف الملائمة لانبعاثه، فيضفي على العبارة مزيدا من الحسن»(9).

وحلاوة الإيقاع في الكلام العربي المنظوم والمنثور ترجع إلى التناسب في ترتيب المقاطع وتركيباتها.

يقول حازم القرطاجني : «وضروب التركيبات كثيرة جدا، وإنما استعملت العرب من جميع ذلك ما خف وتناسب، وليس يوجد أصلا في ضروب التركيبات والوضع الذي للحركات والسكنات والأجزاء المؤتلفة من ذلك أفضل مما وضعته العرب من الأوزان. وإذا تصفحت ما قتله في ترتيب الحركات والسكنات والمسموعات المستطابة في ضروب ترتيباتها (...) عرفت صحة ذلك»(10).

ويقول : «فالتأليف من المتناسبات له حلاوة في المسموع، وما ائتلف من غير المتناسبات فغير مستحلىّ ولا مستطاب. ويجب أن يقال فيما ائتلف على ذلك النحو شعر، وإن كان له نظام محفوظ، لأنا نشترط في نظام الشعر أن يكون مستطابا»(11).

وكلام حازم في هذا النص، على الرغم من كونه يتعلق بالتناسب في ترتيب المقاطع الشعرية، يصلح أن يكون أساسا لمعرفة أسباب جمال ترتيب المقاطع في غير الشعر، لأن حازما لم يقصر طرق التناسب في تأليف المقاطع الصوتية على الطريقة أو الطرق المحفوظة في الشعر، بل نبه في كلامه السابق على حقيقة على جانب كبير من الأهمية فيما نحن بصدده، وهي أن كُلّ كلام تألفت مقاطعه على طريق من طرق الترتيبات المتناسبة كان له حظ من الشاعرية.

ونظام توالي المقاطع في الشعر العربي يخضع لاعتبارين هامين، هما :

— ألا يتوالى في الشطر الواحد أكثر من مقطعين قصيرين.
— ألا يتوالى في الشطر الواحد أكثر من أربعة مقاطع متوسطة.

ويرى إبراهيم أنيس أن الكلام إذا استوفى هذين الشرطين أمكن أن يكون شعرا موزونا.

---

(9) نظرية إيقاع الشعر العربي، ص : 58

(10) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 232.

(11) نفسه، ص : 267.

ويقول : «واستيفاء هذين الشرطين في الكلام العربي ليس بالامر العسير أو النادر، بل هو كثير، نراه في توالي المقاطع القرآنية، ونراه في نثر بعض الكتاب، ممن يعنون بموسيقى العبارات»(12).

4 ـ التناسب في المقاطع الصوتية القرآنية

أوضحنا فيما سبق ــ أن للقرآن روعة وجاذبية خاصة، وقدمنا أدلة ووقائع وشهادات تدل على أن من أسباب تلك الروعة جمال الإيقاع وحلاوته، كما بينا أن جانبا هاما من هذا الجمال الإيقاعي يرجع إلى تناسب الأصوات وحسن ائتلافها في النسيج الصوتي لنظم الآيات.

وقد آن لنا أن نوضح أن هناك مصدرا آخر لتلك الروعة أو الحلاوة التي يمتاز بها القرآن. هذا المصدر هو تناسب المقاطع الصوتية التي يتألف منها النظام الزمني أو الإيقاعي للآيات، لأن الحلاوة في المسموعات لا توجد إلا مع وجود التناسب في تأليف المقاطع الصوتية. وما ائتلف من غير المتناسبات فهو ــ على حد قول حازم القرطاجني ــ غير مستحلى ولا مستطاب.

وحلاوة النظم القرآني حقيقة ثابتة شهد بها حتى أعداؤه من كفار العرب الأوائل، كما شهد بها من لا يعرفون العربية في مختلف العصور.

وقد تواتر أن العرب لما أحسوا بحلاوة القرآن وطلاوته سموه شعرا، ليصدوا الناس عن الإيمان به. ومعلوم أن هذه الشبهة لم يكن لها أن تروج بينهم، لو لم تكن في حقيقة الأمر شبهة، ولو لم يكن في القرآن من الخصائص الأسلوبية ما يكفي لإثارة الاشتباه. ولعل مما يمكن الاستدلال به على قوة هذه الشبهة أن القرآن نفسه رد عليها بقوة وبصيغة مؤكدة، قال تعالى : ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الحاقة : 41).

وقال : ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**﴾ (سورة يس : 69).

قال الخطابي : «ثم صار المعاندون ممن كفروا به وأنكروه يقولون : إنه شعر، لما رأوه كلاما منظوما»(13).

وقال ابن تيمية : «وشبهة الشعر أن القرآن موزون، والشعر موزون، ولكن القرآن ليس بشعر»(14).

---

(12) موسيقى الشعر، ابراهيم أنيس، ط. 3، مكتبة الأنجلو المصرية 1965، ص : 55.

(13) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، ص : 25.

(14) كتاب النبوات، لابن تيمية، دار الفكر، بيروت، 1346هـ، ص : 20.

وحاول أبو بكر الباقلاني أن يفسر هذه الشبهة، وأن يوضح ما يمكن أن يحمل عليه قول الكفار : إن القرآن شعر، وإن الرسول شاعر، فذكر أن قولهم لابد أن يكون محمولا على أنهم نسبوه إلى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام، لا أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة. أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقة نظرهم في وجوه الكلام، وطرق لهم في النطق، «أو يكون محمولا على أنه أطلقه بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر، وهذا أضعفها»(15).

وقيل : «إن الحكمة في تنزيه القرآن عن الشعر الموزون، مع أن الشعر الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره، أن القرآن منبع الحق، ومجمع الصدق، وقصارى أمر الشاعر التخييل بتصوير الباطل في صورة الحق، والإفراط في الإطراء، والمبالغة في الذم، دون إظهار الحق وإثبات الصدق»(16).

ويبدو أن الباقلاني يميل إلى ترجيح الاحتمال الأول من هذه الاحتمالات التي ذكرها، ولذلك قدمه. وهذا الاحتمال هو أن العرب قالوا إنه شاعر، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام.

وغير خاف أن من وجوه الصنعة اللطيفة في نظم الكلام أن تؤلف مقاطعه تأليفا متناسبا تستطيبه الآذان، وترتاح له النفوس. وهذه من خصائص الشعر.

وقد ذهب أحد الدارسين المحدثين إلى أن نفي الشعر عن القرآن ليس المراد منه إلا نفي معانيه وأخيلته، تلك التي قد تصور الأمور على غير حقيقتها، ولا يسلك فيها الشاعر إلا مسلك العاطفة، غير مستوح من العقل والمنطق إلهاما.

أما من ناحية الموسيقى، وتردد القوافي فلا ضير ولا غضاضة من أن نصف القرآن بها، فقد نزل القرآن بلسان عربي مبين، لسان موسيقى تخضع مقاطعه في تواليها لنظام خاص.. وتتردد في كلماته مقاطع تستريح إلى ترددها الآذان(17).

نخلص من هذا إلى أن ترتيب المقاطع الصوتية في نظم الآيات يعد من مصادر حلاوة الإيقاع القرآني، لأنه ترتيب يقوم على مبدأ التناسب. ولعل هذا التناسب الإيقاعي هو الذي يمكن المرتلين من ترتيل القرآن بهذه الأنغام العذبة التي تهز نفوس المستمعين.

---

(15) إعجاز القرآن، ص : 51.

(16) معترك الاقران في اعجاز القرآن : 8/1.

(17) موسيقى الشعر (ابراهيم أنيس)، ص : 308.

ويصل التناسب في ترتيب المقاطع في نظم الآية القرآنية أو في جزء منها إلى أن يتفق مع وزن من أوزان الشعر العربي المعروفة.

ومن طلب لكل وزن ما يوافقه من الآيات وجد منه الكثير بسهولة وفيما يلي أمثلة مما وافق الأوزان المشهورة :

1 ــ ما وافق وزن الطويل : مما وافق هذا الوزن قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (سورة الأنعام : 151).

وقوله : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ (سورة الكهف : 31)

وقوله : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سورة الكهف : 29).

ومما وافق بمجزوءه قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ (سورة طه : 55).

2 ــ ومما وافق وزن الكامل قوله تعالى :

﴿تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأصيلا﴾ (سورة الفرقان : 5)

وقوله : ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ﴾ (سورة الفتح : 2).

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا..﴾ (سورة الفتح : 10)

وقوله : ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة : 24).

3 ــ ومما وافق وزن البسيط قوله تعالى :

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ (سورة يونس : 27)

وقوله : ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ (سورة ص : 51)

وقولهم : ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ (سورة الأحقاف : 25).

4 ــ ومما وافق وزن الوافر قوله تعالى :

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا﴾ (سورة الأحزاب : 67).

وقوله : ﴿إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (سورة المطففين : 30).

وقوله : ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة التوبة : 14).

5 ــ ومن الآيات التي وافقت وزن الخفيف قوله تعالى :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (سورة الشعراء : 214)

وقوله : ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الفرقان : 65)

وقوله : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (سورة الماعون : 21)

وقوله : ﴿لَا يَكَادُون يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء : 78)

وقوله : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ (سورة هود : 78)

وقوله : ﴿مَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ (سورة فاطر : 18).

6 — ومن الآيات التي اتفق فيها وزن الرمل قوله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّم﴾ (سورة التوبة : 65).

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَانُ آمَنَّا بِهِ﴾ (سورة الملك : 29).

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ (سورة يوسف : 32)

وقوله تعالى : ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الذي أنقضَ ظَهركَ﴾ (الضحى : 2 — 3)

وقوله سبحانه : ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِي وَقُدُورٍ رَاسِيَات﴾ (سورة سبأ : 13).

7 — ومن الآيات التي اتفق فيها وزن المتقارب قوله تعالى :

﴿زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَها﴾ (سورة الزلزلة: 1—2)

وقوله سبحانه : ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ (سورة الفتح : 1)

وقوله سبحانه : ﴿وأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِين﴾ (سورة الأعراف : 183).

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (سورة الطلاق : 2—3)

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ﴾ (سورة الكهف : 29).

8 — ومن الآيات التي اتفق في ترتيب مقاطعها وزن السريع قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ (سورة الفرقان : 29).

وقوله تعالى : ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ (سورة طه : 90)

وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ (سورة الحج : 1).

ويحكى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

فقال : كسرت. إنما قال :

«يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ زَلْزَلَةُ السَّاعَة شَيْءٌ عَظِيمٌ». وذلك لإحساسه بالتناسب في ترتيب المقاطع وظنا أن ما يسمعه شعر من وزن السريع.

ومن الآيات التي اتفق فيها هذا الوزن قوله تعالى :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيّ﴾ (سورة طه : 59)

وقوله سبحانه : ﴿نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ﴾ (سورة الأنبياء : 18)

وقوله سبحانه : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ (سورة البقرة : 259)

وقوله تعالى : ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (سورة المومنون : 36)

9 — ومن الآيات التي اتفق في ترتيب مقاطعها وزن الرمل قوله تعالى :

﴿لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (سورة آل عمران : 92)

وقوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ﴾ (سورة يوسف : 19)

وقوله تعالى : ﴿حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة البقرة : 109)

وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (سورة يونس : 1)

وقوله تعالى : ﴿وَاصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة هود : 37)

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ (سورة الطور : 49)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ (سورة القصص : 76).

10— ومن الآيات التي اتفق فيها وزن الرجز قوله تعالى :

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ (سورة الانسان : 14)

وقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (سورة الحاقة : 7)

وقوله : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾ (سورة الكهف : 22)

وقوله : ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (سورة الأنفال : 38)

وقوله : ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة هود : 43).

وقوله : ﴿نَصْرٌ مِنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (سورة الصف : 13)

وقوله : ﴿ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (سورة طه : 24)

11— ومن الآيات التي اتفق فيها وزن الهزج قوله تعالى :

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ (سورة يوسف : 91)

وقوله : ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ (سورة يوسف : 93).

وقد كان الترتيب المتناسب للمقاطع في نظم الآيات القرآنية من الأسباب التي جعلت تضمين آيات، أو أجزاء منها في بيت أو قصيدة شعرية أمرا سهلا لا مشقة فيه.

من ذلك مثلا ما نجده في قول ابن الرومي :

لَئِنْ أَخْطَأْتُ فِي مَدْحِيكَ مَا أَخْطَأْتَ فِي مَنْعِي
لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي «بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعِ»[18]

وهو من وزن الوافر.

(18) الشطر الثاني مقتبس من الآية 37 من سورة إبراهيم.

ومن ذلك قول أبي نواس، وهو من الرجز :

وَفِتْيَةٍ فِي مَجْلِسٍ وُجُوهُهُمْ رَيْحَانُهُمْ قَدْ عَدِمُوا ٱلثَّقِيلَا
«دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا»[19]

ومن ذلك قول أبي تمام، وهو من البسيط :

وَبَيَّنَ ٱللَّهُ هَذَا مِنْ بَرِيَّتِهِ في قوله : «خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ»[20]

وقول أبي نواس وهو من الخفيف :

وَقِرًا مُعْلِناً لِيَصْدَعَ قَلْبِي وَٱلْهَوَى يَصْدَعُ ٱلْفُؤَادَ ٱلسَّقِيمَا
«أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين فَذَا(لـ)ك ٱلذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيما»[21].

وقول الأحوص متغزلا :

سَيَبْقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَشَى سَرِيرَةُ وُدٍّ «يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ»[22].

وقول بعضهم :

إِنْ كُنْتَ أَزْمَعْتَ عَلَى هَجْرِنَا مِنْ غَيْرِ مَا جُرْمٍ «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»[23]
وَإِنْ بَدَّلْتَ بِنَا غَيْرَنَا «فَحَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ»[24]

وهذا كثير، لا حاجة إلى الإطالة فيه.

والنتيجة التي نريد أن نصل إليها من هذا العرض هي أن تناسب المقاطع الصوتية في نظم الآيات سبب من أسباب حلاوة الإيقاع وعذوبة النغم التي يمتاز بها القرآن.

والنظم القرآني غني بطرق التناسب في ترتيب المقاطع، ولا تنحصر الطرق التي سلكها في إيجاد هذا التناسب في دائرة أوزان الشعر، فالترتيبات المتناسبة في المسموعات لا حصر لها ؛ توجد في الشعر كما توجد في غيره. وما وجد منها في النظم القرآني يؤكد ذلك. والناس يختلفون في درجة إحساسهم بالتناسب وحلاوته في ترتيب العناصر الإيقاعية في فنون التعبير.

ولا يمكن أن تعرف قيمة هذا التناسب الإيقاعي القائم على ترتيب المقاطع إلا بمعرفة علاقته بالمعنى.

(19) البيت الثاني مقتبس من الآية 14 من سورة الانسان
(20) الشطر الثاني مقتبس من الآية 37 من سورة الأنبياء.
(21) البيت الثاني مقتبس من سورة الماعون.
(22) في الشطر الثاني اقتباس من سورة الطارق.
(23) في الشطر الثاني اقتباس من سورة يوسف الآية 18.
(24) الشطر الثاني مقتبس من سورة آل عمران. الآية 173.

5 ـ التناسب بين المعاني وترتيب المقاطع

يؤدي ترتيب المقاطع وتوزيعها في نظم الآيات وظيفة جمالية ودلالية في آن واحد، إذ يسهم من جهة في جعل الصورة السمعية لها متناسبة الأجزاء، معتدلة التركيب، ويسهم من جهة ثانية، مع العناصر الدلالية الأخرى في التعبير عن معاني الآيات، وإيضاح ما يكتنفها من الدقائق الدلالية، وذلك باختيار ما يناسب المعنى من أنواع تلك المقاطع.

وقد مر في أول هذا الفصل لن المقاطع الصوتية تنقسم إلى قسمين هما : المقاطع المقصورة، والمقاطع الممدودة. كما أنها تنقسم باعتبار آخر إلى مقاطع مفتوحة ومقاطع مقفلة.

وكل من هذين النوعين يناسب أضربا خاصة من المعاني والأغراض، لا يناسبها النوع الآخر.

وإذا نظرنا في استخدام القرآن للمقاطع الصوتية لأداء الوظيفتين الدلالية والجمالية، فإننا نواجه بهذه القدرة المعجزة في توزيعها وترتيبها على نسق تنقطع دونه أعناقُ البلغاء.

ا ـ استخدام المقاطع المقفلة :

استخدم القرآن المقاطع المقفلة التي تنتهي بالسكون الحي الجازم في مقامات الجد والصرامة والحسم، وفي تصوير الانفعالات الحادة والحركات العنيفة، وسرعة الأحداث.

لننظر كيف عبر القرآن بهذه المقاطع المقفلة عن معنى الجد الفاصل الذي لا مجال فيه لتهاون ولا تردد. قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (سورة الطارق : 13ـــ14).

فالمقاطع في هاتين الآيتين مقاطع حادة، تناسب معنى الجد والفصل، وتعبر عنه خير تعبير، وقد عمد القرآن إلى استخدام مقطع مفتوح ينتهي بمد طويل في وسط هذه السلسلة من المقاطع المقفلة، وهو «ما» ليعبر عن النفي المؤكد الذي يعم كل هزل.

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرْ قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَٱهْجُرْ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (سورة المدثر : 1ـــ6).

فهذه الآيات خطاب لمحمد ﷺ في المرحلة الأولى من بعثته، وهي آيات قصيرة تتضمن أوامر تكليفية وتربوية، روعي في صياغتها وإيقاعها أن تكون مناسبة لجدية الأوامر الإلهية، ولما يقتضيه إعداد الرسول ﷺ من الحزم والصرامة.

وجاء ترتيب المقاطع الصوتية في هذا الخطاب مناسبا للمعنى والمقام، فهي معظمها مقاطع مقفلة، تنتهي بالسكون الحي وليس في هذه السلسلة الطويلة من المقاطع المقفلة سوى ثلاثة

مقاطع غير مقفلة. وقد جاءت متباعدة في مواقعها، فلم يكن لها أي تأثير على الإيقاع، بل غمرتها المقاطع المقفلة، فبقي الإيقاع سريعا حادا يتناسب ونغمة الأمر الجدي والتأديب الصارم.

وقال تعالى : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ (سورة غافر : 5).

فهذا بيان يعبر عن التصميم والجد والحسم الذي تظهره كل أمة في محاربتها رسولها. وتتابع المقاطع المقفلة المنتهية بالسكون الحي في هذا البيان، يعبر خير تعبير عن هذا المعنى، ويشارك النطق في تصوير هذا المعنى، لأن الميم المشدد التي تكررت عدة مرات في هذه الكلمات يحتم على القارىء أن يشد على شفتيه بقوة عدة مرات متتابعة، وبذلك ترتسم صورة الانسان الحَانق الذي صمم على أمر يهمه كثيرا.

واستخدم القرآن المقاطع المقفلة في تصوير الحركة العنيفة والانفعال الشديد، قال تعالى :

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (سورة المدثر : 18ـ25).

تُصَوِّرُ هذه الآيات موقف رجل كذب القرآن، وأراد أن يصد الناس عن الإيمان، ففكر وقدر، وعصر فكره، وعبس وبسر، كل ذلك لينتزع من فكره طعنة يطعن بها القرآن.

فالموقف موقف انفعالي، مليء بالحركة العنيفة : في باطن النفس حركة واضطراب، (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) وفي الظاهر حركات ممتدة قوية (ثُم نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ).

وقد عبرت الآيات عن هذا الموقف الانفعالي باستخدام المقاطع المقفلة والمقاطع القصيرة، تتوالى بسرعة في العبارة، لتوحي بصورة الموقف. وليس بين هذه السلسلة الطويلة من المقاطع القصيرة والمقفلة إلا ستة مقاطع ممدودة، جاءت في آخر هذا الوصف التصويري : (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ).

ووجود هذا القدر من المقاطع الممدودة في آخر هذا الوصف من براعة التصوير، وبديع التناسب، لأن الانفعال الشديد والحركة النفسية والظاهرية العنيفة التي كانت في بداية الموقف، والرجل مجد في التفكير والتقدير، ستهدأ شيئا فشيئا، عندما يجد الفكرة التي يبحث عنها.

ومثل هذا في توزيع المقاطع الصوتية في نظم الآيات، ومراعاة ما يناسب بداية المشهد، وما يناسب نهايته قوله تعالى : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ (سورة العاديات : 1ـ5).

فهذه الآيات وصف للخيل التي تغدو في غارة صباحية مفاجئة. والآيات الثلاث الأولى متساوية في المقدار وفي الترتيب المقطعي، تشتمل كل واحدة منها على كلمتين : الكلمة الأولى

تحتوي على مقطعين مفتوحين طويلين، والكلمة الثانية، ليس فيها مقطع مفتوح أصلا وهذا التركيب المقطعي يناسب المرحلة الأولى من الغارة، إذ تعدو الخيل عدوا بطيئا.

والآيتان الأخيرتان لا تحتويان إلا على المقاطع القصيرة والمقفلة، وتنعدم فيها المقاطع الممدودة. وهذا التركيب المقطعي هو الذي يناسب المرحلة الأخيرة من الغارة حيث يشتد عدو الخيل، وتندفع بقوة (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

ومثل هذا في توزيع المقاطع قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ (سورة يونس : 12).

فأول هذه الآية يصور حال الإنسان إذا مسه ضر. فهو في هذه الحال يتوب إلى ربه، ويتجه إليه داعيا مبتهلا، يواصل الدعاء على كل أحيانه راقدا وقاعدا وقائما.

وقد جاءت المقاطع الممدودة في هذا الجزء من الآية لتعبر عن البطء في حركة هذا الإنسان الذي أثقله الضر، وعن طول الدعاء كما قال تعالى في آية أخرى في هذا المعنى : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (سورة فصلت : 51)

والجزء الثاني من الآية يصور حال هذا الإنسان نفسه عندما كشف الله ضره. فما هو إلا أن أحس بزوال الضر عنه حتى انقطع عن الإنابة وكف عن الدعاء، ونسي ما كان فيه. وقد عبرت الآية عن سرعة الانقلاب النفسي، والتحول المفاجىء من بطء إلى خفة بالمقاطع المقفلة التي تتلاحق بسرعة عند القراءة، لترسم صورة هذا الإنسان : ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ (سورة يونس : 12).

والمقاطع المقفلة هي التي تنتهي بالسكون الحي. وهذا السكون ــ كما يقول أصحاب الخبرة بالإيقاع ــ سكون تركيز، ومعنى ذلك أنه ينضاف عند النطق إلى المتحرك السابق فيشاركه في تركيز القوة في مجال صوتي ضيق فتكون الحركة الإيقاعية حادة عنيفة، بخلاف السكون الميت، فهو كما يقولون : سكون استغراق؛ ومعنى ذلك أنه يمتد عند النطق ليستغرق كل الوقت المخصص له، وهو سكون يتميز باللين والاسترخاء[25].

وقد رأينا في الأمثلة السابقة كيف يستخدم القرآن المقاطع المقفلة التي تنتهي بالسكون الحي للتعبير عن الحركة العنيفة والانفعال الشديد. والانفعال حركة باطنية عنيفة أيضا. وقد رأينا كذلك كيف يستخدم المقاطع الممدودة للتعبير عن الحركة البطيئة.

إن تتابع المقاطع والإيقاعات في الآية الواحدة عجيب، وإن هذا التتابع ليرسم الموقف لحظة لحظة، ومشهدا مشهدا، ويكاد ينطق بملامح الوجوه فيه وخلجات الصدور.

(25) نظرية إيقاع الشعر العربي، ص : 321.

ب ـ استخدام المقاطع الممدودة :

يستخدم القرآن المقاطع الممدودة للتعبير عن معان كثيرة، وتصوير مشاهد مختلفة كالتذكير، والتقريع، والتهديد، وكمواقف الندم والحسرة، ومواقف الدعوة إلى الخير، وكوصف النعمة السابغة، وكالابتهالات. وفيما يلي أمثلة توضح ذلك :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ (سورة الانشقاق : 6).

والمعنى، كما قال محمد عبده : «يا أيها الإنسان السادر في غلوائه، الصادر في عمله عن أهوائه، الغافل عن مصيره، الجائر عن جادة الحق في مسيره، لا تظن أنك خالد مقيم فيما أنت له جاهد، وأنك إن آذيت الخلق، وازدريت الحق، واغتررت بالحول والقوة، وسلمت عنانك للشهوة، ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب، والبقاء فيما تتعب وتنصب. كلا، إنك مجد في السير إلى ربك، وإن كنت لا تشعر بجدك، أو إن شعرت لهوت عنه. وكل خطوة في عمرك، فهي في الحقيقة خطوة إلى أجلك»[26].

هذا بيان لمعنى ذلك الخطاب القرآني البليغ الذي قصد به تقريع الإنسان وتذكيره بمصيره المحتوم. وقد عبرت المقاطع المفتوحة التي تخللتها حروف المد الطويل، أصدق تعبير عن هذا المعنى. وهذا النوع من المقاطع يستدعي امتداد الصوت عند التلاوة، وهذا الامتداد في النطق يناسب التعبير عن الامتداد في الزمن الذي يستغرقه الإنسان في الكدح، والجد في الكسب. وكأن المراد في استخدام هذه المقاطع أن يشارك الإيقاع الصوتي للآية في أداء المعنى، وبعث الإحساس لدى المخاطب، بأنه مهما طال الزمن، ومهما بذل من مجهود فلابد من لقاء ربه.

وقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (سورة الفجر : 23 ــ 24).

وهذا وصف لما يحس به الإنسان من الندامة يوم الحساب والجزاء. في ذلك اليوم يتذكر الإنسان، وتذهب عنه الغفلة، فيبصر الحقيقة، ويرى مصيره، لكن بعد فوات الأوان.

وقد وزعت المقاطع المفتوحة والممدوة في هذه الآية بصورة تجعل الإيقاع فيها مناسبا لنغمة الندامة والحسرة، آنظر كيف توالت هذه المقاطع وتخللت معظم الكلمات، وكيف تراوحت بين المد بالألف والمد بالياء للتعبير عن الإحساس بالحسرة والندم، الذي يرتفع معه الصوت ويمتد، ثم لا يلبث أن ينحدر وينكسر مع انكسار القلب، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ، أَوْ تَقُولَ : لَوْ أَنَّ اللَّهَ

(26) تفسير جزء عم، ص : 40.

هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الزمر : 56ــ58).

فعند تلاوة هذه الآية وترتيلها تبدو أصوات المد والمقاطع المفتوحة واضحة في تركيبها، ونرى المقاطع المفتوحة المنتهية بالألف تكثر بصورة ملحوظة في أولها **﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ﴾**. ولعل هذا هو الذي كان سببا في نداء الحسرة وفي إبدال ياء المتكلم في آخرها ألفا.

وأما المد بالياء فيأتي في فواصل الآيات ليعبر عن الانكسار الذي يحدثه الإحساس بالندامة في قلب الإنسان. والأمثلة على هذا كثيرة.

واستخدم القرآن المقاطع الممدودة في مواقف التلطف في الخطاب، والدعوة إلى الخير، ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى : **﴿وَاذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِياً. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ، إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً﴾** (سورة مريم : 41ــ45).

فهذا خطاب يعبر عن الأدب والتلطف في الخطاب الذي التزم به إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه إلى دين التوحيد، وترك عبادة الأصنام. وتكرار النداء بعبارة «يا أبت» دليل على رقة الخطاب وصدقه. وكان للمقاطع الممدودة التي ترددت بكثرة ملحوظة في الكلمات تأثير واضح في زيادة حظ هذا الخطاب من اللطافة والرقة. وتتراوح بين المقاطع المنتهية بالألف الممدودة والمنتهية بالياء الممدودة، وإن كان النوع الأول أكثر.

ومثل هذا ما في دعوة مؤمن آل فرعون التي وصفها الله تعالى في قوله : **﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ، تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ. لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ وأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾** (سورة غافر : 41ــ44).

وقد مرت أمثلة من هذا القبيل في فصل سابق، رأينا فيها كيف تؤثر حروف المد واللين في الخطاب، وكيف يحقق القرآن المناسبة بين المعاني والإيقاع الصوتي في كل مقام.

ج ــ العدول عن طرائق التركيب المعتاد

ولما كان للمقاطع الصوتية، على اختلاف أنواعها، وظائف دلالية، وصلة بالمعاني في نظم الآيات، فإن القرآن قد يعدل في صياغة بعض الآيات عن التركيب المعتاد إلى تركيب خاص،

ليجعل المقاطع مناسبة للمعنى، وذلك كأن يعدل عن استعمال حرف من حروف المعاني إلى حرف آخر في معناه، أو يحذفه أو يزيده.

والعدول عن الحرف هو من الناحية الصوتية عدول عن مقطع إلى آخر مخالف له، وكذلك حذفه أو زيادته هو حذف مقطع أو زيادته.

د ـ العدول عن حرف إلى آخر

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ (سورة الأحقاف : 26).

قال الزمخشري وأبو حيان الغرناطي وغيرهما : «إِنْ» في قوله : «إِنْ مَكَّنَّاكُمْ» نافية. أي فيما ما مكناكم فيه. إلا أن «إِنْ» أحسن في اللفظ لما في مجامعة «ما» مثلها من التكرار المستبشع، ومثله يتجنب. وقيل شرطية محذوفة الجواب. وقيل زائدة بعد «ما» الموصولة[27].

قال أبو حيان : «وكونها نافية هو الوجه، لأن القرآن يدل عليه في مواضع كقوله تعالى : ﴿كَانُوا مِنْهُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ (سورة الروم : 9) وقوله تعالى : ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ (سورة مريم : 74). وهو أبلغ في التوبيخ وأدخل في الحث على الاعتبار[28].

وما ذكره هؤلاء العلماء في علة العدول عن «ما» إلى «إِنْ»، وهو تجنب التكرار اللفظي، صحيح. لكن إذا عرفنا أن بين الحرفين فرقا صوتيا، وهو أن «ما» مقطع ممدود، و«إن» مقطع مقفل أمكن أن نضيف علة أخرى لهذا العدول، وهي أن المقام مقام وعيد وتهديد، يقتضي الشدة في الخطاب، ولو قيل : «ولقد مكناهم فيما ما مكناكم فيه» لتوالي في العبارة ثلاثة من المقاطع الممدودة (في ـــ ما ـــ ما)، وهو كاف ليدخل على العبارة كثيرا من الاسترخاء واللين. وتجنبا لهذا وقع العدول إلى «إن» التي هي عبارة عن مقطع صوتي مقفل ينتهي بالسكون الحي، وقبله همزة مكسورة. واستخدام هذا المقطع في مكانه من الآية يكفي لجعل الإيقاع الصوتي مناسبا للمعنى والمقام.

وقال تعالى : ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِن أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ﴾ (سورة فاطر : 41).

وهذا بيان فيه حسم وتأكيد يبين أن الله تعالى وحده هو القادر على أن يمنع السموات والأرض أن تزولا. ويؤكد بصيغة القسم الصارم (وَلَئِن) أنهما إن زالتا، فما من أحد يقدر على أن يمسكهما.

و«إن» في قوله : «إن أَمْسَكَهُمَا» نافية، والداعي إلى استعمال هذا الحرف هنا دون غيره من حروف النفي أن المقام مقام حسم وتأكيد وقطع، يقتضي القوة في الخطاب. ولو قيل : «ولئن

---

(27) الكشاف : 525/3.

(28) البحر المحيط : 65/8

زالتا ما أمسكهما» لتوالي في الصياغة ثلاثة من المقاطع الممدودة (زا ـــ تا ـــ ما) وهذا غير مناسب للمقام.

هـ ـ حذف المقطع الممدود

قال تعالى : ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (سورة الأنعام : 94).

قرأ جمهور السبعة «بينكم» بالرفع، على أنه اتسع في الظرف، وأسند الفعل إليه فصار اسما، رجحه أبو علي الفارسي، أو على أنه أريد با«لبين» الوصل. أي لقد تقطع وصلكم. قال أبو الفتح ابن جني وغيره : أو على أنه أريد بالبين الافتراق، وذلك مجاز عن الأمر البعيد، والمعنى : لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها. فعبر عن ذلك بالبين[29].

وقرأ الآخرون من السبعة «بَيْنَكُم» بالفتح وقرىء أيضا «ما بينكم» والمعنى : تلف وذهب ما بينكم وبين ما كنتم تزعمون[30].

وعلى هذه القراءة، يصح أن يقال إن «ما» حذفت من القراءة الأخرى لجعل الخطاب مناسبا للمقام. لأن الخطاب بيان لتقطع الروابط بين الكفار وبين ما كانوا يزعمونه شفعاء، وهو تقطع حاسم، لا أمل بعده.

ولو دخلت «ما» لذهب شطر كبير من بلاغة المعنى، وجمال العبارة.

ومن هذا القبيل حذف «لا» من قوله تعالى : ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ (سورة يوسف : 85) أي لا تفتأ.

و ـ زيادة المقطع المقفل

مما زيد فيه مقطع مقفل لجعل الحركة الإيقاعية مناسبة في سرعتها لسرعة الأحداث، قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ (سورة يوسف : 96).

وقوله : ﴿وَلَمَّا أن جاءت رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت : 29).

فقد وقعت «أن» بعد «لما» في الآيتين، والنحاة يقولون : إنها زائدة. والزمخشري يرى بحق أنها، وإن كانت زائدة في الإعراب، فإنها تؤدي وظيفة معنوية في التركيب، وذلك أنها «أكّدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان»[31]، وكأنه قيل في الآية الأولى : لما جاء البشير ألقى القميص على وجه والد

(29) البحر المحيط : 182/4ـــ183.
(30) نفسه : 183/4.
(31) الكشاف : 205/3.

يوسف، فارتد بصيرا، بغير تراخ في تعاقب الأحداث. وكأنه قيل في الآية الثانية : لما أحس لوط بمجيء ضيوفه فاجأت المساءة قلبه من غير وقت خيفة عليهم من قومه.

ز ـ زيادة المقطع الممدود

قال تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (سورة آل عمران : 159)

قال أبو حيان والزمخشري : «ما» هنا زائدة للتوكيد والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله. ونحوه قوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ (سورة النساء : 155) أي أن لعنة الله إياهم ما كانت إلا بنقضهم ميثاقهم.

وهذا القول يرتكز على أن هذا الحرف، وإن كان مزيدا في الإعراب فإنه يؤدي وظيفة في المعنى، هي التوكيد.

ويرى مصطفى صادق الرافعي أن في هذه الزيادة لونا من التصوير، لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد تصوير لين النبي ﷺ لقومه، وللمؤمنين وأن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في «ما» وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية، لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منها في بلاغة السياق. ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى»[32].

ويفهم من كلام الرافعي أن زيادة المقطع الممدود في النسق الصوتي لهذه الآية أدى وظيفة موسيقية في النظم، وجعل هذا النظم الموسيقي مناسبا للمعنى، وهذا هو الذي نذهب إليه.

وخلاصة القول، إن القرآن قد يعدل عن تركيب إلى غيره لجعل المقاطع الصوتية والإيقاع العام للآيات مناسبا للمعاني والأغراض.

وأجمل الرافعي القول في كل ما يظن أنه مزيد في النظم القرآني، وأوضح «أن اعتبار الزيادة فيه بمعناها إنما هو نقص يجل القرآن عنه... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة، من جهة نظمه أو دلالته، أو وجه اختياره»[33].

ونجمل القول من جهتنا فنقول : إن توزيع المقاطع الصوتية بأنواعها المختلفة يقوم على مراعاة التناسب الصوتي الذي يجعل الصياغة لذيذة تأخذ بالقلوب والأسماع، وعلى مسايرة المعاني والصور والمشاهد. فيلون حركة الإيقاع باللون المناسب للمقام، شدة ولينا، وحدة وارتخاء وبطئا وسرعة.

---

(32) إعجاز القرآن، ص : 231.
(33) نفسه، ص : 231—232.

الفصل الثالث

التوازن وتناسب المقدار

من أبرز عناصر التناسب الايقاعي في النظم القرآني توازن الآيات، وتناسب مقاديرها الزمنية واللفظية.

والتوازن في هذا النظم يشمل ما يكون بين آيتين أو أكثر من تعادل في عدد الكلمات، أو في أوزانها، الصرفية والعروضية، وفي عدد المقاطع الممدودة والمقصورة، كما يشمل ما بين الكلمات من تناظر في المكان، وما بين كلمتين متعاقبتين أو أكثر من تشابه في الوزن.

وقبل أن نعرض بالتفصيل لألوان التوازن في النظم القرآني، يحسن أن نقدم لمحة موجزة عن قيمة التوازن الجمالية والبيانية.

1 ـ التوازن والجمال

يعد التوازن من أسس الجمال في عامة الفنون، وسائر صور الجمال الطبيعي.

نرى التوازن في الشعر، حيث يتقابل الضرب والعروض، وتتقابل بينهما التفاعيل، ونراه في النثر حيث تزدوج الجمل والقرائن، وتتعادل الألفاظ وتتوازن.

ونراه في فن الرسم حيث يعادل الرسام بين أجزاء لوحته، فلا يملأ جانبا ويترك مقابله فارغا.

ونراه في تقابل الأجزاء المتساوية في الحجم والشكل، كما هو الشأن في العمارة حيث نرى الأشكال الملونة متكررة متقابلة متوازنة منتظمة.

ونرى هذا النوع من التوازن ماثلا في الطبيعة كما في أوراق الأشجار والأزهار والحيوانات.

ويظهر التناظر الجانبي بصورة كاملة في جسم الانسان والحيوان، حيث نرى الجانب الأيمن مناظرا ومعادلا للنصف الجانبي الأيسر.

والتوازن لازم لراحة الشيء واستقرار وضعه، لازم لراحة الناظر إليه، وفي الاخلال بالتوازن قلق واضطراب.

والجسم الجميل هو المتزن الحركات، والوجه الجميل هو الهادىء المنبسط الأسارير، الذي تنعكس فيه نفس صافية متزنة، لا تؤثر في هدوئها الأعاصير النفسية[1].

والتوازن من أهم أركان الايقاع في الموسيقى وفنون البيان. والحركة الايقاعية حركة منظمة، يقوم نظامها على التوازن، فإذا اختل التوازن اختل النظام.

والايقاع يتألف من عناصر صوتية ثقيلة وأخرى خفيفة، وإذا تناسبت تلك العناصر وتوازنت تولد عن توازنها الجمال الايقاعي.

2 ـ التوازن في كلام العرب

والتوازن من أبرز المظاهر التي يتمثل فيها التناسب الايقاعي في الكلام العربي، المنظوم منه والمنثور. وقد كان العرب مولعين بالتناسب الايقاعي القائم على التقسيم والتوازن، فالتزموه في أشعارهم، وخطبهم، وحكمهم، وأمثالهم، ومنافراتهم، ورسائلهم.. ولا يكادون يخلون بالتناسب إلا حين يرسلون الكلام إرسالا، وقلما يفعلون.

أما في فنون النثر المنظوم فنجد التوازن في الكلام المزدوج والمسجوع، وفي المرصع والمسمط، وفي المعدل والمطرز، وفي غير ذلك من الصور التي تناولها البلاغيون والنقاد تحت ألقاب ومصطلحات متنوعة، يجمعها مبدأ التوازن.

ولقد أحب العرب التوازن وحرصوا على تزيين كلامهم بزينته، وتحليته بحليته، فلم يقنعوا بالوزن والقافية في أشعارهم، ولا بالسجع في خطبهم وأمثالهم، بل عمدوا إلى الترصيع والالتزام بما لا يلزم. وخرجوا في بعض الأحوال عن الواجب في القياس حفاظا على مبدأ التوازن والتناسب.

يقول عبد الله الطيب : «في الدهر الأول، قبل أن تعرف العرب الوزن، كان التقسيم هو عماد النظم وفقاره، ويأتي الناظم بكلامه قسيما قسيما بحسب استراحات النفس، ووقفات اللسان، وتهذيب الفكر، وكل قسيم يأتي به يمثل جملة أو فقرة، أو دفعة من دفعات التعبير، ثم يتعمد أن يكافىء ويؤاخي بين هذه الفقرات، وهذه المؤاخاة والمكافأة تنظر إلى الأقسام نظرة مزدوجة، طرف منها ينظر إلى الأقسام من حيث إن كل واحد منها كل، وهذه موازنة كلية.

وطرف آخر ينظر إلى أجزاء الأقسام وتفاصيلها، فيحاول أن يجعل بينها صلة، وهذه موازنة جزئية.

---

(1) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، ص : 25ـ26.

أما الموازنة الكلية فسبيلها في مواخاة الأقسام ومكافأتها أن توجد بينها أحد هذه العناصر : التوافق، التضاد، التكامل، الاجمال، التدرج...

والموازنة الجزئية تنظر إلى تفاصيل الأقسام فتكافىء بينها وتواخي، إما بواسطة التكرار ملفوظا أو ملحوظا، وإما بواسطة التجنيس الازدواجي، وهو التوافق في الوزن أو شبه التوافق، وإما بواسطة الطباق، وإما بواسطة الموازنة الموضوعية، بأن يكون لفظ مناظر لآخر في موضعه من القسيم الذي يوازيه...

إن أمر النظم العربي كله كان يدور على الأقسام والملاءمة بينها عن طريق الموازنة حتى عرفت القافية والوزن»[2].

3 ـ قيمة التوازن في البلاغة العربية

وأجمع علماء البلاغة على التنويه بقيمة التوازن، وعلى تفضيل الكلام المتوازن. قال قدامة بن جعفر : «وأحسن البلاغة الترصيع والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن... وإيراد الأقسام موفورة بالتمام، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم باتفاق المنظوم، وتكافؤ المعاني في المقابلة والموازنة»[3].

وقال أبو هلال العسكري : «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات، فضلا عما تزاوج في الفواصل منه»[4].

وقال ابن سنان الخفاجي : «فأمّا الكلام المنثور فالأحسن منه تساوي الفصول في مقاديرها، أو يكون الفصل الثاني أطول من الأول»[5].

وذهب السجلماسي إلى أبعد من هذا، فحكم بإخراج الكلام الخالي من التوازن في القرائن والفصول، من حيز البلاغة إطلاقا. قال في ختام حديثه عن الموازنة والترصيع : «فأما ما نزل عن ذلك ـــ يعنَي عن الترصيع والموازنة ـــ حتى تكون الألفاظ مضرسة، والأجزاء مجمعة، أواخرها غير مسجوعة، ومقاطعها غير مختتمة بحروف واحدة أو متضارعة، فذلك خارج عن البلاغة، فمن

(2) المرشد إلى فهم أشعار العرب : 728/2 ـــ 732.

(3) جواهر الألفاظ، قدامة بن جعفر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مصر 1932، ص : 3.

(4) الصناعتين، ص : 267.

(5) سر الفصاحة، ص : 193.

تكلم على هذا المهيع وسلك هذا النهج، فليلحق بجنسه من العوام، فهو العدل فيه، والله الموفق»(6).

4 ـ علماء الإعجاز وقيمة التوازن في بلاغة القرآن

اختلفت آراء هؤلاء حول التوازن وقيمته في بلاغة القرآن وإعجازه، واختلافهم حوله نابع من الخلاف العميق بين المتكلمين حول مسألة اللفظ والمعنى، هذه المسألة العويصة التي ترجع أصول الخلاف فيها إلى الخلاف المذهبي والفكري بين المعتزلة والأشاعرة.

فقد ذهب دارسو الإعجاز من المعتزلة إلى إعلاء شأن الصياغة اللفظية، وما يرجع إليها من فنون البديع، بما فيه من فنون تتعلق بالتوازن.

ومن ثم رأينا علماءهم كالجاحظ وأبي الحسن الرماني وابن سنان الخفاجي، والقاضي عبد الجبار، يدافعون عن السجع والازدواج وينوهون بقيمة التوازن وتناسب الفواصل في بلاغة القرآن وإعجازه(7).

وعلى العكس من ذلك، ذهب دارسو الإعجاز وبلاغة القرآن من الأشاعرة كالباقلاني، وعبد القاهر الجرجاني، ومن نحا نحوهما إلى التقليل من قيمة الصياغة اللفظية وفنون البديع، انطلاقا من إيمانهم بأن بلاغة القرآن لا تكمن في هذا الجانب اللفظي، بل تكمن في خصائص النظم ومعاني التراكيب، ومدى موافقة كل تركيب لمقتضى الحال.

أما الباقلاني فقد أنكر أن يقال : إن في القرآن سجعا، وساق جملة من الدواعي التي تدعو إلى تنزيه القرآن عن هذا الوصف.

كما أنكر أن يكون البديع وأساليبه مما يعرف به إعجاز القرآن.

وقد عرض كثيرا من فنون البديع التي جعلها علماء المعتزلة عمدة في معرفة الإعجاز، وعقب عليها بقوله : «وقدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس ذلك عندنا»(8).

وحجته أن هذه الأساليب التي تعرف بالبديع مما يقدر البلغاء من البشر على مثله.

أما عبد القاهر الجرجاني فقد أضرب كلية عن الحديث عن البديع، فلم يجعل له مكانا في أي من كتابيه المشهورين : «دلائل الاعجاز» و«أسرار البلاغة». وهذا كاف لمعرفة رأيه في قيمة

---

(6) المنزع البديع، ص : 508ـ517.

(7) انظر المنحى الاعتزالي في إعجاز القرآن، ص : 271ـ296.

(8) إعجاز القرآن، ص : 107.

هذا الفن. وحمل على أنصار اللفظ والبديع حملة عنيفة، وأوضح رأيه في قيمة التوازن في النظم القرآني بقوله : «ولا يجوز أن يكون الوصف الذي بان به القرآن عن كلام الناس في ترتيب الحركات والسكنات، حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زنة كلمات القرآن، وحتى كأن الذي بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في «إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر»[9].

«وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذي تحدوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل كالذي تراه في القرآن، لأنه أيضا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن، وإنما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو، فلو لم يكن التحدي إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك، ولم يتعذر عليهم، وقد خيل إلى بعضهم شيء من هذا حتى وضعوا ــ على ما زعموا ــ فصول كلام أواخرها كأواخر الآي...»[10].

«ومن ذا الذي يرضى من نفسه أن يزعم أن البرهان الذي بان لهم والروعة التي دخلت عليهم فأزعجتهم، حتى قالوا : «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة» إنما كان لشيء راعهم من مواقع حركاته ومن ترتيب بينها وبين سكاناته، أم لفواصل في أواخر آياته»[11].

هذه النصوص كافية ــ فيما نرى ــ لمعرفة رأي عبد القاهر الجرجاني الأشعري في مبدأ التوازن وقيمته في بلاغة القرآن. وما ذهب إليه صحيح من جهة، فإن القرآن ــ كما قال ــ ليس بليغا بترتيب حركاته وسكاناته، وباتحاد فواصله وتوازن فقراته فحسب، وإنما هو بليغ بنظم الآيات على حسب مقتضى الأحوال، ومن جهة أخرى ليس صحيحا، لأنه يتجاهل أن هذه العناصر الصوتية واللفظية جزء لا يتجزأ من النظم القرآني، الذي لا تنفصل فيه القيم اللفظية والصوتية عن المعنى.

ونحن، حين نبتعد عن أجواء الخصومة المذهبية وعن مشكلة خلق القرآن وقدمه، ومسائل التوحيد والأسماء والصفات، نجد أن التوازن وغيره من عناصر التناسب الايقاعي، جزء أصيل من بلاغة النظم القرآني وفصاحته، وأنه من وسائل هذا النظم وأدواته التي استخدمها للتأثير والإقناع، واجتذاب القلوب والآذان إلى الاستماع، والاسترسال في الإصغاء إلى آياته.

(9) دلائل الاعجاز، ص : 387.

(10) نفسه، ص : 387.

(11) نفسه، ص : 388.

إن ترتيب الأصوات والمقاطع، وتعادل الألفاظ، وتوازن الفقرات عناصر إيقاعية تؤدي وظائف أصيلة في بلاغة المعاني وفصاحة العبارة، وفي زيادة حظها من الحلاوة والرشاقة، ومضاعفة قدرتها على إحداث التأثير المقصود.

يقول ابن الأثير : «وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت في النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مراء فيه لوضوحه»(12).

ويقول يحيى بن حمزة العلوي : «إن الاعتدال مقصد من مقاصد العقلاء، يميل إليه الطبع وتتشوق إليه النفس»(13).

وثبت في علم النفس الموسيقي أن هناك ميلا غريزيا نحو الإيقاع المنظم، تشعر النفس معه بالرضا، وأن الايقاع ينظم قوة الانتباه، ويرسم لها فترات النشاط، ويوجهها توجيها يساير النغم، فتنسى ما حولها، وبذلك يتم التجاوب، والانسجام بينها وبين النغم.

وأكد النقد الحديث «أن وظيفة التعبير البليغ لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، بل تضاف إلى هذه الدلالة مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني، وهي جزء أصيل من التعبير». هذه المؤثرات هي الإيقاع الموسيقي للكلمات والعبارات، والصور والظلال التي يشعها اللفظ وتشعها العبارات، زائدة على المعنى الذهني(14).

وحين نحكم على قيمة العمل الأدبي من خلال العبارة، لا يجوز أن نكتفي بدلالتها المعنوية، فهذا عنصر واحد من عناصر دلالتها. فلا بد أن نضم إليها عنصري الإيقاع والظلال، فهي في مجموعها تدل على القيمةَ الكاملة لهذا العمل..

وكثيرا ما تكون الدلالة المعنوية هي أصغر عنصر في العمل الأدبي(15).

ومن الثابت في مجال الدلالة الايحائية النفسية للإيقاع الموسيقي للألفاظ، أنها باعتبارها صورا ذهنية سمعية، تعد من المنبهات الهامة في إثارة الانفعال المناسب في نفس المتلقي وهي بالاضافة إلى دلالتها المعنوية الخاصة بكل لفظة، ذات دلالة إيحائية تشيع في النفس مناخا تخييليا خاصا يتمشى وحركة النفس، وذبذبتها الشعورية، وينسجم مع إيقاعات موسيقاها الداخلية وأنغامها(16).

---

(12) المثل السائر : 178/1.

(13) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز، حمزة بن يحيى العلوي، طبعة مصر 1914 : 21/3.

(14) النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، ص : 32.

(15) نفسه، ص : 42.

(16) دلالة الألفاظ : ابراهيم أنيس، ط. 2، مكتبة الأنجلو المصرية (د. ت)، ص : 75.

5 ـ التوازن في النظم القرآني

في القرآن الكريم نمطان من التعبير : التعبير الوجداني، والتعبير الفكري، فيه السور المكية التي تتوسل بالظل والصورة، وبالنغمة والإيقاع، وبالرمز والمجاز، وفيه السور المدنية التي تتوسل بالكلمة ودلالتها المعجمية، والتجريد والتقدير، وترتيب الكلام حسب النفس والنحو[17].

لنقرأ من النمط الأول آيات من سورة الواقعة : بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ
لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ
خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ
إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا
وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا
فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا
وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً
فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ
وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ
وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ
أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (سورة الواقعة : 1ـــ11).

ولنقرأ بعد ذلك في السورة نفسها :

﴿وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ
فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ
وَطَلْحٍ مَنضُودٍ
وَظِلٍّ مَمْدُودٍ
وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ
وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ
لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾... إلى آخر السورة. (سورة الواقعة : 27ـــ33).

ولنقرأ من النمط الثاني قول العزيز الحكيم :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ. وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ، وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ، وَ لَا

(17) مجلة التراث العربي، ع 17، أكتوبر 1984، ص : 99.

تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، كَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة : 190—191).

«والفرق بين النمطين واضح، الأول غير مباشر، إنه يثير وجدانا، ويحرك شعورا، ويخلق جوا، ووسيلته إلى ذلك الصورة الفنية بما لها من قدرة على التركيز والتكثيف والتوسع والانتشار، (...).

ووسيلته أيضا الإيقاع، بكل ما يحمل من نغمات الجذب والتوتر أو السكينة والهدوء...

أما النمط الثاني فمباشر، يقرر فكرة معينة، يريد أن يوصلها بوضوح، لا لبس ولا إثارة ولا غموض، إنه لا يتوجه إلى القلب بل إلى الفكر والعقل... ووسيلته إلى ذلك الكلمة بما لها من مفهوم ظاهر، لا يختلف فيه، الكلمة المباشرة التي لا توحي، بل تقرر»[18].

«لقد جمع القرآن بين نمطي التعبير : النمط الذي يتجه نحو الشعر، والنمط الذي يتجه نحو النثر، جمع مزايا هذا، ومزايا ذاك، ثم فاقهما في استغلال قدرة أدواتهما للتعبير والأداء...

أما الموسيقى فإنها تظهر في النثر الوجداني، كما تظهر في النثر الفكري، إلا أنها في الأول أبين وأوضح، لأن ارتفاع حدة الإيقاع، وتنوعه وثراءه يساعد على الإثارة الوجدانية، في حين يترك خفوته في النثر الفكري للمعنى أن يبرز ويصل إلى القارىء واضحا»[19].

والتوازن بين الآيات، أو بين أجزاء منها يكثر بصورة ملحوظة في النمط الأول، كما رأينا في المقطعين اللذين اقتبسناهما من سورة الواقعة.

وأدنى ما يشترطه البلاغيون في التوازن أن تكون الفواصل على وزن واحد، مع اختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (سورة الغاشية : 15—16).

فإن توفر الوزن في كلمات القرائن جميعا، أو في أكثرها، وتقابلت الكلمة مع ما يعادلها وزنا كان ذلك أجمل، مثل قوله تعالى :

﴿وَآتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ
وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الصافات : 117—118).

والتوازن التام بين الآيات قليل جدا، لما يدعو إليه من التكلف، وما ورد منه في القرآن لا يتجاوز الآيتين أو الثلاث، مثل قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً
وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (المعارج: 19—21).

(18) مجلة التراث العربي، ع 17، أكتوبر 1984، ص : 99—100.

(19) نفس المرجع في المكان نفسه.

وقوله تعالـى :

﴿وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ
فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ
وَالسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ. وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ» (الطور: 1ـ6).

فبين الآيات الثلاث الأخيرة من هذا المقطع من سورة الطور توازنا تاما.

وقريب من هذا النمط قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ
وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: 13ـ14).

وقوله سبحانـه :

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾(الغاشية: 25ـ26)

وقولـه :

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (الضحى: 9ـ10).

وقولـه :

﴿الشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمن: 5ـ6).

وقولـه تعالـى :

﴿وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً
فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً.
فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ (العاديات: 1ـ5)

وقولـه :

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً
فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً. فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ (الذاريات: 1ـ4)

وقولـه :

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنْكَدَرَتْ
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ
وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير: 1ـ7).

وقــولــه :

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ
وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (التكوير: 10—13)

وقــولــه :

﴿إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ (المدثر: 24—25)

والنمط الكثير في القرآن هو الآيات أو القرائن المتقاربة في الوزن، وفي هذا القرب مرونة كبيرة نأتْ بالقرآن عن التكلف.

«فلقد أعفى القرآن التعبير عن قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، وأخذ من الشعر الموسيقى الداخلية، وقرائن الفواصل المتقاربة في الوزن، التي تغني عن التفاعيل، والتقفية (الفواصل) التي تغني عن القوافي، وضم ذلك إلى خصائص أخرى، فشأى النثر والنظم جميعا»[20].

والقرائن المتقاربة في الوزن، تتصل بتقسيم الآيات تقسيما متناسب المقدار، بحيث تكون عناصر التشابه بينها في الوزن أكثر من عناصر التباين، وتتصل أيضا بمعرفة الوقف وقيمته الايقاعية في ترتيل الآيات الطويلة، التي تنقسم بالوقف، عند الترتيل أقساما ووحدات متناسبة.

ا ـ الوقف والتقسيم

عني أسلافنا أبلغ العناية بمباحث الوقف في القرآن الكريم فأفردوه بالتأليف، كما جاءت الآثار في تعظيم شأنه.

وللوقف فوائد كثيرة، منها :

ــ استراحة القارىء ــ وتدبره لما يقرأ ــ وإفهام السامع ــ ثم حسن التقسيم وحلاوة الإيقاع.

وينقسم عند أكثر القراء إلى أربعة أقسام : تام مختار، وكاف جائز، وحسن مفهوم، وقبيح متروك.

وللقراء، مذاهب في الوقف والابتداء : فنافع كان يراعي محاسن الوقف والابتداء بحسب المعنى.

(20) التصوير الفني في القرآن، ص : 27.

وابن كثير كان يراعي الوقف على رؤوس الآي مطلقا، ولا يعتمد في أواسط الآي وقفا سوى في ثلاثة مواضع هي :

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَاوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (سورة آل عمران : 7)[21].

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ (سورة الانعام : 109)[22]

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (سورة النحل : 103)[23].

وأبو عمرو كان يتعمد الوقف على رؤوس الآي، ويقول : هو أحب لي.

وعاصم والكسائي كانا يطلبان الوقف من حيث يتم الكلام.

وحمزة كان يقف عند انقطاع النفس، من أجل أن القرآن عنده كالسورة الواحدة.

والباقون يراعون حسن الحالتين[24].

والوقف للاستراحة، أو للتنفس في ثنايا الآيات الطويلة ضروري لأن قراءتها في نفس واحد أمر متعذر على عامة الناس.

ومن ثم كان تقسيم الآيات عند القراء بالوقف كثير التنوع، منها ما ينقسم بالوقف قسمين، ومنها ما ينقسم ثلاثة فأكثر. ثم إن هذه الأقسام تختلف طولا وقصرا. والذي يهمنا هنا هو أن تلك الأقسام قد تأتي متناسبة المقدار، شبيهة بالقرائن المتقاربة في الوزن.

قال ابن الجزري : «ربما يراعى في الوقف الازدواج، فيوصل ما يوقف على نظيره مما يوجد التمام عليه، وانقطع تعلقه بما بعده لفظا، وذلك من أجل ازدواجه نحو :

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ مع ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾[25]، ونحو : ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ مع ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (سورة البقرة : 203)، ونحو : ﴿تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ مع ﴿تُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ﴾، و﴿تُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مع ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ (سورة آل عمران : 27)، ونحو : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ مع ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (سورة فصلت : 46).

ومن الآيات التي قسمت بالوقف إلى مقادير متناسبة قوله تعالى : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ، وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وانْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ، وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ. إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ. وَلَا

---

(21) وتتمة الآية : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾.

(22) وتتمة الآية : ﴿... أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(23) وتتمة الآية : ﴿لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

(24) النشر في القراءات العشر : 1 /238.

(25) نفسه : 237/1.

﴿تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ، وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (سورة لقمان : 17ــ19).

وقد تنقسم الآية الواحدة إلى قسمين أو وحدتين متناسبتين، يفصل بينهما وقف جائز أو كاف، ومن تعقيب، يختم به معنى الآية، ويستقر عنده التقسيم الايقاعي. والآيات التي يتألف إيقاعها على هذا الشكل كثيرة، منها قوله تعالى :

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا
وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾ (النساء : 85)

وقوله :

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ
وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة : 225)

وقوله :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ
وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ﴾ (الشورى : 20)

وقوله :

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ
وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بشرككم
وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر : 14)

وقوله :

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَات
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر : 8)

وقوله :

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ
وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا

وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص : 77)

وقوله تعالى :
﴿ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ
وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ
فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر : 43)

وقد أشار ابن القيم الى صلة الوقف بالتقسيم في نظم الآية القرآنية، عند حديثه عن فن «التوشيح»، وقال : «وهذا النوع، في القرآن العظيم ما يشبهه، وهو ما ورد في الآيات من الوقف الكافي، والتمام، إن وقفت على الوقف الكافي كان حسنا، وإن وقفت على التمام كان أجود، كقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ. وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة : 3) الوقف على «من قبلك» كاف وعلى «يوقنون» تمام له»[26].

والوقف الكافي الذي أشار إليه ابن القيم له قيمة واضحة في حفظ التناسب الايقاعي في الآيات الطويلة، التي تختم بتعقيب مناسب للمعنى، ولوحدة الايقاع في آن واحد. ويقع هذا الوقف على الكلمة التي تقع قبل التعقيب مباشرة. ووقوف القارىء على تلك الكلمة يتيح للتعقيب الذي تختم به الآية أن يظهر بصورة واضحة، فيؤدي وظائفه المعنوية والايقاعية بصورة أحسن وأبهى، كما نرى في قوله تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ.
وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.
وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً، وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

(26) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص : 232.

ومنْ آياتِه أنْ تقومَ ٱلسَّماءُ وَٱلأرْضُ بأمرِه، ثُمَّ إذا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ إذا أنْتُمْ تخْرُجُون.
ولهُ مَنْ فِي ٱلسَّمواتِ وَٱلأرْضِ،
كلٌّ لهُ قانِتُون﴾ (الروم : 21—26)

وكما نرى في قوله تعالى :

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ ءَ ٱللّهُ خَيْرٌ أمَّا تُشْرِكُون.
أمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأرْضَ وَأنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فأنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا. أإلَـٰهٌ مَعَ ٱللّهِ،
بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُون.

أمَّنْ جَعَلَ ٱلأرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً، أإلَـٰهٌ مَعَ ٱللّهِ.
بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون.

أمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأرْضِ، أإلَـٰهٌ مَعَ ٱللّهِ،
قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون.

أمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، أإلَـٰهٌ مَعَ ٱللّهِ،
تَعَالَى ٱللّهُ عَمَّا يُشْرِكُون.

أمَّنْ يَبْدأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأرْضِ، أإلَـٰهٌ مَعَ ٱللّهِ،
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل : 59—64).

في هذين النموذجين ما يوضح شيئا من قيمة الوقف الحسن والجائز من الناحية الايقاعية، فالسكتة التي يحتمها الوقف عند الكلمة الواقعة قبل التعقيب الذي تختم به الآيات، يتيح، عند القراءة، لذلك التعقيب أن يتميز من الناحية الصوتية والايقاعية، وتكرار مقاطع صوتية وحروف متماثلة في خواتم التعقيبات المتقاربة يزيد من تقوية وظيفتها الايقاعية.

وقد حاول بعض الدارسين المحدثين أن يستفيدوا من أنواع الوقف بما فيها الجائز، لإظهار القيمة الإيقاعية، للتقسيم في الآيات القرآنية. فكتب أحدهم، وهو الشيخ عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني[27] آيات سورة الرعد، في دراسة أدبية ولغوية وفكرية لهذه السورة، موقوفا فيها عند

(27) أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة، وهو من أصل سوري، وكتابه المذكور نشر سنة 1391هـ/1971م.

محل حائز، ذي وقع موسيقي ملائم، بحسب ما يقتضيه المعنى، وقد يكون ذلك الوقف على الفاصلة، وقد يكون على غيرها. وهي طريقة كما قال : «لا تتخذ حكما مقطوعا به، ولكنها، إن لم تصادف كل القبول، فهي في أقل أحوالها ليست بمنكرة»[28].

ونبه الشيخ محمد حسن باجودة[29] على حسن التقسيم في سورة مريم.

عند دراسته للتلاؤم الصوتي فيها. غير أنه لم يربط بين التقسيم وأنواع الوقف، كما حددها العلماء. وإنما نظر إلى الوحدات، أو القرائن المتقاربة التي تتكون منها الآيات، على غرار ما نرى في قوله تعالى :

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي
وَاشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً
وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً.
وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي
وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً
فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً. يَرِثُنِي
وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ،
وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ (سورة مريم : 4—6).

وذهب محمد الحسناوي[30] إلى ترجيح الوقف على الفواصل، مستدلا بما ورد في السنة النبوية. ودعا إلى طبع المصحف على نظام الأسطر[31]. واستفاد بعض الخطاطين من التوازن أو تناسب المقدار بين بعض الآيات، أو بين أقسامها التي تشبه القرائن المتقاربة في الوزن، استفاد من ذلك في تجميل خط المصحف، فكتب الآيات المتوازنة أو المتقاربة في الوزن بطريقة تبدو معها، وكأنها مقطوعات من الكلام الموزون، القائم على التعادل، وتساوي الأجزاء، وهذه نماذج مصورة من هذا المصحف[32] :

---

(28) سورة الرعد، دراسة أدبية ص : 16.

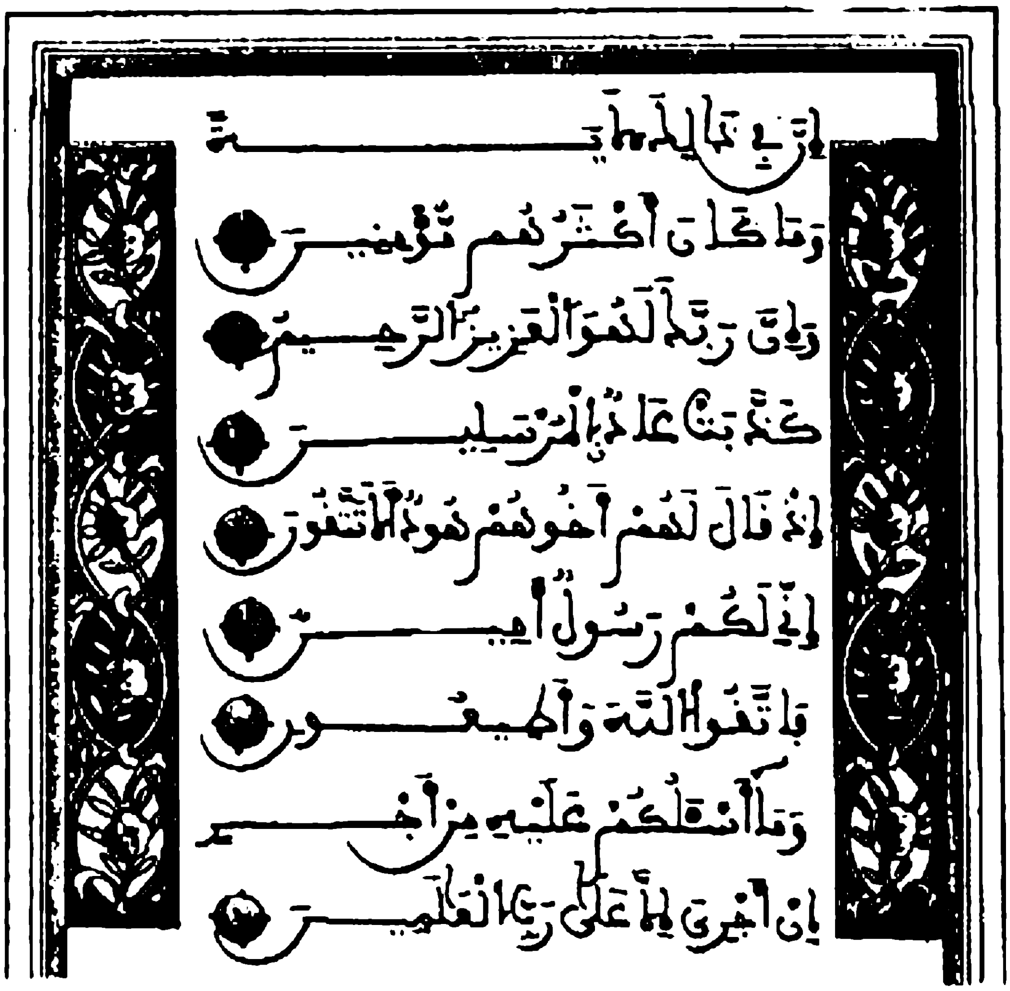
(29) أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة أم القرى، له «تأملات» في الدراسة الأدبية والبيانية لمجموعة من السور القرآنية.

(30) هو أستاذ وباحث جامعي وشاعر سوري معاصر، ذو نزعة إسلامية، له كتاب «الفاصلة في القرآن» وهي دراسة تقدم بها لنيل الماجستير.

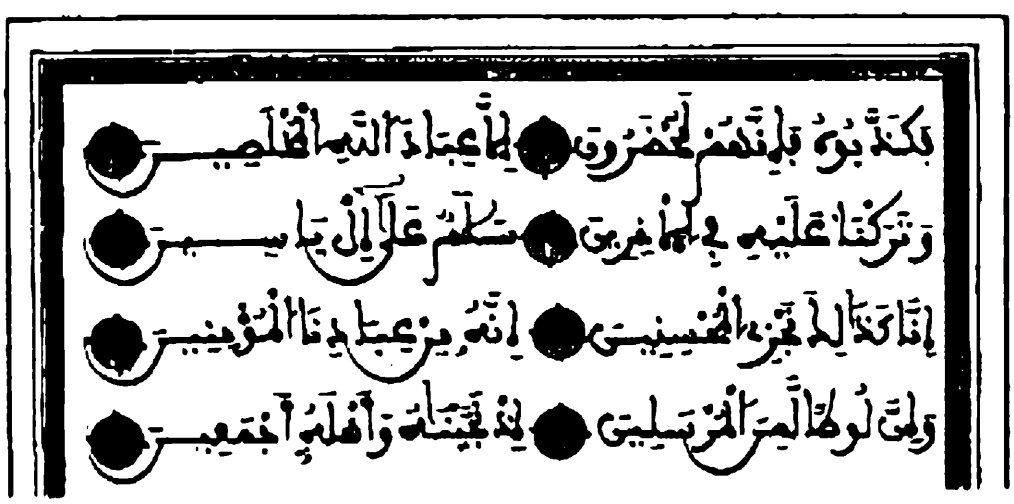
(31) الفاصلة في القرآن الكريم، ص : 217.

(32) مصحف برواية حفص، خططه وزينه الشيخ الحاج زهير ناصر مملوك.

نموذج 1 : (سورة الشعراء)

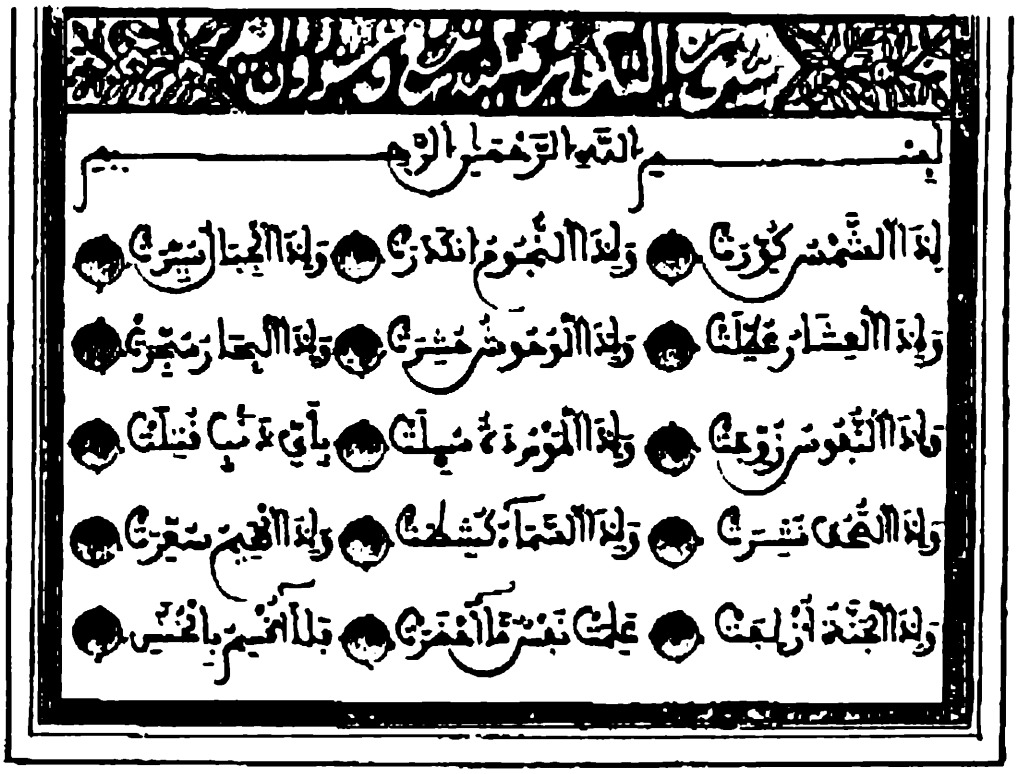


نموذج 2 : (سورة الصافات)



يتمثل تناسب المقدار في كون الآيات في النموذج الأول متوازنة بحيث سمحت للخطاط بكتابتها متعادلة مع إضافة تحلية زخرفية. وفي النموذج الثاني يبدو التناسب بين الآيات مزدوجا.

نموذج 3 : (سورة التكوير)



بسم الله الرحمن الرحيم

إذا الشمس كورت ۝ وإذا النجوم انكدرت ۝ وإذا الجبال سيرت ۝

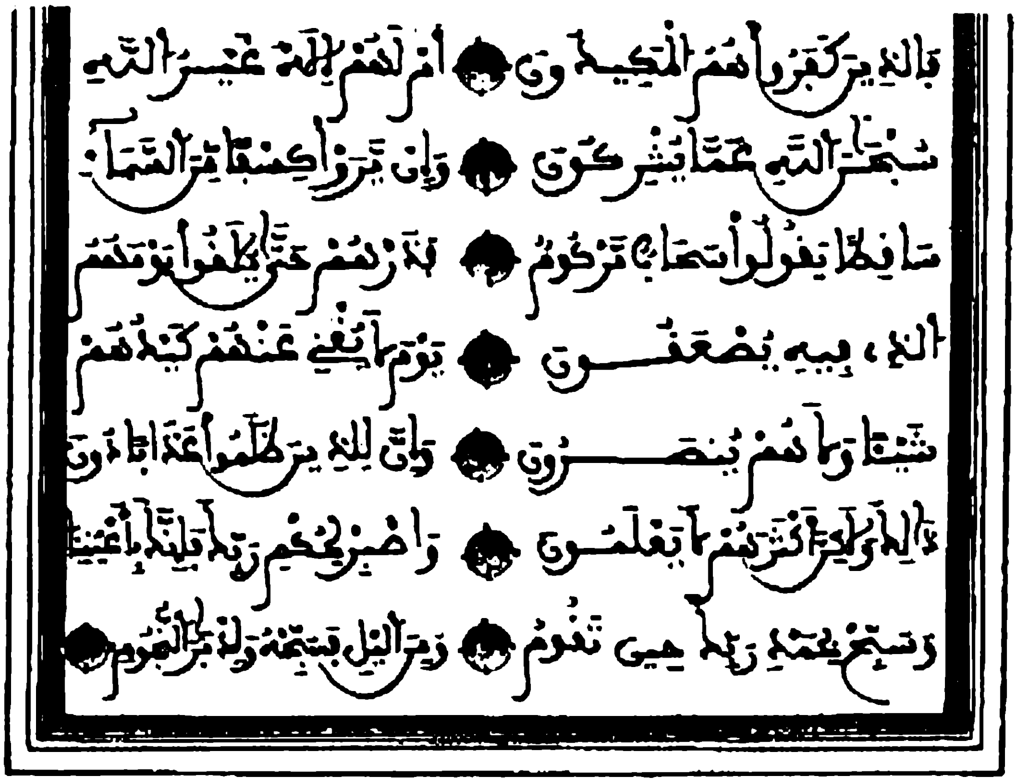
وإذا العشار عطلت ۝ وإذا الوحوش حشرت ۝ وإذا البحار سجرت ۝

وإذا النفوس زوجت ۝ وإذا الموءودة سئلت ۝ بأي ذنب قتلت ۝

وإذا الصحف نشرت ۝ وإذا السماء كشطت ۝ وإذا الجحيم سعرت ۝

وإذا الجنة أزلفت ۝ علمت نفس ما أحضرت ۝ فلا أقسم بالخنس ۝

نموذج 4 : (سورة الطور)



فالذين كفروا هم المكيدون ۝ أم لهم إله غير الله

سبحان الله عما يشركون ۝ وإن يروا كسفا من السماء

ساقطا يقولوا سحاب مركوم ۝ فذرهم حتى يلاقوا يومهم

الذي فيه يصعقون ۝ يوم لا يغني عنهم كيدهم

شيئا ولا هم ينصرون ۝ وإن للذين ظلموا عذابا دون

ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ۝ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا

وسبح بحمد ربك حين تقوم ۝ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ۝

يبدو تناسب المقدار واضحا في النموذجين : ففي النموذج الثالث وضع الخطاط الآيات في تناسب مثلث وفي النموذج الرابع وضعها في تناسب مزدوج.

ب ــ أضرب التوازن

وطرق التوازن في النظم القرآني متنوعة، وقد ذهب عبد الله الطيب المجدوب[33] إلى أنها تنشعب إلى شعبتين هما :

ــ الموازنة الكلية، وهي ما ينظر فيها إلى أقسام الكلام من حيث إن كل واحد منها كل لا ينفصل.

ــ الموازنة الجزئية : وهي ما ينظر فيها إلى أجزاء الأقسام وتفاصيلها لإيجاد الصلة بينها.

والموازنة الكلية سبيلها في مؤاخاة الأقسام ومكافأتها، وأن توجد بينها أحد العناصر الآتية :

1 ــ التوافق، كقوله تعالى : ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ ٱلأَمْثَالَ، وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرا﴾ (سورة الفرقان: 39)
2 ــ التضاد، كقوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرا﴾ (سورة التوبة : 83).
3 ــ التكامل، كما في قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ (سورة عبس: 1ــ2).
4 ــ الاجمال والتفصيل، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (سورة فاطر : 32).
5 ــ التدرج، كما في قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ (سورة النور : 35)[34].

وفي قوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون : 14).

أما الموازنة الجزئية، وهي تلك التي تنظر إلى تفاصيل الأقسام نفسها فتكافىء بينها وتواخي في واحد من الأنواع الآتية : ــ التكرار ــ التجنيس الازدواجي ــ الموازنة الموضعية.

أما التكرار فمن صوره تكرار القالب الصوتي الواحد كما في قوله تعالى : ﴿وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقاً. وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطاً. وَٱلسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ (سورة النازعات : 1ــ3) وفي قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً. فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفاً. وَٱلنَّاشِرَاتِ نَشْراً. فَٱلْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ (سورة المرسلات : 1ــ4).

---

(33) أستاذ جامعي معاصر من السودان، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عمل لسنوات مدرسا بالجامعات المغربية.

(34) وتتمة الآية : ﴿... زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وأما التجنيس الازدواجي، فهو أن ينظر إلى ناحية الزمان من بنية الكلمات فيقارب بينها في الرنة، كما في الازدواج الذي يعتمد المقاربة بين الفقرات في الرنة دون الروي، وهو على أشكال :

1 ــ الازدواجي المحض، نحو قوله تعالى :

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ.
وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ.
وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا.
وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ.
مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ.
وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ.
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ.
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ.
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ.
وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ.
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ (سورة النجم : 42ـــ52).

فبين «أضحك»، و«أبكى»، و«أظلم» و«أطغى»، توازن صرفي، فعلا أو اسم تفضيل، وبين «أغنى» و«أقنى» توازن من حيث الصرف والعروض.

2 ــ الازدواجي السجعي، نحو قوله تعالى :

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (سورة البقرة : 152).

فبين «آذكروني» و«اشكروا لي» توازن عروضي.

3 ــ الازدواجي المقسم، نحو قوله تعالى :

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ، وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ (سورة الرحمـٰن : 17).

فالقسيم الأول، وهو «رب المشرقين» يزدوج ويتوازن مع «رب المغربين» في الوزنين الصرفي والعروضي.

4 ــ الازدواجي المرصع، وهو الجمع بين التوزان واتفاق الروي، كما في الآية السابقة (رب المشرقين، ورب المغربين).

5 ــ الازدواجي المطابق، وهو ما روعي فيه موازنة الأضداد نحو قوله عز وجل :

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (سورة النمل : 63)[35].

(35) وتتمة الآية : ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ. أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ، تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وقوله : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ (سورة هود : 11)

فـ «البر» يوازن «البحر» عروضيا ويطابقه في المعنى، «ونعماء» يوازن «ضراء» صرفيا وعروضيا ويطابق معناه[36]

أما الموازنة الموضوعية فهي أن يكون لفظ مناظرا لآخر، في موضعه من القسيم الذي يوازيه، نحو قوله تعالى :

﴿خَلَقَ ٱلإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ، وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (سورة الرحمـٰن : 11).

فالقسيم الأول مركب على التوالي من :

(فعل + مفعول + جار ومجرور + جار ومجرور)

والقسيم الثاني مركب من العناصر ذاتها وعلى الترتيب نفسه.

وطرق الموازنة الجزئية لا تنحصر في هذه الأنواع، بل تتشعب لتشمل التوازن بين الكلمات المتجاورة في أوساط الآيات وفي خواتمها. كما في قوله تعالى .

﴿لِتُؤمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (سورة الفتح : 9).

وقوله : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ (سورة الهمزة : 1).

وقوله : ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً﴾ (سورة الفرقان : 19).

وقوله : ﴿وَمِن أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ (سورة النحل : 80).

وقوله : ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾ (سورة طه : 109).

وقوله : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ (سورة الأنبياء : 89).

ومثل هذا كثير في القرآن، ويكثر بصورة ملحوظة في خواتم الآيات التي تختم بصفتين من صفات الله متتابعين على وزن واحد، مثل : «عزيزا حكيما»، «سميعا بصيرا»، «عليما حكيما».

وتشمل أيضا التوازن في العناصر الصوتية والايقاعية، وهذا موضوع يتصل بترتيب المقاطع الصوتية، وتوزيعها وإيجاد التوازن بينها في تقسيم الآيات. وقد سبق بيان ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

(36) الفاصلة في القرآن الكريم، ص : 290ـــ293، وهو ينقل عن «المرشد إلى فهم أشعار العرب».

الفصل الرابع

تناسب الفواصل

إذا كان التناسب الإيقاعي للنظم القرآني يتألف من تناسب الأصوات والمقاطع، ومن توازن الكلمات والقرائن والآيات، فإن أبرز عناصره وأكثرها وضوحا هو تناسب الفواصل.

إن أبرز خصائص النظم القرآني هي التزام الفاصلة في جميع آياته التزاما مطردا، لا يختلف أبدا، كأنها القافية في الشعر، بل إن دور الفاصلة في النظم القرآني يفوق دور القافية في الشعر.

1 ـ تعريف الفاصلة

الفاصلة، وتسمى رؤوس الآيات، قيل : هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر، وقرينة السجع[1].

وقال الرماني : «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني»[2].

وقال الداني : «هي كلمة آخر الجملة». وفرق بين الفواصل ورؤوس الآي، فقال : «أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وغير رأس آية، وكذلك الفواصل يكن رؤوس آي وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين»[3].

واستدل على رأيه هذا بما ذكره سيبويه في تمثيل القوافي بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَاتِ﴾[4]

---

(1) البرهان في علوم القرآن : 53/1.

(2) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني، جمع وتعليق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط. 2، دار المعارف بمصر 1969، ص : 89.

(3) انظر البرهان في علوم القرآن : 54/1.

(4) وتتمة الآية : ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

(سورة هود : 105). وقوله : ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[5] (سورة الكهف : 64)، وهما غير رأس آية بإجماع، مع ﴿إِذَا يَسْرِ﴾[6] (سورة الفجر : 3)، وهو رأس آية باتفاق.

وناقش الجعبري[7] رأي الداني ورد عليه بثلاث حجج :

ـــ أن ما ذهب إليه خلاف المصطلح.

ـــ أن ما مثل به سيبويه لا دليل له فيه، لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية.

ـــ أنه ـــ أي الداني ـــ يلزمه إمالة «من أعطى»[8] من سورة الليل لأبي عمرو بن العلاء[9].

وأورد محمد الحسناوي التعريف الذي يجعل الفاصلة كقافية الشعر وقرينة السجع، وأضاف إليه قوله : «والتفصيل هو توافق أواخر الآي في حروف الروي أو في الوزن مما يقتضيه المعنى وتستريح إليه النفوس[10].

أما نعيم اليافي فيرى ـــ بحق ـــ أن الفاصلة تطلق ويراد بها أحد المعاني الثلاثة الآتية :

ـــ حرف الروي الذي تنتهي به الآية ويشبه أو لا يشبه قرينة السجع وقافية الشعر.

ـــ المقطع الذي تنتهي به الآية، وتقترب بهذا المعنى من القافية بالتحديد الذي وضعه الخليل واقترحه للمصطلح.

ـــ الجزء الأخير الذي تذيل به الآية، ويكون أفضل نهاية مناسبة متمكنة لها[11].

وسميت الفاصلة بهذا الإسم، «لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، وأخذت من قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة فصلت : 1 ـــ 2)

ولا يجوز تسميتها أسجاعا، والراجح المنع[12].

من هذه الآراء التي عرضناها يتبين ما واجه العلماء من صعوبة في تحديد الفاصلة وتعريفها، ويرجع السبب في هذه الصعوبة ـــ فيما يبدو ـــ إلى تنوع أشكال الفاصلة القرآنية

(5) والآية هي : ﴿قَالَ : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً..﴾

(6) والآية هي : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

(7) هو العلامة إبراهيم بن عمرو الجعبري الملقب ببرهان الدين، صاحب شرح الشاطبية المسمى «كنز المعاني»، توفي سنة 732، (الدرر الكامنة : 50/1).

(8) يشير إلى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (سورة الليل : 5).

(9) هو زبان بن عمار التميمي البصري، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة ونشأ بالبصرة. قيل كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. توفي سنة154 هـ. (الاعلام : 72/3).

(10) انظر كتاب الفاصلة في القرآن الكريم، لمحمد الحسناوي.

(11) مجلة التراث العربي، ع 15 ـــ 1984/16، ص : 146.

(12) البرهان في علوم القرآن : 54/1.

وتعدد صورها، فقد تكون كلمة، وقد تكون مقطعا من كلمة، وقد تكون جملة، وقد فطن سيد قطب إلى شيء من هذا حين قال : «إن الفواصل في القرآن غيرها في الشعر، فهي ليست حرفا متحدا، ولكنها إيقاع متشابه، مثل : «بصير، حكيم، مبين، مريب»، أو مثل «الألباب، الأبصار، النار، قرار»»[13].

ومهما يكن، فإن الفاصلة ظاهرة أسلوبية قرآنية واضحة المعالم بها انفرد القرآن من النثر والشعر معا، وهي من أبرز الخصائص التي جعلته نحوا جديدا من أنحاء البيان، وطريقا فريدا من طرق التعبير.

قال أبو الحسن الرماني : «فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة»[14].

وقال الباقلاني : «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا. وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق»[15].

2 ـ القيمة البلاغية والإيقاعية للفاصلة

للفاصلة في نظم القرآن قيمة هامة تفوق قيمة القافية في الشعر، بل لعلها أهم عنصر في قواعد التشكل الإيقاعي لهذا الكتاب المعجز.

وقد وقف عندها دارسو الإعجاز، فتجادلوا حول تسميتها سجعا، وتحدثوا عن مباينتها لقافية الشعر، واختلفوا في قيمتها، فذهب معظم المعتزلة إلى الرفع من قيمتها، والتنويه بشأنها، وإلى عدها من أوجه بلاغة القرآن وإعجازه.

وذهب الأشاعرة، بزعامة عبد القاهر الجرجاني، إلى التقليل من قيمتها.

(13) في ظلال القرآن : 193/2.
(14) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 102.
(15) إعجاز القرآن، ص : 35.

والحق أن قيمة الفاصلة في بلاغة النظم القرآني وحلاوة إيقاعه حقيقة لا تقبل المراء. وما كان للقرآن أن يحافظ عليها، ويختارها بعناية، فيأتي بها متمكنة في موضعها، مستقرة في نسقها، لو لم يكن لها شأن كبير في بلاغته، وتحقيق أهدافه.

ولا شك أن للكلمة أو الجملة أو المقطع الذي تختم به الآية قيمة خاصة، لأنه عنصر يؤدي وظيفة مزدوجة في نظم الآية : فهو من ناحية يتصل بالمعنى ويتممه، ومن ناحية أخرى يتصل بنظام الفواصل وينسقها. ولهذا كان حظه من العناية أكبر. وهذا الحكم يعم الكلام المنظوم بأشكاله المختلفة.

يقول ابن جني : «ألا ترى أن العناية في الشعر إنما هي بالقوافي لأنها المقاطع، وفي السجع كمثل ذلك، نعم، وآخر السجعة والقافية أشرف عندهم من أولها، والعناية بها أمس، وَالحشد عليها أوفى وأهم، وكذلك كلما تطرق الحرف في القافية ازداد عناية به، ومحافظة على حكمه»[16].

وقد أشار العلماء إلى طرف من قيمة الفاصلة عندما بينوا أنها تقع عند الاستراحة لتحسين الكلام[17]، وكذا عندما لاحظوا أن كلمة المقطع منها، كثيرا ما تأتي مختومة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وأوضحوا أن الحكمة من ذلك هي وجود التمكن من التطريب بذلك[18].

3 ــ قيمة حروف اللين في الفاصلة القرآنية

ويبدو مما تقدم أن قيمة الفاصلة تتجلى أكثر ما تتجلى في حروف اللين. ولعل مما يوضح ذلك ما ذكره ابن جني حين أورد تساؤلا عن السبب في كون المد لا يتمكن إلا فيما يجاور الطرف. فقد قال ردا على هذا التساؤل : «إنما جيء بالمد في هذا الموضع لنَعْمَتِه ولين الصوت به، وذلك أن آخر الكلمة موضع الوقف، ومكان الاستراحة والأون. فقدموا أمام الحرف الموقوف عليه ما يؤذن بسكونه، وما يخفض من غلواء الناطق (...)، ولذلك كثرت حروف المد قبل حرف الروي، كالتأسيس والردف، ليكون ذلك مؤذنا بالوقوف ومؤديا إلى الراحة والسكون، وكلما جاور حرف المد الروي كان آنس به وأشد إنعاماً لمستمعه»[19].

وأشار في مكان آخر إلى قيمة حروف المد واللين في هذا الموضع، فقال : «ولذلك استعملن ــ يعني المدات ــ في الأرداف والوصل والتأسيس والخروج، وفيهن يجري الصوت للغناء والحداء، والترنيم، والتطويح»[20].

(16) الخصائص : 84/1.
(17) البرهان في علوم القرآن : 54/1.
(18) نفسه، ص : 68.
(19) الخصائص : 233/1 ــ 234.
(20) نفسه : 233/2.

وكان سيبويه قبله قد أشار إلى ذلك حين قال : «أمّا إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء ما ينون وما لا ينون لأنهم أرادوا مد الصوت»(21).

ثمة إذن، قيمة موسيقية لحروف المد واللين التي كثر وقوعها في فواصل القرآن الكريم، إذ تهيء للوقوف والسكوت — كما ذكر ابن جني — وتمكن من الترنم والتطويح ومد الصوت، وفي هذا ما يجعلها تحدث تأثيرا نفسيا شبيها بالتأثير الذي يحدثه اللحن الموسيقي.

يقول مصطفى صادق الرافعي : «وما هذه الفواصل التي تنتهي بها الآيات إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت، والوجه الذي يساق عليه، بما ليس وراءه في العجب مذهب. وما أكثر ما تنتهي بالنون والميم ! وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه.

«وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة»(22).

وقال نعيم اليافي : «أوَ علينا جناح في أن نزعم أن حروف ما قبل الروي، سواء اعتبرت رديفة أو دخيلة، أو توجيها، ربما كانت — عند تحليلنا لحركة الإيقاع — أهم من حرف الروي ذاته، وهل كان ثمة من تثريب علينا لو لاحظنا أن مهمة الفاصلة في إيقاع الآية المدنية تقتصر على ضبط نهاياتها وتحديد أقدارها، دون أن تضيف إلى إيقاع هذه الآيات شيئا جديدا، اللهم إلا ما نحسه من رنين بغير لون، جاء من السكون الذي تنتهي به»(23).

وقال : «أمر آخر أريد أن أجازف به هو أن حرف الروي أو الحرف الذي علينا أن نتبين فيه لون الإيقاع بكلمة أدق، ليس هو النون أو الميم، وهما حرفان سهلا المخرج، فيهما غنة محببة، بل الياء والواو اللذان أتيا قبل الروي، فدور هذين الحرفين لا يقتصر على أن يكونا مجرد ردف للنون والميم، وبقية حروف فواصل السورة، ردف يجب الالتزام به والتقيد، كما هو الحال في الشعر، لمَ لا يكونان هما الحرفين اللذين بني عليهما إيقاع الفاصلة ؟ ولمَ لا يكون ما بعدهما إنما جاء لتلوينهما ؟ نحن نرى ذلك، وهو أقرب إلى القيمة الموسيقية، لاسيما إذا عرفنا أن لا علاقة بين

(21) الكتاب (باب وجوه القوافي في الإنشاد) 298/2.

(22) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ط. 8، القاهرة 1965، ص : 216—217.

(23) مجلة التراث العربي، ع 15—1984/16، ص : 148.

الميم، والراء، واللام، والنون، في حين أن خصائص حَرفي الواو والياء متشابهة أو متقاربة، فكلاهما حرف ضيق، ولهما ذبذبات واحدة، وهو ما يعنينا في دراسة الأصوات»[24].

وقال عز الدين علي السيد : «والمدود في الفواصل، وهي نهايات الدفقات الصوتية للجمل، عند الوقف، نجد لها في القرآن الكريم من الحلاوة والإطراب حظا يثير الإحساس بأن لها دخلا كبيرا في الإعجاز، وهي إما مدود مطلقة، يوقف عليها بصوتها، وإما ملحقة بحرف صائت تسبقه، وقد تتكرر في كلمة الفاصلة، فيضاعف التكرير قيمتها بما لا يخفى جماله وأسرار إيقاعه»[25].

وثبت بالإحصاء أن عدد الفواصل المردوفة بالمد في القرآن كله هو 5165.

منها بالياء : 2672.

ومنها بالواو : 2048.

ومنها بالألف : 445.

كما ثبت أن الفاصلة الأثيرة في القرآن هي النون الساكنة المردوفة بواو أو ياء، فالمردوفة منها بواو : 1758، والمردوفة بياء : 1292[26].

تلك جملة من الآراء التي تنبه إلى قيمة حروف اللين في فواصل القرآن، نقرها ونضيف إليها أن هذه الحروف تؤدي الوظيفة الإيقاعية التي أشير إليها، وتؤدي كذلك وظيفة معنوية بلاغية. ولبيان ذلك يكفي أن نعرض مثالين : الأول من سورة نوح، والثاني من سورة المدثر.

المثال الأول : قال الله تعالى : **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَآسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَآسْتَكْبَرُوا آسْتِكْبَاراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ آسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾** (سورة نوح : 5—10).

فالفاصلة التي تنتهي بها هذه الآيات تتألف من مقطع يتكون من صوت متحرك هو الراء، ومن صوتين ممدودين هما الألف التي قبل الراء، والألف التي بعدها. ولهذين المدين وظيفة إيقاعية ووظيفة دلالية. أما الأولى فيؤديانها بالسماح للصوت بالارتفاع والامتداد في نهاية كل آية بمقدار متناسب.

وأما الثانية فيؤديانها بالإسهام في الإيحاء بصورة الجهد الضخم، والزمن الطويل الذي

---

(24) مجلة التراث العربي، ع 15—1984/16، ص : 148.

(25) التكرير بين المثير والتأثير، ص : 65.

(26) انظر هذه الإحصاءات في كتاب الفاصلة في القرآن الكريم، ص : 351.

أمضاه نوح عليه السلام في دعوة قومه. وقد أشار القرآن فيّ مكان آخر إلى أنه ــ عليه السلام ــ «لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاما».

المثال الثاني : قال تعالى متوعدا الوليد بن المغيرة، أحد كفار العرب في عصر النبوة :

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدا.
وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً.
وَبَنِينَ شُهُوداً.
وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾. (سورة المدثر : 11ــ14)

تنتهي هذه الآيات القصيرة بفاصلة مؤلفة، كذلك، من مقطع مركب من صوت متحرك، هو الدال، ومن صوتين ممدودين هما الياء والألف، أو الواو والألف.

والآيات في توعد رجل كفر نعمة الله، فلم يقدرها حق قدرها. بدأت ببيان ما أكرم الله به ذلك الرجل من النعم الكثيرة وما أفاض عليه من الخير العميم. وجاءت الفاصلة المشتملة على صوتين ممدودين لتسهم بإيقاعها في الإيحاء بصورة النعْمة السابغة والكرم الغامر. لأن امتداد الصوت مرتين في نهايات هذه الآيات القصيرة يسمح للإيقاع الممدود بالوضوح التام في الإسماع، فيوحي إليها بصورة الامتداد والاتساع، وهي صورة المعنى المقصود. والأمثلة كثيرة.

هكذا يتضح كيف تؤدي حروف اللين التي تكثر في فواصل القرآن وظائفها الإيقاعية والمعنوية، فتسهم في بلاغة الآيات وحلاوة الإيقاع.

4 ــ تناسب الفواصل :

أكد علماء البلاغة وغيرهم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله. وقالوا : الأصل في الفاصلة والقرينة المتجردة في الآية والسجعة المساواة.

وقد بنى العلماء في عد آيات القرآن على هذا الأصل. ومن ثم أجمعوا على ترك عد ما ورد في بعض السور منتهيا بمقطع شبيه بالمقطع الذي انتهى به معظم فواصل القرآن، وهو النون المسبوقة بياء أو واو.

وعلى هذا تركوا عد قوله تعالى : **﴿وَيَاتِ بِآخَرِينَ﴾**[27]، وقوله : **﴿وَلاَ ٱلْمَلاَئِكَةُ**

---

(27) من قوله تعالى : **﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَاتِ بِآخَرِينَ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾** (سورة النساء : 133).

﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[28] من سورة النساء، لأن فواصل الآيات في هذه السورة تنتهي بحرف متحرك قبله ياء أو واو ممدودين، وبعده ألف الإطلاق المنقلبة عن التنوين نحو : حميدا، وكيلا، قديرا، بصيرا، بعيدا، يسيرا، حكيما، جميعا.. الخ.

وتركوا لذلك أيضا عد قوله تعالى : ﴿أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[29]، في سورة الإسراء، رأس آية، مع انتهائه بالنون المسبوقة بالواو، لأن الآيات في هذه السورة تنتهي بفاصلة مؤلفة من حرف متحرك يتقدمه واو أو ياء ممدودتين، ويأتي بعد ألف منقلبة عن التنوين نحو : زبورا، تحويلا، محذورا، مسطورا، تخويفا، كبيرا.. الخ.

ولم يعدوا قوله تعالى : ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[30] من سورة مريم، وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[31] من سورة طه، حفاظا على تناسب الفواصل.

وتركوا لذلك عند قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[32]، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[33] في سورة الطلاق. كل ذلك للعلة نفسها، وهي أن هذه السور تنتهي بفواصل لا تناسبها هذه الكلمات أو المقاطع التي تنتهي بها هذه الجمل.

وعدوا نظائرها فواصل في السور التي تجري على مقاطع مناسبة لها.

١ ـ تناسب الفواصل واختيار الألفاظ

إذا كان الله سبحانه قد اختار للقرآن ترتيلا تبدو فيه نغمة ألفاظه ورنينها وحسنها، فلا بد أن تكون ألفاظه قد اختيرت لمزية في كل كلمة، لا في مجموعها ونظمها فحسب. وهذا الحكم إن كان ينطبق على سائر ألفاظ القرآن، فإنه ينطبق بالأحرى على الكلمات التي تقع في فواصل الآيات ؛ فهذه أولى بالعناية لأنها تجمع بين الوظيفتين : المعنوية والإيقاعية. وبلاغة الكلام تقتضي

---

(28) من قوله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ (سورة النساء : 172).

(29) من قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِٱلْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا. وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ (سورة الإسراء : 59).

(30) من قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ (سورة مريم : 97).

(31) من قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ (سورة طه : 113).

(32) من قوله تعالى : ﴿رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ (سورة الطلاق : 11).

(33) من قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (سورة الطلاق : 12).

أن يراعى في اختيارها أن تكون قادرة على الوفاء بحق المعنى، وحق التناسب الإيقاعي في آن واحد. وبلاغة القرآن المعجزة تظهر، في جملة ما تظهر فيه، في اختيار الكلمة المناسبة لهذين الغرضين.

ولذلك نرى القرآن يتصرف في أبنية الألفاظ ومشتقاتها، ويقيم صيغة مقام صيغة أخرى، ويتوسع في الجموع ويقيم بعضها مقام بعض فيؤدي بذلك حق اللفظ وحق المعنى معا.

ـ التوسع في استعمال أبنية المصدر

وقد توسع القرآن في استعمال أبنية المصادر، وسخر ما في العربية من مرونة في هذا الباب لأغراضه البلاغية. وحسبنا أن نقدم أمثلة توضح غرضنا هنا :

1) استعمل القرآن لفعل «تاب» ثلاثة مصادر، هي :

ـ التَّوْبُ، قال تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (سورة غافر : 2)(34)

ـ التَّوبة، ﴿تُوبُوا إِلَى آللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ (سورة التحريم : 8)(35).

ـ المَتَاب، ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى آللَّهِ مَتَاباً﴾ (سورة الفرقان : 71).

والصيغة الثالثة وردت فاصلة، فروعي في اختيارها أن تؤدي المعنى الذي تؤديه الصيغ الأخرى، وأن تكون مناسبة للفواصل التي جاءت في نسقها.

والصيغة الأولى، وإن لم تكن فاصلة، فقد روعي فيها أن تؤدي المعنى، وأن تكون مشاكلة لكلمة «الذَّنب». للحفاظ على لون من التناسب الإيقاعي.

2) واستعمل القرآن لفعل «خَسِرَ» ثلاثة مصادر، هي :

ـ الخُسْر، قال تعالى : ﴿وَآلْعَصْرِ، إِنَّ آلإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. (سورة العصر : 1ـ2)

وقال : ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾. (سورة الطلاق : 9)

ـ الخَسَار، قال تعالى : ﴿وَآتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً﴾. (سورة نوح : 21)

ـ الخُسْرَان، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ آلشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ آللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾. (سورة النساء : 119)

---

(34) وتتمة الآية : ﴿...شَدِيدِ آلْعِقَابِ ذِي آلطَّوْلِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِلَيْهِ آلْمَصِيرُ﴾.

(35) وتتمة الآية : ﴿...عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾... إلى قوله : ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والصيغتان الأوليان وردتا فواصل لآياتها. وروعي في كل منها أن تؤدي المعنى المراد، وأن تكون مناسبة للفواصل التي وقعت بينها.

فالصيغة الأولى وردت في سورة «العصر»، وفواصلها هي : العصر، خسر، الصبر. ومناسبة هذه الصيغة هنا واضحة، ووردت أيضا في سورة الطلاق «خُسْرا». والفواصل في هذه السورة تجري على هذا النحو : أمْرا، مَخْرَجاً، قَدْراً، يُسْراً، أَجْراً، نُكْراً، خُسْراً.

والصيغة الثانية وردت في سورة نوح، وفواصل هذه السورة فيما يكتنف الآية التي انتهت بهذا اللفظ تجري على هذا النحو : جهارا، إسرارا، غفارا، أنهارا، أطوارا، نباتا، إخراجا، بساطا، فجاجا، خسارا، كبارا.

وواضح أن هذه الصيغة هي التي تناسب هذا النسق الذي يكتنفها.

ومهما يكن فإن القرآن راعى في هذه الصيغة المعنى وتناسب الفواصل، فتصرف فيها على النحو الذي رأينا.

3) واستعمل القرآن المصدر من فعل «عَتَا» بصيغتين هما :

ـ عُتُوّاً، قال تعالى : ﴿وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيرا﴾. (سورة الفرقان : 21)

وقال : ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾. (سورة الملك : 21)

ـ عُتِيّاً، قال تعالى : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عُتِيّاً﴾. (سورة مريم : 8)

والصيغة الثانية وقعت فاصلة، والفواصل التي وردت قبلها وبعدها تجري على نحو : خفيا، شقيا، وليا، رضيا، سميا، عتيا، شيئا، سويا.

ومناسبة هذه الصيغة لهذا النسق واضحة، لأنها تنتهي مثل الفواصل الأخرى بالياء، مسبوقة بحرف متحرك، منتهية بألف الإطلاق.

والأمثلة على تصرف القرآن في أبنية المصادر لهذا الغرض كثيرة.

ـ إقامة صيغة مقام أخرى للتناسب :

من صور تصرف القرآن في صيغ الألفاظ واختيار ما يفي بالمعاني وتناسب الفواصل إقامة صيغة مقام صيغة أخرى.

وهذا الأسلوب من سنن العربية المعروفة عند اللغويين بمخالفة المبنى للمعنى، وعند البلاغيين بمجاز الاشتقاق. وسماه السجلماسي تداخل كيفية الألفاظ المفردة، وعده من أنواع المبالغة، وهو عنده ثلاثة أنواع :

ـ تداخل أشكال الأجناس (التذكير والتأنيث).
ـ تداخل أشكال الأعداد (الجمع والإفراد).
ـ تداخل شكلي المثال الأول (المصدر).

ويفهم من تصنيف السجلماسي تداخل أشكال الصيغ ضمن جنس المبالغة أن الغرض من ذلك التداخل معنوي، لأن المبالغة تتعلق بالمعاني.

وهذا هو رأي البلاغيين الذين سموه بالمجاز الاشتقاقي، لأن المجاز عندهم أبلغ من الحقيقة.

وقد سبق الفراء إلى الإشارة إلى ما يقصده العرب بذلك، إذ قال : «إنما يفعلونه لأنهم يريدون وجه المدح أو الذم»[36]، يعني أنهم يريدون الزيادة في المعنى.

ونحن لا نخالف هؤلاء فيما ذهبوا إليه. ولكن نضيف إليه أن النظم القرآني يجمع في ذلك بين حق المعنى وحق التناسب الإيقاعي، وبخاصة فيما ورد منه في الفواصل.

وقد أظهر الاستقراء أن معظم ما ورد في القرآن من إقامة صيغة مقام أخرى ورد في الفواصل.

. **ما قام مقام مفعول في الفاصلة** : قام مقام صيغة مفعول في فواصل القرآن صيغ متعددة، نذكر منها :

1 ـ فَعِيل : ومنه : «عتيد»[37]، و«سعير»[38]، و«البريئة»[39].

2 ـ فَعَل : ومنه : «الصَّمَد» (سورة الإخلاص : 2)

3 ـ فَاعِل : ومنه : «مِن مَاءٍ دافِق» (سورة الطارق :6)، و«عِيشة راضِية» (سورة الحاقة : 21)

. **ما قام مقام فَاعل أو فَعِيل** : قام مقام فاعل في فواصل القرآن صيغ كثيرة نذكر منها ما يلي :

1 ـ مَفعول : ومنه : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ (سورة الإسراء : 45)، أي حجابا ساترا.

ومنه : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأتِيا﴾ (سورة مريم : 61)، أي آتيا.

---

(36) معاني القرآن : 182/3.
(37) من قوله تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾ (سورة قَ : 18).
(38) ورد في آيات كثيرة، منها : ﴿إِنَّ الله لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ (سورة الأحزاب : 64).
(39) من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ آلبَرِيئَة﴾ (سورة البينة : 7).

2 ــ فَعِيل : ومنه : ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (سورة الشورى : 48) أي حافظا.

ومنه : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الشورى : 6)

3 ــ المصدر :

يأتي المصدر في الفاصلة بمعنى فاعل من أوزان متعددة أهمها :

ا ــ فَعْل : ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ. وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (سورة الطارق : 10ــ11).

قال ابن عباس : «ذات الرجع» : أي ذات المطر الراجع في كل عام، و«ذات الصدع» : أي ذات النبات الشاق للأرض الصادع لها[40].

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (سورة الطارق : 12)، أي فاصل.

ب ــ فَعَل : ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا﴾ (سورة الجن : 1)، «عجبا» : مصدر وضع موضع العجيب للمبالغة[41].

ومنه : ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقًا﴾ (سورة الكهف : 40)، أي أرضا بيضاء يزلق عليها لملامستها، وهو وصف بالمصدر.

. **ما قام مقام المصدر** : وَضْعُ المشتق موضع المصدر كثير. ومما جاء منه في فواصل القرآن «فاعل».

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (سورة الذاريات : 5)، أي لصدق.

ومنه قوله تعالى : ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (سورة الحاقة : 8)، أي من بقاء.

قال الزمخشري : «أي من بقاء، كالطاغية بمعنى الطغيان».[42]

وقال أبو حيان الغرناطي : «أي من بقاء، جاء على فاعلة، كالعاقبة»[43]

ومنه قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ (سورة الواقعة : 2)، أي تكذيب.

قال المفسرون : المعنى : ليس لها تكذيب ولا رد. وعلى هذا فكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية[44].

---

(40) انظر البحر المحيط : 456/8، وفيه أقوال أخرى.

(41) نفسه : 347/8.

(42) الكشاف : 14/4.

(43) البحر المحيط : 321/8.

(44) نفسه : 203/8.

ومنه قوله تعالى : ﴿لاَ تُسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَة﴾ (سورة الغاشية : 11)، أي لغو.

قال مكي بن أبي طالب : «اللاغية : مصدر اللغو كالعاقبة والعافية»[45].

تلك أمثلة مما ورد في القرآن من إقامة صيغة مقام أخرى في الفواصل، وهي توضح أن مخالفة المباني للمعاني في الأسلوب القرآني تأتي لأغراض معنوية، وللتناسب الإيقاعي، وبذلك يجمع بين الوفاء بحق المعنى وحق الصياغة اللفظية وحسن التعبير. ولاشك في أن اختيار مثل هذه الكلمات التي تجمع باعتدال بين الأغراض المذكورة ركن هام في بلاغة القرآن وبديع نظمه.

وقد كان الفراء أشار إلى أن القرآن نزل على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع، وأوضح أنه يختار من الألفاظ والأبنية ما يفي بهذا الغرض الجمالي، إضافة إلى الوظيفة المعنوية، وقد أورد قوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُر﴾ (سورة القمر : 45)، فقال : معناه : الأدبار[46]. يعني أن صيغة المفرد وضعت موضع الجمع، وهذا من سنن العربية. والقاعدة أن المفرد، إذا أقيم مقام الجمع، دل على الجنس، وأن الواحد إذا أريد منه الجنس كان أعم من الجمع.

قال الفراء : «وكان القرآن نزل على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع، ألا ترى إليه : قال : ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُر﴾ (سورة القمر : 6)، فثقل، يعني الكاف من «نُكُر» في «ٱقْتَرَبَتْ»[47]، لأن آياتها مثقلة، وقال في آية أخرى : فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرا﴾ (سورة الطلاق : 8)، فاجتمع القراء[48] على تثقيل الأولى، وتخفيف هذا»[49].

ومن آختيار الصيغة المناسبة للفاصلة مع الوفاء بالمعنى المراد قوله تعالى : ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا. وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (سورة الشمس : 4).

قال أبو حيان الغرناطي : «ولما كانت الفواصل ترتب على ألف وهاء المؤنث، أتى «والليل إذا يَغْشَاهَا» بالمضارع، لأنه الذي ترتبت فيه، ولو أتى بالماضي كالذي قبله وبعده كأن يكون التركيب «إذا غشيها»، فتفوت الفاصلة، وهي مقصودة»[50].

وقال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُون﴾ (سورة الأعراف : 81).

---

(45) الكشف عن وجوه القراءات : 371/2.

(46) معاني القرآن : 224/3.

(47) يعني في سورة اقتربت، وهي سورة القمر.

(48) قرأ ابن كثير : «إلى شيء نُكْر» بإسكان الكاف، وقرأ الباقون بضم الكاف، وهما لغتان، مثل الرغب والرغُب. وإنما خالف أبو عمرو وأصله هاهنا فقرأ بالتثقيل لأن رؤوس الآي مثقلة.
(ابن زنجلة، ص : 688)

(49) معاني القرآن : 224/3.

(50) البحر المحيط : 478/4.

وختم الآية المشابهة لهذه من سورة النمل بقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (سورة النمل : 55).

فختم الآية في سورة الأعراف بلفظ الإسم (مُسْرِفون) وختمها في السورة الأخرى بلفظ الفعل (تجهلون) وهما متقاربان في المعنى. قال الخطيب الإسكافي : «الإسراف والجهل لا يتنافيان»[51]. وقال الفيروز ابادي : «كل إسراف جهل، وكل جهل إسراف»[52]. ثم أوضح أن الداعي إلى اختيار صيغة الإسم في الآية الأولى، وصيغة الفعل في الثانية هو تناسب الفواصل فقال : «ختم الآية الأولى بلفظ الإسم موافقة لرؤوس الآيات المتقدمة، وكلها أسماء : للعالمين، الناصحين، المرسلين، حاتمين، كافرون، مؤمنون، مفسدون..

وختم الآية الثانية بلفظ الفعل لموافقة ما قبلها من الآيات وكلها أفعال : يبصرون، يتقون، يعلمون ..»[53].

ب ـ تناسب الفواصل ومخالفة الأصول

قال ابن الصائغ : «اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية، ترتكب لها أمور من مخالفة الأصول»[54].

وقال الزركشي : «اعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدا، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام، وحسن موقعه من النفس تأثيرا عظيما، ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع»[55].

وذكر السيوطي أن لابن الصائغ كتابا بعنوان «إحكام الرأي في أحكام الآي» تتبع فيه ما وقع في فواصل القرآن من مخالفة الأصول مراعاة لتناسب الفواصل. وقد نقل السيوطي في «الإتقان» ما جمعه ابن الصائغ في كتابه المذكور[56]. وعند استعراض تلك الأحكام يتضح أنها تشمل ما يتعلق بالألفاظ المفردة وما يتعلق بالتراكيب وأحوالها.

والتزاما منا بالخطة التي رسمناها لهذا الفصل، نسوق هنا من تلك الأحكام ما يتعلق بالتصرف في الألفاظ المفردة وأبنيتها، على أن نقدم ما يتعلق بالتراكيب وأحوالها في مبحث لاحق من هذا الفصل.

---

(51) درة التنزيل وغرة التأويل، ص : 162.
(52) بصائر ذوي التمييز : 124/1 ــ 215.
(53) نفسه : 214/1 ــ 215.
(54) عن الإتقان في علوم القرآن : 99/2.
(55) البرهان في علوم القرآن : 60/1 ــ 61.
(56) الإتقان في علوم القرآن : 99/2 ــ 100.

ـ ما يتعلق بالألفاظ المفردة :

1 ــ إيثار تذكير اسم الجنس، كقوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (سورة القمر : 20).

2 ــ إيثار تأنيثه، كقوله تعالى : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. (سورة الحاقة : 7).

3 ــ الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرىء بهما في السبع في غير ذلك كقوله تعالى : ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (سورة الجن : 14). ولم يجيء «رَشَدا» في السبع، وكذا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (سورة الكهف : 10)، فإن الفواصل في السورتين محركة الوسط، وقد جاء في الأعراف في غير الفاصلة : ﴿وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ (سورة الأعراف : 146).

ونظير ذلك قراءة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ (سورة اللهب : 10)، بفتح الهاء وسكونها، ولم يُقرأ : ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (سورة اللهب : 3)، إلا بالفتح لمراعاة الفاصلة.

4 ــ إيثار أغرب اللفظين، نحو قوله تعالى : ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (سورة النجم : 22)، ولم يقل جائره.

وقوله : ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (سورة الهمزة : 4)، ولم يقل جهنم أو النار، وقال في سورة المدثر : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (سورة المدثر : 26)، وقال في سورة المعارج : ﴿إِنَّهَا لَظَى﴾ (سورة المعارج : 15).

وفي سورة القارعة : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (سورة القارعة : 6)، كل ذلك لمراعاة الفواصل.

5 ــ اختصاص كل من اللفظين المشتركين «المتقاربين» بموضع، نحو : ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ابراهيم : 52)، وفي طه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ (سورة طه : 128).

6 ــ الاستغناء بالإفراد عن التثنية نحو : ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (سورة طه : 117).

7 ــ الاستغناء به عن الجمع، نحو : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (سورة الفرقان : 74)، ولم يقل أئمة، ونحو : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾، أي أنهار (سورة القمر : 54).

8 ــ الاستغناء بالتثنية عن الإفراد، نحو : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرحمن : 46).

قال الفراء : أراد الجنة، فثنى لأجل الفاصلة.

وقال : «والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام»[57].

---

(57) معاني القرآن : 118/4.

ونظير هذا قول الفراء أيضا في قوله تعالى : ﴿إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (سورة الشمس : 7)، فإنهما رجلان : قدار وآخر معه، ولم يقل أشقياها، لأجل الفاصلة.

وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه، وقال : إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت، أو الألف، أو حذف همزة أو حرف، فأما أن يكون الله وعد جنتين فيجعلهما جنة واحدة، لأجل رؤوس الآي فمعاذ الله، وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الإثنتين»[58].

ونقل ابن الصائغ عن الفراء أنه قال : «المراد بقوله : «جنتان» جنات، فأطلق الإثنتين على الجمع، لأجل الفاصلة، ثم قال : وهذا غير بعيد. وإنما أعاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية مراعاة للفظ»[59].

9 — الاستغناء بالجمع عن الإفراد، نحو : ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (سورة ابراهيم : 31)[60]، أي ولا خلة، كما قال في الآية الأخرى وجمع مراعاة للفاصلة.

10— إجراء غير العاقل مجرى العاقل كقوله : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (سورة يوسف : 4)، وقوله : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة الأنبياء : 33).

11— إمالة ما لا يمال، كآي سورة طه وآي سورة النجم[61].

12— إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض نحو : ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (سورة صٓ : 5)، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (سورة نوح : 22).

13— وقوع «مفعول» موقع «فاعل» كقوله تعالى : ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (سورة الإسراء : 45).

وقوله تعالى : ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ (سورة مريم : 61)، أي ساترا وآتيا.

14— وقوع «فاعل» موقع «مفعول» نحو : ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (سورة القارعة : 7)، وقوله : ﴿خُلِقَ من مَاءٍ دَافِقٍ﴾، أي مدفوق (سورة الطارق : 5).

15— إثبات هاء السكت : نحو «مَالِيه»، «سُلْطَانِيه» (سورة الحاقة : 28—29)، «ماهيه». (سورة القارعة : 10).

16— العدول عن صيغة المضي إلى صيغة الاستقبال نحو : ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (سورة البقرة : 87).

17— تغيير بنية الكلمة، نحو : ﴿وطور سينين﴾ (سورة التين : 2). والأصل : وطور سيناء.

---

(58) انظر معترك الاقران : 36/1.

(59) نفسه : 37/1.

(60) سورة إبراهيم : 31، والآية الأخرى هي الآية 254 من سورة البقرة.

(61) يعني أن الكلمات التي تنتهي بألف أصلها واو، تمال لتناسب الفواصل.

تلك جملة من الأحكام الصرفية واللغوية التي أوردها ابن الصائغ أمثلة لما وقع في القرآن من مخالفة الأصول مراعاة لتناسب الفواصل. ويتضح من تلك الأحكام أن القرآن يخص الكلمات الواقعة في الفاصلة بالعناية، فيراعي في اختيارها أن تكون صالحة لأداء المعنى المراد، ولتناسب الفواصل في آن واحد.

وقد فطن ابن الصائغ إلى هذه الحقيقة فقال في ختام كلامه : «ولا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم — كما جاء في الأثر — لا تنقضي عجائبه»(62).

ج ـ تناسب الفواصل واختيار التركيب

تصادف الباحث في مصادر الدراسات القرآنية، وفي كتب التفسير إشارات كثيرة إلى تأثر تركيب الآية، أو الجزء الأخير منها بمراعاة تناسب الفواصل، كما يصادف التأكيد فيها على أن التناسب في ذلك أمر مقصود في النظم القرآني، وأن مراعاة ذلك يقضي بالعدول عن التركيب العادي إلى تراكيب أخرى تجمع بين الوفاء بحق المعنى، وحق التناسب الإيقاعي.

وفي ذلك تظهر قيمة المرونة التي يمتاز بها نظام تركيب الجملة في اللغة العربية.

والأمثلة على تصرف القرآن في تركيب الآيات مراعاة لتناسب الفواصل كثيرة، وسنختار منها هنا ما يكفي لتوضيح ما نرمي إليه في هذه الدراسة، ونبدأ أولا بعرض ما ذكر ابن الصائغ :

ومما ذكره :

1 — تقديم المعمول إما على العوامل، نحو : ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ (سورة سبأ : 40).

قيل : ومنه : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (سورة الفاتحة : 5).

وإما على معمول آخر أصله التقديم نحو : ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ (سورة طه : 23)، إذا أعربنا «الكبرى» مفعول «يرى».

وإما على الفاعل نحو : ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ (سورة القمر : 41).

ومنه تقديم خبر كان على اسمها نحو : ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ (سورة الإخلاص : 4).

2 — تقديم الفاضل على الأفضل نحو : ﴿برب هارون وموسى﴾ (سورة طه : 70).

3 — تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو : فلله الآخرة والأولى﴾ (سورة النجم : 25). ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى، كما في قوله تعالى : ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ (سورة القصص : 70).

(62) الإتقان في علوم القرآن : 100/2.

4 ــ تقديم الضمير على ما يفسره نحو : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (سورة طه : 67).

5 ــ تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد نحو : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ (سورة الإسراء : 13).

6 ــ إيراد الجملة التي رد بها ما قبلها على غير وجه المطابقة، كقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة : 8). لم يطابق بين قولهم : آمنا، وبين ما رد به، فيقول : لم يؤمنوا، أو ما آمنوا لذلك.

7 ــ إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك، نحو : ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت : 3)، ولم يقل : الذين كذبوا.

ونظيره قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة : 177).

8 ــ حذف المفعول، نحو : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى﴾ (سورة الليل : 5)، ونحو : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (سورة الضحى : 3).

ومنه حذف متعلق أفعل التفضيل نحو : ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (سورة طه : 7)، ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة الأعلى : 17).

9 ــ الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه نحو : ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ (سورة طه : 129). قوله : ﴿لَكَانَ لزاما﴾ هو الذي فصل به بين المعطوف والمعطوف عليه.

10ــ إيقاع الظاهر موقع المضمر نحو : ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (سورة الأعراف : 170).

وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف : 30)، وهو كثير.

11ــ الفصل بين الموصوف والصفة نحو : ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (سورة الأعلى : 4)، إن أعرب «أحوى» صفة للمرعى، أي حالا.

12ــ حذف الفاعل وإنابة المفعول عنه نحو : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (سورة الليل : 19).

13ــ الجمع بين المجرورات نحو : ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ (سورة الإسراء : 69).

14ــ تأخير الوصف غير الأبلغ عن الأبلغ، ومنه ﴿ٱلرَّحْمَانُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة الفاتحة : 3)، و﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النور : 20)، لأن الرأفة أبلغ من الرحمة[63].

(63) معترك الأقران في إعجاز القرآن : 38/1.

تلك جملة من الأمثلة التي نقل عن ابن الصائغ أنه جعلها من باب الخروج عن الأصل لأجل تناسب الفواصل.

ويستفاد منها أنه اقتصر على بعض الأمثلة التي وقعت فيها مخالفة الأحكام والقوانين النحوية التي تنظم تركيب الجملة العربية، ولو وسع دائرة البحث في هذه النقطة لوجد في الآيات المتشابهة لفظا، وفي أساليب القصص القرآني مادة خصبة، حيث، يختلف تركيب الآيات الدالة على المعنى الواحد بالتقديم والتأخير، والحذف والزيادة، من مكان إلى آخر تبعا لنسق الكلام ونظام الفواصل.

ولغة القصص القرآني موضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن تناسب الفواصل يعد من جملة العوامل التي تؤثر في أسلوب تركيب الآيات في القصة الواحدة.

ومما يوضح ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف مخبرا عما قال السحرة لموسى حين أقبلوا لمباراته بالسحر، وهو قوله تعالى : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ (سورة الأعراف : 115).

وفي سورة طه : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (سورة طه : 65).

فراعى في تركيب الجملة الأخيرة ما يناسب المعنى والفاصلة في كل من السورتين.

ونظير هذا قوله تعالى في سورتي الأعراف والشعراء، مخبرا عن السحرة : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (سورة الأعراف : 120، وسورة الشعراء : 48).

وفي سورة طه : ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ (سورة طه : 70). وقال في سورتي الأعراف والشعراء : ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾، وفي سورة طه : ﴿رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾. وكل هذا لمراعاة فواصل الآي مع الوفاء بحق المعنى، «وفواصل مرعية، تبنى عليها مسائل كثيرة»[64].

واستقراء بعض الأساليب التعبيرية الواردة في القرآن يبين أن للتغيير الذي يطرأ عليها علاقة بتناسب الفواصل، ومن ذلك مثلا أن الاستقراء دل على أن «أم» وردت في القرآن للمعادلة بين المفردين، وتوسط الخبر بين المعطوف والمعطوف عليه في ثلاث عشرة آية. وقال أبو حيان الغرناطي : «هو الأفصح الأكثر»[65].

وجاء تأخر الخبر عن المعطوف عليه في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ (سورة الأنبياء : 109).

---

(64) بصائر ذوي التمييز : 218/1.

(65) البحر المحيط : 344/6.

قال أبو حيان : «تأخر المستفهم عنه لكونه فاصلة، وكثيرا ما يرجح الحكم في الشيء لكونه فاصلة آخر الآية»(66).

وقال تعالى في سورة الجن : ﴿إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ (سورة الجن : 25). فأتى بالجملة في موضع المفرد، فقال : ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾. ولم يقل : «أم بعيد» وذلك لأن هذه الجملة تجمع بين أداء المعنى المراد والوفاء بحق تناسب الفواصل.

وقد يعدل القرآن عن التعبير الحقيقي المباشر إلى الكناية أو المجاز للجمع بين الغرضين المذكورين، ومن ذلك مثلا قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ (سورة الحاقة : 44—46)

قال ابن الأصبع : «إن هذا الكلام عدل فيه عن المعنى الخاص في موضعين، توخيا للمناسبة والتسجيع، لأن المعنى الخاص في الموضعين، أن يقال : لأخذناه أخذا شديدا، ولأهلكناه، ولكن هذه العبارة خالية من المناسبة، لما تقدم هذين الموضعين، وما تأخر عنهما، ولما كانت المناسبة والتسجيع أمرا مطلوبا عدل عن اللفظ الخاص الذي لا يعطي ذلك إلى لفظ يعطيه مع جزالة فيه»(67).

وهذا يعني أن المجاز من الخصائص التعبيرية التي تجعل اللغة قادرة على إيجاد الألفاظ والتعابير التي تؤدي المعاني، وتفي بحق النظم. وقد ذكر اللغويون والأصوليون القدماء هذه الفكرة ضمن حديثهم عن فوائد المجاز. أوضح ابن جني أن العدول إلى المجاز يكون لمعان ثلاثة : هي الاتساع، والتوكيد، والتشبيه. وأشار إلى أن المعاني الثلاثة موجودة في قول النبي ﷺ في الفرس : «هو بَحْرٌ»(68).

ثم قال : «أما الاتساع، فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي : فرس، وطرق، وجواد، ونحوها «البحر»، حتى إنه إن احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الأسماء، لكن لا يفضي إلى ذلك إلا بقرينة تسقط الشبهة»(69).

وقال الآمدي : «الفائدة في استعمال المجاز قد تكون الخفة على اللسان، أو المساعدة على وزن الكلام نظما ونثرا، أو للمطابقة أو المجانسة، أو السجع، أو قصد التعظيم، إلى غير ذلك»(70).

والمجازات القرآنية تجمع بين بلاغة المعنى والوفاء بحسن التعبير والصياغة.

(66) البحر المحيط . 344/6.
(67) بديع القرآن، ص : 84.
(68) الخصائص : 2 : 442.
(69) نفسه : 442/2.
(70) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، المعارف بمصر 1914 : 44/1.

د ـ الوفاء بحق المعنى وتناسب الفواصل

من أهم الخصائص التي تميز القرآن من كل كلام بليغ أنه يجمع، في كل معنى يطرقه، بين الوفاء بحق المعنى وحق الصياغة وتناسب الفواصل، وأنه استمر على ذلك من أوله إلى آخره، ولم يخل بحق أي من العنصرين ولو مرة واحدة. إن العبارات القرآنية آيات محكمة، فصلت من لدن حكيم خبير، وحين يتدبر البليغ تركيبها من ناحية الصياغة اللفظية، يجد أن حق الصياغة يقتضي التركيب الذي نزلت به، وحين يتدبره من ناحية المعنى، وما تقتضيه بلاغته، يجد أيضا أن حق المعنى يقتضي ذلك التركيب.

وتأتي الفاصلة التي هي جزء من الآية جامعة بين محاسن الصياغة وبلاغة المعنى بإحكام.

ولا يجوز أن يقال إن القرآن يختار الكلمة أو الأسلوب أو العبارة مراعاة لتناسب الفواصل وحده، ولا لبلاغة المعنى وحدها، بل الذي يليق بكماله وجلاله أن يقال : إنه يختار ما يختار من ذلك لأنه الأبلغ في موضعه، والأوفق في نسقه.

وصدق الزمخرشي إذ قال : لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها، إلا مع بقاء المعاني على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، فأما أن يهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده، غير منظور فيه إلى مؤداه، فليس من قبيل البلاغة»[71].

ويرى، بناء على هذه القاعدة، أن التقديم في مثل قوله تعالى : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (سورة البقرة : 4). وقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، إنما وقع في تركيب الآية لغرض معنوي هو التخصص.

وقال الزركشي : «آعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله. فلابد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولا، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن الكريم لا تخرج عن ذلك»[72].

إن الفاصلة القرآنية تأتي متمكنة في موقعها، مستقرة في مكانها، يتعلق معناها بمعنى الآية بحيث لو طرحت أو غُيرت لاختل المعنى وفسد النظم، لأنها لم تكن مجرد حلية لفظية، بل جزء أصيل من البناء المحكم للعبارة، إن لم تكن هي حجر الزاوية في ذلك البناء.

وقد عني العلماء بإظهار طرق الارتباط المعنوي في الفواصل القرآنية، فأوضحوا أنه ينحصر في أربعة أوجه هي : التمكين، والتوشيح، والإيغال، والتصدير[73].

---

(71) عن الإتقان في علوم القرآن : 105/2، وفيه إشارة إلى أن الزمخشري قال هذا في كشافه القديم.

(72) البرهان في علوم القرآن : 78/1.

(73) نفسه : 78/1.

والذي يهمنا الآن هو أن نوضح بالأمثلة كيف يجمع القرآن في فواصله بين الوفاء بحق المعنى وتناسب الفواصل بطريقة محكمة.

1 ــ قال تعالى في سورة هود : ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ هُمُ ٱلأَخْسَرُونَ﴾ (سورة هود : 22)

وقال في سورة النحل : ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ (سورة النحل : 109).

وقد يبدو للنظرة العابرة أن التعبير بصيغة التفضيل : «الأَخْسَرُون» في الآية الأولى، وبصيغة اسم الفاعل «الخَاسِرُونَ» في الثانية، محض تصرف في العبارة، للتنويع، غير أن التعمق في سياق كل من الفاصلتين يبين أن لذلك التصرف علاقة بالمعنى وبتناسب الفواصل معا.

أما الآية التي وردت في سورة هود، فقد تقدمها قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (سورة هود : 20). وإنما قال : ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، لأنه خبر عن قوم أخبر عنهم بالفعل الذي استحقوا به مضاعفة العذاب، في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (سورة هود : 19).

«فإذا صدو هم عن الدين صدودا، وصدوا غيرهم صدا استحقوا تضعيف العذاب، لأنهم ضلوا وأضلوا، فهذا موجب صيغة «الأخسرين» من طريقة المعنى.

وهاهنا ما يضاهيه من طريق اللفظ، وهو أن ما قبله من الفواصل «يبصرون»، «يفترون»، فما قبل الواو والنون متحركان لا يعتمدان على ألف قبلهما. و«الخاسرون» ليس كذلك، فقبل نونه وواوه متحركان مستندان إلى مد قبلهما. فاجتماع المعنى الذي ذكرنا، والتوفقة بين الفواصل التي بينا، أوجبا اختيار «الأخسرين» في الآية الأولى[74].

وأما الآية التي في سورة النحل، فإنها وردت في سياق لم يخبر فيه عن الكفار بأنهم مع ضلالهم أضلوا من سواهم، ولم يذكر ما يوجب مضاعفة العذاب. ثم كانت الفواصل التي حملت عليها فاصلة الآية المشار إليها على وزن «الكافرين»، «الغافلين»، فاقتضى هذان الشيئان أن يقال : «هم الخاسرون»»[75].

2 ــ قال تعالى : ﴿فَأَخَذَهُ ٱللهُ نَكَالَ ٱلآخِرَةِ وَٱلأُولَى﴾ (سورة النازعات : 25).

فقدم نكال الآخرة على نكال الأولى، وفيه تقديم المتأخرة زمنا.

---

(74) درة التنزيل.. ص : 220 بتصرف، وانظر ملاك التأويل : 651/2.

(75) المصدران السابقان.

وقد قدمه لأنه أشد وأبقى، فهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة، ولأنه الأنسب للسياق الذي يتحدث عن الآخرة، ويجعلها موضوعه الرئيس، ولأنه يتسق لفظيا مع الإيقاع الموسيقي في الفاصلة، بعد اتساقه معنويا مع الموضوع، ومع الحقيقة الأصلية(76).

3 ــ وقال تعالى : ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الشعراء : 21). فلم يقل : وجعلني رسولا.

ويلاحظ من ناحية التنسيق الفني في التعبير أن حرف الفاصلة في السورة هو الميم أو النون وقبلهما مد.

فقوله : «من المرسلين» يتمشى موسيقيا مع الإيقاع السائد في السورة، بعكس ما لو قيل : وجعلني رسولا، ولكنه مع هذا يؤدي معنى مقصودا، وهو أنه واحد من كثيرين، وأن الأمر ليس بفذ ولا عجيب، وهكذا يجتمع التناسق الفني والمعنوي في التعبير.

4 ــ وقال تعالى : ﴿أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (سورة هود : 60).

«قوم هود» عطف بيان لعاد. قال الزمخشري : «فإن قلت : فما الفائدة من هذا البيان ؟ قلت : الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسما، وتجعل فيهم أمرا محققا لا شبهة فيه»(77).

وقال ابن المنير : «وفيه أيضا فائدتان جليلتان : إحداهما النسبة، بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه، والأخرى تناسب الآي بذلك، فإن قبلهما : ﴿وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، وقبل ذلك، «حفيظ»، و«غليظ»، وغير ذلك مما هو على وزن «فعيل» المناسب لـ «فعول» في القوافي»(78).

5 ــ وقال تعالى : ﴿تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ ٱلأَرْضَ وَٱلسَّمَاوَاتِ ٱلْعُلَى﴾ (سورة طه : 4)

فقدم الأرض على السموات، وفي غير هذا من المواضيع قدم السموات على الأرض.

أما تقديم الأرض في هذه الآية فلموافقة الفواصل، ولأن خلق الأرض قبل خلق السماء، وأيضا لما ذكر أن إنزال القرآن تذكرة لمن يخشى وهم سكان الأرض ناسب ذلك البدء بالأرض التي أنزل القرآن تذكرة لأهلها.

وأما البدء بالسموات في غير ذلك فلشرفها(79).

---

(76) في ظلال القرآن : 445/8.

(77) الكشاف : 270/2.

(78) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال : هامش الكشاف في المكان المشار إليه، أحمد منير، طبعة طهران.

(79) كشف المعاني عن متشابه المثاني، نسخة شخصية مرقونة، لبدر الدين بن جماعة.

هذا، وسيطول بنا البحث لو أردنا أن نستقصي هذا الجانب من بلاغة فواصل القرآن، فلنكتف بالأمثلة التي عرضناها، ولنجمل الحكم فنقول إن القرآن يجمع في فواصله بين حق اللفظ وحق المعنى، وتلك غاية من البلاغة لا تبلغ إليها أعناق البلغاء، وإن نجحت في ذلك فإلى حد، ثم لا تلبث أن يدركها النقص البشري. ولله وحده الكمال المطلق.

خاتمة

وبعد. فتلك محاولة متواضعة للكشف عن بعض أوجه التناسب في النظم القرآني. ذلك النظم الذي فصله الله على علم هدى ورحمة، وجعله «كتابا متشابها مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله...»

نظم عجيب تآلفت درره وجواهره، وتناسبت عناصره وأجزاؤه، لا تفاوت ولا تنافر، ولا تباين ولا اختلاف في شيء منه «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».

نظم متناسب في معانيه ومبانيه، وفي ألفاظه وأصواته، وفي إيقاعه وفواصله.

السورة منه بنية محكمة البناء، متراصة الأجزاء. مطلعها يناسب موضوعها ومقصودها، وخاتمتها كذلك، ومعانيها الجزئية ومقاطعها متناسبة تناسبا يرتكز على التوافق ومراعاة النظير تارة، وعلى التقابل ومراعاة التضاد تارة أخرى. وكل عناصر هذه البنية تنتقى وتنظم بصورة محكمة تتعاون على إيضاح مقصود السورة، وإشاعة الجو الخاص والروح التي يراد إشاعتها بين ثناياها.

حاولت هذه الدراسة المتواضعة عرض أوجه التناسب في النظم القرآني وتحليلها، فبدأت بالتناسب المعنوي، وهو الذي يكوّن القسم الأول منها. ومن خلال استقراء هذا الوجه، اتضح أن المعاني القرآنية ترتبط في معظم القرآن بثلاث طرق من طرق التناسب، هي :

— التوافق.

— التقابل.

— التناسق

ويتجلى الوجه الأول في الجمع بين المعاني التي يوافق بعضها بعضا، وإلحاق الشيء بنظيره، وأبرز مظاهر هذا الوجه يتجلى في وحدة السورة، ووحدة السورة تعني أن لكل سورة غرضا وهدفا واحدا، تتجه بكل معانيها ومبانيها إلى إيضاحه وإظهاره، وروحا خاصا تشترك المعاني والألفاظ والصور والأصوات في تكوينه، ونقل تأثيره.

والتوافق المعنوي هو أبرز عناصر الوحدة في كل سورة، ومن مظاهر هذا التوافق افتتاح السورة بما يناسب غرضها وروحها، واختتامها بمثل ذلك، ومنها اختتامها بما يناسب فاتحتها، ومنها

اختيار ما يناسب موضوعها وهدفها من الحلقات القصصية. وقد أظهرت الدراسة هذا الوجه من التوافق باستقراء حلقات قصة ابراهيم عليه السلام في سائر السور التي وردت فيها.

ومن أبرز أوجه التوافق المعنوي في القرآن، اقتران القضية بأدلتها. وقد أوضحت الدراسة هذا الوجه من خلال استقراء الآيات التي تقرر أصول العقيدة، فأظهرت أن تلك الآيات تعرض أصول الدين مقترنة بأدلتها المعروضة في الكون.

ومن أوجه التوافق المعنوي في القرآن، التناسب بين الآيات والتعقيبات التي تختم بها. وقد أوضحت الدراسة هذا الوجه من خلال استقراء التعقيب بالصفات الالهية في سورة البقرة، وبيان ما بين كل تعقيب وبين الآية التي وقع في ختامها من توافق.

أما التقابل، وهو كذلك من أبرز أوجه التناسب المعنوي في القرآن، فيتجلى في إيراد المعنى بإزاء ما يقابله، وفي المقابلة بين الشيء وضده. والتقابل أسلوب شائع في النظم القرآني، وقد أجملت أساليبه في خمسة أضرب :

1 ــ التقابل المألوف.

2 ــ التقابل الملفوف.

3 ــ التقابل المحذوف.

4 ــ التقابل الضمني.

5 ــ التقابل بالسلب والايجاب.

وأكثر هذه الأضرب شيوعا في القرآن هو الضرب الأول، ويكثر في المعاني الجزئية والكلية. وبوجه خاص في آيات الترغيب والترهيب، ومشاهد النعيم والعقاب، والرحمة والعذاب. وقد عرضت الدراسة نماذج من تلك الآيات، وبينت ما بين معانيها من التقابلات الكلية والجزئية.

وأما التناسق فيتجلى في اختيار الألفاظ والتراكيب التي تحمل معاني مناسبة للسياق الذي تقع فيه، وهذا وجه لطيف من التناسب المعنوي، يظهر بوجه خاص في الآيات المتشابهة لفظا المتفقة معنى، لكنها تختلف من سياق إلى آخر بتقديم أو تأخير أو إظهار أو إضمار، أو اختيار لفظ مكان آخر. ومعرفة وجه التناسب في تلك التغيرات التعبيرية، يتوقف على معرفة مقاصد السور، وعلى الفحص في السياق القريب والبعيد لكل آية، وهذا الفحص هو الذي يكشف عن أسرار التناسق والتناسب في النظم القرآني في كل سورة. وقد عرضت الدراسة أمثلة من تلك الآيات وحللتها وأوضحت من خلالها هذا الوجه من التناسب.

وأما القسم الثاني من هذه الدراسة، فقد تناول التناسب اللفظي والصوتي والايقاعي.

والتناسب في هذه الأوجه يتصل بمعرفة بعض خصائص اللغة العربية التي جعلتها أداة مرنة

قادرة على الوفاء بما يقتضيه مبدأ التناسب في الأوجه المذكورة كما يتصل بإثبات أن جانبا من روعة القرآن يرجع إلى ما فيه من جمال صوتي وحلاوة إيقاعية.

ومن هنا بدأت الدراسة في هذا القسم بعرض جملة من الخصائص المعجمية والصرفية والصوتية التي تمتاز بها العربية، كما قدمت جملة من الآراء والوقائع التي تثبت أن روعة القرآن وقوة تأثيره ترجع في جانب منها إلى حلاوة الايقاع وتناسب الأصوات.

وحلاوة الايقاع والتناسب الصوتي صفة محسوسة يحسها كل من استمع إلى ترتيل القرآن. غير أن الدراسة التحليلية، مهما حاولت، تبقى قاصرة عن إبراز أسرار هذا الجمال بطريقة موضوعية. وحتى إن وفق المحلل الذواقة إلى الاحساس بشيء من ذلك الجمال، فإنه يظل عاجزا عن وصفه.

أما التناسب اللفظي فيتجلى في مظهرين :

ـ تناسب المشاكلة والمجانسة.

ـ تناسب المجاورة والاتباع.

وقد فصلت الدراسة في كل من هذين المظهرين، وأظهرت بالطريقة الاستقرائية مكانة هذا اللون من التناسب، وقيمته في النظم القرآني، وفي أثناء عرض الأمثلة وتحليلها، اتضح أن القرآن يجمع بطريقته الفريدة المعجزة بين الوفاء بحق جمال اللفظ وبلاغة المعنى.

وأما دراسة التناسب الصوتي والايقاعي في القرآن، فقد انطلقت من اعتبار أن جمال النظم القرآني من الناحية الصوتية ينبع من النسيج الداخلي لذلك النظم، ومن الايقاع الخارجي للآيات، أي من تناسب الأصوات والمقاطع، ومن توازن الآيات وتناسب الفواصل.

وقد تناولت الدراسة كلا من هذه العناصر بشيء من التفصيل، فأوضحت قدر المستطاع كيف تتناسب الأصوات في النسيج الصوتي الداخلي للآيات، وبينت بشيء من الموضوعية كيف يتجنب النظم القرآني في تأليف الأصوات كل ما من شأنه أن يجعلها متنافرة أو ثقيلة، كما بينت أن المقاطع الصوتية تأتلف في هذا النظم بطرق متناسبة تستلذها الأسماع، وترتاح لها النفوس، وتجري على الألسنة بخفة ورشاقة. ومما يشهد لذلك أن ترتيب المقاطع الصوتية في الآيات القرآنية يوافق في بعض الأحيان ترتيبها في الأوزان الشعرية. ومعلوم أن الترتيبات المقطعية المتناسبة هي التي تطرب لها النفوس.

أما التناسب الايقاعي الذي ينبع من خارج الآيات، فيتجلى في التوازن وتناسب الفواصل. كما يتمثل في تقسيم الآيات الطويلة بالوقف إلى مقادير متناسبة، وقرائن متقاربة، وفي وضع تعقيبات مناسبة في ختامها، تمكن المعاني، وتحفظ جمال الايقاع ووحدته بصورة عادلة، تكشف عن روعة النظم القرآني وكماله.

هذا مجمل ما دارت عليه هذه الدراسة، وقد أظهر البحث في التناسب القرآني جملة من الملاحظات، أهمها :

1 ـ أن كل وجه من أوجه التناسب التي تناولتها الدراسة موضوع صالح لدارسة مستقلة تقوم على الاستقراء والتحليل والاستنتاج.

2 ـ أن بعض مظاهر الاعجاز والبلاغة القرآنية لم تدرس حتى الآن كالتعقيبات التي تجمع بين تمكين المعاني وحفظ جمال الايقاع.

3 ـ أن البحث كلما تعمق في تحليل النظم القرآني، كشف عن قصوره ونقصه، ونرى من الواجب أن تدرس كل سورة وتُحلَّل أساليبها ومعانيها وخصائصها الصوتية واللفظية والايقاعية دراسة لغوية وبيانية وجمالية.

إلى جانب هذه الملاحظات، استطاعت هذه الدراسة المتواضعة أن تصل إلى بعض النتائج التي يمكن اعتبارها جديدة في موضوعها. ومن تلك النتائج.

أولا : جمع ما تناثر من أطراف موضوع التناسب القرآني في دراسة واحدة، بعد أن كانت هذه الأطراف موزعة في عدد من فروع الدراسات القرآنية والبلاغية.

ثانيا : اقتراح تعميم مصطلح التناسب للتخلص من كثرة المصطلحات التي أرهقت كاهل هذه الدراسات.

ثالثا : استقراء بعض أوجه التناسب في النظم القرآني، مع بيان قيمتها البلاغية.

رابعا : بيان بعض الأسس التي تعين على تخليص البحث في إعجاز القرآن من الآثار السيئة للخصومة العريقة حول قضية اللفظ والمعنى، التي كانت وليدة خصومات مذهبية ودينية عميقة الجذور في الفكر الاسلامي.

خامسا : بيان ما يمتاز به القرآن من الجمع بين الوفاء بحق اللفظ والمعنى معا على حد المساواة، وهذا هو الذي ينهي الخصومة في هذه النقطة.

هذا، ولا أدعي أنني وفيت الموضوع حقه من البحث والدراسة كاملا، وإذا كنت قد قصرت في شيء منه، أو عجزت عن الوفاء بما يستوجبه من التمحيص والتحقيق، أو الاستقراء والتحليل، فعذري أنني بذلت غاية الجهد، ولم أدخر وسعا في التقصي والاسترشاد بأهل العلم. وأنني لم أجد الطريق ممهدا مطروقا، وأن النظم القرآني كمال مطلق، والجهد البشري قاصر عن كشف أسراره.

وأسأل الله أن ينفعني بهذا العمل، وأن يجعله مما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

فهرس المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم :

1) مصحف برواية الامام ورش ؛ عنيت بطبعه وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية المغربية مطبعة فضالة 1400هـ.

2) مصحف برواية الامام حفص ؛ خططه الشيخ الحاج زهير ناس مملوك، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ـ تونس، طبع بإيطاليا سنة 1983م.

3) مصحف برواية الامام حفص ؛ طبع بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

ـ الإبدال والمعاقبة والنظائر :

أبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي، تحقيق : عز الدين التنوخي، طبعة دمشق 1962.

ـ ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن :

د. عبد الفتاح لاشين ؛ ط.1، دار الرائد العربي، بيروت 1982.

ـ الاتقان في علوم القرآن :

جلال الدين السيوطي؛ المكتبة الثقافية، بيروت 1973.

ـ أدب الكاتب :

عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري ؛ محققه : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط.4، مطبعة السعادة بمصر 1963.

ـ الإحكام في أصول الأحكام :

الآمدي (سيف الدين أبو الحسن علي بن أبيّ علي)؛ المعارف بمصر 1914.

ـ أحكام القرآن :

ابن العربي (أربعة أجزاء)؛ تحقيق محمد علي البجاوي، ط.2، عيسى الحلبي 1967ـ1968.

ـ إحياء علوم الدين :

لأبي حامد الغزالي ؛ ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت 1968.

ـــ الأسس الجمالية في النقد العربي ـــ عرض وتفسير ومقارنة :
عز الدين اسماعيل، ط.1، دار الفكر العربي 1955.
ـــ الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية :
د. مجيد عبد الحميد ناصر ؛ ط. 1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت سنة 1984.
ـــ أسرار البلاغة :
عبد القاهر الجرجاني ؛ تحقيق : أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، سنة 1932.
ـــ أساس البلاغة :
محمود بن عمر الزمخشري ؛ ط. دار صادر، بيروت 1965.
ـــ أساليب الاستفهام في القرآن :
عبد العليم السيد فودة ؛ نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (بدون تاريخ).
ـــ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز :
عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الطباعة العامرة 1311هـ.
ـــ إصـــلاح المنطــق :
لابن السكيت ؛ تحقيق : أحمد محمد شاكر ـــ عبد السلام هارون، ط.2، دار المعارف بمصر 1956.
ـــ الأصول الفنية للأدب :
عبد الحميد حسين ؛ ط.2، 1964.
ـــ الأصوات اللغوية :
إبراهيم أنيس ؛ ط.5، مكتبة الأنجلو المصرية 1979.
ـــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية :
مصطفى صادق الرافعي ؛ ط.8، مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1965.
ـــ إعجاز القرآن :
أبو بكر الباقلاني ؛ تحقيق السيد أحمد صقر، ط. 5، دار المعارف بمصر 1954.
ـــ إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة :
منير سلطان ؛ منشأة المعارف بمصر 1977.
ـــ الإعجاز الفني في القرآن :
عمر السلاحي ؛ ط. تونس 1980.

ـــ الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية :
محمد السيد حسن مصطفى ؛ ط.1، مؤسسة شباب الجامعة 1981.
ـــ إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها :
عبد الكريم الخطيب ؛ ط.2، دار المعرفة، بيروت 1975.
ـــ إعجاز القرآن بين النظرية والتطبيق :
د. حمد محمد شرف ؛ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بمصر 1970.
ـــ الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء) :
خير الدين الزركلي ؛ ط.3، بيروت 1969.
ـــ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب :
لابن السيد البطليوسي، بيروت 1901.
ـــ أمالي السهيلي الأندلسي في النحو واللغة والحديث والفقه :
تحقيق : محمد إبراهيم البنا، مطبعة السعادة بمصر 1970.
ـــ الأمـــالـــي :
لأبي علي القالي ؛ دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. مصححة 1980.
ـــ الإمتاع والمؤانسة (جزءان) :
لأبي حيان التوحيدي ؛ صححه أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت (بدون تاريخ).
ـــ إملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن :
لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ؛ ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت 1979.
ـــ الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال :
لأحمد بن المنير ؛ على هامش الكشاف، طبعة طهران
ـــ الإيضاح في علوم البلاغة :
للخطيب القزويني ؛ ط. دار الكتب العلمية، بيروت 1985.
ـــ بـدائـع الفـوائـد :
لابن قيم الجوزية ؛ دار الكتاب العربي، بيروت (بدون تاريخ).
ـــ البـديـع :
عبد الله بن المعتز ؛ نشر وتعليق : إغناطوس كراتشفوفسكي، ط. 2، دار المسيرة 1979.
ـــ البديع في نقد الشعر :
لأسامة بن منقذ ؛ مطبوع بمصر (بدون تاريخ).

ـ بديع القرآن :
لابن أبي الأصبع المصري ؛ تقديم وتحقيق : حقني محمد شرف، ط.2، دار نهضة مصر.
ـ براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور :
محمد بدري عبد الجليل ؛ ط.2، المكتب الاسلامي، بيروت 1984.
ـ البرهان في توجيه متشابه القرآن :
لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني؛ تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت 1986.
ـ البرهان في ترتيب سور القرآن :
لأبي جعفر ابن الزبير الغرناطي، (نسخة مرقونة بدار الحديث الحسنية).
ـ البرهان في علوم القرآن :
لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق : أحمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت 1972.
ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز :
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ؛ تحقيق : محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، 1383هـ.
ـ بعض مظاهر التطور اللغوي (سلسلة الدراسات اللغوية[2]) :
د. التهامي الراجي الهاشمي ؛ دار النشر المغربية 1978.
ـ البلاغة الصوتية في القرآن الكريم :
د. محمد ابراهيم شادي؛ مكتبة الرسالة 1989.
ـ بلاغة العطف في القران (دراسة أسلوبية) :
دار النهضة العربية، بيروت 1981.
ـ البيان والتبيين (4 أجزاء) :
لأبي عثمان عمرو الجاحظ ؛ تحقيق : عبد السلام هارون، ط.4، بيروت 1948.
ـ بيان إعجاز القرآن :
حمد بن محمد الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ؛ تحقيق وتعليق : محمد خلف الله ـ محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر (بدون تاريخ).
ـ تاريخ الرسل والملوك :
محمد بن جرير الطبري ؛ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم، ط.4، دار المعارف، القاهرة 1979.

ـــ تاريخ آداب العرب :
مصطفى صادق الرافعي ؛ ط.2، دار الكتاب، بيروت 1974.
ـــ تأملات في سورة الإسراء :
د. حسن محمد باجودة ؛ دار الاعتصام، مكة المكرمة 1395هـ.
ـــ تأملات في سورة الحاقة :
د. حسن محمد باجودة ؛ دار بوسلامة، تونس 1397هـ.
ـــ تأملات في سورة الفاتحة :
د. حسن محمد باجودة ؛ ط.3، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1984م.
ـــ تأملات في سورة العاديات :
د. حسن محمد باجودة ؛ دار بوسلامة، تونس 1396هـ.
ـــ تأملات في سورة يس :
د. حسن محمد باجودة ؛ دار بوسلامة، تونس 1394هـ.
ـــ تأويل مشكل القرآن :
لأبي محمد مسلم بن قتيبة ؛ شرحه ونشره : أحمد صقر، ط.2، المكتبة العلمية 1981.
ـــ التبيان في علوم القرآن :
محمد علي الصابوني ؛ ط.2، 1980.
ـــ التبيان في عد آي القرآن :
لأبي عمر عثمان بن سعيد الداني ؛ مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم : 11336ز.
ـــ التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن :
أبو المكارم عبد الواحد الزملكاني ؛ تحقيق : أحمد مطلوب ـــ خديجة الحديثي، بغداد 1964.
ـــ التحرير والتنوير (تفسير) :
لمحمد الطاهر بن عاشور؛ ط.1، مطبعة عيسى البابي الحلبي 1964
ـــ تحرير التحبير :
لابن أبي الأصبع المصري ؛ تحقيق : حفني محمد شرف، ط. القاهرة 1963.
ـــ الترادف في اللغة :
حاكم مالك الزيادي (سلسلة دراسات) ؛ العراق 1980.
ـــ التصوير البياني :
د. محمد أبو موسى ؛ ط.2، دار التضامن للطباعة، القاهرة 1980.

ـ التصوير الفني في القرآن :
سيد قطب ؛ دار الشروق، ط. الشرعية الخامسة 1979.

ـ التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن :
عودة خليل أبو عوده ؛ ط.1، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن 1985.

ـ التعبير الفني في القرآن :
د. بكري شيخ أمين ؛ ط.3، دار الشرق 1976.

ـ التعريفات :
السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ؛ مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1938.

ـ تلخيص البيان في إعجاز القرآن :
الشريف الرضي ؛ دار المعارف، بغداد 1955.

ـ تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطإ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين :
أبو الحسن علي بن محمد النور الصفاقسي ؛ طبع بتونس سنة 1974.

ـ التغني بالقرآن (بحث فقهي تاريخي) :
لبيب سعيد ؛ سلسلة المكتبة الثقافية 1976.

ـ تفسير البحر المحيط :
لأبي حيان الأندلسي؛ ط. 2، دار القلم 1983.

ـ تفسير القرآن العظيم :
ابن كثير الحافظ اسماعيل بن عمر ؛ طبعة الشعب.

ـ تناسق الدرر في تناسب السور :
لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ؛ دراسة وتحقيق : أحمد عطا، ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت 1986.

ـ التوجيه الأدبي :
طه حسين وأحمد أمين وآخرين ؛ المطبعة الأميرية بالقاهرة 1952.

ـ التيسير في القراءات السبع :
عثمان بن سعيد الراضي، اسطانبول، مطبعة الدولة 1930.

ـ الثنائيات اللسانية (سلسلة الدراسات اللغوية) :
د. التهامي الراجي الهاشمي ؛ دار النشر المغربية 1981.

ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن :
تحقيق وتعليق : محمد خلف الله ـ ومحمد زغلول سلام ؛ ط. دار المعارف بمصر (بدون تاريخ).

ـــ جامع البيان في تفسير القرآن :
محمد بن جرير الطبري ؛ ط.1، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق 1905.

ـــ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور :
ضياء الدين بن الأثير ؛ تحقيق : د. مصطفى جواد ـــ د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1965.

ـــ جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب :
د. ماهر مهدي هلال ؛ دار الرشيد للنشر، العراق 1980.

ـــ جماليات الفنون (سلسلة الموسوعة الصغيرة) :
د. كمال عيد ؛ دار الجاحظ للنشر، بغداد 1980.

ـــ الجمع الصوتي للقرآن أو المصحف المرتل .
د. لبيب سعيد ؛ ط.2، دار المعارف (بدون تاريخ).

ـــ جواهر البيان في تناسب سور القرآن :
لأبي الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري ؛ مكتبة القاهرة (بدون تاريخ).

ـــ جواهر الألفاظ :
قدامة بن جعفر ؛ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر 1932.

ـــ جواهر القرآن :
أبو حامد الغزالي ؛ ط.1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1973.

ـــ حاشية الشريف الجرجاني على الكشاف :
للزمخشري ؛ ط. طهران (بدون تاريخ).

ـــ حجج النبوة :
رسالة لأبي عمرو الجاحظ (رسائل الجاحظ) ؛ جمع وتحقيق : حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية 1933.

ـــ حجة القراءات :
لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة ؛ تحقيق وتعليق : سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط.1984/4.

ـــ الحجة في علل القراءات السبع :
لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي ؛ تحقيق : علي النجيدي ناصف ـــ د. عبد الحليم النجار ـــ د. عبد الفتاح شلبي، ومراجعة : محمد علي النجار : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983.

ـ الحجة في القراءات السبع :
منسوب لابن خالويه ؛ تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم، ط.1979/3.

ـ حسن التوسل إلى نهاية الترسل :
لشهاب الدين أبي الثناء الحلبي ؛ ط. مصر 1298هـ.

ـ الخصائص :
لأبي الفتح عثمان بن جني ؛ تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952.

ـ خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني).
د. محمد أبو موسى ؛ ط.2، دار التضامن للطباعة 1980.

ـ خزانة الأدب :
لابن حجة الحموي ؛ مصر 1204هـ.

ـ خزانة الأدب :
للبغدادي، ط. مصر 1299هـ.

ـ دراسة الصوت اللغوي :
د. أحمد مختار ؛ توزيع عالم الكتب، القاهرة 1976.

ـ دراسة أدبية لنصوص قرآنية :
محمد المبارك ؛ دار الفكر، ط.1973/4.

ـ دراسة لأسلوب القرآن الكريم :
محمد عبد الخالق عضيمة ؛ القسم الثاني : مطبعة السعادة، مصر (بدون تاريخ)، القسم الثالث : مطبعة حسان، القاهرة (بدون تاريخ).

ـ دراسات في القرآن :
د. السيد أحمد خليل ؛ دار النهضة العربية 1969.

ـ دراسات في فقه اللغة :
د. صبحي الصالح ؛ ط.2، المكتبة الأهلية، بيروت.

ـ درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز :
الخطيب الاسكافي ؛ ط.1 دار الآفاق الجديدة، بيروت 1973.

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة :
ابن حجر العسقلاني ؛ ط. حيدر آباد 1350هـ.

ـ دلائل الإعجاز :
عبد القاهر الجرجاني ؛ تحقيق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة 1984.

ـــ دلائل الإعجاز في علم المعاني :
عبد القاهر الجرجاني ؛ تصحيح : الشيخ محمد عبده، مكتبة القاهرة 1961.
ـــ دلالة الألفاظ :
د. ابراهيم أنيس ؛ ط.2، مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ).
ـــ دور الكلمة في اللغة :
ستيفن أولمان ؛ ترجمة : د. كمال أبو ديب، ط.1، مكتبة الشباب بالمنيرة 1962.
ـــ ديوان علقمة الفحل :
المطبعة المحمودية، 1297هـ.
ـــ الرسالة الشافية :
عبد القاهر الجرجاني، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ؛ جمع وتعليق : محمد خلف الله ـــ محمد زغلول سلام، ط. دار المعارف بمصر 1968. (سلسلة ذخائر العرب).
ـــ رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء :
ط. دار صادر، بيروت 1957.
ـــ رسائل البلاغة للمبرد
تحقيق د. رمضان عبد التواب، ط. 1، دار العروبة 1965.
ـــ رسائل الجاحظ، جمع حسن السندوبي :
المطبعة الرحمانية 1933.
ـــ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة :
أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي ؛ تحقيق : أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، دمشق 1973.
ـــ روح المعاني، للألوسي
تحقيق : زهري النجار، القاهرة 1964.
ـــ الروض المريع في صناعة البديع :
ابن البناء المراكشي ؛ تحقيق رضوان بنشقرون، ط. دار النشر المغربية 1985.
ـــ سر صناعة الاعراب :
صنعه أبو الفتح عثمان بن جني ؛ تحقيق : جماعة من الأساتذة. ط.1، مطبعة البابي الحلبي 1954.
ـــ سر الفصاحة :
الأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي ؛ دار الكتب العلمية، بيروت 1982.

ـــ سراج القارىء المبتدىء وتذكار المقرىء المنتهي :
شرح منظومة حرز الأماني في وجه التهامي، لأبي القاسم الشاطبي، المعروفة بالشاطبية ؛
راجعه : الشيخ علي الضباع، دار الفكر 1981.
ـــ السيرة النبوية :
لابن هشام ؛ تحقيق : مصطفى السقا وآخرون، ط.1955/2.
ـــ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها :
أحمد بن فارس ؛ تحقيق : د. مصطفى الشويمي، بيروت 1964.
ـــ صحيح البخاري :
مطبعة مصطفى البابي الحلبي 1377هـ.
ـــ صحيح مسلم :
مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده بمصر.
ـــ صفوة التفاسير :
محمد علي الصابوني ؛ ط. 4، دار القرآن الكريم، بيروت 1981.
ـــ الصناعتين : الكتابة والشعر :
تصنيف : أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري،
تحقيق : علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، ط.2، ط. عيسى البابي الحلبي 1971.
ـــ صور البديع ـــ فن الاسجاع :
علي الجندي ؛ مطبعة دار الجامعة، مصر (بدون تاريخ).
ـــ ضحى الإسلام (في ثلاثة أجزاء) :
أحمد أمين ؛ مكتبة النهضة المصرية، ط.1933/7 ـــ 1936.
ـــ الضرورة الشعرية (دراسة أسلوبية) :
السيد إبراهيم محمد ؛ ط.1، دار الأندلس 1979.
ـــ ظاهرة التكرار في القرآن :
د. عبد المنعم السيد حسن، ط.1، دار المطبوعات الدولية بمصر 1980.
ـــ الظاهرة الجمالية في الإسلام :
صالح أحمد الشامي؛ ط.1، المكتب الاسلامي 1986.
ـــ الظاهرة القرآنية :
مالك بن نبي، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر (بدون تاريخ).
ـــ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز :
لحمزة بن يحيى العلوي ؛ طبعة مصر، 1914.

ـ عجائب القرآن :
فخر الدين محمد بن عمر الرازي ؛ ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت 1984.
ـ العربية : دراسة في اللغة واللهجات والأسلوب :
يوهان فك ؛ ترجمة : عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي بمصر1951.
ـ عروس الأفراح، لبهاء الدين السبكي :
من شروح تلخيص المفتاح، ص/2 القاهرة 1342هـ.
ـ علم العربية :
د. علي عبد الواحد وافي ؛ ط.2، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (بدون تاريخ).
ـ علم الأديان وبنية الفكر الديني في الإسلام :
المستشرق هاملتون جب، تعريب : عادل عودة، (سلسلة زدني علما) ؛ بيروت ـ باريس ـ دمشق 1976.
ـ علم اللغة المبرمج (الأصوات والنظام الصوتي مطبقا على اللغة العربية)
د. كمال ابراهيم كمال ؛ جامعة الملك سعود، الرياض 1402هـ.
ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده :
أبو علي بن الحسن بن رشيق ؛ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. 4، دار الجيل 1972.
ـ عيار الشعر :
ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوي ؛ تحقيق : طه الحاجري ـ محمد زغلول سلام، القاهرة 1956.
ـ العيـــن :
الخليل بن أحمد الفراهيدي ؛ تحقيق : د. عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد 1967.
ـ الغريب في مفردات القرآن :
أبو القاسم الحسن بن محمد الراغب الاصفهاني؛ تحقيق : محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت (بدون تاريخ).
ـ الفاصلة في القرآن الكريم :
ذ. محمد الحسناوي ؛ ط.1، طبعة دار الأصيل، حلب/سوريا 1977.
ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :
للشوكاني ؛ ط.1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر 1350هـ.

ـ فجر الإسلام :
أحمد أمين، ط. 10، مكتبة النهضة المصرية 1965.

ـ الفصاحة ـ مفهومها ـ وبم تتحقق، قيمها الجمالية : حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت. الحولية السادسة 1985.

ـ فقه اللغة وخصائص العربية :
محمد المبارك ؛ ط. 3 دار الفكر، بيروت 1968.

ـ فلسفة ابن رشد :
كتاب يحتوي على كتابي فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة ؛ ط. 2 دار العلم للجميع 1935.

ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان :
ابن القيم الجوزية ؛ دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ).

ـ في علوم القرآن : (دراسات ومحاضرات)
د. محمد عبد السلام كفافي ـ ذ. عبد الله الشريف، دار النهضة العربية، بيروت 1977.

ـ في الميزان الجديد :
د. محمد مندور ؛ ط. 3، مطبعة نهضة مصر (بدون تاريخ).

ـ في ظلال القرآن :
سيد قطب ؛ ط. 5، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1967.

ـ في اللهجات العربية :
د. إبراهيم أنيس ؛ القاهرة 1952.

ـ فيض الفتاح على نور الاقاح :
للفقيه سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي الشنقيطي ؛ طبعة حجرية بفاس 1329هـ.

ـ القاموس المحيط :
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ؛ المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت (ب. ت).

ـ قاموس ألفاظ القرآن :
أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم :
الحسن بن محمد الدامغاني ؛ تحقيق وترتيب وتكملة : عبد العزيز سيد الأهل، ط.3 دار العلم للملايين، بيروت 1980.

ـــ كتاب الزينة في الكلمات الاسلامية :
أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي ؛ القاهرة 1957.
ـــ الكتاب : كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان :
تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ؛ دار العلم 1966.
ـــ كتاب النبوات :
شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ؛ دار الفكر، بيروت 1346هـ.
ـــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :
لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، طبعة طهران (دون تاريخ).
ـــ كشف المعاني عن متشابه المثاني :
بدر الدين بن جماعة ؛ مخطوط مرقون، نسخة شخصية.
ـــ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها :
مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق : د. محيي الدين رمضان، ط. 2، مؤسسة الرسالة 1984.
ـــ لسان العرب :
لأبي الفضل جمال الدين بن محمد بن منظور الافريقي، ط. 1، دار صادر، بيروت 1300هـ.
ـــ لغة القرآن في جزء عم :
د. محمود أحمد نحلة ؛ دار النهضة العربية، بيروت 1981.
ـــ اللغة الشاعرة ـــ مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية :
عباس محمود العقاد ؛ مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر (دون تاريخ).
ـــ اللهجات العربية في التراث :
القسم الأول في النظامين الصوتي والصرفي :
د. أحمد علم الدين الجندي ؛ الدار العربية للكتاب والنشر، ليبيا ـــ تونس 1978.
ـــ مباحث في علوم القرآن :
مناع القطان ؛ ط. 7، مؤسسة الرسالة 1980.
ـــ مباحث في علوم القرآن :
د. صبحي الصالح ؛ ط.12، دار العلم للملايين، بيروت 1981.
ـــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :
ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق : أحمد الحوفي ـــ د. بدوي طبانة، ط.1، مكتبة نهضة مصر 1962.

ـ مجمع الأمثال للميداني :
تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ح. 1، ج. 2، ط. 2 القاهرة 1352هـ.
ـ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها :
أبي الفتح عثمان بن جني ؛ تحقيق : علي النجدي ناصف وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1386هـ.
ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز :
محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ؛ عنيت بطبعه وزارة الأوقاف المغربية.
ـ المجازات النبوية :
الشريف الرضي؛ تحقيق : د. طه محمد الزيني ؛ مؤسسة الحلبي 1967.
ـ مختصر تفسير ابن كثير :
اختصار وتحقيق : محمد علي الصابوني ؛ دار القرآن الكريم، بيروت 1981.
ـ مدخل إلى علوم القرآن والتفسير :
د. فاروق حمادة ؛ ط.1، مكتبة المعارف، الرباط 1979.
ـ مراجعات في الآداب والفنون :
عباس محمود العقاد ؛ ط.1، دار الكتاب العربي، بيروت 1966.
ـ المرشد إلى فهم أشعار العرب :
د. عبد الله الطيب المجذوب ؛ دار الفكر، 1969.
ـ مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن :
عبد الرزاق علي ابراهيم موسى ؛ المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت 1989.
ـ المزهر في علوم اللغة :
عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ؛ دار إحياء الكتب العربية، (دون تاريخ).
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل :
ط.1، المطبعة الميمنية، القاهرة 1895م.
ـ المستصفى من علم الأصول :
أبو حامد الغزالي ؛ تحقيق وتعليق : الشيخ مصطفى أبو العلا، المكتبة الجديدة 1971.
ـ مشاهد القيامة في القرآن :
سيد قطب ؛ دار الشروق، (بدون تاريخ).
ـ مصطلحات بلاغية :
د. أحمد مطلوب، ط. 1، بغداد 1972.

ـ مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين :

ذ. الشاهد البوشيخي ؛ ط.1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1979.

ـ مطالعات في الكتب والحياة :

عباس محمود العقاد ؛ ط.3، دار الكتاب العربي 1966.

ـ معاني القرآن :

أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ؛ تحقيق : محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، ط. 1، دار الكتب المصرية 1955.

ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن :

جلال الدين السيوطي ؛ تحقيق : علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي (بدون تاريخ).

ـ معجزة القرآن :

الشيخ محمد متولي الشعراوي، (سلسلة كتاب اليوم، ع : 187 ـ 1981).

ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم :

محمد فؤاد عبد الباقي، دار القلم، بيروت (بدون تاريخ).

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب :

أبو محمد جمال الدين بن هشام الأنصاري ؛ تحقيق وضبط : محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة (بدون تاريخ).

ـ مفتاح العلوم :

أبو يعقوب السكاكي ؛ ط.1، مطبعة مصطفى البابي (بدون تاريخ).

ـ المقابسات :

أبو حيان التوحيدي ؛ تحقيق : محمد توفيق حسن، مطبعة الارشاد، بغداد 1970.

ـ المقتضب (أربعة أجزاء)

المبرد محمد بن يزيد ؛ تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1965.

ـ مقدمة ابن خلدون :

دار إحياء التراث العربي، بيروت (بدون تاريخ).

ـ مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن :

أحمد أبو زيد ؛ دار الأمان، الرباط 1989.

ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل :

أحمد بن ابراهيم بن الزبير الغرناطي ؛ تحقيق : سعد الفلاح، ط. 1. دار الغرب الاسلامي 1983.

ــ المكتفى في الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل :
أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ؛ دراسة وتحقيق : يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط. 2، مؤسسة الرسالة 1987.
ــ من أساليب القرآن :
د. ابراهيم السامرائي؛ ط.1، مؤسسة الرسالة ــ دار لقمان 1983.
ــ من أسرار العربية :
د. إبراهيم أنيس ؛ لجنة البيان العربي، القاهرة (بدون تاريخ).
ــ من أسرار التعبير في القرآن : (حروف المعاني) د. عبد الفتاح لاشين، ط. 1 مكتبات عكاظ 1983.
ــ مناهل العرفان في علوم القرآن :
الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ؛ ط.3، دار إحياء الكتب العربية (بدون تاريخ).
ــ من بدائع لغة التنزيل :
د. ابراهيم السامرائي ؛ ط.1، مؤسسة الرسالة ــ دار لقمان 1984.
ــ من بلاغة القرآن :
أحمد أحمد بدوي ؛ دار نهضة مصر 1950.
ــ المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن :
أحمد أبو زيد ؛ ط.1، مكتبة المعارف الجديدة، الرباط 1986.
ــ المنزع البديع في أساليب البديع :
أبو محمد السجلماسي ؛ تحقيق : د. علال الغازي، ط.1 مكتبة المعارف، الرباط 1980.
ــ من روائع القرآن :
د. محمد سعيد رضمان البوطي، ط. 5، مكتبة الفارابي 1977.
ــ منهاج البلغاء وسراج الأدباء :
حازم القرطاجني ؛ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط.3، دار الغرب الاسلامي 1986.
ــ منهج الفن الاسلامي :
محمد قطب ؛ ط. 6، دار الشروق 1983.
ــ المنهج الصوتي للبنية العربية : رؤية جديدة في الصرف العربي
د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة 1980.

ـ موسيقى الشعر العربي ـ مشروع دراسة علمية :
د. شكري محمد عياد، ط. 6 دار المعرفة، القاهرة.

ـ موسيقى الشعر :
د. ابراهيم أنيس ؛ ط.3، مكتبة الأنجلو المصرية 1965.

ـ النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن الكريم
محمد عبد الله دراز ؛ دار القلم، الكويت 1984.

ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجري :
لزكي مبارك، ط. 4، القاهرة 1934م.

ـ النشر في القراءات العشر :
الحافظ أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري ؛ تصحيح علي محمد الضباع، مطبعة مصطفى محمد بمصر (بدون تاريخ).

ـ نظرية إيقاع الشعر العربي :
محمد العياشي ؛ المطبعة العصرية، تونس 1976.

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :
برهان الدين البقاعي ؛ عني بطبعه : مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند 1969.

ـ نقـد الشعـر :
أبو الفرج قدامة بن جعفر ؛ تحقيق كمال مصطفى ؛ مكتبة الخانجي بمصر ـ مكتبة المثنى ببغداد 1963.

ـ النقد الأدبي الحديث :
د. محمد غيمي هلال ؛ ط.4، دار النهضة العربية 1969.

ـ النقد الأدبي، أصوله ومناهجه :
سيد قطب ؛ ط. 4، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت 1966.

ـ النقد الجمالي وأثره في النقد العربي :
روز غريب، ط. 1، دار العلم للملايين، بيروت 1952.

ـ النكت في إعجاز القرآن :
أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ؛ ضمن كتاب : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، جمع وتعليق : محمد خلف الله ـ محمد زغلول سلام، ط.2، دار المعارف بمصر 1968 (سلسلة ذخائر العرب).

ـــ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز :
فخر الدين الرازي؛ تحقيق وتقديم : د. ابراهيم السامرائي ـــ محمد بركات حمدي دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1985.
ـــ نهاية الأرب في فنون الأدب :
شهاب الدين النووي ؛ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة (ب. ت).
ـــ وجوه من الإعجاز الموسيقى في القرآن :
د. محيي الدين رمضان، ط.1 دار الفرقان، عمان، الأردن 1982.
ـــ وفيات الأعيان :
لأبي العباس أحمد ابن خلكان، تحقيق : د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1968ـــ1972.

المجـــلات :

ـــ مجلة التراث العربي
تصدر عن اتحاد كتاب العرب ـــ دمشق. الأعداد : 15ـــ16ـــ17، سنة 1984.
ـــ مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية السعودية.
عدد : 2 السنة 1397هـ.
ـــ مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.
العدد 3، السنة 1396/9هـ.
ـــ المجلة العربية للعلوم الانسانية
العدد 36، المجلد التاسع : 1989.

المحتويات

الباب الثاني
تناسب المعاني المتقابلة

الباب الثالث
التناسب ووحدة النسق

القسم الثاني : التناسب اللفظي والإيقاعي

البــاب الرابــع

قيمة التناسب الصوتي والإيقاعي في العربية والقرآن

البــاب الخامــس

التناســب اللفظــي

البــاب الســادس

التناسب الصوتي والإيقاعي

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء